

BOBST LIBRARY



3 1142 02889 0484



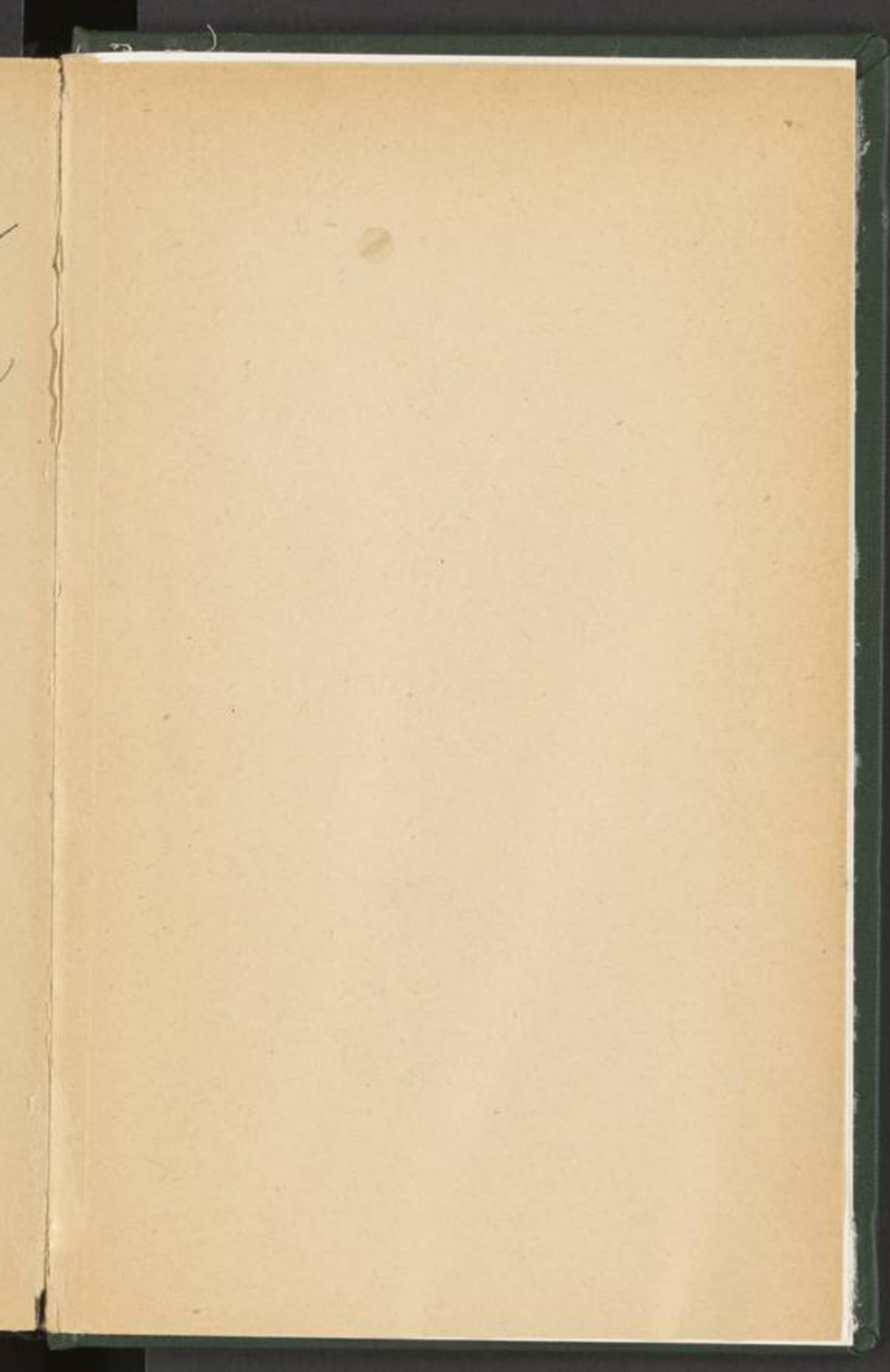
**Elmer Holmes  
Bobst Library**

**New York  
University**





انتقام الخيزران



6624

$\frac{1}{3}$   
55

Karam, Karam Milhim.

كرام ملحم كرام

*Intigām al-khayzurān*

# انتقام الخيزران

قصة وتاريخ



مكتبة صادر  
بيروت

PJ  
7842  
.A68  
I5  
1954  
C.1

الحقوق محفوظة للمؤلف

١٩٥٣/١٤٥

MAY 02 1985



## الفصل الاول

قاتل ابيه

١

في القلوات العبر الشواسع ، المترامية كاجنحة الصقور عن بغداد القشبية ،  
المهيبة ، ذات المآذن والقباب - ولم يكذب ابو جعفر المنصور يطلقها من صدرها  
كاعباً غيداء - ثلثة من الفرسان تنطلق خبيباً ، وسهام اقواسها مشدودة  
بالاوتار ، كأنها تندفع الى معركة . وهي تثب الى معركة . الا انها ليست  
منازلة اقوام لاقوام ، بل اغارة على اليعاقير والآرام

وعرض للركب سرب من الغزلان والشوادن ، فتبعوه ، ونباهم تطاير  
برنين . وجيادهم تعدو بمحمة وصهيل . وتفرقوا عفواً ، وكلهم يهيم بالفوز  
بطريدته . واوغلت الظباء في ادغال الفرات ، وعز على الجياد ان تقتفيها ،  
فوثب عنها الفرسان ييقونها حيث نباها الوعر ، ويمعنون في العداء ، وبغيتهم  
الرمايا . وما صحوا من حمى المصاولة ، بعد طويل جهاد ، وقد ظفر بعضهم  
بالطرائد ، والتوى عنها الآخر ، حتى بحث صاحب عن صاحبه ، فاذا بهم  
اشتات ، ابايد

٥

وما هالهم الانتثار ، وقد تعودوه . ولجّ باحدهم الجوع فكادت قواه  
تخونه . واختلجت عينه بمراًى كدرة سوداء ، في منبطح الرمل ، فزحف  
اليها على ريث تعلقة ، وهو يحسبها خيمة يقع فيها على طعام وشراب . ونهكه  
الجهد . الا انه انتعش وقد صدق تخمينه . اجل ، هي خيمة ثابتة في الاغبر  
اليبيس . واستنزف فضالة الوسع . ودنا على متلاشي الرمتق من الجباء . وما  
تفتحت ، الا بعد لأي ، شفتاه لليبان . فاستفهم مكدوداً : ابن اهل الحمى ؟

فبرز له اعرايي جلف ، بادي الاطمار ، مستوسل الشعر . يكاد وجهه يغيب  
في غداثره ، وحاجبيه ، وساربيه ، ولحيته . ولاح له المستقيث في لثائه ،  
وهزيل نامته ، فحدجه بعينين تفرزان فيه حتى صميه . وقال بصوت لا  
يتنكر للرحمة : إيه ، يا ابن اخي . ما دهاك من محنة فلجأت الينا ؟

فقال المستجير ، و اشاراته تسبق في الايضاح لسانه المرئخي : طلبت  
وصحي الصيد ، فتقاذفتنا المجاهل في معامبها ، فغاب بعضنا عن بعض . هل  
لك بشرية ، وبكسرة ، فأبلّ ريقى ، واقهر جوعي ؟

فنظر اليه الاعرايي وراعه منه حسن المنظر . ليس في المضرب الخاوي  
ما ينصر المستنجد النبيل الجهارة . على ان فرض الضياقة لا ينكس له في  
وسعة العرب جبين . فقال الاعرايي معتذراً : اراك سيداً اثيراً ، وليس في  
هذا البيت من الور ما يجمل بي ان ادعو اليه نظيرك . على انك اذا احتملت  
قربنا فلك ما يحضرنا !

فهنف عجلان : هات ما عندك . فان ما بي ليجد في قطرة الماء بجرأ طامباً !  
فاخرج له الاعرايي مقداراً من التبيد في ركوة ، وهو يدعوه الى استظلال  
الجباء . وصبّ له كأساً ، ولنفسه كأساً . فهفا الضيف الى الكأس بمهزة من

مستفعل الشوق . وجرع الحمرة بشراة الهيوف . نجا من كابس العياء .  
وحدق الى الاعرابي يقول ببسمة الراضي ، المطلق الى حسن الصنيع :  
شكراً . انك لرحيب المنة !

• فقال الاعرابي ، وقد شافته في ضيفه انافة الملبس ، وفخامة المنطق :  
ولكن من انت ؟ ... فدتك نفسي !

فابتسم المستمع بالعصير المحيي ، وقال يداعب الاعرابي ، الناظر اليه  
بليكة من يحاول النفاذ الى السر ، وتقعده به عن طلبته لعنة من خجل :  
هل لك ان تدري من انا ؟

فرانت على الاعرابي بسمة غارت في لفائف شاربيه ولحيته . وقال بجيرة  
الجاهل العابت بلبه الفضول : لا ، والله !

فقال الضيف : انا من خدم الحاصة في حاشية امير المؤمنين !  
فهتف الاعرابي متحمساً : ألا مرحباً ، مرحباً . كلنا فدى ابي عبد الله ،  
سيدنا وحامينا . اليك بكأس ثانية ترطب بها حلقك ، يا ابن اخي !

وعكف على الركوة يصب لنفسه كأساً وخدام امير المؤمنين كأساً .  
فان للقباض على الامر في دنيا العرب حق الاكرام . وما الخادم سوى ظل  
السيد ، وفيه من مولاه متألق الاثر . وشرب الخادم ، وتلمظ ، كأنه يضمن  
بقطرة ان تذهب سدى . واستلذ المضي في احراج الاعرابي ، فاستطلعته  
متخابئاً : لا اراك تدري من اكون ، يا وسيع الفناء !

فالتفت اليه الاعرابي ببعض الدهش ، واعلن : ولكنك ذكرت أنك  
من خدم الحاصة في حاشية امير المؤمنين . فهل تكون تبدلت عما أذعت ؟  
فتناهت الابتسامة إغرافاً في المباشطة ، وقال الغريب المجهول : لست

من حدثتك عنه !

فاستوضح الاعرابي بقلقى : إذن من تكون ؟ ... نصرتك القدرة !

— انا احد القادة في جيش امير المؤمنين !

فسرّي عن الاعرابي . وتعاضم فيه الترحيب بضيفه : ألا نعم الفتي .

انت رب المكان . هل لك في كأس اخرى ؟

ودفع اليه الثالثة . فشرها الضيف وقد اتسعت فيه البهجة ، واستعاد

قواه ، فسأل : يا اعرابي ، أتدري من انا ؟

فكاد الاعرابي يقسم بالله ثلاثاً انه حيال سكران . واجاب بنفرة : نعم ،

انت احد قادة امير المؤمنين !

وتأجج فيه حينئذ الى الجدل . فما هذا المتكلم بالسليم النبهة ، وكأس

من الحمر تلوي فيه الرشد . فقال الضيف ينفي باستكبار مبطن بندي

الممازحة ما اعلن : لا ، لست من اوضحت !

فصاح به الاعرابي ناقماً : اذن من انت ؟ ... لا ابا لايبك . أفلا يحتمل

صوابك ترفة من خمر ؟

فاجاب بدلال المستعز ، الراغب في الانفجار ضحكاً ، والمسك عنه

مغالة في المعابنة : انا امير المؤمنين نفسه ، ابو عبد الله محمد المهدي !

ففتح الاعرابي فاه ، واستدارت عيناه . لم يبق لديه شك في ان جليسه

نشوان . فالحمرة اضاعت له ، وجنحت به الى الهذيان . واتي عليه المزيد ،

فأمسك بالركوة فوكاها . فتعجب من امره ضيفه ، بل شاقته في الاعرابي

بادرة الغيظ ، وقال مستبحاً : ولكن ما بك تمتع عنا قراك ؟ ... إسقنا !

فهدر الاعرابي غاضباً : لا والله ، لن ترشف منها حسوة !

- ولمّ؟ ... ضللت الهدية!

- سقيتك الاولى، فزعمت انك من خدم الخاصة. فاحتملتها لك.  
وسقيتك الثانية، فادعت انك من قادة امير المؤمنين. فقلت: «لا عليه!».  
وسقيتك الثالثة، فراقك ان تسو الى منصب الخلافة. واخاف ان اسقيك  
الرابعة، فتدعي النبوة. ولا شك، اذا رشت الخامسة، ان اسمعي انك  
الله، جلّ جلاله. لا، يا ابن اخي، لتبقّ من ابناء التراب!

فضحك الضيف حتى لم يكن يتمالك لفرط الطرب. وما هي الا هنيهات  
حتى اطلت الخيل، وقد اهتدى الراكب الى التائه. وانحدر اليه القوم ينحنون  
بين يديه اجلالاً هاتفين: «الحمد لله، وقد وفقنا للقائك، يا امير المؤمنين.  
اقلقنا البوادي ونحن نستبحثها عنك، وكدنا نكون من امرك على هلع!».  
فطار قلب الاعرابي، وافلتت منه الهمة، وقد ايقن ان ضيفه لم يكن هازلاً  
في دعوى الخلافة. وشاء المنكود الهرب مخافة نعمة امير المؤمنين، فقعدت به  
ركبته. ونظر اليه في بجرانه المهدي، فقال ببسمة حفيّة، يزيل بها عن الحشيان  
الجزع: أفرخ روعك. ضيافتك الميمونة غفرت لك كفرانك المقيت بنا!  
وامر له بصلة وبكسوة. فقال الاعرابي، وقد ملك جأشه، واستأنس  
بطول أناة الخليفة: اشهد انك صادق في الثالثة. اما في الرابعة والخامسة،  
فلو شربتهما لعدوت الحلم!

فأوشك المهدي ان يبوي عن متن جواده لفرط القهقهة. وجهر، وقد  
استعذب المفاكهة: انت بعد اليوم من خدمي، فاتبعني. فيك من وضاعة  
الظرف ما تعذب به لدي!

واردده بالركب. فران الدهول على الاعرابي، واتسعت في صدره البهجة.

انه ليومٌ أغرّ محجّل . والاعرابي سمع بهذا الخليفة الشاب . فالرواة تناقلوا  
بحامده . والحدادة تغنوا بمدائحهم . فالعهد الرابع انجابت غمائه بموت ابي جعفر  
المنصور . وصفت اكداره ، وقد اطلّ الابن ، محمد المهدي ، على الدولة العباسية  
الناشئة يتولى امرها ، ويسدد خطاها . فالعبوس الطاغبي على الاساري ،  
والذعر المسك بالدم في العروق ، حتى لم يكن للانفاس ان تبلغ مداها ،  
طويًا بساطهما ، واثرت الوجوه بعد هول وكمدة . فالابن لم يكن من  
طينة الاب الجبّير ، المتحكّم في مصير الامة العربية اثنتين وعشرين سنة ،  
لم تقوَ فيها الشفاه على همسة تطعن بها على الرابع بدست الحكم عنيداً ، قهّاراً  
ولم يكن الدرهم منفذ من قبضة ابي جعفر ، وقد لقي ، حتى الدائق ،  
في بيت مال الخليفة مدفنه . فانتهدت اموال الدولة سيولاً دوافق الى صناديق  
السيد العاقي ، مما لم يكن به لبيت المال العربي سابق عهد . فلا المعني نعم  
بالعطاء ، ولا المزدلف هنيء بالرفد . على ان المهدي ، الابن ، اقام هذا المؤزود  
من رسمه ، وسخا به على الناس حتى كاد يفرقهم في المناعم . فانطلقت  
افواه الشعراء في طيب القول وخبيثه . وما كانت لتهدأ لولا ان يستعين  
عليها ابو عبد الله بجيلة تحفت الصرخة في صدر المتجاسر ، الموتور . فاتهم خصومه  
والمتوقّحين عليه بالزندقة . واطاح منهم العدد الجمّ ، حتى كاد يعادل في  
التكبير بالارواح اياه الرهيب

على ان تهمة الزندقة ، مع هولها ، لم تطبع العهد الناشئ بطابع الوهلة ،  
شأن الخشونة المأثورة عن الاب . فالجود المبسوط في المهدي ، ورحابة الفناء  
البادية في مجالسه ، اناما المواجهس والحفاظ ، وقد هرع القوم الى المعين  
الغمر ينهلون منه الافاويق

وتوفر على شؤون الدولة رجل داهية في خطب المودات، وتدبير الامور .  
فاستشاره المهدي في الاحاجي الطارئة ، والمصاعب العارضة، ولقي فيه رأياً  
ناضجاً ، وعقلاً حكيماً . هذا يحيى بن خالد البرمكي . استوزر اياه ابو  
العباس السفاح ، الخليفة العباسي الاول ، وادناه منه المنصور . ولن ينقض  
الابن ما أقرّ العم والاب . فأنزل منه يحيى منزلة ابيه خالد من أبي العباس ،  
وأبي جعفر . واكبر فيه ادبه وعلمه ، فعهد اليه في ابنه هارون يتقّف  
عوده ، ويرهف بصره

ولهارون في صدر المهدي عطفٌ راسخ . وما برحت الخيزران ، زوجة  
الخليفة ، تستدرج ابا عبد الله الى الشغف بهذا الابن الهنيء الطبع ، المتأجج  
الذكاء . فكانت تحمله اليه في ابيه الحلال ، وتميل بالغلام على ابيه بجدته  
باشهى منطق . فيناغيه المهدي بارتق كلام ، ويعجب منه بالصباحة المشرفة ،  
وبدماثة النغشة . فلا جفاء ، ولا عنف ، بل خضوع أمثل ، وأصالة رأي  
واعدة . وحادثت الخيزران مراراً هذا الاب العطوف في ايثار هارون ،  
في ولاية العهد ، على اخيه موسى . فتصامّ المهدي ، كأنه لا يرتضي منها ان  
تجاوز في دالتها عليه الحد . قالت : الاثنان من اولادي . ولكن هذا طوع  
ايدينا ، وذاك جروح ، جهم . ففي موسى المشاكسة ، وفي هارون الاذعان  
السمح . واني لآخشي ، اذا ما اطعت هواك ، في انالة موسى ولاية العهد ،  
ان تصاب الدولة العباسية باعمى يخبط فيها ، ويهدم ما بنى الآباء والجدود  
من منبع الركن . أيتراوى لك منه انه يقوى ، بما يشور فيه من جهالة ،  
على امتلاك أعتة الموقف ، وكبح جماح المناوئين الراغبين في تقويضنا ،  
من علويين ، وطالبيين ، وأذئاب الامويين ؟

فزوَّى المهدي ما بين عينيه . ليس يريد ان تثنيه هذه المرأة ، العزيرة عليه ، عن بغية يحبو اليها . ولاية العهد لموسى الهادي ، ثم هارون الرشيد . فالأكبر سنّاً يملك ، ثم يتلوه اخوه . ولماذا التفريق بين شقيقين يلمس فيهما معاً ابوهما مضاء العزيمة ، والقدرة على الحكم السويّ ؟ ... فما كانت المشاكسة النطّاحة في موسى لتعبه في عرف المهدي ، وهي الدليل على صلابه الرأي ، والاعتداد بالنفس . فان في الفتى روح جده المنصور ، على حين ان هارون ، شقيقه ، يشبه اياه في رقة الطبع ، وصفاء الضمير

وتعجب المهدي من أم جادت على ولديها معاً بالنور ، وغذمتها بلبانها ، وانبتقا فيها من صلب واحد ، كيف تنظر اليهما بعينين متباينتين . فتزوجوا لهذا ما تودّ لو اقام منه الآخر على خذلان . فهل تكون المودة في الام على اعتلال ، فيسودها الاجفاف ، وتكبل بكبلين ؟

والمهدي لقي في الخيزران اشهى متعة . فأغارت على كبده ترسو فيها ، وتمنع عنه الالتفات الى سواها ، من متعدد نساته وجواريه . وما كانت في بدء عهدهما سوى احدى اولئك الجواري . فاستقرت بالقصر أمة ، يزينا جلاب الحسن ، المخلوع عليها بزخرف فضااض . غير أنها لم تلبث أن اوضحت السيدة المختارة ، وقد عرفت كيف تنسلّ الى الحنايا ، وتستولي من المهدي على مكمن الصبوة . فأعتقها ابو عبد الله وتزوجها . وباتت سيدة نساته . بل هي مانعت في البقاء في البلاط . فانشأت لها صرحاً شبيهاً بصرح الخليفة . وفتحت ابواب هذا الصرح لوزراء الدولة ، وارباب الامر فيها ، يؤمونه كما يؤمون بلاط المهدي . فهي وبعلها على مساواة في النقض والابرام . والخليفة لم يكن ينادى طويلاً عن هذا القصر ، وفيه يلقي الغبطة . فما ان يرحل عنه



حتى يرجع اليه . وادركت الخيزران ما تستمتع به من حظوة ، فقامت  
تفاخر نساء الخليفة بكونها الرأس فيهن ، قائلة ببعيد الزهو ومورق الدلال :  
انا الاصل ، وانتن الفروع !

وذهبت الكلمة مضرب الامثال . فبات الناس يقولون : « الخيزران  
فاتنة المهدي ! » . وحمل صرحها اسم « اساس » ، وقد بات دعاة ، لا لمسة  
المهدي وحسب ، بل لسياسة المهدي في الدولة . فالامر ما تنهد اليه الخيزران .  
ووهب ابو عبد الله هذه المستأسدة ، الريا المباحج ، كل ما تملك يده ، وتزخر  
به خزائنه . فلها الحلي ، واكداس النضار ، والمزارع ، والضياح ، والعييد ،  
والاماء . فاذا ما خرجت الى ضفاف دجلة ، تستنشق صافي الهواء ، وتجميل  
العين في روائح القدرة ، جرت في موكب اشبه بجيش يعز على الخليفة ان  
يبدو في ابيه منه . وتقف بغداد عن جانبي الطريق لتتهف لامرأة الخليفة ،  
وتحسبها باغصان النخيل ، وتجمجم الافواه : هذه هي سيدة دنيا العرب .  
فالامر والنهي ملء يديها ، والخليفة يؤيدها في كل صوة !

على ان الخليفة المطواع ظل يعاند في ولاية العهد . فلن يتقدم فيها  
هارون اخاه موسى ، بل تتسلسل من الاكبر الى الاصغر ، وتطوق عنق  
الشقيقين . فالتحت الخيزران في التفضيل . فتجهم المهدي ، واءان بنبرة  
غضوب : ألا يكفيك ان ارفع ولدك الى المقام الاعلى دون سواهما من  
ابنائي ؟ ... حبست الخلافه عن الجميع وفقاً عليهما . فما بك تدفعيني  
الى التفريق بينهما ؟ ... موسى ، ثم هارون . ولا جدال . أريدك على  
القناعة بما أفضت به عليك من نعمتي . حسبك ما ترتعين فيه مني !  
فتهتف حانقة : وماذا لقيت منك كي تمن علي بالمعروف ؟ ... ألقيت

اليك كل ما عندي . وانك لتأبى عليّ حتى زهيد الرجاءة . فهل يضيرك ان  
تكمل الامر في الدولة الى من هو بها جدير ؟ ... أقودك في المهبع الآمن ،  
فتردني عنك بازورار . أيشوقك ان تنتهي الخلافة الى من تهون به ، ويقوّضها  
على نفسه ، فتندثر ، ويهلك ؟

ففقته ضاحكاً وهو الصافي الدخلة ، وقال : أما أصابك ظلّ من  
معروفي ، يا خيزران ؟ ... إنك لتكرهيني على الفقهة في ما تعالينني به .  
ألا كم وعبت لك في هذا الصباح من الحشم ؟ ... كانوا يزيدون على الالفين  
ببائك ، وقد سقتهم اليك صاغرین ، يلتمسون ان تزوّدهم مشيتك . ولكنك  
تزدرين حسن الصنيع ، كأنك من الطمع بما يجعل الخلافة ، على سؤدها ،  
عطيةً زريّة لو طرحتها بين يديك . ذخر الدولة يصبّ في خزائنك ، ثم  
تجحدين الجميل . ألا غالبت في الكنود ، يا صفيّتي !

وأطبق فيها بقبلة سمحة يرصع بها شفتيّ هذه المغناج العنود . فأفلتت  
منه تشهر عليه الجفوة ، وهي تعلم مبلغ اثرها فيه . فانه ليبدل في تبديد  
نفرتها اغلى الغالي . بيد ان المداورة لم تنجح الساعة . فولى المهدي مديراً  
وهو يجهر بغيظ : ان يكن نصيبي منك الاعراض ، بعد ذلك التناهي في  
الارضاء ، فدعيني ابحث عن فجوة اتنفس منها . ضيّقت عليّ مسالك الراحة  
حتى كدت اختنق . انا السيد في دولتي ، لا انت . هذا التشمخ على  
الخليفة طال مداه . فلست ربة الحل والعقد . أمة رفعتها من الحضيض اليّ ،  
فجهلت مقامها ، واستهانت بي !

وتطأ في السخط . ان الخيزران لتذهب بعيداً في فرض مشيتها .  
وهو بما لا يسايرها فيه بعد كل ما اسبغ عليها من الألاء . فالطمع مدعاة

الى الفتور في المخالصة . وتألمت الخيزران وهي لا توفق للبيعة . ولم يكن هذا الاصطحاب بينها وبين المهدي حديث العهد . فمئذ زمن طويل والمغاضبة تفصل الزوجين بعضهما عن بعض ، وتثير بينهما الاحن . فان حكاية ولاية العهد لتعلق فيهما هناة الموامة ، والمهدي يقدم ابنه موسى الهادي على هارون الرشيد ، ناهجاً نهج الاستطراد ، الاكبر ثم الاصغر . والخيزران تميل الى المعكوس . بل هي تمنع في ركوب ابنها البكر مقعد الخلافة . كأنها تروم محوه من دنيا المجد . فليس في عرفها خليقاً بالمعالي ليتبوأ المنصب الارفع . ولكن المهدي ، مع مبعته ازاءها في الجليل ، وفي الحقير ، تصلب في اقرار ولاية العهد في هارون بعزل عن موسى ، يناهض فيها رغبة هذه المستأثرة منه بكل عزيمة ولب . فلا يحيد عن ركوب موسى مسند السلطان في الدولة العباسية ، ولو حالت دون الطلبة الدواهي الشداد

ونأى المهدي عن الخيزران الى جاريته حسنة . وكان يستعذب الجلوس اليها وقضاء اوقات من اللهو بجانبها . وحسنة نائمة على الخيزران ، ودلاها طفى على المهدي ، حتى سدت عليه الى سواها كل سبيل . ولولا هذه النزوات المستحكمة من الخليفة وزوجته الاثيرة ، في صدد ولاية العهد ، للقيت حسنة نفسها ازراء المهدي بها . ولا قدر لذات طلالة بعد الخيزران . ولاحظت حسنة على الخليفة الكمدة والسهوم ، وما كان ليتماسك . ففزعت الى لقائه بحفيل الانس ، هاتفة : ألا مرحباً بامير المؤمنين ، سيدنا وموئل العز فينا . ارواحنا رهن يمينه ، وانفاسنا تجري في رضاه !

وصفتت عالياً تدعو كبيرة الحدم في قصرها ، وتصيح بها : ألا اسرعي في اعداد خوان الشراب ، يا سعدة . ولتقبل المغنيات بالمزاهر والدفوف .

امير المؤمنين انعم علينا بالمول فينا . فلنجهتد في بعث البهجة في نفسه الخزينة !  
والتفتت اليه وهي تشدد في اطلاق الكلمة الاخيرة ، كأنها تميل الى  
ابلاغه أن ليس من فينة تجود عليه مثلها بالمتعة ، وتنعش فيه مهجته الذابلية .  
بل رغبت في معالنته ان الخيزران تنفت في روحه الالم . اما هي ، حسنة ،  
فتذهب عنه بكل شجن . وتجلو نفسه حتى يسي من دنياه في أنس . ولماذا ،  
وهذه حالها منه ، يفضل عليها من توجع ضميره ، وترميه باللبال والنكد؟ ...  
أيهم بالخيزران ، حتى مع فسوتها على كبده ، وطماحا المقيت ؟

وبما كان يجزّ في قلب حسنة ، ان المهدي ، حين ينسى بين يديها همومه  
وأتراحه ، ينطلق فوراً الى الخيزران يسترضيها . كأن للخيزران وحدها في  
حوانيه المقام الاسنى . وكأنها اذا ظلت غاضبة فلا يهنأ للخليفة عيش ، ولا  
يستسيع شراباً . مع ان حسنة لا ترى الخيزران تضاهيها وسامة . وان هي  
ضاهتها ، فليست ترجع عليها في وهج الروعة . الا انه الحظ . وليس في الحظ  
بجال الى تبديل المقدور . وتأوهت حسنة حتى وهي تدعو اليها المغنيات من  
جواريا ، وضاربات الدف والعود ، والراقصات . أفلا يدرك امير المؤمنين  
مبلغ تهالكها على اشباع ملذاته ، كي يرفع الخيزران الى حيث يغيب وجه  
حسنة ، فلا يبدو له اثر؟ ... لا ، ليس المهدي بالاعمى ، ولا الاغلف القلب ،  
الا انه ينسى حبال فاتنته سواها . فكان القدرة جذبته الى ذات الجد  
الغلاب ، وليس لحسن آخر ان يستهويه . فما ان يبغى الترفيه ، والانشراح ،  
حتى يزحف الى الخيزران يستعديها على المتعة

. ومن هي الخيزران؟ ... ليست تريد على حسنة في كونها أمة . على ان  
هذه الامة ، بلغت من مسنون الدهاء ، ما فرض على امير المؤمنين الارتقاء

بها الى مستواه ، ووقف ولاية العهد على ولديها دون سائر بنيه . ومع  
وثوبها الى القمة لم تكن بالراضية ، وما تزال تطمع في ما هو ابعد ، كأنها  
تطاول السماء . غرفت من معين الخليفة قلبه ، وماله ، وسلطانه ، ولا  
تبرح على لجانة في الالتاس . امتلكت الضياع ، والخدم ، وما انفكت  
على جوع . فأطلقت حسنة الزفرات حسداً وغيره . لقد اذنت الجارية  
للعبوب نفسها في التأثير في المهدي ، وما كانت لتدرك وطرها . فما ان  
يخيل اليها ان النهضة سنحت لها ، وانها فازت بالارب ، حتى توقن انها تدرج  
من مرماها في ارض جدوب

ولم يرغب عنها ان الخيزران تعرضها ، ونسف لها كل ما تحاول بناؤه  
من آمال . فحققت على الخيزران . ونهدت الى تعكير الجو عليها . بيد  
انها لم تفلح . أم موسى وهارون لا تفتأ السيدة المطلقة في نية امير المؤمنين .  
فما ضاق بها استدراجه اليها في سوى منبج الخلافة . واي حائل وقف دون  
رجاوتها ؟ ... حصة رأنا أم موسى صخرة شاهقة ، مع كونها حجراً ضئيلاً .  
فالخلاقة لن تخرج عن ولدي الخيزران . ولكن هذه المطامع تأبى الا ان  
يتفوق الصغير على الكبير في رحبة العز والسودد . وهو بما يقهر ابا عبد الله  
في مقدور الحق ، وحرمة الانصاف

واندفعت حسنة في إكرام أمير المؤمنين بما يفرض قدر الخليفة المعطاء  
من موفور الاجلال . وتناهدت في دره الجهامة عنه بما ابدت من مرح ،  
وحضرها من مفاكحة . فلم يتالك المهدي ان قال فيما بينه وبين نفسه : ليت  
شابهت تلك هذه في وضاءة السريرة . فتتودد اليّ بلطف مهزة ، بدل ان  
تشامخ عليّ برعونة . على انها كانت مثلها قبل ان اعتقها واتزوجها . فبدت في

اكل ذوق ، واهناً مظهر . غير انها ما جلست بجاني ، على سرير الملك ،  
حتى تنكرت لماضيها ، وبطرت فطعت . اننا لنتلقتن من السابلة ، ونخلع  
عليهن مطارف التيه ، فيطمعن في استعبادنا !

وكان قد نوى اعتاق حسنة ليرفعها الى مقام نسائه . بيد ان صلف  
الخيزران ضعف به عن اعادة الكرة . فلن يحشد في موكب زوجاته كل  
جارية مغموزة النسب ، مخافة ان يتمررد اللثيم ، وقد رتع في ببحوحة الايناس .  
واطلت الجوارى يرفلن في ارووع الحلل ، وقد اشرق في قسباتهن الاستهواء .  
وانشدن فور وقوفهن بين يدي امير المؤمنين نشيد الدعاء بدوام النصر  
والاقبال . فزالت عن المهدي الغمة حبال الرواء الممدود . وما استطاع الا  
ان يتسم بفيض ، وان يميل على حسنة فيمتدح فيها وافر الكياسة ، وسرعة  
المبادرة . فما ان ظهر في مقصورتها حتى هبت الى الاحتفاء به ، بما يجمل  
بالاعوان والاصفياء حبال ارباب السلطان . فقال مرتاحاً الى الحفاوة : اراك  
ابداً على أهبة ، يا حسنة . فكانت تذكّرني في كل حين !

فأعلنت بجزيل العبطة : نفسي فدى مولاي . ان نحن لم نفكر فيه ففي  
من نبتلق الفكر ؟ ... هل لنا سواه من ذخر وسند ؟ ... لا كان من  
يزعج امير المؤمنين في روحه ، وينكتد صفوه !

وسددت النبلة الى الخيزران ، فتعاطم في المهدي الجذل . وافاضت  
المنشيدات بالاغاريد . ونقرت انامل الغواني النضرات المزاهر والدخوف .  
وتمايلت القامات الصباح ، في صدر القاعة ، على رقصات موانع ، مستكملة  
ضروب الفن . وانبسط الخوان ازاء الخليفة يضيق بالاقاويه ، وبزجاجات  
الحمر البواسم . فشرب امير المؤمنين ، واكل ، وطرب . وغابت عنه ،

خيال هذا الحفل الباهر ، مواهة الخيزران على مشرق طلعتها . بلى ، كان يتخيلها حيناً بعد حين ، فيتململ . الا انه لا يجرع الكأس حتى يغور في بوادي النسيان

وما تجلج خيال الخيزران بقوة لعينه الا وهو يقبض على معصم حسنة ، الجالسة بلصقه بفواتنها الحُضلة ، وقد فاحت منها رائحة الطيب . وتدلّت في جيدها عقود اللؤلؤ . واضاءت في يديها الاساور والحواتم المرصعة بنقيّ الماس . فلم يقوَ ، فيما يمسك بحسنة ويجذبها اليه ، الا ان يتمثل تلك . فاضطرب . كأن طيفها يؤلمه في صميم عناءه ، بعد امعانها في المخاشنة ، والسعي للاكراه . ونفثت شفتاه قوله : وددت ، يا حسنة ، لو حققتُ امرآ . الا اني لعاجز عنه ، يا أخت الهلال الطيرير . اي والله ، اني لعاجز ، يا ابنة امي . واحسبك تدر كين اي سيد ضخم ينادي بعجزه عن بلوغ ما يريد ! وكان قد غلب على نهيته الشراب . وكان حسنة درت من نبرته اللهي ما يروم بيانه ، فساقته ببليغ حنكتها الى الجلاء . قالت بمخمور صوتها ، وقد اطلقت في الخليفة الطروب ، الحزين ، فوانك لحاظها المتأججة في عينها السوداوين ، المستطيلتين : وعمّ يعجز امير المؤمنين ، وفي طاعته تنحني الدنيا على بكرة ايها؟ ... لا ارى الشمس تعانده في الانحباس عن الغروب اذا ما صاح بها : « قفي ! » . والبر والبحر في خدمته ، حتى الفلك يطأطأه . الرأس خشوعاً للسيد الوقور !

فابتسم ابتسامة صفراء ، دل بها على انه لا يزال مالكاً رشده ، وعلى ان البخور مهما تصاعد الى انفه ، فلن يחדر اعصابه ، ويميل به الى الايمان بالمحال . قال بوضوح انه مع هيامه بالتدليس لن يؤخذ به : بالغت في التقدير ،

يا حسنة . امير المؤمنين، محمد المهدي، لا يجهل مدى سلطانه . فلا القمر ولا الشمس يجريان على امره . حتى ولا الخيزران . عمرك الله، ان امير المؤمنين، مخاطبك، ليقوى على ضرب اعناق مئآت الالف من الناس، ولا يججم عن افتتاح البلدان، وتوسيع آمام دولته، ولكنه كليل عن امرأة . فالخيزران، يا حسنة، تبه على من تحسبن الفلك يطأطأ له الرأس !

وتنهذ من صدر مكلوم يطفح بالاشجان . فأطلقت حسنة صيحة الجزع تبالغ في تجسيم هفوة خصيمتها . وازجت القولة اللبنة على ما تطفح به من تحريض : أيالي امير المؤمنين جموح فينة ؟ ... لست اجد من تخضع له الارواح، في المشرق والمغرب، قاصراً عن امرأة، مها تفاقمت فيها الصولة . فالخيزران، وغير الخيزران، لا تثبتان على نظرة من نظرات رب العرش، المالك سيداً في القلوب . ولكن الطمع في الحلم الوسع يبيب بذوي الدالة الى الاستنثار . الا انه استنثار الزراير، يا امير المؤمنين . رقّة هذب منك تبيد شعباً، فهل تضعف عن أمة ؟ ... من كانت الخيزران، لولا المهدي ؟

فهنف، وقد ضاع صوته بين الاناشيد، ورنات المزاهر، وخشخشات الدفوف : صدقيني اني دون الخيزران بأساً، يا حسنة . هذه الامة، الواثبة الى الذروة، تكاد تحجب المهدي . فهي ذات مشيئة شمس . فلا تقف دون رغبة . ولا تحفل بسطان . فتخاطبني بجلافة وغطسة . وتصبح بي : « أريد ا » ، كأنني لديها العبد المطيع . ولا اراني املك العزم على اخفات صوتها، ودفع إلحاحها . إن من تبصرينه يقبض على ناصية الدنيا، ليصغر حتى يكاد يكون هباءة، حيال تلك الضاربة كبد الدهر بالزئير والوعيد .



فليس الشهواتها حد. ولا لنزواتها سكون. فلو ابتلعت البحار، على متنهاي بسطنها، اظلت تشكو العطش. آه منها!... إنها لحاجز دون مني نفسي. وكما عمت بالعدول عنها اراني ارجع اليها. لست اعلم ما يكرهني فيها على الرجعة. فكأنني اخاف منها وانا اجنح الى سواها. وكم من مرة شئت ان تكونني من نسائي، يا حسنة، وشعرت بعين الخيزران تحدجني كالنبلة المسنونة، فانثيت على متأجج الغصص!

ونطق بما كانت موقنة انه سينطق به. بل بما رامت ان تستلته من مطاوي صدره. واخاضت سحتها وهو يعالنها تفكيره في ان يعقد له عليها. فيعتقها، ويتزوجها، شأنه في الخيزران. وودت لو بلغت هذه الرجاوة، واليهما يتقد في حسنة الخنين الجيئاش. قالت، وقد غفلا معاً عن مجلس الانس المنشور الراهية: ما يزال يدعشني من امير المؤمنين اكتراته لامرأة حياتها وموتها بين يديه. فهل كان لها ان ترفع الصوت، في حضرة الخليفة، لولا يقينها ان لها من رب العرش هبة من سماح؟... ليس من مشيئة تنافس مشيئة امير المؤمنين في الابرام والنفاذ. الا انها المكرمة الراجحة الندى. لبشأ المهدي، وليتجرأ كل ذي نامة على اطلاق النفس، لا على الكلام!

وليس له ان يدحض ما تلقي اليه. اجل، هو السيد المباح الرأي، لا الخيزران. فما استفحلت في الخيزران الاستطالة الا بعدما تكشف عنه ازامها من انقياد ولين. ولم يكن منه الا ان جمجم: صدقت، يا حسنة. انا رب هذا المطمئن من الارض. ولكني حبال الخيزران عبي. أما صارحتك بهزيمتي تجاه رغباتها؟... والله، لست ادري كيف استخذي في مغالبتها.

فلو طلبت مني ان تقبض على زمام الامر ، في دولتي ، لالقيت بين يديها  
الاعنة . واني لمبيحها لها ، وما تكتفي !

وألقى رأسه الى يده جازعاً . وجعل أنه في مجلس طرب ، فاطلق الزفرات  
الحرار ، وهدر : أتدريين ما يطيب لها ان تتدخل فيه من اموري بعدما لم  
تدع امرأ الا تدخلت فيه ؟ ... انها لتصرّ على عزل ابنها موسى الهادي عن  
ولاية العهد ، ليخلو الجو لهارون الرشيد . وما هي الحكمة من نقض ما  
جزمت ، وموسى ابنها كهارون ؟ ... هل تجلي لك السر ؟ ... انها لتخاف  
من صلابة موسى ، فيمنعها من مد اصبعها الى شؤون الدولة ، على حين تجد  
في هارون الفتى المطواع ، الرضي !

فأعلنت حسنة تطمع في اذكاء النار ، وكل ما تتوق اليه ان تحل في  
قلب امير المؤمنين ونعمته محل الخيزران : يدهشي من امرأة ذكية ، حاذقة  
التدبير كالخيزران ، افتئاتها بحق ليس لها . فما يحفزها الى التظلم ، وقد ملكت  
من السعد ما لم يكن لها ان تجر ؟ ... هل دار في خلدها ، وهي تلك  
الأمة المنسية ، انها ستسلق يوماً شامخ الرفعة ، فتبيت في رجة العرب  
سيدة الجميع ؟ ... لقد وهب لها امير المؤمنين من سخائه ، وبرّه ، ما ليس  
يدرك بعضه غير من صلت لهم امهاتهم في ليالي القدر . ولا اراها ، وقد  
رتعت في هذه الكرائم ، إلا تبالغ في الابتزاز والطلاب ، كأنها تأتي الا  
الاستيلاء ، في تمتد الوسعة العربية ، على ينابيع العظمة والرفد جميعاً . فلا تبقي  
لمن دونها فطرة يبلّ بها اللسان . وادركت ما تروم ، وقد باتت الزوجة  
الفضلى في نساء الخليفة . ورست في قبضة ولديها ولاية العهد . وهل  
من امنية حنّت اليها الا فالتها ، واستمتعت بها ؟ ... ولكنها ما تزال تنشبى ،

وتبدي من ضروب الدلال ما لا ارى الخليفة مجبراً على مسايرتها فيه . واني  
لا تعجب من أم تؤثّر ولدأ على ولد ، وهما من لحمها ودمها . فكما ولدت  
هذا ، ولدت ذلك . وكما ارضعت الاول ، جادت على الآخر بلبنيها . الا  
انه الافراط في الطماح ، والامعان في مناكدة امير المؤمنين !

فهتف الخليفة مؤيداً : والله ، أصبت ، يا حسنة . ان هي الا المناكدة .  
والخيزران نجدها . فليس يطيب لها الا الايلام واللسع ، كأنها تعيش في  
جحر الثعابين . وهل كان لها ان تحلم بالسودد الرويّ نفوس فيه ، ورجال  
الدولة يقفون بباب صرحها ، كما يقفون بياني ؟ ... لقد استأثرت بكل  
نعمة ، حتى كادت تكون الخليفة ، وما تقنأ بهم بالمزيد . فماذا تستطيع ؟ ...  
أيشوقها ان أنعرتى من كل سلطان ، وان انزل عن عرشي لتتولى الامر  
دونى ؟ ... والله ، كدت افعل ، يا حسنة ، وما هي بالراضية . بل انا  
فعلت ، كما عالنتك ، وما تبرح مبرومة . وكل ما عانيتها فيه ألا اعتدي في ولديها  
على شرعة الحق . فأثبتت في مسند الخلافة ابنها الاكبر ، ثم شقيقه . فأرغت ،  
وازبدت ، تشددت في افعال موسى ، كأنه لم يكن ، وفي اقرار هارون  
دون الجميع . ولكن لا . لن اعرض عن موسى ، وانا ارى فيه زينة دولتي .  
ففي ملاحظته وجلاله ما يثب منه لعيني مثال جده المنصور . وهو في طباع  
جده ، يا حسنة : فالحزم والعزم ينتقدان فيه . وطول القامة ، وعرض  
الكتفين ، ووقار السيادة ، كلها تتلأأ في هيكله الابنق . مع انه ما يزال  
فتى ، ولم يجاوز العشرين . ان فيه من جده صلابة المكسر ، ومن ابيه  
نداوة الراحة . فلا يمسك يده عن ذي مسألة ، ولا يعرض عن هيف . وان  
تكن الخيزران ترى فيه قناة لا تلين ، وليست تقوى على تسخيره لمآربها ،

فاني لا طرب وانا ألس فيه نخوته السبوح ، واوقن انه سيصون الامر من  
عبث العابثين . ركبت الخيزران متن الشطط وهي تنطلق في هذا  
المهمة اليبس !

وجرع كأساً ، ادنتها حسنة يمينها من شفتيه . ومضغ لقمة من اللحم  
المقدد ، دفعتها الى فمه يسار الجارية البارعة في الممالة ، بل الواثبة الى  
التعليق بباعث غيرتها اللهمي من الخيزران ، مزاحمتها العنود على قلب الخليفة .  
فاذا ما تم لها ان تبعدها عنه ، فالامر ينتهي حتماً اليها . ولن تجد من يقف  
حائلاً دون المنشود . وسعت لانتهاز الفرصة الموفورة ، والحلاف بين الزوجين  
على اشده في صدد ولاية العهد . ورأت حسنة ان تنتصر لموسى الهادي ، فتقهر  
به مقاصد الخيزران ، وتكسف اشعتها المائلة فسحة العباسيين . قالت  
والمهدي يزدرد لقمة اللحم المقدد ، ويتلمظ بنهمة احياها فيه الشراب :  
وهل لهذه الدولة غير من اتسوا بطابع المنصور ، يا امير المؤمنين ؟ ...  
ان النار لتتقد تحت الرماد . ولن يطفئها غير من ملكوا جراتك ، وقسوة  
ايبك . فتظل الرؤوس على انحناء ، ويعتبر المتحفز بما كان من المنجري ،  
فيصفو الاديم . هارون شعلة من ذكاء . الا ان موسى جمع القاهرين ،  
الذكاء والمضاء . فهو اقسى عوداً ، واصدق مخبراً . لا تركن الى ملتس  
الخيزران ، وفي ملتسها مصلحتها ، وبها تطمس الحق . وما كان لامرأة ان  
تقبض على الدفة في الدولة ، ونوطد دعائم الحكم !

فراقته فيها حدة الذهن ، وصاح : عوفيت ، يا حسنة ، عوفيت !  
وانترع من بنصره خاتمه ، ورصع به بنصرها . وفادى حاجبه الواقف  
بباب المقصورة يصيح به : غداً تحمل الى حسنة من بيت المال عشرين الف

درهم ، عدا الحلل والمؤن !

وألقى الى كنفها يده يتلذذ ببضاعة جسمها . واخيزران شعرت بعداء حسنة لها ، وبسعيها للحاق بها في خاطر الخليفة . الا انها ضحكت من هذه الخنفساء المهدة بالتنافس ، وليست تقوى على لكزة تجبها بها أم موسى وهارون . بيد ان اخيزران ، وهي العالمة ان البعوضة تدمي مقلة الاسد ، لم تتم عن الجارية اللعبة بالنار . فاقامت عليها العيون ، وأحصت فيها حتى الانفاس . فانسلت الى مقصورة حسنة عشرات من الجوارى ، هن جواسيس اخيزران على الحظية المرموقة . بيد ان حسنة ما زالت تؤمن بسامق قدرتها . فلن تهيب دون مناهضة زوجة الخليفة المختارة ، وسلاحها عدوبة حديثها ، ومجاهدتها في تضييد كلوم امير المؤمنين ، وقد اثختت بها قلبه اخيزران الصخوب وسعت اخيزران للامساك بالمهدي عن ولوج مقصورة حسنة ، ومناها ان تضرب على الحظية نطاقاً من عزلة تحتق فيه . فيمثل ابو عبد الله للرغبة المعلنة ، فيما يقيم واخيزران على صافي المودة . ولا يكاد النفار يتلظى ، حتى يثب المهدي الى الجارية الوسيمة الطلعة والروح ، لينهل من ميسها السلوان النجيع والنفار بين الزوجين بات مزمناً . بما تعدد به الدخول على حسنة . وارنجت الجارية ، الزاخرة الصدر بدفاق العلالات ، ان تملك من الخليفة الوطر المأمول ، فخببها المقادير . فيما ان يتراءى لها ان امير المؤمنين اضحى مرهوناً بسلطانها ، حتى يهدم فيها الواقع كل زخرف من امل . فليس للخيزران الا ان تتأيل ، ازاء ابي عبد الله ، كي تبدد في ذهنه ما علق فيه من اثر حسنة واخواتها الجوارى ، على ما يتلظى فيهن من رونق ودلوع واطالت حسنة النظر الى من تطعم في قربه حتى تكشف مودته لها كل

من تحفل به يمينه من النساء . وتنهت كأن صدرها ينوء بغمرة الاكدار .  
فرقاً لها المهدي ، وهو يسيل عطفاً حين يمتزج بروحه عصير الارواح . ومال  
على هذه المتوجة ، مع جلوس امير المؤمنين ، ركن الدنيا ، اليها . وسأها  
بصوت جريح ، مدهوش : ألا ما يشجيك ، يا حسنة ؟ ... سلمت مهجتك !  
فنفثت عينها الدمع الشاكي . فالتاع المهدي وهتف : أتبكين ، والحليفة  
يحببك ، وما نح الخير والسعد يلتمس لديك صفاء البال ؟  
فجادت بالانين المكروب ، وغمغت : روي فدى امير المؤمنين .  
لست ابكي النعمة الهاطلة التسكاب . بل ابكي ذهابها عني . فلا تكاد تخلع  
عليّ المن ، حتى تنساني لدن تجاور الخيزران !

فابسم واطمان . حسنة ترجو ابدأ التفاته اليها . فهي اشبه بجميع نساءه ،  
تشهى ان تكون في طليعة المحبيات اليه ، ظافرة منه بحصة الاسد . وانحنى  
عليها حتى التصق رأسها بصدره ، وقال : ألا يكفيك اني جعلت منك عديلة  
الخيزران ، واني انفض بقربك كل ما نحشو به تلك صدري من غم ؟ ...  
بل انت ارجح منها عندي قدراً ، ولست ألس فيها غير العناد والجوع .  
فتأكل زادي ، ولا تشبع . واخاطبها بالكلام الهادي ، فلا تستنم الى حلم .  
وماذا ترجين بعد كل ما لقيت من نعمتي ؟ ... هل من وثبة لا تزالين منها  
على حيث اشواق ؟

وضحك لها . واستطاب تقييلها وقد هزته اليها فتنتها الساطعة . فاعلنت ،  
وقد ايقنت ان مجال الطلب يتسع لها : ولماذا لا اكون من امير المؤمنين  
كالخيزران نفسها ، فيعتقني ثم يتزوجني ؟ ... انه ليحزنني ويحجلني ان ابقى  
ابداً في مصاف الجوارى ، فلا اتبوا في رحبة مولاي مرتبة الخطر !

فتناهى في القهقهة . حسنة تتوثب الى الذروة . وضما اليه فرحاً ببرطمتها ،  
وبثتها قوله : ساتحين السوانح لتحقيق اربك ، يا حسنة . فصبوا ، صبوا ،  
ريثاً ننتهي من دلال الخيزران !  
وعاد يتذكر موقف الخيزران منه ، وهي تلك الجارية المغمورة . لقد خاطبته  
بما تخاطبه به حسنة الآن . على انه ندم وقد اجابها الى المنشود . أفلا يندم  
وهو يرفع هذه الى حيث يببت من الصعب ترويضها وارضائها؟ ... وفتح  
الى مطول الوعد يذيعه في مسمع الجارية الوثني : نعمى عينك ، يا حسنة !  
فالايام وسبعة ، فلماذا يضيقها على جارية يغلي فيها الطماح ؟ ...  
وتماوجت الغبطة في معارف حسنة . عوارف امير المؤمنين لا ينقطع لها  
غيث . وانقضت الليلة على خضل المتعة . فطرب امير المؤمنين ، وتنعّم  
بمستفيض اللذة ، فيما يقف خادمه منارة البربري بالباب ، يرقب ساعة فساعة ،  
وهو على مصّ التهويم ، ان ينسلخ امير المؤمنين من مجلس الانس المعطر  
الاردان ، الفضفاض الذبول

صرح « اساس » في حنق ووجوم . فالخيزران على غبط ، ومثلها كل من حوى قصرها من الانصار والخدم . ونادت اليها جاريتها عتبه بصوت أبعّ تقول : عليّ الساعة يبجى بن خالد البرمكي ، يا عتبه . اريده على المجيء فوراً ، وانا في اشد الحاجة اليه . فلا يتأخر عني لحظة !

فامتثلت عتبه ، الجارية النضرة ، الراضعة في صرح « اساس » في اعلى مقام ، وقد جادت عليها الخيزران برأفتها ورعايتها ، واثقة بيقظتها وولايتها . على انها كانت نجتاز برهة طرق بغداد الى دار الوزير البرمكي الداهية ، كأنها تخشى مفاجأة مقلقة . فلقد وقعت ، من ابي العتاهية الشاعر ، موقع ايثار ، أقام الوهان في خطاها ، كأنه ابدأ بباب صرح « اساس » ، يرصد الجارية في مهزتها

وما كانت عتبه تحنّ اليه ، وليست تريد ان يواها بائع جرار ، مع كل ما ذهب له في دولة الشعر من باذخ المكانة . فانقت مرآه ، وحاذرت ان تلقى في جولانها شبحه البغيض . غير ان ابا العتاهية لم يكثر فيها للجفوة الكابسة . فتعزل بها ، وتعرض لها ، يندشها ما اوحى به اليه من سنيّ النظم . فتتأفف عتبه وتبكي . وتندفع الى سيدتها الخيزران تشكو لها بليتها بالشاعر الفائر الوجد . فتضعك الخيزران حيناً ، وتغضب احياناً . وتنادي الشاعر اليها فتويجه ، وتنهاه عن احراج القينة الحفرة . ولكن ابا العتاهية ، وقد ركب هواه ، لم يكن يقوى على اقامة قلبه الجموح . فما ان تبدو له عتبه ، حتى يجري في اثرها مستعطفاً متبماً



والآن ، فيما تندفع الجارية الى دار يحيى بن خالد البرمكي ، وكانت بعيدة عن صرح اساس ، كرهت ان يصددها الشاعر الهائم بقريضه السيتال الحنين . فوثبت وثبات الظبي النفور الى وكر الوزير البرمكي ، متعامية عن كل خيال يعرض لها . بلى ، كانت تقف لمحة لدى كل منعطف ، وتطلق العين فيما حولها ، حتى اذا ما أمنت المباغثة ، درجت الى هدفها برجلين تتسابقان في انتهاب السبيل

وبلغت دار يحيى البرمكي باطمئنان . فكأن أبا العتاهية شغل في ذلك النهار عنها . فما رصدها يتملى قسامتها ، ويتلذذ بطاردتها . وفرعت الباب بعنف ، واعلنت نفسها : عتبة ، جارية الخيزران !

ولم تكن بحاجة الى الجهر باسمها ، وكل من في صرح البرمكي يعرفها . ودعيت فوراً الى المثلول بين يدي الوزير الازيب ، البادي البشاشة ، الدمث القولة . وهتف يحيى وقد ابصرها : ألا مرحباً بك ، يا عتبة . ماذا تحملين الينا ؟ ... أتكون سيدتك على حفيّ الانس ؟

فاجابت وقد شعرت بالامان يكسوها : نفسي فدى سيدي . مولاتي حفرتني اليه كي استعجله في ارتياد صرحها . أراها اليه في امس حاجة ! وتكلمت بجد . وادرك يحيى بن خالد البرمكي من جفاف قسامتها ان الامر جلال . فقال يستبحت : وماذا هناك ، يا عتبة ؟

فدنت منه حتى بات لا يفصلها عنه خطوة ، وهست في أذنه : لا نبرح حيث تعلم . مولاتي على خلاف وامير المؤمنين في صدد ولاية العهد . ووقعت بينها في هذا النهار واقعة جياشة بالشحناء ، انصرف على اثرها ابو عبد الله مغضباً ، ينتهي دار حسنة . ومولاتي تقيم على جزع ، وتسألك المشورة .

فلا تمسك عن الاجابة !

فقلب شفتيه يستكبر الحُطْب ، واستطلع : وهل بدا من امير المؤمنين  
انه على نقمة ؟

فاوضحت الجارية : ما كنا نقوى فيه على اقناع . فتناظى حنقاً ،  
واقسم انه لن يدخل صرح اساس ، ما دامت الخيزران تلجّ به في الخروج  
عما ابرم . وانطلق الى جاريته حسنة ، يبحث لديها عما يعيد اليه راحة  
الحاظر المروض . ولا احسبك نجمل كم يؤلم مولاتي ، ان يتحول عنها  
امير المؤمنين ، الى حسنة الجارية المتطلعة الى شامخ السدرة !

فاطرق بحبي يفكر في الجارية المتشوّفة الى معادلة الخيزران في بسطة  
المجد ، وتجلّي له فيها الخطر . فاذا حالقها موسى الهادي ، فقد تكون حربة  
قاتلة في صدر الخيزران ، وليس لها الا ان تميل بامير المؤمنين الى الرسوخ  
في ما اقرّ في ولاية العهد. وبحبي نفسه دفع الخيزران الى اتقاء صولة حسنة ،  
الجارية المليحة الوسامة ، النازلة من المهدي في جانب عزيز . وهو من اوصى  
بايفاد رهط من الجوّاري الى مقصورتها للتجسس والاستنباء . وهاله ان  
يشخص المهدي الى حسنة كلما صدّ عن الخيزران . فقد يزيد اعراض امير  
المؤمنين عن امراته الاثيرة بجنوحه الى ايلامها . فيعزل هارون عن ولاية  
العهد ، بعد موسى ، ويقيمها في فتى آخر من بنيّه ، امعاناً في قهر  
الخيزران الناشئة

وتفتحت شفتا البرمكي بقوله : لست بتردد ثانية في اجابة مولاتنا ،  
يا عتبة . فاني لمنطلق توّاً الى صرح اساس !  
وسار في رهط من رجاله الى الصرح . وطاب لعنته ان تسير على

خطوات من الموكب ، فنتقي مبالغتات ابي العتاهية . وانسلّ يحيى الى  
مخدع الخيزران ينحني ، ويسلم على امرأة الخليفة ، ويقول : ها انذا في  
حضرة سيدتي الجليلة . فعلى م يقوى في خدمتها يحيى البرمكي ، المتهاك  
على كسب رضاها ؟

فالتفتت اليه التفاتتها الى من تؤمن بثاقب رأيه ، ومكين اخلاصه .  
وقالت بصوت غضبان : تروّعني تلك الصلابة العاشمة في امير المؤمنين ،  
يا يحيى . فكلما حدثته عن ولاية العهد ، جبهني بالمخاشنة . فليس يطبق ان  
يشيح عن موسى . وانت ادري الناس بما بيني وبين ابني موسى من مكايده .  
تزوج على رغمي ابنة عمه لبابة بنت جعفر ، الساخرة بي ، وما يرحم  
تعيّرني كوني أمة . وشاطرها امتهانها اياي ، بل هو منعها من ان تحبيني ،  
وان تحضر مجالسي . ولست في معتقده ألتق بان اكون امرأة خليفة ، ولا  
أم خليفة . ألا ماذا يعرف عن أم جده المنصور ؟ ... فهل كانت سلامة البربرية ،  
أم ابي جعفر ، ركن العباسيين ، غير أمة مغمورة ؟

وكادت السيدة الباسطة جناحها ، على المطمئن العربي العريض ، تذيب  
الدمع . فقال يحيى يناهض فيها صارخ الاسبى : ألا رويد سيدتي في لوعتها .  
فما موسى سوى ابنها ، بل شطر من روحها ؟ ... وان للابناء طمحات تفرض  
على الآباء ان يحتملوها . هذا هوس الشباب ، يا مولاتي ، وعلينا ان نصبر  
في اولادنا على رعونة الجباله . لست أكابر في ما يباعد بين موسى وهارون  
في متناقض الطبع . ولكن هذه يدي ، وهذه يدي . ومن المحال ايثار يد على  
أختها . واذا جاز ابداء الرأي ، فلست اؤيد احراج المهدي في مطلب سوف تقبل  
الايام الى اقتناعه بالحكمة في اقراره . لنصبر ، يا ذات القدرة . فالغد قريب .

وسيجمل بينا الفرع والفرج !

فأعلنت بمرارة : والى متى اكره نفسي على الصبر ، يا يحيى ؟ ...  
فالحليفة ماضٍ في ما اعلن ، لا يلتوي له عود . وان تكن تريد لي الويل ،  
فليربع موسى بسدة الخلافة ولبسحتني باحتقاره ، وليجسني في ففص . لا ،  
يا يحيى . فالموت اهون عندي من ركوب موسى المنصب الاول في الدولة  
العباسية . فارشدني الى مهيع اتقي فيه العثرة . فلماذا لا يكون هارون ،  
ذلك الكيس اللبيب ، رب المقعد المنيف ؟

فجار يحيى في استنباط الحيل . ولم تكن الخيزران تعتم بالسكون .  
فهي في حديثها ، وصلابتها ، اشبه بالحليفة زوجها . قال البرمكي يداوي فيها  
الفورة : علينا ان نجهز هارون للغد البهي ، يا ذات الجلالة ، وهو يفرض  
نفسه على المنصب . فعلى من ترين ان نعقد له من بنات اعمامه ، وقد بات  
في عمر الزواج ؟ ... وما ان يمسي في حلقة الرجال حتى ندفعه الى الفتوح ،  
على رأس الغزاة المغاوير . فيعلو شأنه لدى ابيه ، ويجد امير المؤمنين نفسه  
حيال سيد رهيب الصولة ، مقتول الساعدين ، يفاخر به بنو قومه ، وكلهم  
يريدون للغد الازهر !

فلمست الهدى في مقال البرمكي . ليس يحيى على ضلال في السعي لتزويج  
هارون . ومن تصطفي له الخيزران ؟ ... انها لتجد في زبيدة ، بنت ابي  
جعفر ، ضالتها . وما زبيدة سوى اخت لبابة ، زوجة موسى . ولكنها  
اختها من ابيها ، لا من امها . وأم زبيدة أمة ، وهي سلسيل . فلا خوف  
إذاً على الخيزران من استعلاء زبيدة عليها ، واستئانتها بها ، اذا ما زفتها الى  
هارون . والاثنتان تدبعان من بطن غريب عن المحسد العريق . قالت

الخيزران توافق على رغبة يحيى : صدقت ، يا ابا الفضل . ساعدت لهارون على من ينأ بقريها . ولقد ظهر لي منه انه يحن الى زبيدة ، ابنة عمه . وزبيدة اخت المتغطرة لبابة . ولكن بين الاثنين سحيق البون . لبابة تمايل على غليظ عجرفة ، كموسى نفسه . وزبيدة تحبو على رسيل طبع . لبابة تعرف اذا ابصرتني ، ولا تجل في شخصي رفعة عمها الخليفة . وزبيدة لا تبعد عني ، وتتوفر على اكرامي ، وتتودد الي . ثم هي لا تطلق في اصلي داعر القول ، شأن لبابة الحديدية اللسان ، المتقولة عني ما ليس لذي مسكة من رشد ان يؤمن به . فكأنها ، وقد زفت الى موسى ، وافقته في خشونة الخلق ، وجفاء الدم !

وتأوهت الخيزران . وما تراهي لها ، وقد بلغت هذا المقام المنيع ، ان الالم سينجراً عليها . ولقد نجراً الانكد ، وادمى فيها المهجة الناعمة المثوى . فما تنفك ، منذ طويل الليالي ، تصارع فيها كيد القدر . أتشقى في الامنية السامقة ، وهي اغلى ما ترجو من زمنها ؟ ... اذن ليست من تحدث بفيض ، عن قدرتها وجلالها ، افواه العرب والعجم ، ومن تشخص اليها الابصار ، كأنها قبلة الدنيا . قيل فيها انها المهدي نفسه ، وان امور الدولة لا تجري بسوى ايماءة منها ، فاین العز المديد وهي دون تحقيق رغبة ؟ ... رامت اقرار مصير ولديها ، فسقط في همها

وتجلت حسراتها ليحيى البرمكي . وبدت له تشتعل في كآبتها . فاشفق عليها . الا انها تشتعل على حقد ، ككل قوي مقهور . فما ذلت ، وقد نزلت بها الغاشية ، بل جاهدت في درتها والتغلب على اللوعة . ستظل بالمهدي حتى تملك منه مطلق المشيئة . فلا يعارضها في مطعم . ولكن اين السبيل

الى هذا المرام الصلود ، وخصومها يفسدون عليها كل وثبة ؟ ... فهناك موسى ولبابة ، لبابة المقيمة بباب المهدي كأنها احدى نساته ، والمتزلفة اليه حتى تكاد تشغله عن حوله من الرجال والحظايا . وهناك حسنة ، الجارية الزنخة الدخلة ، المتصاية الى الحلول في الطبيعة ، والمشتمعة على الحيزران مقاصدها . بيد ان الحيزران لن تستسلم الى الهزيمة ، وفي صدرها عزم ، وفي رأسها ادراك . ستقاوم حتى تفوز ، او تتحطم ، فتناثر اشلاء . قال يحيى ، يستصوب فيها الميل الى زفاف زبيدة الى هارون : اعتمدت مولاتي على الطريق الحق في اختيار زبيدة لابنها هارون الرشيد . ففي زبيدة من شهى المؤانسة ما لا تنعم ببعضه لبابة ، على نضيد روعتها . وعندى ان لا يطول يوم الزواج . فنحى ، في صدر امير المؤمنين ، الجبور ، وندنيه منك . فلا تستحكم بينكما نواشز القطيعة . بل نسير ، ونحن على اطيب الصلات بالخليفة ، خطوة فخطوة الى المرتجى . ارى التأي خيراً من العجلة ، يا مولاتي . فلماذا نحرق انفسنا حيث نقوى بالتؤدة على بلوغ الارب ؟ ... سوف توقنين ان يحيى البرمكي صادق النبوءة حين يعالئك بان الغد لنا ! فاستطابت فيه موانع الرأي ، واستطلعت : أندعو الى العقد لهارون على زبيدة ؟

— بلا ابطاء ، يا مولاتي . فالافراح تزيل الحوائل دون المواهمة . علينا ان ننتفع برضى امير المؤمنين عنا !

فقال ، وهي الحريصة على الامساك بعطف المهدي ، مخافة ان تكبو في صعيد السؤدد ، وينفض عنها الملتقون عليها : اذن عليك بان تديع الساعة ، في طول الدولة وعرضها ، ان هارون سيتزوج ابنة عمه زبيدة ،

وان المبايع ستشمل وسعة العرب ، حتى مترامي اطرافها !  
فاوضح ببصيرته الوقتادة : بل علينا ان نستأذن امير المؤمنين في  
المشهى . فاذا ما اجاز لنا نشر النبأ ، نفضنا في الابواق البشرى ، وزفناها  
الى كل مسمع !

فراقتها فيه فطانته ، واطمأنت الى سداد بيانه ، معلنة : لا عجب اذا  
حللت من هذه الدولة في المقام المأنوس ، يا يحيى . فان لك ، من راجح  
نهيئك ، ما يقودك في مهبج تأمن فيه العثرة . أصبت . سنطلب الى امير  
المؤمنين ابداء رغبته في العقد لابنه هارون على ابنة اخيه زبيدة . ومن  
الراهن انه لن يشيح عما نعرض عليه من خمير الرأي !

ونادت اليها جاريتها الصفيّة عتبة . فاطلّت الجارية ، البليلة الطلالة ،  
تقبل الارض بين يدي مولاتها ، وتفتح اذنيها لالتقاط الامر المطاع .  
فاستفهمت الخيزران : أيكون امير المؤمنين في قصره ، يا عتبة ؟ ...  
اوفدي من يسأل لنا عن ابي عبد الله !

فانتفض في الجارية الشجو النعّار ، وقالت باكتئاب : امير المؤمنين لا  
يبرح في مقصورة جاريته حسنة . ولقد اسرعت اليّ احدى جاسوساتنا على  
الجارية ، الممعنة في اغتيابنا ، تذيع في مسمعي ما لقي هناك سيدنا من فائق  
الاجلال . احيا لدى حسنة ليلة من أمتع الليالي وأسناها . فنقرت بين  
يديه الجوارى المزاهر والدفوف . وجلس الى حسنة يصغي فيها الى الشهوة ،  
ويجاملها برضي القول . وبما صارحتني به ناقلة النبأ ان حسنة همست في اذن  
امير المؤمنين اشياء . وما اكنفت من الافاضة بالالتماس الا وقد عاهدها  
امير المؤمنين على انالتها الصبوة . وبلغ من تناهيا في ارضائه ما حملة على

ان يقضي لديها بومه . نحن في منتصف النهار، وما يزال أمير المؤمنين يتوسد  
المبرك البغيض !

فارتجفت الحيزران وبلعت ريقها . اي مكيدة تجلجل وتوشك ان  
تجرفها ؟ ... حسنة مزاحمة تخيف . والتفتت امرأة المهدي الى يحيى البرمكي  
تستجير به من الكارثة ، هاتفة وهي تلهث : هل سمعت ، يا يحيى ؟ ...  
هل سمعت اي غدر يعربرد ويهددنا ؟

وما كان يحيى ليرهب الكوارث على فحولتها ، فاطلق المقال الديميث :  
ليس لنا ان نبالي امر جارية . امير المؤمنين لن يصدف عن أم ولديه ، وولاية  
العهد معقودة لهما . لتنطق حسنة بما شاءت . فان نظرة من السيدة الاثيرة  
في حرم المهدي تهدم كل ما يتعب اعداؤها في تشييده من مكاييد زريّة .  
حسنة طلبت ، والمهدي وعد ، ولكن اين الانجاز ؟

فاطلقت عتبه واخز القول : وبما افلقت به الجارية خاطري ، اعلانها  
انها سمعت اسم مولاتي ، الحيزران ، ينتفض مراراً في شفاه امير المؤمنين  
والخطية حسنة !

فهدرت الحيزران ، وقد ضاق وسعها عن الجلد : أتدعوني الى الانتاد ،  
يا يحيى ، والدسائس تحاك للقضاء عليّ ؟ ... لا ، يا ابن امي ، عليّ ان  
اقوض الليلة بهذه المنكودة حسنة مأواها . لن تطأ لها قدم شبراً من  
الارض . في هذا الليل سادفغ انصاري الى هدم سطح مقصورتها عليها ،  
والى دفنها في بؤرة اعمق من الحد . بماذا تتناولني المشؤومة الوجه واللسان ؟  
فابتسم يحيى ، وقال يهدوه دل فيه على سعة الصدر ، ومناعة الجأش :  
عفوآ عن إلحاحي في الاعتصام بالتأني، يا مولاتي . فالموقف لا يبيح الغضبة .



ليس الظافر من يذعن لغليان كبده ، بل من يطفء في نفسه الجمر ،  
ويسعى لمطلبه بالحنكة والدهاء . فمن هي حسنة كي نقيم لها ذرة من شأن ؟ ...  
كل ما علينا ان نستدرج ابا عبد الله الى جانبنا باحياء الافراح في فسيح  
دنياه ، وباستنكار كل ما عداه ، فتجاهل حسنة ولفيفها ، كأننا ازاء  
بعوض في صحراء !

فصاحت والنقمة تسدل على وجهها غشاوة كثيفة ، تسدّ عليها منفذ  
النور : ولكنك ترهقني بما تدعوني اليه من الحثال ، ايها البرمكي . حسنة  
حشرة موبوءة علينا بسحقها بنعل طحون ، لا تبقي منها على خلجة ، حتى ولا  
على اثر !

فابتسم وقال : ليس لنا ان نذكر انها تعيش . وجلّ ما علينا ان نمثل  
في حضرة امير المؤمنين ونسأله ان يعقد لابنه هارون على ابنة اخيه زبيدة !  
وزعزع بطول أناته الصخب الزاعق في الخيزران ، فجهرت بقولتها  
المتأففة مع جنوحها الى التأييد : انك لتغلبني على امري ببرودتك ، يا يحيى .  
فما تندلع من حنايبي النار حتى اراك تعمد الى اخمادها . أتريدني على  
السكوت عن الحبيثة ؟ ... ساسكت عنها كرمي عينك ، وساشغل عنها  
نفسي بزواج ابني هارون . الليلة سابدو بين يدي امير المؤمنين واحيي فيه  
مأنوس الرضى ، وابدد وحشة الجفاء !

فاعلن بمألقى البشر : وهو خير ما تفعلين . سيعود اليك امير المؤمنين  
بقلبه وبروحه وانت تحدينه عن مجالس الصفاء ، وتهبين له متعتها . ففي طبعه  
من الميل الى المفاتن ما يذهب عنه بكل اضطغان . لا تحجمي عن المسير  
اليه الليلة ، كأن ليس بينكما قطيعة ، ولا مسكة من نفار . ولا بأس

ان يصحبك هارون وزبيدة ، وأن يقيا عن جانبيك جناحين خفّاقين . فلا بد ان يغتبط بهما امير المؤمنين ، وان يزيل عنه مرآهما كل مضض . وليس في قلبه مضض الا وانت تلجّين في ابرام مصير ولاية العهد على هوانا . لندع الآن ولاية العهد في اقمطتها ، ولنعتكف على العقد لهارون على زبيدة ، ابنة عمه . وفي الغد سوف نملك من سيدنا وحليفنا ما يعجز عنه كل مطماع !

فما وقعت على رأي اوفي . ونجهزت للمثول بين يدي الخليفة . ودعت عتبة الى مصارحته بالرغبة . قالت : اندفعي اليه ساعة يبدو لك في ابوانه ، وعالنيه باني سأكون الليلة في حضرته يصحبي ابنه هارون ، وابنة اخيه زبيدة ! وهي لا تجمل ما يكون من وقع النبأ في نفس امير المؤمنين . فالمهدي ، مع غليانه في النعمة عليها ، لا يلبث ان يهدأ ساعة تحتلج باسمه في ناظره . فالبسمة فيها تبدد منه كل حرد وجهامة . ولم تكن الجارية حسنة على شطط في المعتقد ، وهي ترى في الخيزران ماحبة كل غائبة سواها من مودة ابي عبد الله ، عندما يستويان على رطيب الالفة . وانسابت عتبة الى بلاط الخليفة تستوضح : هل اقبل امير المؤمنين ؟

وكان قد قعد للمظالم ينظر فيها ، وينصف الشاكي الهضم . واطاعت نفسه بوسامة الليلة المنقضية في مييت الجارية حسنة . اذاب ساعات ترخر بفتيق الصبايات . على انه لا يكاد يذكر الجفوة القائمة بينه وبين الخيزران ، حتى تساوره كمدة لا يطيق لها دفعا . فكان كل ما ذاق من هناة ، في كنّ حسنة ، لا يتاسك حبال التفكير في الخيزران . وكان الخيزران اذا رضيت ، فلا شأن لغضبة الدنيا ومن فيها ، ولا لازدلاف خير من في الدنيا

الى امير المؤمنين

وظهر منه في مخاطبة الواقفين بين يديه انه لا يوشك ان يطئن حتى  
يعتكر باله . فما ان يذكر الخيزران الجافية حتى يعلو وجهه القطوب .  
ولما انحى بين يديه خادمه منارة البربري ، رفيق الرحلات والمؤمن على  
الامرار ، اعاره اذنأ صاغية . كأنه يرقب منه ان يحدثه عن الخيزران ،  
وان يرفع عن عاتقيه عبئاً كابساً يضنيه . وابتدره بشوق الى الاستطلاع :  
ماذا ، يا منارة ؟

وحشه على البيان الوشيك . قال الخادم ، وما كان يخفى عليه حين  
سيده الى نظيرة نسائه : عتبة بالباب ، تستأذن في تقبيل الارض بين يدي  
امير المؤمنين !

فاتسعت عيناه ابتهاجاً ، وتولاه حفي الاطمئنان ، وقد احس بالخلاص  
من مرهق الغمة . قال وكل ما فيه على مرح : وماذا تريد عتبة في مثل هذه  
الساعة المحرجة ، يا منارة ؟

فاجاب العبد ، وهو لا يزال على انحنائه ، وليس يجرؤ على النظر الى  
سيده : جاءت تذيع ، في مسمع امير المؤمنين ، ان مولاتي الخيزران تلجأ  
الى سماح الخليفة في موعد يضربه لها . ستحبو اليه في موكب يزدان بهارون  
وبزيدة . فمتى يرى سيدي ان تقبل اليه ؟

فذهبت عنه وساوسه ، والبشرى تتوانب الى وعيه . وقال كمن  
يلتمس توكيد النبأ : أترجو الخيزران المجيء اليّ ، يا منارة ؟ ... ألا كرم  
مثواها ، لتكن في العشة في البلاط . فما ان ينفض عني المستنصفون حتى  
اكون لها !

فترجع منارة الى عتبة يفضي اليها بمشيئة رب الدولة العباسية، ويداعبها  
بقوله : ألا كيف نحن من معائبات ابي العتاهية ، يا عتبة ؟  
فابتسمت الجارية اللعوب . وركنت الى الهرب كأن الحديث عن  
ابي العتاهية لا يلفتها اليه . وهتفت وقد بلغت مقر سيدتها الخيزران في  
قصر اساس : مولاتي ، مولاتي ، امير المؤمنين يرحب بمقدمك . فانت  
من خاطره على سعة !

فاستأنست الخيزران بمستبشر الحفاوة . وشعرت بان مكانتها لدى المهدي  
لا تزال راجحة الكفة . وقالت يجذل : ألا كيف وقع منه الالتباس ،  
يا عتبة ، هل لقي فيه لينا وعطفاً ؟

فاوضحت الجارية : بلغت البلاط وامير المؤمنين يجلس للظالم . فما  
أوتيت حظوة الوقوف في ناديه . على ان منارة البربري حمل اليه ما تطلب  
مولاتي مجاهرته به . وعاد منه بالجواب الرضي . في العشية يفسح امير  
المؤمنين لمولاتي اليه !

فضاقت الخيزران بالجبور . ونهضت الى خدمها وحشمها تأمر فيهم وتنهى :  
أعدوا لي الكسوة ، والعطير ، والكحل ، والحضاب . واحذروا ان تغفلوا  
عن الظهور في بلاط امير المؤمنين في اكمل زينة . ونادوا لي هارون  
وزبيدة ، وليرفلا في ابي الحلل . علينا ان نجتاز طريقنا الى مشوى الخليفة  
في افخم موكب . ملوك يتهادون الى اكرم الاقيال !

وماج صرح اساس بالعسوالي . فتفتحت الخزائن عن حلل الحرير  
والبرفير المزركشة . وفاحت الطيوب ، فترنحت بنشوتها الانوف . ولعت  
الدمايح والاقراط والخلاخل تزيد في وضاعة الصرح الوهاج . وشخصت

العيون الى هارون وزبيدة تبين فيها الجلوة والقسامة . فكأنهما زهرتان  
خميلتان في مرج حفيل بالازاهير العطرة ، وقد كسفا كل ما حولهما من  
جلالة ولآلاء.

والتفتت اليهما الخيزران تقول بفرحة صياحة : لست ارى في بسطة  
الرواء من يضاھيكما وسامة وانسجاماً . فكأنكما ، وقد فقنا الانس  
ازدهاراً ، جمعنا الملاحة والمواهة من اطرافهما . وليس لهذه الفتنة المتوهجة  
فيكما الا ان تتجاذب وتتهاوى . ولكأني بكما على وجد وهيام ، بعد كل  
ما اختلج في عيني من تقاربكما وتمازجكما ، وقد تعادلتا ميلاً وهوى .  
وسنبدو الليلة في بلاط امير المؤمنين ، لنزف الى الخليفة نبأ تآلفكما ،  
ونستأذنه في زواجكما . فكونا منه على اخضال مظهر ، وقتون منظر .  
فالخليفة يستعذب روائح الشباب !

فضحكا . ولعت في اعينها ومضة الكلف . ان الخيزران من امرها  
لعلى جلي بيّنة . فالحب يمور في حناياها عاصفاً هادراً . وما كان ليلقى  
الصدمة ، وقد وقع في ارض لينة ، بمراع . واضاءت في وجناتها النضرة ،  
المتوردة ، العافية النضوح ، وقد اقتعدا بهرة الفتوة . وما كان الناظر  
اليهما ليرتوي من التحديق الى صباحتهما ، وكل ما فيها يرشح بالرونق والسمو .  
قالت الخيزران في نفسها ، وهي ترنو اليهما ، معجبة بالبرعين المتوقدين حباة  
وجهارة : هذان سلاحي في كل من يزاحني على امير المؤمنين . فهل  
لعين ان تبصر الكوكبين النيرين وان تتواني في الاستضاءة باشعثهما  
الساطعة ؟ ... انها ليساويان في طالنتهما دولة ريتا . فكأن امير المؤمنين ،  
وهو يضمهما اليه ، يبسط جناحيه على دولتين أيديتين ، دولة القوة

## ودولة الجمال !

والحنن عليهما تقتطف من معارفها الندية القبلية المشبعة ، وتقول بمندلع  
الارتياح : عشتا ، يا حبيبي ، قرة لعين الخيزران !

فهي تعقد عليهما بعيد المأمول . فاذا ركبا مقعد الخلافة فالامر في  
الفسحة العباسية امرها ، وليس لنأمة ان ترتفع بالمناوأة ، ولا لمهزة ان  
تتنكب عن جادة تشقها الخيزران ، اليمين الهادية ، والمشيشة الطاغية .  
وان هي اخفقت ، فيا ويلها ، وابنها موسى الهادي ، وامراته لبابة ،  
سبقيانها حتى عن المثول في حلقة السعداء المرموقين . فتعود الى ما كانت  
فيه من خمول شأن . جارية منسية . ويبيت صرح اساس ظللاً في قفر .  
ولكنها لن ترتضي هذا الهبوط الصاعق ، ويدها ستظل قابضة على الدفة .  
فلا ترخيها الا وقد تراخت عزمها ، واضحت غنيمه الفناء . واذا خطر  
لموسى الهادي ، وللبابة ، ان يقهراها ، فستثير عليهما حرباً اכולاً لا ينطفئ .  
ضرمها ، الا وقد ذهبها لها وقوداً . فليست الخيزران بمن ينام على ذلة .  
واذا اتفق لها ان تحترق في المناضلة ، فلن تأكلها النار الا بعد اجهازها على  
الحصوم الساعين لتقويضها . ومثت تقول في لفيها : هلموا الى بلاط  
امير المؤمنين !

وزحف قصر اساس الى مثوى الخليفة . وكان الشفق يلون الافق  
بجضاب من حمرة قائمة ، تدل على انطفاء الشمس في الدكنة . وسكنت  
بعداد واستنامت الى الراحة ، وكل من فيها تعب من كفاح النهار . بيد  
ان هذه الابواق النافخة ، والطبول الهدارة ، دفعت القوم الى الاستبجات .  
فمن يروّع هدوء المساء بالضجة السارة ؟

ووقف من هاجهم الفضول في الشرفات ، والسطوح ، والارصفة ،  
يتساءلون عن الباعث على التزمير والتطويل . فاي فرحة تهب الدولة العباسية ،  
فقتشجيتها ؟ ... على ان موكب الخيزران تمّ على نفسه . فدرى الجميع ان  
السيدة الاثيرة تشخص الى بلاط المهدي . وابتسم من يروقهم تعليل المواقف ،  
وقالوا مباسطين : عقد الصلح بين البلاطين !

واقاضت العيون بالنظرات المشرقة الحبيثة ، كأن بغداد مطلعة على  
خفايا السادة . فلا ينتفض مقر الخليفة بنبضة حتى يذهب لها في المسامع  
الصدى المرنان . وسار حملة المشاعل في طليعة الموكب يتلوم حملة البنود .  
وبدت الخيزران على بغلة مزدانة بالطنافس . وجارتها زبيدة فاعتلت بغلة  
اخرى . وامطفى هارون فرساً . ودرج في ائوهم الجند والخدم يلاؤن  
السبل والشعاب

وثقبت زعقات الابواق وقرعات الطبول اذن الجارية حسنة . فافودت  
من يستجلي لها النبأ . وما علمت ان الموكب موكب الخيزران الى المهدي ،  
حتى استدارت عينها هلعاً . وتضاعدت زفراتها . كل ما اجتهدت في توطيده  
تداعى ، كأنها تبني على الرمل . واحست باللكمة في قلبها . انها اعاجزة عن  
كسر شوكة الخيزران . وادركت فوراً ان امير المؤمنين سيجري في مشيئة  
السيدة المدللة ، الملجاج . وشعرت بالبرد يلسع كل جارحة من جوارحها .  
فالغلبة اقلت منها بعد كل ما رفعت لها من دعائم واوراج

وسمع المهدي الصخب والطين ، فشاقه وقعها ، وتلفتت اليهما نفسه .  
فالحيزران تتأيل اليه في طبل وزمر . ولمس مبلغ شغفها بالفخخة . فتأني  
الا ان تضارعه في أبهة الملك . على انه لم يغضب ، ومجى الخيزران اليه

اعاد الى نفسه منشور السكينة . فما يساوره التعب والقلق الا وهذه الرابعة  
بصيصه تقيم منه على خصام

ونفض لها وقد امست بباب البلاط . بل هو مشى اليها ، وقد توسطت  
ايوانه ، يعينها على الجلوس بجانبه ، في صدر المكان . قال يرحب بها  
بمختار الالفاظ : ألا نعم البادية لعيني بدل وروعة . والله ، ما ان تلوحى  
لابي عبد الله حتى تغور وساوسه ، وتمحي اشجانه . فكأن العيش لا يصفو  
الا وقد نعمت ' منك بلدونة الوثام !

فراقتها عذوبة المصالحة ، واعلنت بغبطة واجلال : مكاننا من الخليفة  
مكان الجسد من الهواء والماء . فاذا انجسنا عنا عدمنا الحياة . اندفعت الى  
امير المؤمنين في أبرّ تحية ، واندى بشرى . ونحن ، كما يعرف عنا ، لا  
نبغي سوى اعلان الطاعة ، وبذل الاكرام !

فارهف لها اذنيه فيما يستطلع بشوق : ألا ماذا تحملين الى المهدي من  
قشيب طريف ، يا منية النفس ، وبهجة العين ؟ ... أفيضي بشوادي النجوى !  
فالتفتت الى هارون وزبيدة التفانة الاكبار ، واعلنت ببسمة مشرقة :  
ليس لي الا ان اميل بامير المؤمنين الى الاستمتاع بمراى هذين الشادين  
البليين . اعتقد ان في طلعتهما ما يجلو الشجن عن الحسير المفؤود . فماذا  
يتراءى لامير المؤمنين ونحن نعقد لابنه ، على ابنة اخيه ؟

فتأملهما المهدي بفائق المسرة . انه ليستنشق فيهما عطر النعيم . وجلسا  
قبالته لا ينسان بكلمة ، مكتفين بخضيب البسمات . وراق امير المؤمنين  
فيهما التآلف والاتساق ، فاعلن : هما درتان في خاتم ، يا خيزران . فالقسامة  
في كل منهما تمة للآخر . فكأن لا غنية لبعضهما عن بعض . كالعينين ،



والشفتين ، والحدين ، والبدن . اصبحت في الاختيار والجمع ، والله . ان  
زبيدة لهارون اشبه بالزهرة في الصدر . ألا اقتربا مني . حيا كما الله !

فقاما اليه يلويان في حضرة العنق . فامسك بمعصم زبيدة ، ابنة اخيه  
جعفر ، وجذبها اليه ، وهو يقول : في قامتك شمم ، وفي باصرتيك موئل  
للنعمة ، يا ابنة اخي . ارى هارون هنيء الموئل وانت في حوزته ، تهين له  
الجدل والنصرة . جعل ربي ايامكما مرتع خير وصلاح ، وافاض عليكما  
باليمن والبركة !

وقبلها في جبينها . واهدى اليها من بيت المال عشرين الف دينار ،  
مهرأ لها عن ابنه هارون . وقبض على ساعد هارون قائلاً بمستفيض البشاشة :  
أأنت من لقبك جدك ابو جعفر بالرشيدي ؟ ... والله ، ان للرشد في جنانك  
ونهيته مقرأ . ما لاح لي منك غير الخضوع والهدى . فلا حرد ، ولا غنج .  
وهو ما يمنح بي الى الايمان بتوفيقك في كل خطوة . ارجو ان يحلفك  
السعد في العقد لك على ابنة عمك الفضلى !

واختمرت اساريره بالبهجة . فما اسمى المشهد تغلي فيه الفتوة على كرائمها .  
والتفت الى الخيزران يقول : ان في الرشيد لطالع اقبال ، يا خيزران .  
سوف يتسع الرغد في عهده ، ويعمّ الجبور . أفي لا تمثله في خطوة العز سيداً  
وازناً ، خطيراً !

وضه اليه يعانقه ، ويتبين في ألواح كتفيه مكان المنعة . فودت  
الخيزران لو خلع عليه ولاية العهد ، واستلها من ابنه الاكبر ، والريح  
مؤانية . وكادت تذيع شهوتها . الا انها خشيت العودة الى المناكرة .  
وذكرت وصية يحيى البرمكي . فانشئت عن اضرام النار بعد خمودها .

واكتفت بالقول الرفيق : دام لنا امير المؤمنين سندا نتكىه عليه في ما  
يرفع من شأننا ، ويجود علينا بالقوة . هذان غصنان رطيبان في دوحتك  
الملاء ، فتدبر امرهما بما ترى فيه صونها من الشدة . ما كان لهما ان يخافا  
جور الدهر ، وانت ترعاهما بسديد الحكمة ، وجزيل الحنان !

فنادى خادمه المفضل منارة البربري ، هاتقاً به : منارة ، عليك في  
صباح غد ان تنادي اليّ وزيرى ابا عبد الله الاشعري، كي ينشر على الناس ،  
في وسعة دنيانا ، نبأ العقد لهارون الرشيد على ابنة عمه زبيدة ، ابنة اخي  
جعفر . فالافراح ستدوم في بغداد شهراً كاملاً !

وصاح بالفتى والفتاة: هنيئاً لكما ما تحييان من يوم أغرّ، وما يرقبكما  
من غد ازهر !

واستوضح الخيزران: أراضية أنت، يا ذات الأمانى الرحاب، عما أُرْمنا؟  
وضحك ملياً . فما لقيت غنى عن الموافقة . حسبها الآن ان تنعم برضى  
المهدي وعطفه لتسد عليه المجال الى خصومها . وبعد ذلك سوف تنفذ منه  
الى المطمع الانور . قالت : انى لراضية كلما منحني امير المؤمنين منه  
الرفق والسماح !

فادهشه فيها اللين في النبوة ، والاحتشام في النظرة ، وقال مفاكهاً :  
لكأني اراك تبدلت ، يا خيزران !

فتنهدت واطلقت لاشجانها جهر البيان ، معلنة : ان الزمن ليفرض  
علينا التبديل ، يا امير المؤمنين ، ما دامت يدنا قاصرة عن المرجى . والحمد  
لله على كونها قاصرة في عهدك ، وانت ذو شعث بنا ، لا في عهد سواك ،  
فتعرونا الشامة الذابحة !

وحوت لهجتها وكلماتها من مَوّ الالم ، وسخيّ التنديد ، ما زعزع كل  
قوة في كبد امير المؤمنين ، فهتف : وحقك ، يا خيزران ، لست بمن  
يريد لك في جلالك المنقصة . فانت ابدآ في متآلق الرفعة ، سواء عاش المهدي  
او هلك . فلن أبقى تحتك سرير العز مصدوعآ ، ولا متقلقلآ ، بل يظل الامر  
امرك في كنفني ، وبعء محو ظلي . لبشهد الله ان ليس للخيزران في  
نفسى عديل !

فاذرت الدمع . أيجهل ما كان منه في ابنها موسى ؟ ... فهفا اليها هوي  
على عنقها بذراعيه ، ويطفىء بصدرة لهبة جزعها ، معلناً بتأثر لهيف :  
أنبكين ؟ ... ما كنت احسبك تبذلين عبراتك ، وقد اعطيتك مني كل ما  
استطيع . أتميلين بي الى مغالبة الانصاف في ولديك ؟ ... ولكن هي بي  
بعض ما يصون في ضميري مناعة الحق ، ورجاحة العدل !

فلم يكن لها ان تكابر في ما يدعوها اليه ، والثمرة لم تظفر حتى الساعة  
بجلاوة النضج . ورأت ان تسكت ، فلا تؤيد ولا تعارض ، وان تسكن ، فلا  
تنألم ولا تنوح . يكفيها ان تخطو الخطوة الاولى الى قبر موسى ولبابة ، فتزفّ  
زبيدة الى هارون . والايام طويلة لبلوغ الامنية على رجبها . فلن يجيب ، من  
يعتمد على الحنكة والتأني ، في اجتياز الطريق

بغداد تدرج على مستفيض الذوى ، والبشر يموج في معارفها ويتوسد  
حوانيها . فالخليفة المعطاء ، المباسم ، يعقد لابنه هارون الرشيد على ابنة  
اخيه زبيدة . وعلا التكبير ، كأن في النبأ ما يبهج القلوب ، وتترنح به  
الاعطاف ، وكان فرحة الخليفة غبطة الدنيا

وجاوزت المسرة بغداد الى بهرة الافطار المترامية ، المستظلة العلم  
العباسي الاسفح . فان نجائب البيت السائد لتنزل جوارح الرعية بلسماً وسلوى .  
وشخصت الابصار الى البلاط ، والجدل يطفو عليها ، ويمتد الى اعماقها ،  
فيلهب فيها النشاط ، كأن الخليفة الطروب تفض عدواه في كل نفس من  
نفوس الامة المنحنية في عطفه ورضاه

وهفت الوفود الى القصر ، والى صرح « اساس » ، تؤدي فروض التهنتة .  
عاش الاميران القتيان في ظل امير المؤمنين . وهارون الرشيد ، البليل  
العين واليد والمبسم ، مودة في الاثثة صدف عن اخيه موسى الهادي .  
فاندفع القوم الى مجاملة الخيزران ، محور العقد ، متهاكين على ابداء الجبور  
والتبريك . هذا يوم صفا فيه العيش ، وطاب المرح . وليس في بغداد من  
يجهل سلطان الخيزران الباذخ ، واثرها الركين في نفس المهدي . بل ليس  
في الرحبة العربية ، على مديد وسعتها ، من لم يلم بالخازات المستفحلة في  
البلاط . فلا موسى على مذهب اخيه هارون ، ولا الخيزران على هوى ابنها  
البكر . وهمس ذوو الرأي والنظر ، وفيهم الحفئات من المتخابين : ما  
اقدم على عقد هذه الصفقة غير الخيزران . ومنها ان تصدم لبابة باختها

زبيدة ، كما صدمت موسى بشقيقه هارون . فهي تحاول ترسيخ ولاية العهد في الرشيد ، وسلخها من الهادي . فالأوتار في البلاط على فوران . والمهدي تتجاذبه قوتان جياشتان لا تلتفتان الى مهادنة ، وقد نبا عنهما كل لين !

ومال الظن بالكثرة الى ترجيح كفة الخيزران ، وما كانت لتشيل في نزال . فالسيدة المتغلغلة ، في خاطر امير المؤمنين ، تمكك النصر في المنافرة . فان يكن ابنها الهادي صلب المكسر ، فستحاربه بهذه الصلابة الناتئة فيه . وتعرضه على عين ابيه غضوباً ، ارعن ، فطير الرأي ، مقوضاً ، لا بانياً . وندت عن هؤلاء المغالين في التخمين ان قمة لبابة وحسنة ، وان للاثنين بعض الدالة على امير المؤمنين . فاذا رام ارضاء الخيزران ، فلن يتجاهلها . ولللبابة من الفطنة ، وقوة البادرة ، ما يرضى عنه المهدي . ولحسنة من سوود الفتون ، ما يذكره ابو عبد الله بمستشف الخين

وللبابة وحسنة نهدتا الى المؤانسة . فبال امرأة موسى الهادي ان تجمع الخيزران ، بين هارون وزبيدة ، لتناهضا وتكايدها . ففزعت الى الجارية حسنة ، السيف المسلول ، تصاول بها الخيزران . وما غاب عنها اي مكانة للجارية المغناج ، الجليلة الصبحة ، من امير المؤمنين ، وهي تنلو الخيزران في أسر اللب ، واجتذاب الشهوة . وحسنة ، وقد اغضبها ان يتناساها محمد المهدي ، بعد تلك الليلة العابقة بجميل المخالصة ، لم تمسك عن الاغاثة . فاستطابت التحالف ، ليقينها انها لن تقهر الخيزران ، ونحزها ، بسوى مناكدتها في اكرم بغية عليها

وعالت لبابة ، وقد ضمها مجلس نهدت اليه السبل ، بقولها الناضح بالضعف : لا ارى هذه الجشعة على اكتفاء ، وفاك الله الطمع . فكل ما في

هذه الدولة السامقة، من عز، وجاه، وخير، لها. وقد حجبت امير المؤمنين،  
تأبى الا الاستئثار بكل تليد وطريف. وليس لسواها الا ان يعضّ التراب،  
كأنها وحدها تعيش !

وهذا الرأي في الخيزران، تبديه حسنة، لم يكن يشطّ عن نظر لبابة  
الى امرأة عمها المهدي، وأم زوجها الهادي. بل لم يكن يخرج عن آراء جميع  
من ازدهت بهم دولة العباسيين من ارباب الحصافة. كلهم قال في الخيزران  
انها تتوئب الى احتكار كل جليل. وافصحت زوجة موسى الهادي، وهي  
تكابد واخذ الفيرة من اختها زبيدة، المقبلة الى مشاطرتها سنى البلاط، عن  
هذا المعتقد، معلنة بنقمة: ليس بيننا من تخفى عليه مطامع الخيزران،  
يا حسنة. فان هذه المنبثقة من الرغام تتوقد حينئذ الى المعالي. ولقد  
ادرستها. على انها ما تزال تغص منها بهباءة يمضها ان يستمسك بها الهادي،  
وهو ابنها. هذا ابنها البكر، يا حسنة. غير انها تكرهه. ولست ادري  
ما يحفلها على كرهه وقد حبلت به، وارضعته، وناغته، ولقيت فيه متعة  
ازدلاف الخليفة اليها. انها لتشتهي له العدم. فهل سمعت بوالدة تريد فلذة  
كبدها على الملكة؟... موسى لا يركن اليها، وهو يمقت فيها سيطرتها على  
ابيه، وتدخلها في ما يعدو طورها. على ان سعيه لردعها عن طغيانها لا  
يجيز لها خلق عاطفة الامومة فيها. أتكون اشبه بالفهر، فتأكل اولادها؟  
فاوضحت حسنة بجفوة دلت على شديد كرهها لربة الامر الكشود:

هذه امرأة تشدّ عن طباع النساء، ايتها الاميرة الحليفة. فنشأت لتكون  
رجلاً. بيد انها رجل يتكالب على الاثرة. وتجمع به احواله الى الابتلاع،  
دون ان يصاب بتخمة. فالحسن والقيح، والصلب واللدن، والحلو والمر،

تهضمه المعدة الطحون ، كأنها حجر الرحي . فعلى امير المؤمنين ان يسكب عليها منته جمعاء . وليس لسواها ان يبلى ريقه بنضاعة . ويدهشني في ابي عبد الله هذا الاستسلام الاخرق الى امرأة تدفعها شهواتها الى الاستعلاء ، وفرض المشيئة . هل عمي سيدنا عن استباحتها المدى ؟

وتناثرت الاحقاد نبالاً جامحة . ولن تتلاشى الا يوم تتلاشى الخيزران ، وتبيت جيفة في رمس . قالت لبابة : ولكنني سمعت عنك ، يا حسنة ، انك تتكئين على وسادة الدلال في رضى الخليفة ، وان امير المؤمنين يجد بجانبك وثير الرفاهة . فما بك تتململين من البرودة...؟ هل استطاعت الخيزران ان تسلبك ما يتلظى في ابي عبد الله اليك من لاجع الحنين...؟ هل وفقت الغربية عن نبعة النبل ، لحبس دفقة الشغف ، الناهرة من سويداء الخليفة ، على الوقوف ببائها لا تعدوه ؟

فتأوهت حسنة ، وقد اذاب فيها الاسى متعالي الزهو . واطلقت الالفاظ مخضبة باللهفة ، فقالت : يتراوى لي ، يا ابنة الخير ، كلما ضمني المهدي بين يديه ، اني نعمت منه بالقلب ، والنظرة ، والنهاية . غير انه لا يكاد يرحل عني حتى ينسى . بسمة من الخيزران تودي بكل ما يجيل اليّ اني بلغت من نفس هذا الوديد المضطرب الشوق . فلا يذكر حسنة الا وهو يدفأ بلهبة انفاسها . ومتى يذكرها...؟ عندما يجانب تلك ، ويشيح عنها ملذوعاً بغطرستها . ولكن الاشاحة لن تطول ، وللخيزران اساليب في الجذب والعتي لا تملكها انثى . فما ان يبرح هذا المثوى حتى تتلقاه ببشاشة واستهواء تقحو بهما من ذاكرته كل ما غرغ عندي من لذة . فتخلق له جواً من المرح يذهل به حتى عن نفسه . ويبيت لا يرى في قلبه وعينه غير تلك الجامحة الى استعباد

الدولة العباسية وخضخضتها بما تنفث من إحن بين الاخ واخيه . أبشخص لك ان بسطة هذا الملك ، المتناهية القرار ، سبقي في عصمة بني العباس ، والحيزران تثير الواقعة بين موسى وهارون ؟ ... لا ، يا ابنة الاكرمين ، هذه الدوحة الغضيرة لن تجبه ما سوف يهب عليها من عواصف ، ما دامت الحيزران تضرم العداوة في القابضين على النواصي . والهفي على السدة الوثيرة تنقوض دعائمها ، وعلى التاج يتدحرج عن المفرق العريق في النبل والمكرمة . امرأة التقطها البلاط ، من قارعة الطريق ، توشك ان تثلم وتلوي ما تعب العباسيون تسعين سنة في استعادته من غاصبيه . امس كان المهدي في مقصوري ، تعني له القيان ، وترقص له ذوات الطلالة ، فعاهدني على البقاء على كلفه بي . الا انه ما بصر بالحيزران تمس في عينيه حتى شغل بها عني . أتخفظ له الحيزران ومضة من شعلة اخلاصي ؟

واغرورقت عينا حسنة . ولعت فيهما حبات من الدمع ذهب لها بصيص تبينت منه لبابة شقاء الجارية في حب امير المؤمنين ، ونفرتها المستعرة من الحيزران ، الكارعة في ضمير المهدي حتى لا تبقي منه مثالة . وتألّت زوجة موسى الهادي لبؤس هذه الجارية الريتا ، المغبوظة على نعمتها ، وهي الشقية في ما يجلع عليها امير المؤمنين من عطف ورخاء . واجلّت فيها حرقه الاسى ، فامسكت عن ان تهزّ سكوتها الحزين بنامة . غير ان حسنة لم تطق الصمت ، وهي المكلومة خاطر ، فافاضت بالقول الجازع ، المتظم : حدثه عن موسى الهادي ، يا ابنة جعفر . قلت : « ليس لامير المؤمنين ، لاسترضاء امرأة ، ان يرجع عما اقرّ . والا استهان به ذور اللب ، ورأوا فيه سيداً لا يملك امره ! » . فعالتني ان كلمة جهر بها لن يعدل عنها ، وللحيزران ان



تتحمى محاولته في ولاية العهد اذا شاءت ان تنأى بنعمتها . ولست ادري ما يكون منه اذها بعد التفرير بالعقد لهارون على زبيدة . فما هذا الزواج ، تتوفر الخيزران على إحكام عروته، في مصلحة هارون ، يا ابنة الهداة . بل في مصلحة الخيزران نفسها . فهي من تتزوج ، لا هارون ولا زبيدة . جمعت بينهما كي ترفى بهما الى طلبتها . فان هارون حاتم في خنصرها . وزبيدة ابنة أمة نظيرها . فلا تلقى منها ما تعاني فيك وفي زوجك من ازوار . على ان هذه الوثبة ستتخطم بها رجلاها . بنفسي ساحول دون الطماح الوفيح . فليست الخيزران الدولة العربية بأسرها كي تسود على هواها . فالمبوذة عدت طورها بمراحل شاسعات ، وما زالت تلجّ في التماس الارحوب . فما تعقد لهارون على زبيدة الا لتطاولكما في ولاية العهد ، وتعزلكما عنها . فاحذرا لسعة العقرب . انها لمنتفخة بنقع السم !

فارجع لبابة ما تزجي اليها الجارية المنيفة . على انها لم تكن تجهل ان حسنة تفضي بالواقع اليقين . فالصدق ما تبدي . لم تقدم الخيزران على العقد لهارون على زبيدة لارضاء القلبين المستهامين ، بل لتضم موسى ولبابة . فاذا عالنها المهدي ان ابنه موسى تزوج لبابة ، ابنة اخيه جعفر ، قالت : « ولكن هارون تزوج زبيدة اختها ، فلماذا ايثار ذلك عليه ؟ » . وايقنت لبابة ان المناوأة خرجت من الظلمة الى النور ، وكشفت عن جبينها العريض تنضض جهاراً . قالت : لسنا غافلين عن اللؤم الفاشي ، يا حسنة . واننا لنمدّ اليك يدنا لنستجد بك على الخيزران ، وما نخفى علينا منزلتك من امير المؤمنين . وانت تعلمين ان في فوز الخيزران قهرك ، وافول عزتك ، وفي اذلالها سعدك ورفعتك . فكوني عوناً لنا عليها ، والغنيمة قسم بيننا !

فأفاضت حسنة بصوت اجتهدت في دفع البجة عنه، فما اوتيت القدرة:  
لن اتردد في درء الغاشية . فلا بد ان يقبل اليّ امير المؤمنين فتكون بيننا  
وقفه لن نخرج منها الخيزران سالمة . ساحطها حتى لا تبقى منها جارحة في  
عافية . فلست عاجزة عن دهائها ومكرها أسيطر بهما على نهبه المهدي !

وفوجئنا بموسى الهادي . درى بخلوتهما فاقبل ينضو عن احقاده الستر .  
وجلس ازاءهما وكل ما فيه على جفوة وانتفاض . هذا العيش لا يبيح له  
الهناة . ما يزال في العشرين ، والاشجان نوائبه بعنف وسخط . كأن  
المقادير ناقمة عليه، وليس يعرف لها عنده تاراً . فالقطيعة ساحطة الامد بينه  
وبين أمه، وما ترتضيه الخيزران ولياً للعهد، وقد فضلت عليه اخاه هارون .  
مع انه اكبر من هارون ، وهو ابنها البكر . فهل من أم تستنكر ابنها  
كأنها لم تلده ، ولم تخلع عليه من حنوها فضلة ؟

وتأجج الغيظ في الهادي، الفتى السامق القامة ، المنيف القسامة ، المطلّ  
على الدنيا بآمال عذاب . دعته القدرة الى ركوب ولاية العهد في دولة تكاد  
تنشر جناحها على الكون المستطيل، فعاندهت امه الحظوة، تأبى اقرار الامور  
في مظانها . فهل من أم تقسو على ابنها حتى تحرمه السعادة والرفعة ؟

وشعر موسى بانه اساء الى هذه الام في طماحها . بيد ان الاساءة لم تبدر  
منه الا وقد سعت الخيزران لتقوده في مهب شهواتها . فرغبت في ان يكون  
بين يديها آلة صماء ، لا يبديء ولا يعيد . وهو بما تتمرد عليه نفس الفتى  
الحرّة ، وقد رام اعلان مشيئته غير مبذول المقادة . فان تكن امه ولده  
عبداً في حشها ، فلقد طاش معتقدها . ففي هذا الابن من صلابة الرأي ،  
والاستقلال بالمهزة ، ما لا يطبق فيه مكابرة . واستعر النزاع بينه وبين

امه . وخافت امه على نفسها من وثبته الفيحاء ، فاعتزمت اقصاه عن ولاية العهد لتكتبها لشقيقه هارون ، المستنيم اليها في كل طلبه . ستخلع العاصي لتقيم المستكين . بيد ان المهدي صاول هذا الشوق الملح في الام العاتية . اما الآن ، فهل يمضي في المصاولة ؟ ... الآن ، وقد جمعت الخيزران بين هارون وزبيدة زوجين وديدين ، هل ترسخ قدم امير المؤمنين في رد لاجحة امراته الظلوم ؟

ما يقن الهادي أن اباه يملك مضاء الايمان في المكافحة . فلا بد من الزلق في حفرة الخيزران . وهذه الحشبة اقلقت في موسى رباطة الجأش ، فتطارت فيه النزوات الحمر . وطاف في بغداد بوجه عبوس ، وعينين عمشاورين ، كأنه لا يبصر احداً من هؤلاء المستبشرين خيراً بالعقد لهارون على زبيدة . بل كأنه يبصرهم فيمضه ان يشاهدم في حفي الجذل . ونأى عن بغداد يلتبس العزلة في الفيافي ، فلا يبدو له خيال . على ان الوحشة نفسها لم تكن ترضيه ، كأنه لا يجد في دنياه ما يبعث فيه الانتعاش والتؤدة

ونظرت اليه امراته لبابة نظرة تنضح بالاسى . على انها خافت عليه من خشونة الالم ، فقالت ترفته عنه : وعدتنا حسنة بالنصرة . فهي معنا على الخيزران . وعاهدتها على تأييدها لدى امير المؤمنين . فنكون واباها يداً واحدة في دره الطغيان !

فجلجل من فم يعربد فيه الضغن : هل من نكبة غشوم تعادل هذه النكبة ، فاجد في أمي عدوي ؟ ... لقد استشرى جشع الخيزران . فاذا سكتنا عنها طحنتنا بانباها المواضي . ومن الجبن ان نسكت . فان لم نكن على قدر المغالبة ، فلسنا على جدارة بالحياة . بات التزوال بيننا وبين الخيزران

على ضوء وعلن . واذا لقينا في حسنة النجدة، فلقد استندنا الى دعامة مكينة .  
ومن الخير حسنة ان تقف في جانبنا ، وليس لها سوانا من اعوان امناء .  
فالمصيبة جمعت بيننا . غير انها ستجري بنا في التألف حتى المنتهى . نحن في  
كفة ، والخيزران وهارون وزبيدة في كفة . وسنرى ايها ارجح !

واطلق زفرة التهم ، وجهر بامتعاض : أتريد الخيزران ان تحصر ولاية  
العهد بذلك المخثث ، الاثمل ؟ ... ألا من هو هارون ، هذا الرعيد  
الشبيه بالنساء ؟ ... انه ليليق بالحدور لا بالعروش ، بالاختباء في اذيال أمه ،  
لا بخوض ساحات الطعان . شفرة السيف تذهب عنه بالرشد . فيبيع حياها  
كانكد جبان . هذا خنثى ينبو عن فحولة الكمامة !

ونفض يسك بقبضة حسامه ويهدر زاعقاً : والله ، لولا حرمة الامومة  
والاخوة ، لانقضت الساعة على الخيزران وهارون اذري منهما الانفاس !  
فنهض اليه حسنة ، وقد راعها فيه بهاؤه ورجولته ، وقالت وهي تنشر  
في منخره فوح طيوبها : لا تغضب . لن نكرهك على امتشاق الحسام ،  
وسنكفبك اذى شانتيك . فلا الخيزران ولا هارون يقويان فيك على احراج .  
ان يكن امير المؤمنين يجاريهما في عقد الزواج ، فلن يوافقهما على ما يرومان  
من ايلام . ولاية العهد لك على رغم الكارهين !

فنبه ، وما زال على احتدام : الزواج المعقود يبيت لنا الدواهي .  
فالخيزران تضي فيه الى بغيتها الفاجرة . هي تريد ، وقد زفت زبيدة الى  
هارون ، ان تعدله بي . والمهدي قد يلين . أتجهلين المهدي ، يا حسنة ؟ ...  
متى كان يتاسك حبال المرأة الجياشة الجبروت ؟ ... اسمعه يقسم بالمحرجات  
على الثبات في ما افضى به . وما ان ينغش في لحظة خيال الخيزران حتى يلتوي

عما أبرم . واخشى ان يقف في ولاية العهد وقفته من كل ما تنهد أُمي  
الى التدخل فيه . فيعزاني بعدما اقرتني . وعندذاك ، يا حسنة ، لست تدرين  
ما يكون . وانا نفسي لا اريد التفكير في ما سوف يكون . على اني ،  
والله ، سادث في الخِلافة سابقة خطيرة لا ارى الوجه العربي الصحيح يطعن  
اليها . والدافع الى الاضلولة امرأة رغناء ، ورجل ضعيف . امرأة تنزع  
الى الخروج عن حدها كامرأة . ورجل يغلبه هواه . فلا يستمسك ، حبال  
عائبة هوجاء ، بالرأي الاصيل !

فجلجلت حسنة : تبا للمرأة المستسلمة الى الطماح الاغلف . فما كان  
اجل الخيزران لو عقلت وعدلت . الا ان نظرتها الى الدنيا تعدو كل امد .  
هي ، ثم العدم . فليس بعدها لروح حساب . ولست ادري كيف يبيع  
امير المؤمنين امره لهذه الطامعة في حجب الجميع عن بوه ، وحنانه . على اننا  
سنتعاون على بتر العود الاعوج . انت ولي العهد ، لا هارون . لا كانت  
حسنة ان لم تذلل لموسى الهادي كل حائل عنود !

وقالت لبابة والغيرة تلسعها ، فتبدد فيها طول الاناة : علينا بان نسرع  
في التبديد . فنظهر للمهدي أن الخيزران تريد بالدولة شراً ، وهي تجهز هارون  
لمنصب الخِلافة . ومن الضرورة ان يسقط ، في ظن أمير المؤمنين ، أن تدبير  
زوجته الاثيرة يمهد للفرس في دنيا العرب ، وأن يجيى البرمكي هو الموجي  
والمنظم ، انتصاراً لدم ابي مسلم الخراساني ، المنذر بحسام جدي المنصور !  
فصاح الهادي ، وقد شافه الرأي المعلن : أصبت ، يا لبابة . سنبلغ أمير  
المؤمنين أن الدعوة الفارسية تجول في البلاط جولتها الفتاكة ، وان يجيى  
البرمكي ، الموكل اليه امر هارون الرشيد ، احد اركانها الابرار ، وهو من

المقنع الحراساني ، الثائر في الانتقام لابي مسلم ، على مكين صلة . ليكن المهدي على حذر . ولنا من حسنة اليد الصاعدة في البث والاعلان . فتذيع في سمع ابي عبد الله ما يبثت ، في ليل أبليل ، الكارهون للعرب . دم أبي مسلم الحراساني يصرخ مطالباً بالثأر . وما العقد لاخي هارون ، على ابنة عمي زبيدة ، غير المقدمة للتقويض والنسف !

ورسا في طلعه البشر . هذا كلامٌ يبقي في نفس المهدي الاثر الوجيع . بل هز هذه النفس حتى يذهب عنها بكل أصالة وحلم . ونبر الهادي بطوبه الميآد : ما رأيك ، يا حسنة ؟ ... أما اجادت لبابة إحكام النصلة ؟ ... انها لتخرق بها اكباد الحائقين وتصيبهم . فالمهدي لن يرتضي التنكيد ، وهو الغيور على سلطانه ، غيرته على دينه وحرمه . فما ان يلقى اليه ان الخيزران تنتصر للدعوة الفارسية ، حتى يخلعها عنه ، ويحبسها في صرحها ، ويقم عليها نطاقاً متمسكاً من الارصاد . فهل لك ان تتولي ايغار صدره عليها بما تروين له من مشاينها ، ومن دسائس يحيى البرمكي ؟

ووقعت أعين الهادي ولبابة على شفتي الجارية البانعة الطلالة . أتوافق ولي العهد وامرأته على الطلبة الوعرة النهج ؟ ... أملك الجراة ، وثمة الخيزران الداهية ، المترامية السيطرة على مهجة امير المؤمنين ، والواقفة بمن حولها على احتراس ، كأنها موقنة ان لها من خصومها وحاسديها قوة تسعى بها ، وتعكر عليها نقاوة الجو ؟ ... وبلعت حسنة ريقها . أتحاول ، وفي المحاولة خطر يتوآب مزجراً ، ولا بد فيه من التحطيم اذا زلت القدم ، وطاشت النبلة ؟ ولكن الاعين الاربع ، الراسية النظرات في مبسم الجارية الندي ، تلح في الاستطلاع . وتراوى حسنة ان المجازفة لا غنية عنها ، والا ظلت حيث هي

من الذلة . فسبقها ابدآ الخيزران في مودة امير المؤمنين . وهو بما تضيق  
عنه الجارية المستميتة في الفخفة والمجد، شأن الخيزران في السؤدد والطفيان .  
وجنحت حسنة الى التأييد . سناهض الخيزران حتى تقنياها ، او تقنى . إما هي ،  
وإما السيدة اللوم . فالاسترخاء يطيحها ، ويحط من مكانتها . ولقد اخذت  
نحس بالمهانة تلطمها كلما نأى عنها المهدي ، ليرتمي في موالاة أم ولدبه ، الهادي  
وهارون

قالت حسنة تستطيب الاقدام على التهشم : سأقصّ على امير المؤمنين  
ما تشتهيان من ضروب التحريض . فلا يحيد عن الخطوة . بات البلاط لا  
يتسع لي وللنهامة . فإما انا ، وإما هي . اراني صبرت طويلاً على القهر المضني .  
في اقرب موعد سيعلم المهدي أن الخيزران صنيعة الفرس ، وأن يحيى البرمكي ،  
نصير المقنع الخراساني الثائر ، يذكي النار ليهدم الدولة العربية ، ويعبد الى  
بني قومه مجد كسرى ، وأبهة الابوان . ما ان يبدو ابو عبد الله ، في مقصورتني ،  
حتى اطلعه على المكيدة المبطنة بالعدر والويل !

فاطريتهما الموافقة . ستتهنه عنهما الخيزران الناهدة الى حرمانهما روعة  
السيطرة ، ورحابة العز . كأنهما في خاطرهما حرية ناخعة . وجهر الهادي  
بمديد الابتهاج : عشت ، يا حسنة . ليس يخفى عليّ ما ستعرضين له نفسك من  
ملمة . على ان الفوز يرقبك . فلا تخشي . نحن في جانبك على المدى . اذا  
نالك من أمي الحسف ، فلن نسكت عنها . وليس موسى الهادي بمن يكلّ  
عن مناوأة الخيزران ، والوقوف بها عن سعائتها وبذخها . فسيعلم جميع من  
تضمهم هذه الوسعة أن الظلم وخيم المرتع ، وأن من لا يشحّ بوجهه على  
اللطمة ، لطمته يذوّ قاسية . لا ، وحقك ، ما الهادي بالقصير الباع ، ولا

الابله ، كي يطأطأ الرأس لامرأة يقودها الزهو الاهوج . ليس موقفي من  
أمي بمختلف عن موقفك منها ، يا ذات القسامة . واني لاردد قولك فيها :  
« إماما ، وإماما هي ! » . فاني خليفك في الوثبة . لن يصيبك خدش الا  
وقد هدمت الدنيا على جميع من فيها . كوني على ثقة أيده بموسى الهادي ،  
الغازي . بالبعث والزراير !

ورشح مقول لبابة بالبيان المطمئن : حسنة ، سنجيئك بالادلة على كون  
الخيزران تنصر الفرس على العرب . فما دام اذئاب ابي مسلم الخراساني يصبون  
الزيت على النار ، لزعة الدولة الناشئة ، فالفتن تحفز للاتقاد في خراسان .  
والقوم ، هناك ، يرون في ابي مسلم صاحب الفضل الغلاب على اقالة العباسيين  
العثرة ، وإبادة الامويين ، اصحاب الامر في العهد المطوي الكتاب . فلاعتداء  
عليه ، وضرب عنقه ، بتحريض جدي ، ابي جعفر المنصور ، عدتها الفرس  
تطاولوا عليهم . فغضبوا وانتصوا منا على حقد فيتاح ، سنعاني وشيكاً مضه .  
فان هم رهبوا الشعب في عهد المنصور البطاش ، الطاغية ، فانهم ليتجرأون  
عليه في زمن المهدي الحلیم ، الرفيق . وليس من المستبعد ان يكون يحيى  
البرمكي على تواطؤ وهؤلاء السود الضائر . فيجوك للسلطان العربي احولة  
يخنقه بها . ويعتد الخيزران آلة مسيرة في بلوغ المأرب الوغد . وهل لنا  
ان ننفي عنهما الدس والنكال ؟ ... انا اعرف الخيزران ، يا حسنة . انها  
لتببع المهدي ، وما يرتع فيه من صولة ، لادراك مقصد من مقاصدها الباغية .  
فإن تبسط يدها للفرس في قبرنا ، فليس في البادرة ما يبعث على الدهش .  
اطلعي على سريرتها الدنيئة امير المؤمنين ، ولا يقلقك أخوف من الكذب .  
فما انت بالكاذبة ، والله . وما نحن بمن يجنح عنك وقد شدتنا ساعدك .



فستقاسم جميعا السراء والضراء. إن اخفقت ، فلن ننكر لك ، وسنجاهر باننا نؤيدك في كل ما أذن به منك ابو عبد الله . وإن تقلحي ، فالظفر لنا معاً ، وستنعمين منه بالحصة الراجعة . حسبك أن تذلني نخوة الخيزران !

وباياعاها على المساندة . لن يحجما في سبيلها عن جهد . ورأت حسنة ان لا تتردد، فوضحت: ساندفع ملياً في ما تدعواني اليه . فالحاجز دون استقرارنا يعطف امير المؤمنين لا معدى فيه عن الانهيار . فاحدث المهدي بما يقلقل اعدائنا ، ويديجهم لفتكة حسامه . فالخيزران تستند الى الفرس في مناكدة الهادي الضليع . وقد زخرف لها يحيى البرمكي محالفتهم، كي تقوّض الدولة العربية ، وفيها كُتبت ولاية العهد لموسى . وتجاهد في انشاء دولة فارسية يقبض على زمامها هارون الركيك. هذا كله سيسقط الى امير المؤمنين . ولا احسبه ، وقد ذاع في سمعه النبأ ، الا سيهوي بشفرة مهنده على هامة الخيزران فيفرعها . ويحسم عنق يحيى بن برمك، وهو من الزنادقة الكفرة . وإن ابى أن يصدقني، دلته على اللهية المتصاعدة من احشاء خراسان ، تهد بانفجار البركان . والا ابحت له عنقي كي يستأصله . ولن اتململ من حلول نغمته بي ، وقد اصيحت بشوق الى الخلاص بما انا فيه ، إما بالموت ، وإما بالفلاح !

فصاح موسى ولبابة معاً : بل ستفاجين . فالنجح مكتوب لك . ان الفتنة لتندّر بالشبوب في خراسان . ولا نرى يحيى بن برمك ، ذلك الثعلب الحثيث ، بريء الذمة منها !

ورعد موسى متوعداً : والا ، يا حسنة ، والا ايها الروعاء ، الجديرة باحتلال قلوب النخبة من ارباب القدرة، كان لموسى الهادي ان يستعين على

اربه بالقوة القاهرة . فاجمع اخواني ، واهجم بهم على امير المؤمنين في كبد بلاطه ، واكرهه على الرسوخ في ما اقرت ، وعلى نفي الخيزران من بغداد، بل من المطمئن العربي. فما للحية الرقشاء ان تخرج بالحق عن نصابه، وتفتي بالظلم في دولة يدك الحيف والعدوان صرحها الاشم !

وارغى وازبد وهو المصاب بكبده ، المروع في اغلى امانيه . وود لو استطاع ان يطاول الخيزران في أيامها ، وان يقف بها عن التشنيع عليه ، والنزول به عن مرتبة رفعه اليها ابوه . ولكنه ما يزال يصون هذه الام السؤوم من نعمته ، حرصاً على رضى المهدي ، المستمسك به في ولاية العهد . وانه ليخشى ، اذا ما نال من الخيزران ، الناعمة بعطف امير المؤمنين ، حتى لتكاد تقصيه عن تنظيم الامر في الدولة ، وتدير الاحكام برأيا الاغلب ، ان يتنكر له ابوه . فيعزله عن الولاية ، ويثبت فيها هارون . وما تمالك ان دمدم بغيظ مستفيض : ألا يكفي الخيزران ، وهي في نشأتها أمة مغمورة ، ان يرتقي الى سدة الخلافة ولداها معاً ، وان يسكت عن هذه الشهوة سائر ابناء المهدي ، وفيهم رهط من كرام النبعين ؟ ... الا انه الجشع . وهو بالوعة لا يملأها خضم . ان الخيزران لتكفر بنعمة اسبغتها عليها السماء ، في ليلة رضى فيها الله عن لا يجوز لهم ان يظفروا برغبة ، ولا ان يدركوا ذرة مما يتوهج فيهم من لاعج الطماح !

وشعرت حسنة بما يعرفه من ألم . واشفقت على نضرته مما تحاول فيه أمه من تنكيد . فهتفت توأسيه : لن ارقب ريثا يبدو ابوك في مقصورتى ، اياها الامير . بل ساندفع بنفسى الى البلاط استأذن على امير المؤمنين ، واسرد له ما اتفقنا على محادثته فيه . ولا ريب ان المواقف ستبدل وقد اطلع

المهدي على النيات الفاسدة . فنبلع من امرنا ما نشتهي . ونقيم بنجوة من الحظر . اذا استطعت ان افف الساعة ، في حضرة ابي عبد الله ، فاني لانطلق على الفور اليه ، واوضح له الحقي !

فشاقيما هذا الاندفاع الجموح . قد تكون حسنة تمشي الى حتفها في الظفرة المجهولة العقبى . ومع يقينها ان الموت يرصدها ، لم تكن تحفل بالصرعة تجتاحها بعد كل ما عانت من احتقار الخيزران . فانها لتذوق ابدآ الموت ، وتلك القابضة على لب الخليفة توري بها . فإن لقيت حمامها ، لآخر مرة ، فليس ثمة ما يقلق مهبجتها ، بل تنقي في وثبة واحدة بؤس الغد الطويل . ومن يدري الى اي مهيع تقودها وثبتها?... ربما انقذتها من النكد ، ودفعتها الى حيث تنأ بما تعلق به الروح . على ان لبابة دعيتها الى الاتناد معلنة : لا تدخلني على امير المؤمنين الا وقد مهدت لك اليه ، يا حسنة . فاذا ما فاجأته بالاستئذان عليه ، تراهي له ان غيرتك من الخيزران حفزتك الى الوشاية بها ، وييجي البرمكي !

فاوضحت حسنة : بل ان الارتباب بي يسطو على ابي عبد الله وهو يسمعك تستأذنين لي عليه . فيخالج ضميره اننا التقينا وتواضعنا على نفث الاباطيل . وليس من جميل الرأي ان يدري اني بكما على صلة ، وانا ألقى اليه نبأ المكيدة . سابغته بمثولي في حضرته كي يؤمن بان لا شريك لي في الرواية ، واني ما كدت اسمع بها حتى حملتها اليه !

فهتف الهادي : والحكمة في ما أعلنت ، يا حسنة . حرصك على هناءة امير المؤمنين ، وعلى دوام عزه وسعده ، دفعك الى ارتياد البلاط ، والجهر بما سقط اليك . وسنقف بجانبك . ولكن دون ان نتظاهر باننا نلم بما تبئين

به الخليفة من فاضح السرّ !

واضطرت لبابة الى الموافقة على رأي الجارية الحضيف . عليها ، وعلى زوجها ، ان يتكبا عن الظهور بمظهر المطع على ما وقع في مسمع حسنة من القواصم . والا بدت فوراً للعيون الدسيسة الزائفة البواطن والذبول . وانتقمت الخيزران الانتقام الذريع من السعاة المخرقين . فتقبض بملء يديها على النهزة العارضة . وتنزع الهادي من ولاية العهد ، كما تنزع حبة من سمط . وتفري اباه بدمه . وتنهض بهارون الى القمة الشاخنة ، وما تهب ان يزاحمه عليها ذو وكد . فكأن موسى ولبابة وحسنة ، وقد ساؤوا نفس الخيزران ، وهبوا لهذه المنتقمة القهّارة رجاوتها بسخاء . قالت حسنة : على كل منا ان يتجاهل الآخر . وليس لذي بيان ان ينبس بانه ابصرنا على خلوة . والا استنشقت الخيزران رائحة الكيد . وذعبت بنا ضحايا بلائمن . وهو جلّ ما تطمع فيه . فانها لتكرهنا جيبعاً ونستحل دمنا . وقد تكون ترقب السائخة بنافذ الصبر لتزعزع ، في صدر المهدي ، رأفته بنا . فلنتسّق غدرها ، وليست ترحم فيك آصرة الامومة ، يا موسى . وانت ، يا لبابة ، فلن تصون فيك تسلسك من رهن الكرام ، ولها عليك حقاظ وسخائم لا ينطقى لها جمر . وكلما لاحت لك ازديتها . واطلت عليها اللسان في الحاشية . اما انا فانها لتري في سحتي العدوّة الجبيرة . وتميل الى سحتي بنعلها للخلاص من شبحي الديم ، ولي من مودة المهدي بعض النصيب . انا وحدي ساعرض نفسي لنقمة المقادير ، وأقف في حضرة امير المؤمنين لاجلو له الكارثة المتحفزة للانفجار . فاذا شعر بالتزوير ، دهمتي عقابه دون سواي . وكان لي في النجاة من عبء الهوان عزاء . وان جاز فيه النبأ ، تقاسمنا الهبات والمئن . وكبجنا

من غلواء الخيزران !

فقلت لبابة تفيض بخشية طارئة : أتريان أن نثقب سمع امير المؤمنين بالرواية المتناكفة، وهو في خضيب رفاهته، وقد عقد لهارون على زبيدة?... أليس من الخنكة ان نثويت حتى تنقضي في البلاط الافراح ?

فنتأت عينا الهادي، وجلجل بغضبة العجول، الراغب وشيكاً في انقشاع الكدرة : ولكن روعة الضربة في انقضاها على القوم وهم يحسبون انفسهم في طمأنينة . فسقط عليهم وتبددهم في خفضهم وجذلهم . ومن المحال ان يستفيقوا منها على هدى، وستجتاح نهاهم . ليعلم اليوم امير المؤمنين ان اعداءه يستأسدون تحت سقف بلاطه ، وانه يرقد على اجحار العقارب والثعابين المعششة في سريره . وكيف غلك القدرة على البسمة، وخصومنا يتهادون على بساط الرغد والانس ، ونحن نشقى حتى نكاد نلتوي في خطونا وحجانا?... لن نفوز الا وقد افئنا . والا فسنظل نكابد احوال الضنى . وربما فجعنا باعز الصابات ! -

وتصاعدت كلماته الاخيرة تنظلم . فهو يئن . قالت حسنة وقد ازدادت عليه اشفاقاً : لا تجزع . ساكون الليلة في بلاط امير المؤمنين، وقد جلت عنه الخيزران الى صرح اساس . وسابلق المهدي أن خوفي عليه شدّ بي الى حرزه الركين . وأنتل في وعيه النبأ . ولك ان ترصدني لتلم بما اتفق لي في حضرة ابيك . فان لم ابرح البلاط، فقد تكون نزلت بي الطعنة المصور، واني لاستودعكما الله !

وابتسمت ابتسامة حزينة ، مبطنة بالوهلة، وسترحل عن خيرات مواع خضال . على انها رأت نفسها مكرهة على المجازفة، ولن يصفو لها العيش ما دام

خيال الخيزران يقف بينها وبين امير المؤمنين حاجزاً صفيقاً ، لا ينفذ منه نور ، ولا يأذن في فرجة . وليست تحتل هذه الشدة الناهكة ، المنعصّة عليها متعة الاستقرار بكنف الخليفة المريء الظل . اجل ، بلغت من دنياها ما يجاوز الحلم . على انها ، وقد توقفت الى الهضبة ، واوشكت ان ترسخ في الذروة ، فاتها لتلجّ في ادراك الاسنى . ولن تسكت عن تدويخ من صدها عن الملمس . وما دامت الخيزران تحرض عليها ابا عبدالله ، فستحرض ابا عبدالله على الخيزران . فالمكر يداوى بمثله . وستكشف النهاية عن الكفة الراجعة . قال الهادي ، وقد آلمه ان تمنى اليه حسنة نفسها : ولكنك ستظفرين ، يا حسنة . فليس لمجتهد انهماز . ولا تنسي أننا في عونك . فلا نفترق عنك حتى الاجل !

فضحكت في نفسها من هذا الباذل لها العون ، وهو لا يملك القوة على مناغضة أمه في جيش ، ولا في عزة . وماذا يستطيع اذا اباح ابوه دمها عقاباً لها على نيمتها ؟ ... أوردّ عنها مكروهاً ؟ ... انه لحسير . بيد انها اعتمدت على وكدها وهزأت بالمقادير . فان اقصى ما سينزل بها هو حكم الموت . وستنجني ازاء قسوته غير متبرمة به اذا عدا عليها الاخفاق . فلن تتلف على شبابه ، ولا على اشراق سعدها ، وقد هصرت فيها الخيزران رفاهة البهجة . وكل ما نحن اليه ان تطلق نبلتها دون ان ترقب غوث احد ، وما تتكل على سوى ساعدها . فاذا دانت لها النعمة السامقة فازت من ايامها بما تستطيع ، والا فلا أسف على الدنيا . ونهضت وهي تجمجم : اللبلة تسمعان اخباري ! ولوت رأسها خيال الهادي . وصافحت لبابة وبسمتها الوجلة تنتشر في مغارفها . واعلنت : الى اللقاء ... او ... وداعاً !

وما عليها اذا ودعت ، وربما تبصر ، لآخر مرة ، في وقفها الخاشعة ،  
هذين الوجبين البادين لها ، وقد جمعت بينها وبينها المصلحة . اجل ، لا عروة  
غير المصلحة . وهي في جهادها لاجلها تجاهد لنفسها . فلن يدركا الرفعة  
دونها . وتوارت من باب خفيّ دون ان تكون يرفقتها احدى جوارها .  
فانسابت وحدها الى المجلس المكنون ، وهي موقنة ان الاحتجاب مفروض ،  
ونمة هدر دماء ، وخطف ارواح . وضاعت في ازقة بغداد طائفة الى مثواها .  
وما اعارها شأناً كل من ابصرها في طريقها الى مبيتها ، وقد خلعت عليها  
اطماراً بالية تنكر بها . فكأن نفسها تحدثها بان الحيزران تقيم عليها العيون ،  
وتحصي عليها كل نغشة تبدر منها ، حتى اطلاقه النفس . ودخلت المقصورة  
تسأل جاريتها سعدة ، الواقفة دون سواها على نيا براح سيدتها الدار : هل  
من اقبل لزيارتي ، يا سعدة ؟ ... هل من خبر عن امير المؤمنين ؟

فاوضحت الجارية ببسمة صافية : ما دق احد الباب ، يا مولاتي .  
فالسكينة تغمر المقصورة وانت بعيدة عنها !

فادركت الغصة حسنة . ليس من يحفل بها والمهدي يدلل سواها .  
فكانها ليست من الاحياء . قالت بكايي الموض : أعدّي لي زينتني ، يا سعدة .  
عليّ ان اشخص فوراً الى امير المؤمنين !

وانها لتصبو الى مضارعة صرح اساس في عظمته ، وازدحام الوفود ببابه .  
فتعادل الحيزران في وفور الشهرة والجاه . وتحتل من امير المؤمنين النية  
والبال . ولماذا تسبقها في الشوط أم موسى ، وهي مثلها أمة في نشأتها ،  
وليست تتفوق عليها في عذوبة ولا في وسامة ؟ ... ان من وهب الحظوظ ،  
لهؤلاء الدارجين في الارض ، قد يكون وهب لها حظاً نضراً ، يحتاج منها

الى بعض السعي لتتمزق عنه الغشاوة ، وتنجلي الطلالة . وهذه الغشاوة  
تجاهد حسنة في شقّ برقعها . فإما تكتب لها الفوز والجلال ، وإما تهوي  
حتى اعماق الخيض  
أمة زربية نشأت ، وأمة زربية تموت . ان للاقدار كلمتها الفصل في  
توجيه الخطو ، وإبرام المصير !



لا ينفك البلاط يعمق بشذا الجبور. فالعرس تتوالى مواكبه، وتتكاثر حلقاته. ابن الخليفة، وابنة اخيه، في ابيه مظهر من اللدونة والالفة. ولقد وثبت اليهما دنيا العرب قوافل، تلو قوافل، مثقلة المناكب بالهدايا. فمن الهند والسند، حتى الاندلس، تقاطرت الوفود تلقي بباب امير المؤمنين رحالها، وأحمالها. وما نضبت الاندلس، ولا خلا المغرب، من شيع تساند العباسيين، وتقرّ لهم بالسيادة والامامة، مع ازورار ارباب الامر فيها عن بغداد، مبعث الشأر المديد، والجلال العريض

وأحسن، في هذا اليوم، ابو عبد الله محمد المهدي، بالوهن يدب اليه لفرط ما احتشد ببابه من المهنيين والمزدلفين. فوصلوا الليل بالنهار في الدعاء والتبريك، وتقبيل الارض بين يدي الخليفة، الهانئ بالرغد المنشور. ومال المهدي الى الرقاد يستريح به من عناء يومه. فأمر باطفاء الانوار في البلاط، ويركون الجميع الى ساجي الغفوة، يستمرثون نعيمها. فالافراح ستعود الى فورتها بعودة النهار المتحفز للوثوب

وسادت الغبشة، وليس في بلاط امير المؤمنين بصيص نور. فكان قصر الخليفة شبح يتضائل في كبد الظلمة. بل كأنه خيال يتقلص، فيغيب. وتطوى معالمه، فتغور. واقام بالباب الحرس. وطاف العسس بالمكان يردون عنه العيون. وسكنت بغداد على مترامي بساطها، كأنها في غيبوبة. بلى، كان يتصاعد من احشاء خماراتها غناء وعريضة، الا انها لا يجاوزان العتبات. ويوج، في الآذان الواعية، هدير الفرات ودجلة، وما يقنأ

بصاويل الآباد . والتمعت ، في منازل بعيدة عن دور السادة ، أضواء  
مترجرجة . كأنها على خجل من نفسها . وقد ابت ان يلتهب فيها الزيت ،  
بعدها انطلقاً في مثنوى الخليفة السراج . فادر كها تهويم وغصة ، يكرهانها  
على الشحوب ، فالكسوف

ونوايب في الازقة والجادات خيال مجتج ، يبت الهواء فاغم الطيب ،  
كأنه معطرة سيطرة ، مسرفة في الجود . وحبا الى بلاط الخليفة ، وقد  
جرى على مقربة منه خيال آخر ، باده الكلام لماماً ، كأن في نفسه ما  
يشغله عن هذا السائر بجانبه . ووقف بباب البلاط مستأذناً على امير المؤمنين .  
فتبرم به رئيس الحرس ، مع كل ما فاح منه من عابق الارج الشفيق .  
واستوضح بلهجة تنكر للسماح : أستاذن لك على امير المؤمنين ، وفي مثل  
هذه الساعة ، وقد نام ابو عبد الله نومة لا سبيل فيها الى ازعاج ؟ ... ألا  
عودي ، وفاق الله العثرة ، من حيث اقبلت . امير المؤمنين ليس على أهبة  
للاصفاة ، حتى الى الخيزران ، على ما تستمتع به لديه من منيف الحظوة .  
باب البلاط لا يباح الآن لقريب ، ولا لغريب !

وما ندد عن رئيس الحرس أنه إزاء امرأة ذات خطر ، وكل ما فيها يدل  
عليها . وما جهل ان هذه المرأة من ذوات السنى الباهر ، والعدوبة الممرع .  
ففي كلماتها رنة من استهواء . وفي قامتها بعث صباية . وفي عرفها اغراء .  
ولم يستطع ان يتبين ملاحظها والانوار منطفئة . الا انه ادرك ، بثاقب بصيرته ،  
انه خيال روعة جاذبة ، اقبلت في الليل الفاحم تعرض مواهتها على امير  
المؤمنين . غير ان المهدي لم يتحدث عن طارقة في ليلته الدهماء . فكل ما  
اذاع انه ينبغي الهجوع الهنيء . فكيف يستجيز رئيس الحرس خرق الامر

المعلن؟... أنجهل ما يلقي من ابي عبدالله اذا روعه في يقظته السبوح ؟  
على ان المرأة - وما كانت هذه اللاطمة بخطوها وجنة الليل غير امرأة -  
لم ترهب شائك المقال . فاوضحت بثقة جازمة : صارحه بان جاريته حسنة  
تدلف اليه في امر خطير ، لا بد فيه من عاجل الابلاغ . فهناك ما يجاوز  
السمر والمؤانسة . ان في ما احمل اليه حياة دولة ، ومصير عرش !

فارتعد رئيس الحرس . بجم تنفوه صادعة الليل ؟ ... وخشع حبالها  
وقد عرفها . هذه من تتلو الخيزران في مودة امير المؤمنين . ولكن المهدي  
شدد في منع الناس من اطلاقه في عفوته . فليس حتى للمقربين اليه ان  
يدهموه بانتباهة . فكيف يتخطى رئيس الحرس النواهي ، ويفسح للجارية  
الغراء الى الخليفة ، فيوجع روحه ؟ ... ان غصبة ابي عبد الله ، على طيب  
سريره ، لتعدو الحلم

وارتبك رئيس الحرس . ازاءه حسنة الجارية المختارة . وما تقبل فيه  
من مهمة ينذر بمستفحل الغواشي . فان يكن الاقدام على ايقاظ امير المؤمنين  
بلية ، فالكسوت عن اطلاقه على الفاجعة شرّ البلايا . ولم ير رئيس الحرس  
مخيداً عن دق باب الخليفة ، مع كل ما سيناله من نعمة المهدي . فما دامت  
الدولة في خطر ، فكيف يتهاون في نشر النيب في مسمع القابض على  
ناصيتها ؟ ... ولكن أنتطق حسنة بالبيان الصادق ، السليم ؟ ... واستفهم :  
أتبين حقاً ، يا حسنة ؟ ... أفتحجم باب ابي عبد الله واصيح بالفاجعة ؟ ...  
ان لم تكوني على بيّنة بما تعلنين ، فلا تلعبى بدمي . انا ذو عيلة ، وموردي  
هذه الجمالة يتكرّم بها عليّ امير المؤمنين . أفتجأ المهدي بالبلاغ الكاذب  
وانا احدته بما تروين ؟

فابانت وهي تتحرق شوقاً الى رؤية ابي عبد الله : لن تنطق بسوى  
الصدق . افعل ، ودمك في عنقي . فالتبعة عليّ في كل ما يصيبك من غضب  
الحليفة . ثم ما لا يأذن في رقاد ، يا ابن امي . ان الدولة لعلي قوهة بركان ،  
فليحذر المهدي !

— وهل احدته انك ترومين المثل في حضرته جلالة اليقين ؟

فضحكت من غباوته ، وقد اضاعت الوهلة روعه . وقالت بلهجة تنضح  
بالسخر : ألا ماذا جئت افعل ، في مثل هذه الساعة ، ان لم يكن في نيتي  
الوقوف بين يدي امير المؤمنين ؟ ... حسبك ان تعالته أفي هنا كي يرضى  
عن مثولي بين يديه !

فمشى رئيس الحرس الى باب الحليفة وهو يرتجف ، ورجلاه تعاندانه في  
المسير . امير المؤمنين دعاه الى سد مدخل البلاط دون الجميع ، فكيف  
يستعين بالرغبة القاهرة ؟ ... على انه استند الى حسنة ، والى ما ينطوي عليه  
صدرها من نبأ فاجع . فسئسى المهدي حيال ما تلقى اليه كل خروج على  
النهي الغليظ . واقترب رئيس الحرس من الباب على رؤوس اصابع رجليه .  
هنا يرقد ابو عبد الله . وتنصت . هل من حركة ؟ ... وارتفعت يمينه توشك  
ان تدق . فنبت عنه الجرأة . انه ليحاول ما تتلاشى دونه الطاقة . وكاد  
يعود ادراجه . ولكن حفزه الى البقاء والانذار كون الدولة في خطر .  
وغالب نفسه على طرق الباب . وهوت يده على الحشب تدقّ دقات خفيفة  
لا ينساب وقعها الى أذن . فما سمع جواباً . فاعاد الدق بقوة امضى . لن  
يرجع الى حسنة الا وقد نبّه امير المؤمنين الى الرزية . ولهت ، كأنه يتسلق  
قمة . وعلا صوت يستوضح بنفرة : من ؟

فالتلخع قلب رئيس الحرس . استيقظ الخليفة المهيب . فيا للويل ! ...  
واجاب بنبرة استخذت فتضائلت حتى كادت تضجحل : رئيس حرسك ،  
يا امير المؤمنين . جاريتك حسنة تستأذن على مولاي . أأجيز لها الدخول ؟  
فتعجب المهدي بما يسمع . أتكون حسنة ، نظيرة حظاياها ، بالباب ترجو  
رؤيته ، في ساعة لا ينشئ فيها الاستماع الى ذي شجن ؟ ... ألا ما للجارية  
اللعوب تبغته في جوف الليل ؟ ... وساورته الحشية . هل من نكبة ؟ ...  
واستطلع : وما يهيب بها الي ؟ ... هل من شر يساورها ؟

فخشي رئيس الحرس الايضاح . فد يحنق امير المؤمنين ، فيتناول رئيس  
الحرس المسكين بما يزيل عنه بسمه النعمة . واكتفى الشقي بان يعلن : هي  
تقول انها تحمل الى مولاي من الانباء ما لا غنية فيه عن ابلاغ !

فارتعش الخليفة . أي أنباء هذه في حلقة الليل ؟ ... أليس في صدر  
حسنة بقيا من صبر رينما يطلع الصباح ؟ ... وتراى للمهدي ان الغيرة  
اضطرت في حسنة ، فدفعها اليه شاكبة ، عاتبة . وهزأ بضعف النساء ،  
وقد هاجتهن الغيرة . على انه ما لبث ان غفر لمن النزوة ، وهو منها في  
ابعد مجال . فما كان يجتمل سماع عاشق يتحدث عن هواه . بل لم يكن  
يرتضي ان يكشف شاعر عن صباباته في ابيات من الشعر . فالحب والغرام  
وقف عليه وحده ، هو ابو عبد الله المهدي ، الجالس على سدة الخلافة في  
ربوع العرب . فليس لامرىء سواه ان يهيم بانثى ، ولا ان يدركه الى الجمال  
نزر من حنين . فالحسان كافة للمهدي . والمودات باجمعها له . والا نقم ، لفرط  
غيرته ، على الوهان وتوعده . وليس له ان يعشق ذات مواهة ، والمهدي في  
بلاطه سيد الرقاب والقلوب . ومع فجاءة اليقظة رضي عن الخطبة الواثبة

اليه في كبد الليل ، تجرّها غيرتها الفائرة . وقال وهو يبتم : لتدخل حسنة .  
فلن نجيبها بمنع . انها منا لعلی سعة !

وانظرها ، وقد اضاء بنفسه في حجرته المصباح . وانقتل رئيس الحرس  
الى حسنة يقول ، وهو يتنفس بنشوة من ارتياح ، كأنه خاض عباب الاهوال  
وخرج منه ظافراً : اسرعي اليه . اسرعي . ما ايقنت انك ترتعين منه في  
المقام المنيف الا وانا اسمعه يرحب بك في هذه الهدأة . كأن الطارقة احدى  
الاماني السمان . والله ، كنت امسك قلبي بيدي لثلا ينتثر ، وانا أدقّ  
الباب ، وقد ابى علينا امير المؤمنين ايقاظه ، حتى اذا خربت الدنيا .  
ولكنها حسنة ، ساكنة الفؤاد ، فلا يعز عليها مرتقى ، ولا تقفل دونها الجنة  
على ضيق دربها !

فلم تكن تأنس بمديح . وألقت في يمينه صرة من المال وانطلقت الى  
ابي عبد الله تصحبها جاريتها سعدة . فرأت ألا تبدو وحدها في حضرته ،  
وهي تعلم ما يتوهج فيه من ملتهب الغيرة . فقد يعيرها براحها مقصورتها  
في لقاء حرام ، ويزلزل بها الارض هادراً دماً . ودخلت تنحني بين يديه ،  
وتسلم عليه بخشوع رقت . فابتسم لدن تلالأت ازاءه فواتنها . وتعطرت  
بطيوبها حجرته الثرية التنضيد ، المتوهجة بخالص الذهب ، في السرير ، والحرائن ،  
وقواعد الشموع ، والمصابيح ، والمقاعد . وبسط لها يده فتبركت بلثمها ،  
وهي ما تبرح على خشوع ، كأنها لا تبدو حيال امير المؤمنين لشؤونها ،  
بل لامر يجاوز الوله ، ويفرض اليقظة والحذر . فاستطلعها ابو عبد الله بصوت  
يغلّفه الدهش ، وقد راعته فيها الرزاة المغالية في الجد : ألا ما بنا ،  
يا حسنة ؟ ... انك لتقلقين في نفسي هنامتها . هل من نازلة نخدش

بعواثما اسماعنا ؟

فالتفتت الى جاريتها تقول : بوسعك ان تحبجي ، يا سعدة . انتظريني  
ربما يأذن لي في الانصراف امير المؤمنين !  
فاغلق المهدي الباب ، وطوّق خصرها ببسبته ، وهو يقول جانحاً الى  
المزاح : أتومين الانصراف ؟ ... ولكن سنبقين الليلة عندي . والا فما  
جاء بك اليّ ؟

فسمعت للافلات منه . وقالت ورزانتها لا تنفك ترسو فيها : ما طرقت  
باب امير المؤمنين حباً لنفسي ، بل حباً لمولاي ، ولدولة يسوسها !  
فاطلق فيها عينين جاحظتين . أما تزال جادة في الترويع ؟ ... وصاح  
بها بقسوة اهتز لها قلبه : طرقت بابي حباً لي ولدولة اسوسها ؟ ... ألا ماذا  
تحمّلين اليّ ، ويحك ، من بائس جهم ؟

وكاد يلتهمها بباصرتيه المشتعلتين وهلة وحنقاً . لتفصح عما يسوقها اليه .  
فاجابت وقد رأت ان تصدمه فوراً بنبأ الكارثة : سعبت اليك في ما يقينك  
على احتراز من اعدائك الطامعين في هدمك . في دارك من ينظم المسكايد  
للنيل منك . فان للخراساني المقنع ، الثائر عليك في خراسان أخذاً بثأر ابي  
مسلم ، شركاء في هذا البلاط ينصرونه عليك ، وانت عنهم في غفلة . وليس  
لمثلي ان تقف على النبأ المالع ، وان تسكت عنه . فوثبت اليك في الدهمة  
ألحّ عليك في انقاء الدسيسة الجارفة !

فازدادت فيه مخاوفه . وزججر وقد تشنجت اعصابه ، وتضرم قلبه بالغاشية  
الدامغة : ماذا ؟ ... ماذا تعلنين ، لا ابا لايك ؟ ... أيكون للمقنع  
الخراساني انصار في هذا البلاط ؟ ... والله ، لازعزعن الكون بمن استحل

الجرأة الكفور . ألا من هم الاوغاد ؟ ... هل لك ان تسمي ، بل هلا  
سميت ؟ ... اني لا قدر عليك النطق بكل ما تعلين . فلست ارضى عن  
كتمان حرف مما تحفل به حوانيك !

وتطير شظايا من سخط . وودّ لو يستطيع الانقراض ، بتمسح يديه ،  
على هذه الملوحة باسرار المكيدة المتقدمة تحت رقايات من ساتر الرماد .  
فيقبض على الاحشاء ، ويدروها ، ليتمّ بما تبطن من غامض رهيب . وسرّ  
الجارية حسنة ان تكون هاجت فيه الحقد والبغضاء . قالت ، وقد اعترمت  
ان تجازف بكل عزيز لادراك الاعزّ ، او للانطفاء في حفرة والخلاص مما  
ينهشها من إحن : مولاي امير المؤمنين يعلم مبلغ اخلاصي له ، وكلفي به .  
فما كاد النبأ المصور يتأوج في سمعي ، حتى هفوت الى البلاط لفضح الدسيسة .  
فيل لي ان ليحيى البرمكي اصعباً في الفتنة المحترمة في خراسان !

فتولاه الجمود فيما تتلفظ باسم يحيى . ليس يعتقد ان لابن خالد البرمكي  
ميلاً الى هدم الدولة القائمة ، وهو يستمد منها القوة . فما لمع في رغبة  
السلطان الا وقد اسرف في موالة العباسيين . فان تكن نفسه تحدته بالقضاء  
على مكانته ، فليصر النافع في بوق الفتنة في خراسان . ثم ان المهدي ،  
بعدهما لقي من نفرة الفرس من العرب ، لدى اجتثاث هامة ابي مسلم  
الخراساني بسيف ابي جعفر المنصور ، فتر في الركون الى سادتهم المواليين .  
وكان قد اعترم ان يكمل الامر الى يحيى بن برمك . فيعهد اليه في شؤون  
الدولة ، كبيرها وصغيرها ، ليقضي في الجليل والحقير . واوشك يحيى ان  
يستوي في المنزلة السامقة ، في كنف المهدي . بل هو استوى فيها لبعض  
الزمن . الا ان سوء الظن - وهو من حسن الفطن - اهاب بالخليفة الى



الاثنا. فجنح بجيبي الى الاهتمام بامر هارون الرشيد، واستوزر ابا عبد الله  
الاشعري . وما يخفى على المهدي ان حنين البرمكي الى الوزارة يأكله . بيد  
ان الزمن ليس بالمؤاتي . ولم يغب وفر الدهاء عن يحيى ، النائم ريثما تدق  
الساعة ليستولي على الدفة . أما ان يستعجل الوقت، ويعرقل سير الامور،  
شوقاً الى السؤدد الحثيث ، فمما يرتاب به امير المؤمنين

ولكن الحكمة تدعو الى التحقق مما تذيع الجارية . قال الخليفة وهو لا  
ينفك يسهو مما يطرق اذنيه : أموقنة انت ان يحيى البرمكي يغدر بي ،  
يا حسنة ؟ ... ولكنه ما فتىء ينال في حضرتي من المقنع الخراساني الارعن .  
ولقد عاهدني على ان يأتيني برأس المشؤوم . فكيف يكيد لي ويخدعني ؟ ...  
ان في ما تبلغيني اياه لشر ما يصاب به الجميل من ازمة . غير اننا تعودنا  
من نحسن اليهم نكث العهد ، والحث في البين . أما يحيى بن خالد  
البرمكي ... فلست اراه ... يقدم ... على الحياة ... والنكر !

وافضى بكلماته الاخيرة متقطعة، لضعف ايمانه بما يأذن به . لا ريب ان  
حسنة متأثرة بما ينتشر تحت سماء بغداد من اقاويل تنبو عن الحلم . قالت  
حسنة، وقد ابت الا ان تستمسك بما أبلغت . كأن ما استنبطت وموسى  
الهادي ولبابة اضحى لديها حقيقة راهنة لا سبيل فيها الى دحض وبطل :  
ولكن من نقلوا اليّ الخبر لا يكذبون ولا يفترون . ثم ألا يجد امير  
المؤمنين ، في العقد لهارون على زبيدة، مقدمة لانقلاب يطاول الدولة في مناعتها،  
ويمهد الى اتساع فتنة خراسان ؟ ... ارى يحيى البرمكي ينظم المكيدة بمصانعة  
تغالي في التمويه . على ان ذوي الوفاء لا تغمض عيونهم عن اللؤم المكتسي  
نصاعة البراعة . ففي نية يحيى ان ينادي بهارون الرشيد ، وهو صنيعته ،

خليفة في هذه البقاع المستظلة لواءك ، ليموت على العرب بكون الخلافة ما تزال فيهم ، وقد حل محل المهدي ابنه ، ويسير بالدولة الى حيث ارادها ابو مسلم ، فارسية صرفاً ، ويطمس كل اثر للعباسيين !

فأوغرت صدره على يحيى وهارون . ليس يخلو بيانها من خلجة الصواب . ولاح له في الخيزران نزوع الى المناكرة . فان مناوآته اباها ، في عقد ولاية العهد لهارون دون موسى ، آملتها الى مظاهرة الفرس ، كي تنجو من شبح موسى الهادي ، ابنها البكر . وتعتع المهدي في قوله ، والهواجس تستيقظ فيه . فاعلن بأضطراب سحيق : ان يكن ما تنبئين به حقاً ، يا حسنة ، فانك لتدفعيني الى مجزرة لم يشهد لها العرب مثيلاً ، وسادعو الى الفتك بكل فارسي . فابدأ بيحيى البرمكي ، والمقنع الخراساني ، وانتهي الى الفطيم والوليد . ولكن أعيدي الرأي في ما تبدين . ربما كنت تتجنين على الابرياء ، وما يشوقني سفك الدم النقي !

فنهفت ، وقد وضع لها انها تغلبت عليه : وابن التجني ؟ ... أنكون بعيداً عن انباء فتنة خراسان ؟ ... ألا ينقل اليك عمالك ، في بلاد فارس ، ما يتخض به الجو من كره ومقت للاقوام العربية ؟ ... ابو مسلم لا يزال حياً في مطاوي الصدور . ولماذا ثار على الامويين ؟ ... هل ثار عليهم لكونهم خصوم بني هاشم ؟ ... لا . ليس للخليفة الذكي ان تخدعه الحجة المتداعية الاسانيد . ما قامت قيامة ابي مسلم ، على الامويين ، لسوى كونهم من العرب الاقحاح . وأمضت ان ينتقل الامر من العرب الى العرب ، يركوب العباسيين سدة الخلافة ، فنهذ الى احراج موقف ابيك ، ابي جعفر المنصور ، ليستتب له الامر ، ويمتلك السلطان في دولة خيل اليه انه بانيتها . غير ان

اباك قلم اظفاره ، وفلّ من غربه . فرهب الفرس ابا جعفر واستكانوا .  
اما وقد قضى المنصور ، ومشت الخلافة اليك ، فتجرات المطامع على التحفز ،  
والانياب على التكشير . وقام المنقع الحراساني يطالب بأخذ الثأر . ومن  
هو المنقع الحراساني ، هل لك ان تعرفه ؟ ... ان هو الا ظل يحمي البرمكي  
المخائل ، اللثيم !

فارتبك . ربما كانت على علالة من صدق . هذه المفاجأة ، بالعقد هارون  
على زبيدة ، تفرض الروية والبقظة . فكيف اسرعت الحيزران في الابرام ؟ ...  
وكيف اقدمت على الموامة العجلى بعد القطيعة الكاشرة الثاب ؟ ... ثمة ما  
يدعو الى ازاحة الستار عن الاحجية . فقد تنطوي على حفييل الشكوك .  
وليس ما يمنع الفرس ان يتعاضدوا بعد مقتل ابي مسلم الحراساني بسيف المنصور ،  
وان يجاهدوا في الاخذ بالثأر ، وهم يحسبون انفسهم ارباب اليد الطولى في  
تقويض الامويين ، وتحرير سدة الخلافة من ظلمهم البغيض . فما كان  
للعباسيين ، ولا للطالبيين ، ان ينتقموا من فاهريهم ، لولا السيف الفارسي .  
ومهما بلغ الولاء من يحيى البرمكي ، للبيت العباسي السائد ، فهل له ان  
ينسى انه فارسي قح ، وان في جلاء الكابوس العربي سوّد الفرس ، ونشور  
عرش كسرى ، وبعث الايوان ؟

والتفت الخليفة الى الجارية المقلقة فيه صفو الحاطر يقول : تزعت من  
نفسى البهجة ، يا حسنة ، في ما جهرت به من بلاه . والله ، ان يكن يحيى  
ابن برمك ، ذلك الغادر المنافق ، فما هو بالطويل العمر . سابطش به كما  
بطش عمي ، ابو العباس ، بابي سلمة الخلال . وكما ضرب ابي عنق ابي مسلم ،  
سيصيب يحيى مني . هي لي بعض الزمن للتفكير ، وفاك الله . مزقت عن

عيني غشاوة كانت تحجب عن بصري الافق البعيد !

وشغلته عن الاعتكاف على ملاطفتها . فهو في سهوم ، وقد انصرف باله الى انعام النظر في الحياة العاصفة ببلاطه ، بل بعرشه ودولته . وكاد يثب الى حاجبه كي يدعو اليه رئيس شرطته للقبض على البرمكي . اما الخيزران ، وهارون ، فسيكون لهما منه موقف وعز . الا انه تريت . فالعجلة مدعاة الى الندم . لا عليه اذا رقب طلوع الصباح . ونهض من مجسه ، وقد ضاقت به حجرته على فسحتها ، واخذ يجتاز عرضها في ذهاب ، واياب ، ماج فيها الحق ، والاضطغان . ان يكن يرثي في حجره الافاعي والتاسيح ، فياله من خاسر ، اعمى !

وما برحت حسنة تنظر اليه بلذة من اجاد اضرام النار ، وهي ترجو ان يظفر الخراساني الثائر بتأليب بني قومه على الخليفة العباسي ، وان يقهر قوات المهدي ، كي تتوهج في ابي عبد الله الضعيفة على يحيى البرمكي . ويودي به . ويجرّ الخيزران الى مهواة النعمة . فيطمس منها في نفسه كل اثر من ولوع وحلم . وتراعى حسنة انها الفائزة في النضال ، وان السيادة معقودة لها في حواري امير المؤمنين . وستنتظر ريثما ينبلع البكور . فالانباء المتطاراة من خراسان لا تدل على ان الثائر الخراساني مهزوم ، بل تشير الى استنساخه ، والى احتشاد القوم في طاعته ، ونفرتهم من السادة العباسيين

وتكلمت الجارية فقالت بمصانعة تحفي ما تتقد به الاحشاء من غلّ : ما كنت ارغب في ايلام مهجة مولانا ، حفظها الله . الا انه السعي لانتقاء الكارثة اهاب بي الى الانذار ، في ساعة تنبو عن البيان ، ولاسيما بيان السوء . ففعواً عن اخرجت فيك غفوة الهناء ، يا امير المؤمنين !

فلم يجب . انه لعلى زفير يكوي الخنجرة والخلق والشفتين . أنتظف .  
فتنة الفرس ، في عهد ابيه ، وتمب مستأسدة في عهده ، ويكون من ادناه  
منه ، حتى بات المؤمن على النجوى ، احد النافخين في ابواق العصيان ؟ ...  
اذن لقد استضعفه بجيى البرمكي . ولكن لا . سيعلم المفسدون انهم سيذهبون  
ضحايا مكابدهم الحسيسة . فليس المهدي دون ابيه المنصور . ومال على حسنة  
يقول : ومن اطعمك على هذه القواصم ، يا حسنة ؟ ... هل استقيت انبائها  
من مورد مصون ؟ ... أخشى أن تكو في خدعتي ، وفي الخدعة ما يخرج  
بي عن الهدى . فاحذري أن تضليني ، وأن تدفعيني الى تحطيم من لا يزال  
لهم عندي بعض الكرامة . فالعاقبة ستكون وخيمة . فاتقي الله !

فاعلنت بقوة في الاداء : لست افترى . فلو لم يكن مذيع النبأ بمن  
يقدرون عليّ الثقة بما يجيرون به ، لقعدت عن الشخصوس اليك في هذه الحلقة ،  
وازعاجك بالرواية الموجهة . فالمخبر يدعو الى الركون اليه . ليكن امير  
المؤمنين بما احده به على وفور يقين !

فاستطلع بفضول ملحّ : ومن هو ناشر النبأ ، يا حسنة ؟ ... هلا  
اوضعت ؟ ... مجباتي !

فاجابت تتحاشى الافضاء بما يشدد عليها في ابدائه : ليس لي ان اضرم في  
صدر امير المؤمنين الحقده على ذوي الولاة . ولا ان اعرضهم لنقمة ارباب الطول  
والجاه ، من امثال بجيى البرمكي . انا حاملة النبأ اليك ، وعليّ تبعته وحدي .  
فاذا بدا لامير المؤمنين اني على حق ، فحسي ان انعم برضاه . وان يكن  
نمة وشاية ، فلست اصدف عن احتمال ذبولها ، وقد حباني الله رباطة جأش  
زادها امير المؤمنين ، دام بقاؤه ، مكنة ورحابة !

فادهشه منها الكتان ، وهتف : من هو الراوية ، يا حسنة ؟ ... من  
حقي ان افق على اسمه . أتخفين ما بنفسك عن امير المؤمنين ؟ ... اني  
لاهيب بك الى الافصاح ، فلا تترددي في الجهر بما تعلمين . من هو الثقة  
الرائع في ايمانك بصدق مقاله ؟ ... هلا اطلعتني على امره ؟ ... لا تخاطبيني  
بالالغاز ، ولست بمن يصبر على الاحاجي . فهاتي اسم فاضح المكيدة . اني  
لافرض عليك اعلان الاسم . هذا امر امير المؤمنين !

فصاحت تسدّ عليه السبيل الى المطلب : وحقّ الحليفة المفدّى ، لن افضّ  
ختم السر . انا من اذاع النبأ ، وليس لسواي ان يعاني وطأته . فاذا شاء  
امير المؤمنين انزال عقابه بالمعلن ، فلينتقم مني . بانت حسنة تشتهي  
مكابدة الويل !

وتنهدت عالياً من كبد تغلي وتثني . والتفت منها ابو عبد الله الى المرارة  
الكاسية معارفها ، فافلقته فيها الحسرة الشائعة . وما غالك ان دنا منها يقول  
مبهوتاً : أروفك ان تكابدي الويل ، وانت احدي الجوارى المرموقات في  
بلاط المهدي ؟ ... اني لانتعجب من منطقتك الكافي . ألا ماذا لسواك ان يتظلم  
منه ، وليس يبلغ نزقة مما تغوصين فيه من خير وترّف ؟ ... فانت تكادين  
تسبقين الخيزران في نعمتي . بيد أنكين باجمعكن تتقلّبن على وجود . فالفضل  
مغبون فيكن . اذا كانت حسنة ترنجي الويل ، وقد بلغت في بلاطي مشارف  
الاکرام ، فليس لمن هن دونها الا ان يلتسن الاحترق بنار الجحيم . هلا  
ذكرت من انت مني قبل ان تطلق شفتاك التأوه والتأفف بما هي فيه ؟  
وتناسي حبال لوعتها ما اقبلت تعالته به . فكأنه لم يسمع بان عرشه في  
خطر ، وبان اعداءه يهدونه بابنه ، وبان الخيزران في قافلة هؤلاء المهديين .

قالت حسنة، وقد تناهت في ابداء الحرقه: أرى امير المؤمنين انه يساويني  
بالخيزران، وهو يتجاهلني حين تظهر لعينيهِ؟ ... ليس حظي منك سوى  
حظ البائس من دنياه، بل حظ الهالك من الجنة. فتسرف في وعدك لي،  
ولا تجود عليّ منه برشاش. فلقد صبت بركانك باسرها في بحر الخيزران.  
وماذا نالك منها؟ ... انها لتكيد لك، وتحاول بحوك. هنيئاً لك  
تقدير الصنيع!

واقاضت بالتهكم. ليس يلقى من السيدة الاثيرة غير الاذى. وأرتج  
عليه. فما اطاعته شفتاه في دحض. وهل له ان ينكر انه يرفع الخيزران  
الى حيث يتضاءل الجميع، بل الى حيث يتوارى الجميع؟ ... وحاد في  
ما يخفف به عن هذه المتملمة مما تهون فيه من منقصة، الغيور من مزاحمتها  
على قلبه الموزع الاهواء. فانه ليبصرها بعينيهِ الاثنتين، على نور الشمع  
والزيت، تغور في شقاوتها، وليس يقوى فيها على علاج حاسم. داواها  
بكل ما لديه من مراهم، فما ملك فيها القدرة على الشفاء. لقد كان يرقى  
بها الى مستوى الخيزران. ولكنه يقيم عليه القيامة اذا فعل، والخيزران  
لن تغفر له هذا الاثم. وللخيزران سلطان على نهيته ليس له ان يتحرر منه.  
فهو دون هذا التحرر، مع سماعه أن السيدة الاثيرة تكيد له بالاتفاق  
والبرمكي الزنيم

وتنهّد كما تنهّدت حسنة. إنه لعاجز. بيد أنه قسا على نفسه في دره  
هوانه، وجلجل: انت ابدأ في خاطري، يا حسنة. فلن يسلك ابو عبد الله.  
الا انها الضرورة، يا ابنة امي. وانت تعلمين ما للضرورة من صلب الاحكام.  
فالخيزران لم تبلغ مني هذا الشأو، الا وقد ولدت لي موسى، وهارون.

هذان يكرهاني على ملاينتها . ولقد كنت منها في امسي على مستفيض  
الشغف . لا اجد لها نديدة في وسعة الظلالة والجوى . غير ان هذا الحب  
الطامي استأثر به ولداي منها . وانها لتدري مبلغ حنيني اليهما ، فتنضيه  
سلاحاً قاطعاً ، وتدرك مني شهوتها . فأتا لها لكونها أم هذين الاصبدين .  
واني لاسترخي في مودتهما . أما انت ، فاني اهواك لروعك ونداوتك .  
فما الخيزران غير شجرة باسقة مثقلة بالثمار ، وانت نبتة خضلة تتفتح نضرتها  
عن ازاهيرها الفواحة العبير ، اللدان . والزهرة الريتا ، تعطر بها الانوف ،  
اشهى الى النفس من الشجرة المعطاء ، على مواهة ثمارها وطيبها !

ورفق ، وهو القلق الضمير ، لحبك البيان السني ، في سعيه لآخاد  
لاعب الغيرة في صدر هذه الملسوعة القلب ، الهاثجة العاطفة . ولكن حسنة  
لم تهدأ ولم تطمئن فيها نزوتها . قالت : ان ابا عبد الله لمبدع في صياغة  
الاعذار . الا ان النبتة الخضلة يدركها الجفاف ، اذا لم يتوفر على سقايتها  
زارعها . ثم ان للخيزران ، إن تكن تبدي حبال المهدي المودة والولاء ،  
مطمعاً يحدوها على الظهور بالمظهر الحلاب ، وهي تخرج الى السيطرة الغاشمة .  
بما ضجت من وقعه بسطة العرب والعجم . فكل من يتفياً ظلّ دوحتك ،  
الوارفة ، يجسد امير المؤمنين في حمى الخيزران ، لا الخيزران في فيء  
امير المؤمنين . وحفزها طماحها ، وقد صدمتها باقرار موسى الهادي في ولاية  
العهد ، الى زعزعة عرشك ، قهراً لك ، ونسفاً لسؤددك . وانت لا تزال  
صابراً على قبحتها . بل على قباحتها . ولست ادري متى تفتيق من غيبوبة  
طالت عليك . أتكون متلاشياً في هوى من تنطوي لك على الكره والغدر ؟  
فجرض بريقه ، وقد جف حلقه فغص ، وبربر : ألا يطلع الصباح ؟



وتوعد الخيزران . سيمثل فيها وفي يحيى البرمكي . اما الرشيد فانه  
لمكره على ما دعي اليه . بل جاهل ما يحاك لايه من دسيمة منكورة ،  
سيكون بطلها دون ان يدري . فيغمد خنجره في صدر ولي نعمته بيد  
تتلبس بيده . الا انه بريء منها . فهي يد الثائر الحراساني يدورها يحيى  
البرمكي . أفٍ للسياسة ، كم تستحل الموبقات . فلا تتورع عن الميل الى قتل  
الاب بسيف الابن !

وكاد المهدي يثب ، على الفور ، الى قصر اساس . دم الخيزران بات  
مهدوراً . اما يحيى فسبصلبه المهدي ، في صدر بغداد ، تأديباً للمارقين ،  
لمن يأكلون خبز الخليفة ، ويحفرّون الحفر للايقاع به

ولكنه ملك القوة على الاضطبار . لن تفرّ الخيزران من بغداد . ولن  
يضرب الثائر الحراساني في هذا الليل الاليل الحصار على قاعدة الخلافة  
العباسية . فما يزال بعيداً عن العراق . وتعجب المهدي من نفسه كيف  
أوتي القوة على الاحتمال ، وثمة مكيدة لتهدسها ، بل لمحور . وجفاه الرقاد .  
ولاح له نجم الهادي على وهج ، وسعد هارون على أفول . ونقم على الرشيد  
بعد سماح . سيحرمه كل جلال ، ويؤذي به . هذا ابن الخيزران المدلل ،  
ولن يكون في مودة ابيه خيراً من امه الماكرة ، الوغدة . اخطأ جده  
المنصور حين لقبه بالرشيد ، وهو الضالّ

واذا هديرٌ يتعالى في كبد بغداد . واذا اصوات تتفجر بالهتاف الطروب .  
فارتعد المهدي . ماذا ؟ ... هل تتمخض بغداد بالثورة ؟ ... أيمشي اليه  
يحيى البرمكي في موكب هارون ؟ ... هل خانته الخيزران في عطفه  
ووجده ، فاستباحث نقض بيعته في اغناق الجند ؟ ... اذن صدقت حسنة

الجارية الامينة. لم يبق له سواها في هذه الدولة العريضة، المسبطرة التخوم،  
من المخلصين. وصرخ صرخة ماد لها البلاط، كأن صاعقة تهزه: ابن  
رئيس شرطتي؟

فاختلج منارة البربري، وقد هالته الصيحة. ووثب الى المهدي يستوضح  
مرتاعاً: ماذا، يا امير المؤمنين؟

فتصاعدت دمدمة الخليفة صحابة هلوياً: ألا تسمع الاصوات المشؤومة،  
المقلقة احشاء بغداد في هذه الدهمة، يا منارة؟... ألا اسرع الى عبدالله بن  
عبد الملك رئيس شرطتي، واخذه من رقاده. فالوقوف ينكر للجوع.  
لا ارى المفاجيء غير المقنع الخراساني. فليضربه في قلبه. ولينقذني من  
بطره. ألا اين انت من الشرطة والجند تلطم بهم النائر الرجيم!

واختلط فيه الذعر بالغضب. فهو يستجير. على ان ابواب البلاط لم  
تلبث ان تفتحت، وان اضيئت الساحات والافنية بالمشاعل، وان علا  
الهناف لامير المؤمنين محمد المهدي. فلم يصدق الخليفة اذنيه. أهتف له  
القوم وقد اوجس منهم شراً؟... ألا كيف يهتفون له، وهم المقبلون الى  
خلعه، ومبايعة ابنه هارون؟

وارهف سمعه. والتفت الى حسنة المقيمة مثله على شدة، وكل ما فيه  
على ارتعاش. ما هذه الاضداد؟... أيزحف اليه اعداؤه هاتفين باسمه؟...  
أخدعة بموثة بياهر الطلاب، بما تجيد تدبيره الخيزران؟

وحارت حسنة في التفسير. انها لفي ضعفة. هل وفقت عفواً للمرجوء،  
فخدمتها الاقدار دون ان تكلفها مضض العناء؟... وابتهجت الجارية.  
ووهبت سمعها للضجة المستبقة لها بغداد على بكرة ايها. فازت بمنشودها.

فالحيزران ترمي بسهمها قلب المهدي ، لتقيم ، في منصب الخلافة ، ابنها هارون . فكأن حسنة ملكت من حدة البصيرة ما اباح لها قراءة الغيوب . ولكن هذا الهتاف لامير المؤمنين اقام الجارية على خشية . أيتها للمهدي من يروم القضاء عليه ؟ ... وجحظت عيننا حسنة . فلا هي ، ولا امير المؤمنين ، يدركان اي غرابة تمثل في البلاط . واذا بعبد الله بن عبد الملك ، رئيس شرطة الدولة ، يندفع الى الخليفة صائحاً بمستفحل الجبور : البشرى لامير المؤمنين . قبض رجاله على المقنع الحراساني الثائر ، واطفأوا نار الفتنة المندلعة اللهب . وكان ليجبي البرمكي اليد الحاسمة في قمع الشعب ، وقد رمى بانصاره في الواقعة يذلون المقنع الغليظ الروح !

فتفتح امير المؤمنين فمه ، وما برح الشده يسيطر عليه . فإين ما يسمع بما ألقته اليه حسنة ؟ ... واستخذت الجارية . وارتجفت . لعبت بدمها . واحست بنصلة امير المؤمنين الباردة تبتو رأسها . فكأنها تلمس الموت يجمع كفها . ومال عليها المهدي بنظرة كاسحة ، ودّت بها لو ابتلعها الارض . واستجمع الخليفة قواه ، وقد عادت اليه الطمأنينة . واستطلع رئيس شرطته : أهو المقنع الحراساني يقودونه اليّ ، يا عبد الله ؟

— هو هو يا امير المؤمنين !

— وهل اعانني عليه يجبي البرمكي ؟

— انصار يجبي انقضوا على الثائر الارعن وخذلوه . وصال الجند صولته ،

وكبح جماح الشر . فالكارثة خمدت جبرتها ، والحمد لله ، يا مولاي !  
فهمت المهدي ، وقد اضاء في طلعه البشر الانور : ألا مرحى للبرمكي

وللجند . ادخلوا عليّ بالثائر اللثيم !

وأطلّ البرمكي ، بجلاله ، يقبل الارض بين يدي الخليفة . فما كان من المهدي الا ان انحى عليه فرفعه ، وقبله في كتفه ، فيما تهوي شفتا يجيى على يمين ابي عبد الله تبركان بلثمها . وتكلم المهدي فقال بفرحة يانعة : سلمت يداك ، يا يجيى . ازددت يقيناً بولائك ، وبوفائك . ابلغني رئيس شرطي ما اقدم عليه رجالك في سبيلنا !

فاعلن البرمكي ، وهو يلوي رأسه في حضرة الخليفة : حرصنا على تأييد هذه الدولة الزهراء ، بأبي علينا ان نتهاون في الانقاذ . فكل ما يؤلم امير المؤمنين ، يقلق مهجتنا . وكل ما يسره ، ينزل منا في مستقر الانس . ناوأنا المنادي بالعصيان في جوف موثله ، وخضدنا عزته . ودفعناه اليك بغمّة كي تفيض بين حوانيك المسرة الدهاق !

وتواتر حسنة الجارية ، وقد لاح البرمكي في حضرة الخليفة . وما تواتر لسوى خوفها من ان يبصرها يجيى في البلاط ، فينقل النبأ الى الخيزران ، فتشتد المكايدة بين المرأتين . عدا انقامها غيره المهدي ، وهو من لا يميز لسانه ان يلقي على سواه خاطف نظرة . على ان كل سكينه نات عنها . وكل شعور بالحياة انطفأ فيها . سيلمّ بخدعتها ابو عبد الله ، ويقضي عليها . انها لقيت النهاية من ايامها

وتولتها الغمة . وتعاطم فيها القنوط . فكيفما سعت للتفوق فهي عائرة . ورضيت بالموت . ليحصدها سيف المهدي . حان لها ان تستريح . ولم ترهب افتضاح امرها ، والرزوح بياسها اهاب بها الى الرضى بانكد مصير . وتذكر المهدي ما روت له حبال ما تبصر عيناه ، فعاظه التضييل . لو اطاع هواه ، وحسنة تحدته عن المكيدة الزائفة ، لدحرج رأس يجيى عن مشواه ،

واطاح الخيزران . وانه ليتعجب من نفسه كيف حالقه الصبر ، وليس من  
عادته الاعتصام به ازاء المكاره . الا أن الحق أبى أن يهون . ولم يحقد على  
حسنة . اخلاصها دفعها الى اقلاقه بما اضطرب به سمعها . على انه نغم على  
من نفت القرية ، وودّ لو يعرفه . فما ييب بحسنة الى كتمان الاسم ؟ ...  
أبكون المفتري من ارباب الكرامات ، فلا يباح دمه ؟

وقاد اليه رجاله المقنع الخراساني الناثر . فجدجه المهدي باحتقار ، واعتداد .  
ووثب عليه يمزق عن وجهه قناعه ، ويصبح به : أأنت المدلّ علينا بجبروتك  
الاهوج ، ايها الزريّ ؟

ولكنه ما نضا الحجاب عن المقنع ، حتى تهيب . فهو تجاه رجل في  
الاربعين ، عبل القوى ، متطايّر النظرات تهباً ، وقور الطلعة ، قد كست  
لحيته الشمطاء عارضيه ، وبعض صدره . وسطعت في اساريه عزمة الاقدام  
والسمو . وجمد المهدي وهو يتأمل الهيكل الفارض الاجلال . فمن يكون  
هذا المنجى . على امير المؤمنين ؟ ... وشدد المهدي من نفسه ، وهدر  
كاشراً : ألا من انت ، يا وجه الشؤم ؟

فنظر الاسير الى الخليفة نظرة الحق الفائر ، المشتعل اضطغاناً . وبلع  
ريقه ونبر : انا نصير ذوي الحق المهذور ، والفضل المعموط . وانت ادري  
الناس بما كان فينا من ابيك المنصور !

فصرخ به المهدي نفوراً ، معتكر العين : أأنت من يدعي الدفاع عن  
الحق المهضوم ، يا ابن اللبنة ؟ ... والله ، لادوستك كالتواة الملقوطة .  
اقتلوه !

فاستطال الفارسي في قيوده ، وقال بجرأة رهبها سامعوه : ليس العجيب

ان تبطش بي كما بطشتم بابناء اعمامكم ، وبانصاركم . بل العجيب ان تعفو عني . وان تفعل لنقص في خلقك . وهي مئة احمد عليها الله . هذه دولة قامت على الدم ، وستغيب في الدم . فمن يرفع السيف ، يضرب به الاعناق ظلماً ، يحدد هامته السيف . ولي بابي مسلم أسوة حسنة . فلا احسبك تجهل ما لقي من ثوابكم ، بعد كل ما بذل في بناء دولتكم . وهل كنتم السادة لولاه ؟ ... انه لغرور شاحط منكم ان تعتقدوا انكم قبضتم بساعدكم المجدول على الناصية . فما استطعتم ، لولانا ، ان ترفعوا العين الى اقبال الامويين ، وقد استدلوكم تسعين حجة . ولكن اللوم علينا ، لا عليكم ، وقد حققنا لكم ما تخاذلتم عنه . رحم الله الظل الاموي على عسفه . فما ادر كنا رفقه الا وقد بسطتم علينا ظلكم البغيض !

فارتفعت الصيحات ، وقد تفلقت الاسياف في اغمارها : اسكت ، لا أم لك !

وهدر المهدي : اقتلوه !

فتنازعت النصال لا تعف فيه عن مقتل ، ولا تفسح له الى شقفة . فخرّ يتضرّج بدمه ، ويملأ البلاط بمديد قامته . وهتف بجي البرمكي فيما ترنو الابصار الى الجئان الحامد ، الاحمر الطلاء : لا أُقبلت له عثرة . عاش امير المؤمنين !

وترحزح عن الصدور كابوس هاصر ، جثم بها في لمعان ومضة ، فيما تفلقت السيوف جبهة الخراساني المشاغب . وعلا الهتاف للمهدي . وتساقت الاعنات على الناثر الوقع . فالتفت الخليفة الى الحشد معلناً : سلمتم جميعاً ، يا اخواني . ودام بقاء السلطان العباسي الموفور العدل ، العزيز الأس .

احملوا هذا المزعج المقيت الى فناء القصر، واصلبوه عظة لكل من يستطيب  
اساءة الظن بقدرتنا !

فاكبّ الجند على الجثمان الساجي ، النزيف ، يرفعونه هيكلاً مختلماً الى  
ساحة البلاط، ويدقون فيها الاعواد لصلبه . واوماً الخليفة الى يحيى البرمكي  
ان تعال . ودخل به الديوان ، ويحيى في اعتزاز ونشوة . سيفرقه امير  
المؤمنين في فيض من جزالة الاطراء، ونداوة الشكر، برآ في الحفاظ والولاء  
لا يذهب العرف بين الله والناس !

لم تسكن نفس ابي عبدالله ، مع نجاة من شيخ الخراساني المتوعد .  
فتراءى له ، في انتفاض القوم عليه في خراسان ، ما يندر بسوء العاقبة .  
فاذا هبت ريح العصيان ، في بلاد فارس ، اضحت في العراق اعصاراً ،  
وفي الشام زلزالاً . وليس كل من يتوسد رحبة الدولة العباسية بالراضي عن  
الاولياء . فان رهطاً ساس الامم المتملمة من جور الامويين ، باغف بما  
ضرب الامويون على رقابها من أنيار ، لن يحظى بعطف يكتب له الاطمئنان  
في الاريكة . فالحفاظ الرائدة لا بد ان تستبقت وتثور ، فتهدم ، وتمحق ،  
لا تتهاود ، ولا تهيب

والمهدي خشي اليقظة ، والثورة ، بقيام الخراساني المطالب بدم ابي مسلم .  
ففزع الى الحيلة لئلا تتكرر الدواهي ، وتستشري الفتن . واتي للعرش  
ان يرسخ على دعامة ، والانواء تتجاذبه في كل سبيل ، والحصوم يقتحمون  
خدره ، كأنه معبر مباح ؟ ... ان هناة البال لتفرض المضي في حصد  
الرؤوس المزهوة ، والظهور بمظهر البطش الزاجر ، والا فلن ترسو الخلافة  
في القرار المنتهية اليه

وايقن يحيى البرمكي ان ليس له ان يرقب الشكر ، وكل ما في اسارير  
الخليفة يرشح بالنقمة والغيظ . وصاح المهدي بصوت غليظ يتهدج حقناً : اني  
لقلق المهجة ، يا يحيى . وما دعوتك الي لسوى ابلاغك ما سوف يكابد بنو  
قومك من تشتيت ، وهم يحثون الى نبش الدفين . وتربة ابي المنصور ، لن  
ابقي فيهم على كبد خافقة . فليحذروا اثاره غضبي ، والا ألحقهم فوجاً ، تلو



فوج، بهذا المصلوب في ساحة قصرى. فليس المهدي دون ابيه المنصور قسوة  
وتكبيلا. وان اكن جلوت لكم الحلم، فما محوت من نفسي الحشونة.  
فالسيف المعمد ما علاه الصدا. وهذا الساعد خليق بنثر كل هامة تشامخ.  
ابن المنصور يتقد بروح من نجله. فاذا استهواكم ان يكشف عنه الحجاب،  
ذهب فيكم بكل عين مبصرة. اتقوا فتكتي. اثورة، وعلى المهدي؟ ...  
جاوزتم الحد، لكم الويل!

فارتبك يحيى، واهتزت جوارحه. أهذا ما يرتجي من اطراء وشكر؟ ...  
وتكلم ينافح عن سلامة طويته، وعن اخلاص الفرس، واقتنائهم العرش  
العباسي بالاكباد. قال وتهديد المهدي يفت في روعه: صان الله مهجة  
امير المؤمنين. اولئك الزعانف الجانحون الى الشدوذ ليسوا الفرس باجمعهم.  
فان معظمنا ليرى في العباسيين سادتنا، ويجد في خلافة، يربع بمسندها  
ابو عبدالله، دعامة الايمان والعز. وكيف نتعامى عن إمامة يليها خليفة رسول  
الله فينا، وننكر ارباب الدراية القابضين على مصائرنا؟ . . . لقي الجاحد  
جزاءه، يا امير المؤمنين. وعلى كل من ينهل من نبعته ان يغيب في مهواة  
تدحرج الوغد فيها. فاشهر السيف على المكابرين، واحققهم ببطشك العادل.  
اما ان يذهب الصالح، بجريرة الطالع، فهو مما لم يقدم عليه المنصور كي  
يندفع فيه محمد المهدي. ان الدين نفسه لياى المساواة بين الاخيار والاشرار.  
فليقطع امير المؤمنين اعناق كل من بطروا وناهوا. وما ذنب المسلمين كي  
تحرقهم النار؟ ... فليست فارس باجمعها ابا مسلم. ولا المقنع الحراساني  
سيد كل من يتوي بهاتيك الاصقاع. فما يزال لابي عبدالله في بسطتنا  
خلصان وعبدان!

فدمدم عليه الخليفة المتماذي السخط : هذا بيان المظلمين ، يا يحيى .  
ارى لك في فتنة خراسان خيالاً يتأيل . فكأن المقنع الخراساني صنيعتك .  
انت أهبت به الى خلع دثار الطاعة ، والى مصادمتي بالافلاق . وحق من  
نفخ فينا الارواح ، ووهب لنا الاحلام ، اني لاتبع النابل بالنبله ، واقم  
الساعة في فناء القصر صليباً آخر . فلا يكون نصيبك مني اوفى من حظ  
ابي سلمة الخلال من عمي ابي العباس ، ولا اسى مما آل اليه ابو مسلم ،  
وابو ابوب المورباني ، في عهد ابي المنصور . ألا ما هي صلتك بالمقنع  
الخراساني ؟ ... هل لك ان تنضو عنها الستر ، وان تكون صريحاً في ما  
تبدي ؟ ... ان تكن نحرص على روحك ، فتكلم بوضوح ، والا ندمت .  
ثكلتك امك !

وتطير المهدي شرراً مجتاحاً . وخاف يحيى على نفسه من فورة ابي عبدالله .  
هل دقت الساعة ؟ ... فكأنه يرقب ما صار اليه من سبقه في خدمة العباسيين ،  
من امثال ابي سلمة ، وابي مسلم ، والمورباني . فالثلاثة بلغوا في الدولة العباسية  
المقام السامق . وما ان استعلوا حتى حصدم المنجل الكاره ان يستكبر ذو  
طماح . على ان البرمكي ابي الظهور بمظهر الحقير المهين . فان تكن روحه  
على وشك ان تطير ، فلن يستعين بالذل على استبقائها . قال يوضح للخليفة  
موقفه منه : ما كان يحيى البرمكي ذا وجهين ، يا امير المؤمنين . فانه ليذكر  
فضل ابيك على ابيه . كما يقرّ بيدك الراحمة عليه . وليس لمن يرتع في  
الحسنى ان يكفر بها . فاني لمن قوم يدينون لكم بالطاعة ما عاشوا .  
ويستيتون في رضاكم حتى التضحية بكل اثر . واذا بلغ مولاي الخليفة  
عني اني خافر للذمة ، فاني لا صارحه بان القائل يفترى على غرسة معروفك .

فهو من حسّادي على نعمة امير المؤمنين قبل جوانحي ، وهنأها مشواي .  
اما ان يكن عطف ابي عبدالله ، انقشع عني عفواً ، وتبدل في صدره الودّ ، فها  
هو ذا عنقي . فليرحني امير المؤمنين ، بصلي ، من عبء ثقيل لا اقوى على  
حملة ، ما دام سيدنا وإمامنا ينقم عليّ !

فتأثر المهدي بالجرأة الزاخرة بالولاء والشمم . ما اضطرب صوت يحيى  
البرمكي برعشة ، ولا بلعثة ، وهو يؤدي الكلام . فالصدق ينبض في بيانه ،  
وفي وقفته . على ان المهدي ابي الايمان بنصاعة ارواح الفرس ، فرعد :  
أتريد اقناعي بانك بريء من فتنة خراسان ، يا يحيى ؟ ... ولكنها المقدمة  
لاستئثاركم بالعرش . فلا تزالون تحنون الى كسرى والايوان . وما العقد  
لهارون على زبيدة ، وثورة المقنع الخراساني ، غير الخطوة الاولى لهدي ،  
ومبايعة هارون بالخلافة ، وعودة الفرس الى السؤدد . فيقبض هارون ،  
بعض الزمن ، على الناصية ، ثم تزيجون من تحته السرير ، فيهوي الى حيث  
لا ترجى له نهضة . بل الى حيث لا ينتظر لنا جميعاً ان تقال لنا عثرة .  
وتستولون على الامر في دنيانا . وتذلون منا الرقاب . فيمسي الحكم اعجبياً .  
ويندثر العرب . ورجاوة ابي مسلم هذه هي . وكأنها رجاوة كل ذي روح  
فيكم . ألا خستم . أتسمع ؟ ... والله ، ما انا بمن يلوى له عود . فاني  
لانتوكم جماجم يأخذ بعضها ببعض حتى تسد المسالك . وتسمي دياركم مقابر  
لا ينبت فيها غير العظام . ان لي من بأسى ، ومن جندي ، ما يذل فيكم  
الوثبة ، ويطفىء الحياة !

فارتعد يحيى البرمكي . باي خطاب يصدمه امير المؤمنين ؟ . ولم يكن  
منه الا ان سجد بين يدي الخليفة . وانتزع من وسطه سيفه ، وعرضه على

المهدي يقول بلهجة المستسلم الى حتفه : سيدي ، ومالك روحي ، هذا سيفي ، فاقتلني به . اصبحت اكره البقاء والارتباب بي يعروك . لا ، ليس لي ان اعيش وثقتك بي تزلق عني . فان تكن تراني ذلك الغادر ، فما اشهى الموت العاجل للخلاص من جفائك وسخطك عليّ . والله ، وحقك انت ، وتربة ابيك المنصور ، لو خطرت لي هذه الحواطر ، لقتلت نفسي لثلاث تطلطح بالجعود . فلست ارضى بان احيا في وهم من الكفران بالجميل . ولا يدهشني ان يحسدني الوشاة على نعمتي لديك ، بل يؤلمني ويجزّ في كبدي ان يصدق امير المؤمنين السعاية بخادمه الامين . قد تكون انتهت مهيتي في التوفر على ارضائك ، يا ابا عبدالله ، فاستأصل شأفتي ، وأرح لبك مني . لا مردّ لحكم سيد الامة وحامي الدين !

وحنا رقبته لضربة السيف . وراع المهدي هذا اللين في مؤدب هارون ،  
فنهر : ألسنت منظم المكيدة السافلة ، يا يحيى ؟

فازداد البرمكي انحناء . وقال بصوت عميق ، كأنه ينبعث من اكباد اللهود : عالنت مولاي باني اصبحت اشتهي الموت . فلينفذني من ايامي ، وقد انتفت منه مودتي !

— ولكني اريد الجواب اليقين . أما اتفقت واخيزران على هدمي ؟  
فارتعش يحيى وما برح منسدرأ في صوته العميق : للحساد ان يختلقوا ما شاؤوا . على ان من الجناية على الحق ان يذيعوا عنا اننا نحاول هدم عزنا بايدينا . فهل لمن ينهلون من رعد امير المؤمنين ، ان يدهمهم الجنون ، ويغمدوا في صدورهم مواضيههم؟... واذا جاز هذا الحق في يحيى البرمكي ، فهل يصدق في اخيزران ، المستميتة في موالة سيدنا الجليل ؟

فصاح المهدي بحدة تنكر للرافة: ليس لناقل النيا ان يكذب، يا يحيى،  
وهو من لا يدرج في فربة، ولا يستوي على اثم!

فجهر يحيى، وقد ألقى امره الى المقدور: ما دام امير المؤمنين يجد  
الصدق في ما نفت الانكاد في سمعه، فما به يقعد عن محوي؟ ... لتفتح  
في الصباح بغداد عينها على صليبين في ساحة البلاط، فتتعظ وتستهدي. قد  
يكون في إرافة دم يحيى البرمكي ما يزيد في توطيد مسند الخلافة. فلتذهب  
انقاسي فدى العرش، يا امير المؤمنين. فالمخلص من لا يمك عن التضحية  
بروحه لاسعاد من يدين لهم بالطاعة، ويقرب بصنيعهم الحبيب. حياتي هبة  
الله لكم. ومن حقم ان تندبروا كيفما شتم امر ما تملكون!

فتقهق المهدي عن غلبانه ازاء هذا الفيض من الزلفى. وقال بعنف يجبو  
الى السماح: ألا انهض، يا يحيى. لست ارغب في ان يذيع عني اني  
كاره للفرس. والا كان لي ان ازول بكم الارض، وكلكم ينطوي لنا  
على شنيع الحقد، مع سخائنا عليكم بالرتب والارزاق. واعلم اني ساقب  
خطوك. واصغي حتى الى هائلك. فاذا بدا لي منك انك فاسد الطوية،  
فلن انام عنك. سيظهر المهدي السيف لتأديب كل زنديق. والويل لمن  
تطاوله التهمة. وعليك ان تقب محادثتي في اقرار ولاية العهد في هارون.  
ليحمد الله على ابقائي له احد اطرافها. فما ولي العهد المجتبي غير موسى.  
وابلغ الخيزران ان تمسك عن الكيد. فانا السيد في دولتي، لا هي. حسبها  
ما بلغت من العزة. والا فلكل شعلة خمود. انصرف وامتنع من  
الاستئذان علي. فلست اطبق مرأى ارباب الضائر الزنخة!

فتمت يحيى بلهفة موجعة: حبيت الى الموت، يا امير المؤمنين. فلا

كانت الحياة في سخطك وفلاك . لا الخيزران ، ولا هارون ، ولا يحيى  
البرمكي ، خطر لهم يوماً ان يخرجوا على مسنون شرعتك . ارى الوشاة  
بمخرفون فيما ننام آمنين !

ونض وهو على انحاء . فقال المهدي بقطوب ومقت : لست بمن يؤخذ  
بجلو الكلام ، فدع عنك المصانعة . اذا ابيت على يدي ان تسترسل في  
الاذية ، فما يصونكم من فتكتها غير رذاذ من اشفاق . فحاذروا ان يطفح  
الكيل . انصرف ، يا يحيى !

واهاب به الى براح البلاط . فتراجع البرمكي وبوده لو ملك القدرة  
على البيان ، تهاكأ منه على اقتناع امير المؤمنين ببراهته من وشاية ذوي  
الافك . وتعثربخطوه . وراعه ان ينال منه خصومه ، وان يخذلوه في  
عطف ابي عبدالله . فاشتعل ألماً واكمدت اساريه . من ينساب الى المهدي  
فيزخرف له النائم ؟ ... ولم يكن يحيى بمن أغلقت بصائرهم عن الادراك .  
فاستشف نقمة المهدي ، وبدت فوراً لعينه اصابع لبابة ، زوجة موسى الهادي .  
فان لبابة لذات دالة على امير المؤمنين . ومن مصلحتها ان تفسد عليه رفقته  
هارون ، وبالخيزران ، وبالبرمكي ، وثمة نزاع على ولاية العهد . واحس  
يحيى بانتصار المناوئين عليه . فوقعوا من نية الخليفة موقفاً لم تبلغه الخيزران  
على غلواء شأوها . ولم ينطلق البرمكي الى منزله ، ولم تكن تطيعه قدماء  
في الشخوص الى مغناه ، مع قلقه وانكساره . بل اندفع الى قصر اساس  
يطرق بابه ، ويروّع النيام

والقصر استفاق على الضجة السائدة ببغداد ، لما جيء بالمتع الخراساني الى  
الخليفة . ثم لم يلبث ان غفا وقد استجلى النبا اليقين ، ووعد نفسه بان ينهب

الصبح الى امير المؤمنين في بث التهئة، والدعاء بالنصر الكميل. وراعه هذا  
الطرق بالباب. واشتد به الروع وهو يأذن بان يجيى البرمكي يلتمس المثل  
في حضرة الخيزران . فماذا في جمعة يجيى ؟

واستيقظت الخيزران على وهلة . واضاءت في حجرتها النور. وما اطلت  
عليها البرمكي، بلامحه الحشبا، حتى لست الهول. واستفهمت بعينين ومضت  
فيهما دمامة الرهبة : ماذا ، يا يجيى ؟ ... هل من ملمة ؟

فاستجاز في حضرتها الجلوس ، وقد نابت به ركبته . واعلن وهو  
يلهث ، وكأنه يختنق : نجوت من سيف امير المؤمنين باعجوبة . لا ريب  
ان امي صلت لي في ليلة القدر. فقد نمي الى المهدي اننا نكيد له، ونحاول  
زحزحته عن السدة . فعرضت عليه سيفي وعنقي ، كي يريخي من دنيا اشقى  
فيها، ما دام يرتاب بي. فدعاني الى الانصراف وهو يعن في تحذيري من اللعب  
بالنار. واي نار نلعب بها ، يا ذات الجلالة ؟ ... ابو عبدالله يري اننا اعوان  
المقنع الحراساني عليه . فيشوقنا ان ننسف به العرش لنقيم عليه هارون ،  
تمهيداً للفرس الى استعادة خطرهم . فهل عرضت لنا هذه الدنيا في بال ، زاد  
الله في رفعتك ؟

فهمت الخيزران بغضب صخّاب : أيؤمن المهدي بلثيم الترهات ؟ ...  
ولكني اعتقده يُجَلَّ عنها . فمتى كنا له على كره ؟ ... ألا من انسل الى  
خاطره بالوشاية الفاجرة ؟ ... ادميت قلبي ، يا يجيى . أما اتفق لك ان  
تقنعه بانه بما يتوهم على شطط ؟ ... اني لمنطقة اليه الساعة اعاتبه في سوء ظنه  
بنا . فهل لمثلنا ان يخلع عنه رعاية المهدي ؟ ... ارى لموسى ضلعاً في ايفار  
صدر ابيه علينا . تباً للاولاد المعققة ، كم نجني من مشاينهم الويلات . أرايت

ما يجدوني على النفار من هذا الابن الشرير ، الفظ ؟ ... والله ، لكأني  
ولدت به اسأم الاعداء !

وهمت بارتداء ثيابها . فقال يحيى ينزع بها الى الاثناد : صبراً . لا اريد  
ان يعلم اني جئت اشكو اليك ، في مثل هذه الساعة ، ما لقيت من نعمته .  
دعي الامر حتى منبلج الغدوة . على اني لا احسب الواشي بنا موسى . بل  
امرأته لبابة . فهي ابدآ في بلاط امير المؤمنين تردلف الى عمها ، وتنفت في  
روحه سمها الزعاف لمعالبتنا ، وتسويد صفحتنا . وانها لعلى اتفاق وموسى .  
الا ان لها من رجاسة نفسها ما يكفي ويزيد . فليست بحاجة الى مسعف في  
اضرام البغضاء !

فصعد صدر الحيزران وهبط ، وهي تسمع باسم لبابة . ان يكن موسى  
ذلك الافعوان ، فان لبابة لعقرب . ولقد خبرت الحيزران من لسعات هذه  
السامة ما فيه غنى ، وقد كادت تحرمها البهجة باستطالتها عليها . قالت وكل  
ما فيها على رعدة : صدقت ، يا يحيى . ذاك النفث من معين لبابة المشتعلة  
السخائم ، وليست ترى في الوجود غير المقابح والنفايات . فالبشر باجمعهم  
لديها ادناس ، وهي وحدها سليلة الشرف والمجد . ما كرهت مخلوقاً كرهى  
لهذه التباة ، الحبيبة اللسان . فانها لتبالغ في الكيد لي ، كأني شجأ في  
حلقتها . على اني سأسحقها . فلن تنسخ حذب اني عبدالله علينا ، وما تقوى  
على سلخه منا . فليس لي الا ان ابدو ، بين يدي امير المؤمنين ، كي ازيل  
من ضميره كل كدرة تلفحننا !

فقال البرمكي وقد هاب الصعاب : لبابة مسموعة الكلمة في البلاط ،  
يا ذات الجلالة . ولسوف نلقى في سعاياتها العقبة الكؤود . فقد صارحنى



امير المؤمنين بانه لن يصفي الينسا في رفع هارون الى ولاية العهد ، دون موسى . فان نكن نرجو ان نبليغ هذه الشهوة ، فاننا لنلتبس الوعر . وهو الدليل على ان دسائس اعدائنا فعلت فيه فعلها . ولم يبق علينا الا ان نلوذ بالصبر . فالعجلة تزيدنا احتراقاً . لقد كان الشائتون ادهى منا . فكل ما تعبنا في تشييده تداعي !

واطلق زفرة الاسى . فقالت الخيزران ، وقد ضامتها الحيبة : ان الحظ ليخوننا ، يا يحيى . على افي سانا هضه . انت تعرف الخيزران . فلن تهون في المعترك . في صباح غد سأكون وحدي في مقر الخليفة . فإما انا ، وإما لبابة . إما موسى ، وإما هارون . على ان الفوز لن يفلت منا . فليس للمهدي من اصفياء سوانا !

غير انها ، مع جبرها بالتغلب على نية المهدي ، معاهدة على ان تبدد من صدره فاحم الجفوة ، لم تبرح تتهيب سلطان لبابة على خاطر امير المؤمنين . فان لامرأة موسى الهادي من الاثر ، في عمها ، ما تتضابق في محوه الخيزران . واطرقت السيدة الاثيرة فيما يلوح لها طيف لبابة . أتقوى على استئصال ما نفتت هذه الحاقدة ، الحطرة ، في كبد ابي عبدالله ؟

وابو عبد الله ، ما نأى عنه يحيى البرمكي بمتمعاً ، جازعاً ، حتى ارتدت الى جاريته حسنة يقول باعتداد ذي الاثرة : هل سمعتِ ورأيت ، يا حسنة ؟ ... المقنع الحراساني الرجم فللنا غريبه . ولم يبق له متسع للتيه والاشتر . ويحيى البرمكي هزنا قلبه ، بما سلقناه من حديد التبكيت . وانه لمبلغ الخيزران ما كان منا فيه ، وما اطلقنا فيها من زجر ، فتهدأ الغوارب الجائشة ، ويفي الضالون !

واعجب مديداً بنفسه . أطفأ اللهب المنذرة بالضرم الاكول . وحسنة رأيت  
وسمعت . فما توارت الا وقد بدا يحس ، مخافة ان يشخص له أنها موقدة  
الشحناء . ووقع في أذنيها كل ما أوقر به امير المؤمنين مسمع ابن برمك .  
وكانت تحبى وراء ستار ، مسدول في احدى الزوايا ، لحجب نساء المهدي لدن  
يقبلن لشهود مجالس الخليفة . واجابت ، والمهدي يسألها هل وعت وابصرت  
ما ألم الليلة بالبلاط من شؤون : ما نددت عني مهزة ، ولا قولة ، يا امير  
المؤمنين . فلا ينفك ناظر ابي مطبوعين بسجدة يحس بين يديك ، عارضاً سيفه  
ورقبته للنحر . لقي الحبيث جزاء مما كرته . فهو والحيزران ، من التغرير  
بالخليفة ، ما يقدر عليك اتقاء العائلة . فما عرفت ثعلبين وراغبين يضاهايهما .  
هما حملان في حضرة امير المؤمنين ، وذئبان لدى صدوفهما عنه . يبدبان  
الامتثال لمشيئته ، كي يزيغا عنها في ما يعمدان اليه من وغادة . ولكن  
القدرة بجانب الخليفة الميمون . ما اشعلها في خراسان ، حتى انطفأت في  
بغداد . فالزمن يؤاتي أبا عبد الله . على ان اليقظة مفروضة ، يا امير المؤمنين .  
فما التوى الشاعر في بيانه حين قال : « لا تقطعن ذنب الافعى وترسلها ! »  
وعادت تغريه بدمهما . فقال بمنطق المتأني الحصيف : سانتظر ما يكون  
من موقفهما بعد التحذير . فان يحظر لهما الايغال في الكيد ، سقيت التراب  
دمهما . فالمصلوب صباح غد ، في ساحة البلاط ، سيكون لهما خير عبرة .  
وسيتدليان مثله ، على الاعواد ، إن هما شمخا فاشترأب عنقاها الى المرتقى  
الحرام . هي لي بعض الزمن . اعتقد انهما سيرعويان عن التنكيد !  
فهزت رأسها لا تؤمن بارتداعهما عن المنكر . وقالت بصوت ينضح  
بالشك : أيتراوى لامير المؤمنين ان الافاعي تمتنع من العض ، ونفت

السمّ؟ ... هذا وهمٌ خادع . مناهما ان يبيّتا لك الدواهي ، تحت مظهر  
الامتثال لرغائبك . فهما يسعيان لترسيخ قدم هارون في ولاية العهد ، حتى  
اذا ما توسد المقام المرجوّ ، انقلبا به عليك . ورفعا عنك . واحداثا في  
الدولة خضخضة تعبتَ في دفع وبالها . اني لاشئى ان يذهب مكرهما بندي  
امير المؤمنين !

فنبه ، وقد استعاد وقفته الجبيرة من يحيى البرمكي : ايشخص لك ،  
يا حسنة ، أن المهدي يكثرث لقرمين حقيرين ، كيجبى والخيزران ؟ ...  
انك لضعيفة الرأي اذا جاول هذا الظن بالك . والذي نفسي بيده ، اني  
لاطمرهما حين ، في أحشاء الارماس ، اذا نبض دمهما نبضة وغدة ، تم  
على عصيان . واذا طاب لهما ان يتكثرا على هارون ، في مصاولتي ، فسأطرح  
هارون . هذا مقال وقع في اذنيك مني ، وانى لاعيده امعاناً في التوكيد .  
فلست ابأ لابن عاق ، ولن اكون . ربما سلمت نية هارون من الغلّ والزنج .  
الا ان الارتباب بدخلة يجيبى والخيزران سيحني عليه . من المحال ان يفوق  
اخاه في المرتبة . وقد يتدحرج عن منزلة اقمته فيها ، اذا بدا لي منه انه  
مطية الزنمين . فكوني موقنة أن المهدي ليس بجباناً ، ولا اعمى !

وارتعد . وتساعد الى وجهه الدم . فقالت حسنة تنجراً عليه في ما لم  
يكن لها ان تنفذ به الى وعيه : اذن عليك ان تعود الى المنادة بايثار موسى  
على هارون ، في ولاية العهد ، كي يعلم الناس أن يجيبى والخيزران لا يقويان  
على زحزحتك عن شهوتك . فقد خيل الى قومك انك رجل لا تثبت على  
رأي . فما للخيزران الا ان تشير عليك بمطلب ، حتى تميل بك عما اقررت  
وابومت . وليس لسيد ضخم نظيرك أن تقوده امرأة !

فصاح وكله على لظى: هذه اقوال شتمتها، يا حسنة. فما بك لا تنفكين  
تتقين بها اذني؟ ... لم يبق في هذا الصرح من كلمة للخيزران. فهي فيه  
اشبه بسائر نسائي. وجميع من يمتد اليهم سلطاني يعلمون أن ولي عهدي  
موسى، وان هارون يتلوه. ولا محيد. ألا تتقين ببيان المهدي؟

فأعلنت بوفور دهاء: انا اول من يثق بمقال امير المؤمنين، وبرسوخه  
في عهده. ولكن ليس الجميع حسنة، جارية ابي عبدالله. فمن الضرورة ان  
يعلم، كل من يدب على ارضها، ان الرأي رأيك في دولتك، وان  
الخيزران، ولقيفها، لا يملكون القدرة على تبديل حرف من المكتوب!  
فزعتي: غداً ستعلم الديار العربية، على فضااض بساطها، أن ولي العهد  
موسى، وان بعد موسى هارون. فما ان يتدلى المقنع الحراساني على الاعواد،  
وتحشد الجموع لمرآه، حتى ينادي فيهم حاجبي أن المقنع لقي حقه. وأن  
مصيره مصير كل مشاغب عرييد. وأن ولاية العهد لموسى اولاً. وبعد  
موسى تنتهي الى هارون!

فاستوضحت بطرب الفائر بالبغيّة: أيفعل امير المؤمنين، أيفعل؟  
فاجاب بعنف صاحب الامر، المباهي بسجية يؤلمه ان يشكّ من حوله في  
تأصلها فيه: ولكنني لا اذكر ان من عادتي النكوص عما ابدى، يا حسنة.  
فالمهدي لا يتلون في منطقه، ولا جهون!

فضحكت في نفسها من هذا البيان الملتوي. هل نسي ابو عبدالله كم  
عبث بعهد قطع لها، وكم تجاهل كلاماً نشر في أذنيها؟ ... والتفت اليه  
بعينين ما خلتا من ومضة التهم، وقالت بدمانة في اللهجة: اني لموقنة ان  
امير المؤمنين من ارباب الحفاظ والوفاء. فلا يعدل عما يذهب اليه. بيد

اني اخشى ان يكرهه ، على الفتور في العزمة ، من ترجح كرامته لدى  
الخليفة كل كرامة . فيقلق ، بنظرة منه ، كل ما وطد عليه ابو عبدالله النية  
من تدبير !

وابتسمت ابتسامة ارتعش فيها خيالاً من خبث . فصرخ المهدي من  
اعماق قلب ملسوع : ذلك كان في الماضي ، يا حسنة . يوم كنت احسب  
الخيزران بريئة الروح ، سخية العاطفة . اما وقد عجمت عود المناقفة ،  
المضلة ، فلن اركن فيها الى معسول المداهنة ، ولن انام على فراش  
نوطته لي . وحق من براني من عدم ، لن التفت الى وجه الخيزران التفانة  
الارتياح والعطف . لك عليّ الميثاق الغليظ . هذه امرأة نزعته من ضميري ،  
فلن اقرها . وكنت أطلقها لولا انها أم موسى وهارون . عدا ان امرأة  
المهدي لا يجوز ان تسف الى حضيض الدهماء . فيتجاذبها كل طالب لذة ،  
وكل راغب في ايلام !

فتنفست حسنة عالياً . وتعاطمت بهجتها . ماتت الخيزران في عرف  
امير المؤمنين . بيد ان الجارية ما برحت تخاف يقظة الحنين المؤؤود . فما  
عوّدها امير المؤمنين ان يتنكر لمشيئة امراته الاثيرة ، مع افتئاتها بحقوقه ،  
وبجاوزتها الحد في كل ما تنهد اليه . فهل تبدل خيالها بعدما جاءه انها تكيده  
له ، وتجاهد في القضاء عليه ، فيما يعاندها في ارهاق موسى ، ابنها البكر ؟  
ورأت حسنة ، باضي حيلتها ، ان ترفع من شأن الهادي ، عكازها في مناوأة  
الخيزران ، حتى اذا ما صلب عوده ، اضحى من الصعب تحطيه . فيظل ابدأ  
في المقدمة ، في عطف ابيه ، وتبيت حسنة ذات الرأي النافذ في الدولة  
التباهة ، الريا . قالت : ألا يجد أمير المؤمنين ، من جميل السياسة ، ان

ينتدب موسى الهادي حُطير الشؤون ، فيعلو صيته ، ويملك الهمة على تسيير الامر بما تصقله فيه التجارب من خبرة ، ويخطب ود بني قومه بنباهته ، وحسن بلائه ؟

فما خفي عليه انها تباعد في الرمية . وقال : أيرؤفك ان يستمتع الهادي بطائر الشهرة ، يا حسنة ؟

فاعلنت بوضاعة في المبسم ، وبقوة في الافناع : وكيف يكون جديراً بمنصب ابيه ان لم يتم له التدريب الوافي ، يا امير المؤمنين ؟ ... هذا فتى مدعو الى ركوب ارفع سدة ، والى سياسة ارقى امة . فهل يجوز ابقاؤه في الزاوية ، ينتقل من مخدع امراته ، الى بلاط ابيه ، ومن المائدة الى المضجع ؟ ... من أعطوا مقابليد الامر ، في الناس ، عليهم ان يسبروا غور الناس ، يا ابا عبدالله . فالمنصور ، ابوك ، لم يبلغ مستواه العالي لو لم يمتزج بخليط القوم ، ويتعرف الى ارواحهم وميولهم . والهادي ، وقد أعدّه امير المؤمنين لغد واعد ، لن يقوى على القيام بالمهمة ، إن لم يعرف من هم الذين يسيطر عليهم ، وكيف يقودهم ؟ ... فاطلقه الى محاربة اعدائك ، ليغوص على حقيقة من سيتولى شؤونهم ، ويرهبه كل مكابر حقود !

فهدف بها : لكأنك مفضولة على تدبير الممالك ، يا حسنة . فمن نفخ فيك هذا الارشاد السمين ؟

فاضت بالمقال الهادي ، الرقيق : حيي لدوام دولتك ، يا امير المؤمنين ! فامسك بذراعها البضة ، وجهر : والله ، وددت لو اتقدت ، في جميع من حولي ، هذه الرغبة في النصر والهداية . حسنة ، لن يطول بك الزمن حتى تسمي من نسائي . وربما اضحيت السيدة المطلقة في ساوك المنيف !

فألقت رأسها الى كتفه . وتمت بصوت يتعمد اكتساء برودة الاخلاص :  
إذا ما دفع امير المؤمنين ولي عهده ، الهادي ، الى كبت اعدائه ، وقمع  
الفتن ، بطلت كل حجة للخضوع على ايثار هارون !

ونسيت نفسها حبال الهادي . ولم تكن تروم سوى قهر الخيزران . وفي  
قهرها فوز حسنة . قال المهدي ، وقد اشتاق بعد خنق الهياج في خراسان ،  
وطعن كبد المقنع الناثر برهيف البواتر ، استنشاق عرف الهوى المعطار :  
ساطلقه الى المعالي يتبوأ مصاعدها ، يا حسنة . لا عليك ، ايتها المطوقة  
الصدوح . فلن يكون ولي عهدي الا خليفاً بي . فالمهدي يضيحه ان يقبض ،  
على الاعنة ، تحثت محبول . واني لالمس في الهادي الصلابة ، والصلاعة . فلا  
هو بالفاتر الهمة ، ولا بالمتوي الرأي . وهذه الفحولة التياهة ، المستعرة فيه ،  
تكرها الخيزران . فهي تريد ولي عهدي عبداً مطواعاً لمشيئتها الغشوم .  
تبا لهذه المرأة المستأسدة ، كم تضيق بها الكفايات . فليست تشتهي غير  
النقائص في من يلوذ بها ، كي تقبض على مطاول الجميع . فتسخرهم لما رها  
أذلاء كالسوائم . غير ان الهادي ليس من هذا الطين الوبي . فالمكالم  
الزاهرة بها نفسه ، تأتي عليه ان يكون مطية . فكرهته الخيزران ، وهو  
ابنها . فهل من أم تكره من وهبت للوجود...؟ اني لاقم من هذه الشرهة  
الى السلطان ، حتى التخمه ، على دهش عريض . فليست ترتضي ان ينعم  
سواها بذرة من قرص الحلوى ، وهي الطامعة في حصة الاسد . الا اني  
سأخرها في كبدها . فاسبغ على الهادي ، من نعمي ، ما يجرم الام السؤوم  
قرّة الطمانينة . اصبحت على برم بهذه المحتالة العنود !

ولكن حسنة اصغت منه مراراً الى هذا التنظلم السخين . فالخيزران تلوي

فيه هناة الضمير . الا انه ، مع تأفقه منها ، لا ينشب ان يرمي في مودتها ، ويمحو من باله كل ما اقلقت به عيشه ، وكدرت به صفوه . فهل يمضي ابدآ في هذا الصعيد ، حتى مع ما يساوره من ارتياب بنيات الجشعة ، المتحفزة لمحو كل خيال تتوهه يكدر عليها رحبة الفضاء ؟ ... وتعلمت حسنة ، كأنها لا تؤمن بازورار الخليفة عن الخيزران ، وان يكن يتدفق عليها بالمطاعن . فما فورات المهدي ، على امرأته الفضلى ، غير زبد سريع الانطفاء . وحاتر حسنة في ما تعمد اليه من حيلة لنزع الخيزران من خاطره . فهل آمن ، بعد الوشاية بها ، بانها تكيد للعرش ؟

واستنامت الجارية الى شهوة الخليفة ، الجانح الى اللهو بعد سكون العاصفة . بيد انها لم تكن تستأنس بهذا العناق يتهالك عليه ابو عبدالله ، ونفسها تحدثها بانه لها لهيبات من الزمن ، لا يلبث بعدها ان يجمد ، وينسل من ذراعها كالجبال الشرود . وودت لو استطاعت ان توثقه بها ، فتلد له ابناً يربطها به برابطة أئدة ، لا ينسل لها خيط ، ولا ينهار لها ركن . على ان هذه الشهوة لم تدركها حسنة ، مع شوقها المستفيض اليها . فكأنها امرأة عاقر لا تثر . وتأوت فيما يضمها اليه المهدي ، ويخاطبها بالبيان المنتمق ، اللهبان ، وقد هالها ما يجيها به زمنها من عرقلة وتنكيد . فصاح بها المهدي متعجباً من جمودها : ولكني اراك كالحطبة اليابسة ، يا حسنة !

فاعلنت وهي ترتجف : اني اخاف ، يا امير المؤمنين !

فهتف بتمعضاً : تخافين ماذا ، وانت في ظل المهدي ؟

— اخاف بما اكتوي به من خطر كلما حسبت نفسي في مأمن ، وامير

المؤمنين يدنني منه !



فصاح ، وقد لمس فيها ممكن الداء : ألا تزالين على خشية من  
الحيزران ؟ ... أنتنص ابدأ عليك الخنفساء النتننة روعة أيامك ؟

فاوضحت بمجرد جارح الانثة ، كأنه مغوس في الالم النغتار : هي  
خنفساء نتننة حين تغيب عن عين الخليفة . غير انها لا تكاد تدلف ، الى ابي  
عبدالله ، حتى تسي عطر الجنة . ضععتني الغيرة ، يا امير المؤمنين !

وبكت بدموع حرار . وشعر المهدي بحرقتها ، فتألم خالها . وتراوى  
له انها مظلومة في عطفه ، مع رفعه اياها عن سائر جواريه . وعاد يشدّ بها  
اليه ، ويقول بما نشأ عليه من سلامة روح : حسنة ، ليست الحيزران احب  
منك الى نفسي ، ولن تكون . فاذا عزّ عليّ ان اقيمك في مصاف نسائي ،  
فسأجعلك في مرتبة يتضاءلن عنها . انت ابدأ رفبقتي في حلي ، وترحالي .  
لك ان تدخلي ساعة تشائين الى القصر ، وان تثوي به ما سببت . وستكونين  
بصحبتني في كل جولة ، كأنك السيدة الاولى في بلاط المهدي . أفما تنسخ هذه  
الخطوة اشجانك ، ولا الحيزران ، ولا سواها من نسائي ، يرتعن فيها ؟ ... سألقى  
من عنت أم موسى ، وانا أخصك بهذا الايثار ، النقمة العضوض . الا اني لن  
ابالي عيت الوبيئة الكريه . لها ان تحمد الله ، وقد ابقيت على حياتها ، بعدما  
نثلت اليّ فضيحتها الكاسفة . أفلا تعلم الغادرة أن نصيب من يسعى ، للنيل  
من امير المؤمنين ، الموت الصاعق ؟ ... اني لاتعجب من سكوتي عنها ،  
وهي تتواطأ عليّ ويحبي البرمكي . لا ريب انها من الناعمات بالخط الثوري !  
فاستوضحت ، وما زالت على شك في هذه المنة : أيكون لي وحدي  
حق المسير في ركابك ، يا ذا الجلالة ؟

— هذا حق لن تنافسك فيه امرأة . بل لن تشاطرك اياه امرأة . تقبلين

ابداً في الطليعة ، وتواكبك سائر الجوارى . أفما يكفيك ؟ ... وتربة ابي المنصور ، لن اجيز لامرأة ان تساربك في جناني !

فسرّي عنها . اقسام ، بتربة ابيه ، على السو بها الى حيث لا تعادها انسى . وهو جلّ الصبوة . وطوقت يداها عنق المهدي بشغف . فازت بما ترجو من سعد عريض ، أريض . فهي تميل الى النجاة من شبح الخيزران الدميم . ولن تبلغ المرتجى ، الا وقد اقتنعت الحليفة ، بان امراته الاثيرة لا تحفظ له الود ، بل تتقاذفه في مقاصدها . واقتنع المهدي بما حاكت مخبرته ونسجت . وكاد يبطش بيجيى البرمكي وبالخيزران معاً ، لفرط ايمانه بما اوهمته حسنة من هتان . ولكن ألا يستفيق من خدره ، وتنبض في حسه الحقيقية ، وينتقم من الجارية الكذوب ؟

إذا أغلق عليه اجتلاء النبا الراهن ، فالخيزران سترشده الى الصحيح الصريح . ولكن هناك لبابة وزوجها الهادي . وبلاستناد الى هذين الركنين ، المنيعين ، ستقنم حسنة بلاط امير المؤمنين ، وتقصي عنه الخيزران الفظة المهجة . ففي صباح غد ، ستدفع الجارية المرموقة ، الى المهدي ، ابنة اخيه لبابة ، لتقص عليه نبأ مكيدة امراته الاثيرة . فلا تكاد الخيزران تنصل من التهمة ، حتى تلصقها بها زوجة الهادي . فيوقن المهدي بصدق الظنة . وتهوي الخيزران عن سدرة ترتقي اليها . وتسود حسنة . وتتوطد بالهادي ولاية العهد . وتهيبض اجنحة هارون وزبيدة . وان هي الا الامنية الجموح . وفي ادراكها يستبسل الحزب المناوى ، في البلاط ، ليجيى البرمكي وللخيزران ، وتحت لوائه ينضوي الربيع . فالربيع لم يكن يستجلي الخير في اسارى يجيى ، وقد وثب هذا الفارسي ، في نعمة العباسيين ، الى حيث تقهقر عنه العرب الافجاح .

فالتنافس ، في الرفعة ، اثار الضغائن والاحن . فاستنشرت حتى كادت تسد على المهدي سبل الرشاد . وهو مما خلا منه بلاط المنصور . فحال ابو جعفر ، القابض على الناصية بيد قادرة ، منحوتة من الصلب ، دون كل تفتيت في السلطان ، ودون استشرء البطانة . ولم يكن ثمة سواه . فهو الدولة . على حين ان المهدي اباح ، بسلامة طويته ، لمن يتفأون ظلاله ، ان يشاركوه في تدبير الامور . فنشأ في البلاط حزبان يضطرعان ، ويتنازعان السيادة ، محتمين معاً برحابة ابي عبد الله

وما انسابت حسنة ، من البلاط ، الا وقد بعثر الفجر غطاءه . وعلا صوت المؤذن في سماء بغداد الصافية يدعو الى الصلاة . واحس المهدي بالحاجة الى الراحة . فنام بملء اجفانه ، وقد استعاد هدوءه فيما يرتفع وقع ضربات المعاول في ساحة البلاط . وتتجاوب اصداه دقات المطارق . فالجند ينصب الاعواد لصلب المقنع الخراساني الزنديق . فلن تثور في البسطة العربية نزوة ، والمهدي يتولى الامر . ومن عصى حصده السيف . فايقن ابن ابي جعفر أن القوم ما يزالون قاصرين عن الندى . فالظفرة من سياسة العنف ، وقد أحكم أسها ابوه ، الى رحبة السباح المتناهي ، تفضي الى قلقلة تخرجه . فلا بد بين الضفتين من معبر ، لا هو بالسهل ، ولا بالوعر ، تجري فيه الاقدام بخطا موزونة ، وثبدة ، تأمن بها الزلل ، وتستبقي الدولة عزتها . ومن رام تعكير الامن ، فالسيف قاطعه

ولم يكن بد من السيف للوقوف بالمآرب الجائشة عن دفتها الطاغية . فما برحت الشدة خير عنوان للامساك بهذه الاقوام المتلاطمة الاهواء ، المواراة الاحقاد ، عن فورة الحزازات الضروس

بغداد تحتشد في ساحة البلاط الفيحاء ، وقد طنّ ، في سمعها المرهف ،  
 نبأ القبض على المنع الحراساني الثائر، واعتزام المهدي صلبه في بلجة الصباح .  
 فازدحم القوم ، في عرصات معقل الخليفة ، حتى باتوا وكأنهم على حمة متلاصقة  
 الجبكة ، لا تأذن في فكاك

وانصبّت العيون على الاعواد المنصوبة ، في صدر الساحة ، يتدلى منها جثان  
 اصفر ، مخضب بالدم . فتأملته الجماهير برهبة وغبطة ، وايقنت وهي تراه  
 ان العهد الاحمر ، المتسلسل من ابي العباس الى المنصور ، لقي في المهدي  
 عماده . فلن يعمد ابو عبدالله سيفاً انتضاه عمه ، وشهره ابوه ، لترسيخ  
 ركن دولة لا تزال تهبّ عليها الاعاصير من الجوانب جمعاء . كأن الامان  
 الممدود الملاة لم يكن غير هدنة ، بل تجربة ، شاء بها المهدي العدول عن  
 سياسة البطش السائدة ، فلم يبح له الخافدون المجال الى هنيهة القرار  
 وانجحت احدى الشرفات ، المطة على الساحة ، عن طلعة امير المؤمنين .  
 فماجت الجموع بالهتاف والتكبير ، وكان دنيا من هامات تتأيل كالسنابل  
 في مهب الريح . وألقى المهدي الى الحراساني المصلوب نظرة . وغمس في  
 كبد الصقوف المرصوة نظرة . وحمد الله وقال بلهجة السيد القاهر ، المهيب :  
 ايها الناس ، ابي عليّ سفاؤكم الرفق بكم ، فعمدت الى السيف . فمن تطاول  
 فهذا جزاؤه . فكونوا من انفسكم على حذر . اياكم ان تحذعكم طلاقتي ،  
 وما ابقيتكم على نزر من استئناس بولائكم لي . وطنت النفس على احتزاز  
 كل رأس صلب . فاعتصموا باللين ، اذا ساقكم ان تصونوا اكبادكم من

الهلكة . ليس للزنادقة في دولتي ظل يتفياون ، ولا موئل يفرعون اليه .  
فاتقوا فنكتي . ابو عبدالله محمد المهدي ، خليفتم ، مقتوح العين . فما ينام عن  
شعب ، ولا عن كفر . والمشغب كافر في شرعتي . فعاقبه بالنار تلهب  
مهجته . ولكم في المقنع الخراساني اصدق عبرة . قضيت عليه كزنديق حاول  
افلاق هنامتي . وهنامتي مقدورة عليكم ، وانا فيكم خليفة رسول الله . فمن  
تجراً عليّ ، فكأنه تجراً على الحق . وهو ما ينهى عنه الدين ، وبما سانقذ  
الدولة من رجسه وطغيانه . فالجياة لمن انحنى . والموت لمن عصى . فلا  
قعود عن ثواب . ولا ملاينة في عقاب . فاذكروا حبكم لدينكم ودنياكم ، اذا  
ما خرجت بكم نفوسكم ، الامارة بالسوء ، عن مستوى الطاعة لمن يزن اقداركم  
بالعدل ، وهو القابض فيكم على القسطاس !

فصاحوا بجلء حناجرهم : عاش المهدي امير المؤمنين !

فابتسم ابتسامة السيد الممتلىء النفس زهواً ، وقال : ولي كلمة اخرى  
انشرها عليكم ، وقد سبق لي اعلانها فيكم . ولاية العهد محبوسة على ابني  
موسى . ويخلفه فيها اخوه هارون . وليس لشقة ان تتخرص بما يعدو  
هذا البيان الصريح !

فجهروا بالتأييد لموسى وهارون . وباتت ساحة الموت معرض نصره  
وموالاة . وتذكر المهدي جاريته حسنة ، وهو يتحدث عن ولديه المغبوطين .  
فافضى بمشيئة القينة الروعاء . وانتفضت قلوب اتباع الخيزران انتفاضة الجزع ،  
والمهدي يشير الى ولاية العهد في المقبلين الى مشاهدة الخراساني المصلوب .  
واضطربت افواه اهل النظر بغمغمة التساؤل : هل نقض امير المؤمنين من  
حنانه الخيزران ؟

وسطع مجد لبابة . وكل من يلم بانباة البلاط تبين في العودة الى هذا الايثار فوز امرأة موسى ، وتقهر الخيزران . والنساء المقيبات في الصرح ، ينظرن الى الاعواد من شرفة معتولة، ويضعين الى المهدي، كن اشد الجميع تأثراً بما نضض به مقول الخليفة . فجات العيون بعضها في بعض ، وقد تباينت فيها نبضات الحس . فمنها ما ومض بالطرب . ومنها ما اتقد بالشماتة . وجميع نساء البلاط كارهات للخيزران . وقليل من تألم لمارون وزبيدة ما داما يستظلان رعاية السيدة الاثيرة، الناهدة الى التحكم في المصائر والارواح على ان المهدي ، ما كاد يرجع الى ديوانه ، وهيب للجماهير رحابة المهزة في الالتفات الى الناثر المصلوب ، وطلاقة الرأي في عقد الذبول والحواشي على ما اذيع من بلاغ جزم ، حتى فوجيء بالجارية عتبة تعالنه باجلال ، وهي تلتوي في حضرته حتى يوشك رأسها ان يمتك بالارض : سيدتي بالباب تستأذن على مولاي الخليفة !

فعبس وهو يبصر عتبة ويسمعها . وتجلى للجارية ان المهدي ناقم على سيدتها . غير انها ، وقد ألفت هذه النقمة ، وادركت انها سريعة التلاشي ، لم تأبه لها . ورقبت من ابي عبدالله ان يميز فوراً لامرأته الاولى الوقوف بين يديه . ولكن المهدي تباطأ في السماح للخيزران بالثول في حضرته . وحدق الى عتبة بغيظ كاد به يصرف عنه زوجته المطماع . الا انه عاد فرضي عن دخولها ديوانه ليخاشنها ويندد بها ، لا ليحتفي بمجيئها اليه . قال يخاطب عتبة بسخر يعلوه السخط : أتكون هنا سيدتك ؟ ... ألا تنتظر فينا ، وان تكن اقبلت على غير موعد . فماذا تريد ؟

فقال عتبة ما ينفت امير المؤمنين . وتراجعت وفي قلبها رعشة ، وفي

طلعتها كمدة. وبدت في سيدتها على تقلص بشرة، وجحوظ عين. فصاحت  
بها الخيزران وقد لمست فيها الارتياح: ماذا؟... بمّ عالتك امير المؤمنين؟  
فاجابت ولسانها يتلجلج: لتدخل سيدتي. فالخليفة يفسح لها اليه!  
على ان الخيزران طمعت في الاستجلاء. وسددت الى جاريتها عينين  
ثاقبتين، تكرهان من تنفذان الى لبه على الايضاح. فقالت عتبه بهمس قليق:  
لاح لي منه انه على غضبة ساحطة لم اعرفها فيه. ولقد خشيت منها ان لا يبيع  
لك الوصول اليه. ففي نفسه من الاحن ما ترتعد له حتى فرائص العتاة!  
فما اكرثت الخيزران للتخويف، بل حثت الخطو الى الابوان، وهي  
موقنة أن نظرة واحدة منها تذيب الحشونة، وتروّض الطبع الجردان.  
والمخت بين يدي المهدي، وسلمت عليه ببسمة يجري في تضاعفها جزيل  
الاغراء. ورقبت من الخليفة ان يبيع حبال ابتسامتها، شأنه في جميع  
موافقه منها. على ان المهدي، وقد حدجها بنقرة، ما انفك يطلق فيها  
عينيه القاسيتين. واستطلعها ما يدفعها اليه، قائلاً بمستفيض الجمامة: ماذا،  
يا خيزران؟

فآلتها النبوة الجافية، وكادت تتلعم. على ان دهاءها ابي عليها التخاذل،  
فازجت القول الهادي، المؤمن ببلوغ اثره في الارواح: ليس لدى الخيزران  
ما يزيد على التماس رضى سيدنا الفرد، وتمنئته باقتلاع الشر. اطال الله بقاء  
امير المؤمنين!

ولم تجمد فيها ابتسامتها المخصاب. فهتف ابو عبدالله، وقد استطار حدة:  
ألا تجيدين غير المكايبة، يا خيزران؟... ما عرفتك الا حرباءة، منذ  
انسلت الى مودتي. أنحاولين ذلك عرشي، ولا يقعدك الحجل مني عن المجيء.

الحيّ؟ ... وحق السماء ، ان بك من القحة ما لا تملك رقطاء في ليل . أما ابلفك يجيى البرمكي ما صارحته به من نعمة ، ومن تحذير ؟ ... ان يكن اطلعك على ما كان مني فيك وفيه ، واقبلت الحيّ ، فلا ريب انك صفيقة الوجه ، وقحة اللسان !

وخيل اليه انه ادماها ، وارداها . فما رشقها به من قول يزعرع النهى . غير انها لم تتأثر ، ولم تجزع . بل ملكت من قوة الاعصاب ما دفعت به عنها الحنق المتواتب الى حنجرتها . واستطاعت ان تبدي المرح والارتياح . فقالت بالابتسامة المخضبة شفتيها : من حق امير المؤمنين ان يقول فينا ما شاء ، وان ينزل بنا من احكامه ما ليس لنا عليه اعتراض . اما ان يتهمنا بالسعي لدكّ عرشه ، فهو بما يثير فينا موجة العتب على الخليفة ، ايده الله . اطلعتني بجيى البرمكي على فورة امير المؤمنين . ويقيني ان الايدي المفسدة تحاول اليوم ، كما حاولت بالامس ، وكما ستحاول غداً ، ان تسلخ منا عطف ابي عبدالله ، مما اهاب بي الى هذه الجسارة في الدخول على المولى المطاع !

فصرخ وكل ما فيه على ماضي احندام : ماذا تلوكين من مماحكة ؟ ... الايدي المفسدة ؟ ... وما هي الايدي المفسدة تتحدثين عنها ؟ ... أتكون سوى يديك وبدي البرمكي ؟ ... اراك تتوغلين في ما يكسف فيك كل نعمة . أما زيتنت ، بالاتفاق وابن برمك ، للمقنع الحراساني الثورة ، كي يقلقل بي مسندي ، لتزيعيني من عليائي ، وتقيمي على انقاضي ابنك هارون ؟ ... اما المقنع الحراساني فانظري ما حلّ به . احسبك مررت بالاعواد في طريقك الحيّ . واما ابنك هارون ، فاني لارميك فيه بالحرمان اذا شخص لك ان تناوئيني به . فما نجل المهدي ابناً عاقماً ، يا خيزران . والله ، ضقت



ذرعاً عن كل حلم . وان يكن صبري عليك طال فيه الإمد ، فان للنهاية  
 حداً قاطعاً . واذا ابت شفتي عليك محوك ، وارفضت بقاءك في نسائي ،  
 فليس لك ان ترتجبي الاستمتاع يوماً برضاي . نبذتك من خاطري . ولك  
 ان تنفجعي على ايام صافيات نهت فيها من سماحي ما لم يتفق لسواك ان دانه .  
 انك لمنكرة الجميل ، مختالة . فهل بدا لك من المهدي انه غير حقيق  
 بالخلافة لتكيدي له ؟ ... ألا من هو الخليفة ، ايتها النكداء ؟ ... أنا ، ام  
 انت ؟ ... أرفعك هارون ، يوم يملك الناصية ، الى حيث رفعتك ، وقد  
 اصبحت الدولة على مداها ؟ ... اراك بطرت حتى عبيت . وكان عليّ ،  
 منذ لمست فيك العجب ، ان اقص جناحيك . الا ان مديد عظمي جنى عليّ !  
 وشاء ان يزيد في النيل منها . بيد انه ظلّ يتهيب منزلتها منه . فما  
 ان يقسو حتى يرقّ ، كأنه يعاتب ، لا يدين . وادّرت الخيزران طول  
 الأناة ، والموقف يدعو الى الاحتمال . فقالت بنديّ اللين : هل انتهيت من  
 صبّ جام غضبك عليّ ؟ ... يشوقني ان اسمع منك كل ما يتأجج في  
 صدرك من كره لامراتك الوفية . وبعد ذلك هب لي من عفوك فسحة للبيان !  
 فاختلج مبرطماً وزأر : وهل من بيان لديك ؟ ... واي بيان ؟ ...  
 ألا نبتعد قيد شعرة عن التدجيل ؟ ... سنتفضين منك كل ظنة ، لترمي  
 بمشايك سواك . على اني اصبحت ملماً بالمواربة ، فلن اؤخذ بالترهات .  
 انت بعد اليوم امرأة عاطلة من كل سلطان . فلست تريدني على كونك احدى  
 جوارى البلاط . ومما يضحكني منك ادعاء الامانة . أتعبين بجرمتي ، حتى  
 يجول في صدرك الميل الى إبادتي ، ثم لا تنفكين تتغنين بالوفاء ؟ ... ألا  
 اي وفاء هو هذا النكر تفيض به خستك ، يا ابنة الدهماء ؟

فاتسعت عينها ذهولاً ارمدمهجتها . هذه الشتام يسلقها بها المهدي لم تسقط قبل الساعة الى وعيها . فماذا ناب ابا عبدالله ؟ ... اي شفاه ابلغته عنها النبأ الزعاف ؟ ... ولمست بيديها الاثنتين هول الوشاية . وتراوى لها شبح لبابة يقفه شامتاً ، وكأنها تسمع باذنيها فقهة التنسفي الناعبة . فارتجفت . غير انها لم تستعن على رد السعاية بالدمع ، بل بالعنف . فالدمع عنوان الذل . والحيزران تأبى ان تكون ذليلة . هو الدليل على الاقرار بالجريمة . والسيدة الاثيرة ليست مجرمة لتبيح لمدامعها الانطلاق تكفيراً واستغفاراً . قالت بتفجير غيظ : ان يكن يعتقد امير المؤمنين اني اكيد للعرش ، فمن الراهن انه يجهل الحيزران . ويؤلم مهجتي ان يجهلني سيد البسطة العربية ، بعد عشرين سنة من راسخ الالفة . ااكيد للمهدي ، وقد ادركت الرفعة بالاستناد الى رفق المهدي بي ؟ ... انها لسعاية زرية ، دون ، لا اكلف نفسي دفعها . وجل ما اعلن ، في حضرة امير المؤمنين ، اني امدّ عنقي للذبح ، ان يكن ابو عبدالله مؤمناً بما ارجف المفترون ، في سعيهم لتنفير الخليفة عني . لا بأس ان يبطش بي امير المؤمنين للخلاص من حشرة تفسد عليه شذا السلام . فهذا جزء الاخلاص والحفاظ !

فازدراها بصيحة راعدة يطلق بها قوله الفاحم : اترددن كلمات يجيى البرمكي ؟ ... هل لقتك اياها الزنيم كي تخففي بها من حدتي ، زاعمة انك على فيض من ولاء ؟ ... ولكني اعرف من انت . فاذا تعاميت عن اباطيلك ، لشغف بك يكمن في نفسي ، فقد اكرهتني مقابحك على النظر الى الحقيقة السافرة . انت امرأة تعتمديني لفرض سيطرتك على الناس . اما وقد بدا لك وقوفي وقفه المعاند من مطامعك ، فسوّلت لك نفسك الوبيثة الغدر

بولي نعمتك. غير اني يقظان، ايتها الماكرة. خبتك لن يخفى على ابي عبدالله.  
رايت مني تزوعاً الى الهادي، المتأفف من غلاظتك، فانخبت على الرشيد  
تلاطفينه، وتستهويني به اليك. على اني لن انخدع بمرأوتك. فالكلمة  
المعلنة لا خروج عنها. ولي عهدي موسى الهادي. وبعده هارون. وكل  
بجهود تبذلين، لصرفي عن هذه الرغبة الصلود، نصيبه الحبية الكاسحة.  
فعودي الى صرحك، وادفني فيه قباحتك. انت لست أمّاً. ما انت غير  
شعلة من شهبوات تتأجج لتتحكم في العباد. الا ان من خبرك، واباح لك  
الامر على مدّة ذراعك، قطع يدك، وقد ادرك اني يقوده طماحك. عطفتك  
على أربك يعدو حبك للرشيد. فانت لا تنظرين الى الفتى نظرة الام الخنون،  
بل نظرتك الى مطية ترقى بك الى جشعك. فبدي من روحك هذا السفال.  
واذكرني انك أمّ قبل ان تكوني سيدة ذات عزة. اني لامنعك من ان  
تعودي الى المثول في البلاط دون ان ادعوك اليّ!

فمالت الى الكلام، وقد هالتها النعمة المججلة. ما بدا لها المهدي في  
هذا الهياج العريبي. قالت ولم تزل مالكة جأشها: أتعجب منك كيف  
تؤمن بكل ما يذاع في سمعك. أتري لبابة صادقة في كل ما اوهمتك عنا؟  
فزعتي، وقد احمرّ وجهه، وتناول الى الخيزران بصدر ناتي. وثاب:  
لا تفكري على الابرياء. فأني شأن للبابة في ما انمي عليك؟ ... لم تتلفظ  
ابنة اخي بكلمة نايبة تنال بها منك. ولا ارتعشت شفتها بنبا دسيمة امعنت  
في تطريزها يداك. ألا سلمت يداك! ... ان لبابة لاكرم منك اصلاً،  
فلا يعرض لها ان تلتفت الى مخازيك!

فنحرها وهو يعبرها حقارة اصلا، ويرفع عنها لبابة. غير انها ظلت

متماسكة عن البكاء . قالت وكل ما فيها على ارتخاء عود ، ونزق مكبوت :  
ليبقَ اذاً لامير المؤمنين من اختارهم ، وبشوقه الاصفاء اليهم . وسنحتجب  
عنه ، ومرآنا البشع يضيئه . نحن نرغب له في صفاء الروح . فما دام قرير  
العين في صحبة هؤلاء النخبة ، فنحن مثله على قررة عين ، و صفاؤه صفاؤنا .  
ولا علينا اذا بلينا بنفاره منا ، ما دام معتبط النفس . فكل منا ان  
يبتهج ، حتى مع ثواننا بالنار . افي لمنصرفة عن دار لا ازال انطوي لها على  
بماحضة طهور ، مع ما يصيبني من جورها . ولن اعود اليها الا وقد امر  
الخليفة بان اظهر في بلاطه . فالخيزران ستضرب المثل في الطاعة ، وان تكن  
تبيت على ظلم !

وتراجعت تتأهب للرحيل ، وهي تكاد تتمزق قهراً . ظفر اعداؤها بها ،  
ونزعوها من قلب امير المؤمنين . ولكن ايصبر المهدي على بعادها عنه؟ ...  
لم تكن تعتقد انه يملك هذه القوة على القطيعة . وانكفأت في بطانتها الى  
صرح اساس ، دون ان تخنلج شفتهاها بحرف . بلي ، كانتا ترتجفان لفرط  
الحسوف . ولكن الصوت اختنق فيهما . وكيف تطلقان الكلام ، وقد غار  
كل بيان في صدر الخيزران؟ ... انها لتحمل خبيتها في ملاحظها وبين اضالعها .  
وتسير في جادات بغداد على اكفهرار وألم . فكأنها في جنازة صامته . وما  
تجرأ احد من افراد حاشيتها على استطلاعها امر لقاؤها المهدي . فالحلركة  
السائدة سحنتها ، فرضت عليهم الحرس . فاندفعوا في اثرها على وجوم ،  
وقد ايقنوا ، في صميمهم ، ان الحصوم تفوقوا على السيدة الاثيرة  
ولدى دخول الخيزران صرحها هتفت بمن حولها بصوت أبع ، مهتاج :  
ابن يحيى البرمكي ؟

ويجى كان في الصرح ، بجانب الرشيد وزبيدة ، يطلعهما على ما كان فيه من امير المؤمنين. انتهره الخليفة. واتهمه بالتواطؤ والخيزران على هدم العرش ، وعلى السعي لامتلاك الاعنة بدفع الرشيد الى السدة ، والاستئثار بالامر في الدولة العربية . وصاح يجى باضطراب المتسلل مما يتحامل به عليه حاسدوه : يجز في كبدي ان يؤمن المهدي بما نحن منه على خلو بال . فهل في ديار العرب من يحفظ للخليفة ما ندخر له من تأييد وولاء ؟

فقال الرشيد بصوت حيي ، خشيان : وهل يظن بنا امير المؤمنين شراً ؟ ... ولكننا ابدأ في طاعة ابي ، يا يجى . فكيف نحاول الميل عن رضى الخليفة ، وليس لنا في ايلام روحه حياة ؟ ... ان لنا من امير المؤمنين الحامي الامين . وهل كان لنا ان نرتع في الرفاه لولا حذب ابي عبدالله ؟ وهو في غنى عن تنزيه نفسه عن القرية . فان حبه لاييه ليطغى على جنانه . واستفهمت زبيدة بغصة : ومن تراه اقلق في امير المؤمنين عطفه علينا ، ايما البرمكي ؟

فاجاب ، وانفاسه تطلق كلماته بضطرم الزفير : ما هناك غير لبابة ، ايتها الحسناء الوارفة المواهة . اختك هي الساعة بنا ، تنجدها الجارية حسنة . فمن مصلحة لبابة ان تتخاذلي لتسمو . وفي ركوب زوجها ولاية العهد املها الاغر بان تصبح يوماً السيدة الاولى في هذه الدنيا الوسيعة ، وعلى ناصيتها يقبض عمك الجليل !

ففتفت بارتياح : انسعى اختي بنا ؟

— ما هناك سواها ، يا ابنة جعفر . ولها من حسنة ، الجارية المتحسسة لادراك القسط الراجح من المعالي ، خير معوان !

— واي شأن حسنة في مقاومتنا ؟

فاعلن يجي بيان المفؤود : حسنة يمضها ان تقف دون الحيزران في  
مودة امير المؤمنين . فقامت تحوك المكايد لبلوغ النظيرة في نفس المهدي .  
ودرت لبابة بما تنزع اليه الجارية الطمّاحة ، فاستعدتها على خنق مكانة  
الحيزران في صدر الخليفة السليم النية !  
— هل اتفقا علينا ، ايها البرمكي ؟

فاوشك ان يفضي بما في خاطره من واضح الادلة على المكيدة المنظمة  
لفصل المهدي عن الحيزران . الا ان دخول السيدة الاثيرة قصرها دفع يجي  
الى لقاءها لاستيضاحها ما كان بينها وبين امير المؤمنين . وما نادته حتى كان  
بين يديها يقول بمفرط الخضوع : ها انذا ، يا ربة النبل السني !  
فجلجلت بحق تبين منه للبرمكي ان الفلاح في تدليل البغضاء نبا عنها ،  
وان المهدي لا ينفك يلبج في النفرة والظنّة . قالت : دعني اخاطبك  
على خلوة !

وكانت تلهت . وتصلب منخراها لفرط غيظها ، فاذا هما في رهافة  
الشفار المسنونة . وكل ما فيها على ثورة . ووقف يجي بقربها منحنيّاً ،  
فاتحاً اذنيه لسماع ما اسفر عنه لقاء الخليفة . وشعر بوهبة الساعة ، واتقد  
فيه الفضول . اي صرخة اطلقها ابو عبدالله في اذن السيدة الاثيرة ؟

ودخلت الحيزران مخدعها في الصرح . وانزوت ويجي في حجرتها . ولم  
تجلس ، واعصابها المتوترة تأبى عليها الجلوس ، بل هتفت بيحي وهي على  
انتصاب قامة ، والارض تكاد تضيق عنها : وقفت منه حيث رسخت انت  
في عناده . فما تقدمت خطوة . وانه لموقن اننا نتواطأ عليه . ومع جهدي

في تليين جفوته، لم اظفر منه باطفاء جذوة النعمة . وكلما دعوته الى الايمان بالولاء والمخالصة ، ازدراني ، كأني لديه خنفساء قدرة . ولم اعرفه في مثل هذه الاستهانة بي . وكدت انداعى في حضرته لو لم اذرع الصلابة . ولما طلبت اليه ان يسد سمعه عن وشايات لبابة ، وترهاتها ، نفى ان يكون للباباة يد في افساد عطفه عليّ . مع اني واثقة ان لابنة اخيه السيد الطولى في تعكير المودة . فالغادرة اجادت الانسلال منه الى حيث تقهرنا . وتمتت له كل اكدوبة خسية . فصدقها واساح عنا يرمينا بسفاسف التجني . ولما عرضت عليه عنقي ليضربه بسيفه ، جزاء التهمة ، تفاقم تهكمه بي ، وقال : « اراك اتفقت في البيان ويحسى ، كما اتفقت واياه في الكيد ا » . ونبذني لا يصفي مني الى قوله . فالتويت وفي نفسي حرب على القدر والناس . فلم اشعر بالحبية والحقد كما يتوهجان الساعة في جوارحي . فماذا ترى ، يا يحيى ، ايها المشير النصح ؟ ... ان النكبة لتجاوز الحلم . واذا صبرنا عليها خاطت اكفاننا !

ورآها يحيى تشتعل ، وكل ما فيها على مستطير نزوة . فاورجه غلبانها البأس واستفهم : ألم تتضح لامير المؤمنين سلامة طويتنا ؟

فنبرت : وكيف يؤمن بسلامة الطوبة ووراءه موسى ولبابة ؟ ... لقد هددني بالانقطاع عني ، وبالنبيل من هارون . بل منعي من ارتياد البلاط بسوى دعوة منه . لم يبق غير رمة بالية من صديقتك الحيزران ، يا يحيى . فالعز القديم عدا عليه القضاء !

وانتفضت السيدة الاثيرة فيما تنعى مجدها . وما استطاعت البقاء في وفقتها . فهوت مفلولة العزمات ، الى ديوان بجانبها ، وألقت رأسها بين

يديها وانفاسها تتصاعد زفرات حراراً . بيد انها ظلت مسمكة على جمود عينها ، لا تأذن لعبراتها في الانفلات . واذا بها تسدد الي البرمكي ناظرين ينفتان الاضطغان . وتصيح بجارج غصة : يجيى ، لن اسكت عن السعي لتشيبي . سافاتل حتى الموت . فالويل لمن يعترض طريقي . لن ارحم موسى ، ولا لبابة . فلا يدهشك مني اذا حرضتك على ابني . فكل من يخطر له ان يسيء الى الخيزران ، نصيبه الرمس . اصبحت مؤمنة بكون الناس ذئاباً . فمن يجنح الى المسالمة تقضه قواطع الانياب !

ولم تحفل بتقويض ابنها . فان يكن الهادي يروم محوها ، من ضمير امير المؤمنين ، كي يسود ، فلن تقعد عن البطش بولدها البكر . فان هذه المصوبة من حديد ، والموهة بالذهب ، لا تطمع في سوى اللعان . وكل يد تحاول حجبتها ، واخفاء بريقها ، يلمّ بها القطع . سواء كانت يد ابنها ، او يد زوجها . فلن تغتفر لاحد الافتئات بما تراه حقاً لها . وليس للشانيء ان ينعم بالصفاء . وتعجب منها البرمكي وهي تتحدث عن الاستذئاب . فمن يلحقها في المضمار ؟ ... على انه ، وهو شريكها في الطماح ، لم يلبث ان استساغ القولة على شذوذها . فهما لا يسلكان الطريق العدل الى اقرار هارون ، في ولاية العهد ، دون موسى . الا انها المآرب الغاشمة . وهل يكون ذو المآرب الغاشم الا ذئباً ؟

ورأى البرمكي ان يجلو الموقف ، فقال : ربما لا تكون لبابة وحدها تلك المفتية علينا لدى امير المؤمنين ، يا ذات القدرة . فقد جاءني بمن اقمهن عيوناً على الجارية حسنة ، انها انسابت امس الى البلاط ، ولم ترجع في سوى البكور !



فانتفضت شفتها بالقول الحادّ ، المرتاب : لست ارى حسنة تملك هذا  
السلطان على روح امير المؤمنين . فانها لتقوى على محادثته دوني ، حين  
اقيم واياه على مناكرة . اما ان تتلاعب بشؤون الدولة ، فتدفع الخليفة  
الى ايثار موسى على هارون ، فهو بما اجده يعدو طاقتها . فلن يرتضي محمد  
المهدي ان تسمو جارية الى حيث لا يبلغ الا الاصفياء . ما الرامي غير لبابة .  
فهي انفذ اثرآ في نفس ابي عبدالله ، وتكاد تبزني في رضاه !

فقال يحمي بلهجة اليقين : ان حسنة من الخطر ما يعادل شأو لبابة .  
فالخليفة يلقي فيها متعة الحس ، وبسمة الانس . وما يمنع ان يتفق موسى  
ولبابة وحسنة على استئصالنا من كبد ابي عبدالله ؟ ... هل ما يحول دون  
تضافر الثلاثة علينا ، ومن مصلحة كل منهم ان نخزي ؟ ... ليس ما يقف  
بهم ، وهذه رجاوتهم ، عن التحالف علينا !

فاصرت على القول : ليس لجارية ان تثب في بال امير المؤمنين الى  
حيث تتناول ذات القرني . حسنة تعكر علينا الماء . الا ان لبابة تشهر  
القبضة الساحقة !

فكاد يعلن تأييداً لحجته الصائبة : « ولكن من انت قبل ان تكوفي  
امرأة الخليفة ؟ ... ألم يكن مقامك في رجة الجواري ؟ ... واية امرأة  
ملكيت من نهب امير المؤمنين ما ملكت ، وقد اكرهت المهدي على الزواج  
بك ، وعلى مسيرتك في معظم شنواتك ؟ » . الا انه امسك عن الالتفات  
الى الماضي ، وفي التحدث عن الامس ما يجرح سموخ السيدة الانيرة .  
واكتفى بان يبدي : اذا صدق ظني ، يا ذات الجلالة ، فاني لاجد في الثلاثة  
قلباً واحداً يسعى لتكيد عيشنا . وضع لموسى ولللبابة ولحسنة اننا المجتلون

في مودة امير المؤمنين ، فتعاونوا على ائلافنا . وما رأونا نعقد لهارون على  
زبيدة ، ونوشك ان نستأثر بلب الخليفة ، حتى اوجسوا شراً ، وتآمروا  
في صدنا عما ادر كنا من عطف ابي عبد الله . وكان ان لفقوا وشاية نصرتنا  
المقنع الحراساني ، لا يغار صدر الخليفة علينا . واوفدوا حسنة لثفت الاضلولة ،  
فوقفوا لمقصدهم وهزمونا !

فلاح لها على صدق في الابانة . وغمغت : ان في ما تذهب اليه من  
تعليل ، يا يحيى ، لوفور اقتناع . فليس ما يقعد بالثلاثة عن صوغ النائم  
لنسخنا . وعلينا ان نظوي الثلاثة . فلا يطلع عليهم نهار !

فاستوضح ببعض وهلة : أنقتلهم ، يا مولاتي ؟

فاجابت لا تخفي صوتها : نقتلهم جميعاً . فلا ينقذك من عدوك سوى  
اخذاد انفاسه . والا ظل شوكة في عينك ، وحرية في كبديك . فلن تأمن  
شره الا وقد مات . ومن بواعث الحياة فينا ان نفتك بالهادي وبلبابة وبجسنة .  
فالى سفك الدم ، يا يحيى ، ولا تخش . لا بأس ان يموت الثلاثة لتعيش !

وحكمت بالموت على ابنها ، دون ان تكمد لها سحنة ، ويضطرب  
صوت . كأن عاطفة الامومة هانت فيها . بل كأن الهادي ليس ابنها .  
فجمد يحيى ، وقد تولاه الدهول . أبيضش بموسى الهادي ؟ ... وماذا يجلى  
به وقد اخفق ، وتكشفت الدسيسة عن جليتها ؟ ... ووضح فيه للخيزران  
الوجل ، فصاحت به متأففة : ما بك ؟ ... أتخاف ؟

فبلغ ريقه مكرهاً ، وهو على طفاح يقين ان الامر يجاوز الوسع . وما  
استطاع الافاضة ببيان . فعادت الخيزران الى الصباح : أنتحشى ، وانا  
عذك ؟ ... اضرب ولا عليك . اني لانتلقى بصدري المغبة . هذا ليس

ابني . فلست اعرف لي ولدآ يحمل اسم موسى . قد تكون ولدته سواي .  
ربما دفعته الى الكون احدى الجتبات فنشأ على غرارها في شراسة الطبع ،  
وحب المشاكسة . ولقد تزوج جنيّة . فما لبابة من الانس ، بل من الجنّ .  
والمنكودان اتفقا روحاً . والله ، لن اصون فيها مهجة . واذا ابنت ان  
تكون في قتلها نصيري ، فلن أعدم من اضربهما به . أما حسنة ، أما  
تلك الحقيرة النكرة ، فاني لافع في كل حين على من ينزع منها الروح . غير  
اني لن اقتلها اذا اوديت بموسى وبلبابة . بل ساطردها من حظيرة الجوارى ،  
واقضي عليها بالبؤس . فالسيادة في البلاط تبنت ملك يميني حين اقضي  
عنه شيخ الزنيمين ، المعنين في التنكيد والمضرة !

فتمم يحمي برعب : ولكن موسى ولي العهد ، يا ذات الجلال . فاذا  
سلخته من رضاك ، فلا تنسي انه ابن امير المؤمنين . واي هزة تخضع  
الدولة العربية لدن يسقط فيها ولي العهد مضرّجاً بدمه ؟ ... انها لكارثة ترتعد  
لها الدنيا . ألا رافة بالارواح العزيزة ، اينها الوالدة الرؤوم !

وبدا مخلوع الجنان . فوثبت من مجثمها هاتفة : أتستخذي ؟ ... ما  
كنت احسبك جباناً ، يا ابن برمك . موسى سيموت . ولبابة ستلقى منيتها .  
ولن يبقى سواي في عطف امير المؤمنين . انا الدولة . والارواح في قبضي ،  
اقصف منها ما اشاء . واستبقي ما اشاء . فان تكن ذلك الملتوي في خدمتي ،  
فدعني اترحم فيك على ثقة لم تنزل ارضها . أنت من يدعي الاخلاص  
للخيران ؟ ... سَفُه قولك . فما الاخلاص منك في جارحة . انك لتتظاهر  
لي بالولاء كي تظل راسخاً في مقامك . فلا يسخط عليك امير المؤمنين  
وينفضك منه . واني لاشفق عليك . وارانني في غنى عنك في شهوتي . انهم

لجمّ العديد اولئك المستميتون في الناس عظمي . خيل اليّ انك اصدق  
جاناً ، يا يحيى !

فتلاشى حيرة وانخذالاً . ان الخيزران لتدفعه الى الويل ، وتأتي فيه  
مهادنة . ألا ما يكون منه وقد افتضح ؟ ... فلن تقف البلية عنده ، وعند  
ذريته ، بل ستمتد الى فارس على بكرة ابيها . فيدوي ، في خلد العرب ، ان  
البرمكي يتابع خطو المقنع الخراساني ، في الكيسد للدولة العربية . وتقع  
الواقعة الصهور بين الامتين . ومن يعرض له في ذهن ان الخيزران ارادت  
البرمكي على نفس ابنها ، للنجاة من طمحاته ، وهو يسدّ عليها الطريق الى  
السؤدد والظهور ؟

وتصعب عرق الارتباك من جبين يحيى ومن قوْديه ، وقد ماع . غير  
انه ابى الا ان يكون ذلك النصيح الحكيم ، كما هو امره في جميع موافقه .  
فقال بتؤدة ولين : لم نبلغ من الشحناء ، يا ذات القدرة ، ما يفرض علينا  
القطيعة . فالبرمكي موقن ان الوسعة العربية ، على مداها ، تجري في طاعة  
السيدة المختارة . بيد ان هناك من الحوائل ، دون المنى ، ما يصعب فيه  
التذليل . بل ما يبدو فيه التذليل فضيحة . واني لاضنّ بمولاتي ان تقدم  
على ما يشقها !

فهدرت لا تهتدي بنصح : يشقيني ماذا ؟ ... أيعيب عليّ الناس الفتك  
بابني ؟ ... ولكني افتك بآبن عاق . وهل من حق بالبقاء لابن يتنكر لأمه ،  
ويتنرد على سلطانها ؟ ... موسى يهزأ بي ويحتقرني . فكيف اطيعه ناعماً  
بالحياة ؟ ... لا ، ايها البرمكي . فالضريح اولى بهذا المجترىء على من  
وهبت له النور . ستقله وتحقق فيه رغبتني . والا فلم يبقَ من صلة بيننا ،

يا يحيى . بوسعك ان تنفصل عن الخيزران !

فاطرق يذيب الفكر في ما تقدر عليه هذه الحقود الحرون . أتطيعه يمينه في القضاء على ولي العهد ، وهناك الخليفة نفسه في الانتقام لابنه ، وخلفه في سياسة الدولة ؟ ... وما سها عنه الربيع عدوه الشائم ، المفتوح العين ، الساعي لحسفه . فالربيع يتحين النهضة لاقتلاع هذه الساق الفارسية ، وقد نصبها في المطمئن العربي ابو جعفر . فتمت ، وطالت ، وعشش الطير في مجدول اغصانها . فاذا ما اتسع له ان يضرب بالفأس الجذع المقيت ، المخيم عليه ، والحاجب عنه فرجة النور ، فيما ما اشهاها من سائحة مرتقبة ، تحن اليها المهجة الزاخرة بالقروح !

على ان يحيى ، فيما يزن المخاطر ، ما نسي ان يروز المغام . فان هو ظفر بتدويخ الهادي ، فالدولة باجمعها تبيت في قبضته . الدولة بالمهدي والخيزران والرشيد . ومن هو المهدي ؟ ... رجل نقي الدخلة ، مع كل ما ينتفض فيه من غيرة جموح ، ومن نصب جائح في امتلاك الاعنة . فهو بمن حوله ، لا بنفسه . فان للبطانة فيه الكلمة المسموعة . ومن تكون الخيزران ؟ ... ان هي الا الطمّاحة الجشعة ، الرامية الى احتكار كل نعمة ، وكل رأي . على انها اذا ادركت مأربها ، فليس لها غير يحيى البرمكي تعتمده في امرها ، ودوام سيطرتها . اما الرشيد ، فلا يزيد على كونه خيالاً ، بل رمزاً لدولة عربية اللون ، الا انها في صميمها فارسية خالصة ، ويحيى يديرها

والبرمكي على جليّ إلام بوهن هارون ، وبجأته الى من يقوده . فليس يملك رأياً ، ولا اقداماً ، وقد نشأ على ضعف . اذن فمن مصلحة يحيى ان يقع هذا الانقلاب في الدولة العباسية . فيتوارى الهادي ، وينتهي الامر الى

الرشيدي . وخطر له ان يجازف بجميع ما يملك من مال ، ومقام ، وروح ،  
ارضاء لنفسه ، وللخيزران ، وان يكن الامل ببلوغ الطلبة ضيلاً . فإما  
ان يفوز ، وإما ان يدركه الاضحلال . وإنه لعرضة للاضحلال يوم يصح  
الهادي سيد الدولة على منبسط نحوها

اذن فمن ربيع العائدة ان يجاري الخيزران في البغية . فينطلق جهاراً  
في نصره اهواء السيدة المختارة ، وله من الفريسة الحصة الوزني . قال ببسة  
الدعاء المخضبة ، حين يشاء ، طلعت الرقور : معاذ الله ان اسمى للانفصال  
عن مولاتي . فالبرمكي رفيقها اني جرت ركبها . وان تكن ترى في  
القضاء على الهادي راحتنا ، فلا كان الهادي ، وهو يوجع فينا أمد الشأو .  
سنزيل موسى من حلقة الاحياء ، ما دامت هذه مشيئة سيدتي الجليلة !

فاطربتها موافقة اياها على التقويض . واعلنت بفرحة ماجت بها اوصالها :  
أجئيل البك اني ازيغ عن الصواب في ما انهد اليه ، ايها البرمكي ؟ ... في  
محو موسى هناهنا جميعاً . ولماذا الابقاء على الدمل في اجسادنا ؟ ... لنبضعه ،  
ولنسترح من مضه . لتتوجع بيضه مرة واحدة ، لثلاثي ابدأ شره . فمن  
لك تنتدبه للاجتاث ؟ ... أليس لك في اعواننا من يتدبر الامر ببطانة ؟  
فعاد يجيل الرأي في المسمى . من يتولى الضربة البكر ؟ ... وما  
خفي عليه ما ستحدث من راعب الاثر ، ورهيب الصدى . الا ان الجرح  
لا يلبث ان يبرأ ، مهما ذهب اليه الناقمون من تعليل وظنة . ولن تجهل  
الخيزران كيف تزيل التهمة بما تسكب من دمع هتون ، باكية ابنها ، ذوب  
حشاشتها . ورقبت السيدة الاولى من البرمكي ان يفضي بجواب . قالت  
وقد استبطأت بيانه : ما بك ؟ ... أما اهتديت الى سيف حامم ؟

فاعلمن وهو لا ينفك من امره على ارتباك : عندي ان نصون اعواننا من مكابدة هذا المول ، لثلا تقع تبعهم علينا . فيسود فوراً الاذهان اننا اصحاب المكيدة . وخير ما نفعل ان نأتي بمن لا تجعبنا به عروة . فنسقط على رجل من ابناء البادية ، او من الحوارج العابثين بالنظام . فيقال عندذاك ان العصيان شدّ ساعد البطّاش ، فانتمم من الخليفة بابنه ، وتذهب الظنون عنا . ان العملة لتدعو الى شديد الحذر ، لثلا يلوح لها خبط يدل علينا !

فارتاحت الى حنكته في إحكام التدبير ، وقالت : لك اليد المطلقة في الاعداد والتجهيز ، ولن اعترضك في ما يقرّ هداك . وجلّ ما اصبو اليه ان انجو من شبح موسى . لك ان تحنقه بيدك ، او ان تضربه بمن يحسن اختطاف الروح . ذلك البك . على ان تذكر ان لا خير في من تنتدبه للمهمة ان يكن واهي العضل . ففي موسى من القوة ما يطحن الصخرة ، وقد ملك ساعدين لا يثبت على صولتهما سوى طويل العمر . فاذا اصطفت كلبلاً ، غير مجرّب ، زدت في مناعة الهادي ، وقد قهرنا . فاحترس من الحية !

فابان : ساجتهد في السعي لتحقيق حسن ظنك بي ، يا مولاتي . فلن يكون من نرمي به الهادي سوى اخي حزم ومرونة . حتى اذا ضرب ضربه كانت القاضية . فيجهز بها فوراً على عدونا ، دون اضطرار الى ضربة اخرى ! قالت وهي تريد الخلاص فوراً من المعنة : على ان تلوذ بالعجلة . فالبطه مضیعة للفرصة . ما يدريك ما يكون من المهدي اذا نحن نمنا على البغضاء العاصفة بنا ؟ ... قد يصيبنا منه ما لا نلعم منه بشفاء !

فاوضح : امهليني يومين . وليس للهادي ان يجيا بعدهما ! فرأت ان تطوّل له . قالت : لا بأس بأسبوع . على ان تجيد تسديد النبله !

وصرفته عنها ، وفي القلبين فرحة ولهفة . فهما على اغتباط بازاحة الهادي  
عن طريقهما ، ليثبا وثبتها البعيدة الشوط . وعلى خوف من اخفاقهما في  
المحاولة . فاحظر يرجع الامان في ما ينطلقان فيه من امنية جسيمة ،  
شاسعة ، سبوح ، لا ترتضي وقفه متقللة ، بين بين ، وليس فيها مجال الى  
هواده . فإما الصدر ، وإما القبر !



الشمس ، في بغداد ، على غليان يتصاعد من كبعد الارض بخاراً ،  
 كألسنة النار ، وحسنة لا تبرح سادرة في ضجعتها ، لا تفيق منها ، مع  
 اشتداد القيظ القارص ، المذيب . فقضت في كنف المهدي ليلة بيضاء  
 الجلباب ، لم تأذن في اطباق هدب . والآن ، وقد استسلمت الى راحة  
 الجسد ، وطمانينة البال ، فانها لترقد بجلء عينيها ، ناعمة بالصفااء الريان  
 واقامت جاريته سعدة بالباب تمنع الجميع من اللغظ ، حتى ومن وطء  
 الارض . والا نهرتهم وشتمتهم بما لا يقوون فيه على نسبة

غير ان هذه المقبلة الى المقصورة ، تطلب بالحاح المثل بين يدي الجارية  
 حسنة ، لتخاطبها في امر ذي خطر ، ازعجت في سعدة غيرتها على سيدتها .  
 فلم يكن لها ان تمنع في اجابة هذه الفارضة على المقصورة سيطرتها ، وهي  
 تبدو فيها من لدن موسى الهادي ، وزوجته لبابة . قالت سعدة متململة :  
 ولكن سيدتي بحاجة الى النوم ، ولم تذق له في الليلة الماضية طعاماً !

فاوضحت المفاجئة الملحاح : مولاي موسى ، ومولاتي لبابة ، بشددان  
 في دعوة سيدتك اليهما . وكلفاني ان ابدو في مقصورتها ، وان ابلغها  
 رجاوتها . فهل لك ان تحملي اليّ جوابها ؟

فما استطاعت سعدة الا ان تهيب . وليّ العهد وزوجته يميلان الى  
 مرأى سيدتها . وتولاها الارتباك . أندخل على الجارية المرموقة ، وتنضو  
 عنها غفوتها ؟ ... ولكن حسنة لم ترقد ليلة امس بطولها . فلم ترجع الى  
 مقصورتها الا وقد تلاً الصبح . وعادت اليها على شوق طفحان الى

الانغماس في النوم ، والنعاس يأخذ بمعاقد اغداها . واوصت سعدة بان تمنع الجميع من الحركة والاقلاق ، وبان تحول دون دخول اي كان على مولاتها . فليس لها ان توقفها ما دامت في هجوع ، حتى وإن تزلزلت الارض . فهل تعدد الوصيفة الى العبث بهذا النهي ، وتحشد راحة الجارية البخيلة برفاها ؟

الا ان موسى ولبابة لا تردُّ لهما طلبه . وسعدة موقنة ان مولاتها لا تبدي الغيظ حين تعلم ان ولي العهد وامرأته يدعوانها اليهما ، مع كل ما تنوء به من عبء . قالت سعدة وفي صوتها رعشة من خوف مكبوت : سيكون موسى ولبابة على رضى . صبراً واعود !

وتنهدت وهي تقف بباب مولاتها تدقّه . فلم تسمع جواباً . فشددت في قرع الباب . واذا صوت يرتفع من كبد الحجرة مستفهماً بغيظ : من ؟ فاجابت الوصيفة بارتعاش : انا سعدة ، يا مولاتي . اوفد اليك موسى الهادي وامرأته لبابة من يدعوك اليهما !

فكادت تنفجر امتعاضاً لو لم تعالنها الخادمة ان ولي العهد وزوجته يبغيانها . واطمأنت وابتسبت . ستطلعهما على جميع ما كان منها في ايقار صدر المهدي على يحيى والخيزران وزبيدة . نجحت الحيلة . وهتفت بنجاحتها : سأكون في اقرب آن لديهما ، يا سعدة !

ومتطّعت وتناهبت . وتحفزت للنهوض وهي تشعر بوهن قوى . على ان الرغبة في الافضاء بالبشرى اكرهتها على خلع كل فتور عنها ، وعلى الرثوب الى الماء تغسل به وجهها ، وتستعيد نشاطها . وارتدت حلتها على عجل . وحشت الخطو الى دار موسى الهادي ، وفي نفسها مرح وانشراح ، كأن

السعد ملك يمينها . وتراعى منها انها ترقص في اجتيازها السبل . ولم تكن  
تلتفت الى من حولها ، كأنها لا تبصر احداً . وتبعتها خادماتها سعدة ، حتى  
اذا بدت في اعين موسى ولبابة ، ارتفعت صيحات الترحيب : اهلاً ،  
يا حسنة !

ومالت لبابة الى الوقوف فوراً على ما كان من امير المؤمنين في الجارية  
الانوس ، فاستبحت بلطيف نغمة : ماذا ، هل فزنا ؟  
فتجلت في قسماط الجارية المرموقة بسمة طفحى ، شفتت عن ضحكة  
طنانة ، وانتهت الى القول : وهل ينجم لك ان احببة ترصدنا ؟ ... لا ،  
وابيك ، يا ابنة جعفر . ما النصر الا حيث نكون !

فالتبعت في معارف موسى ولبابة الفرحة . وران عليهما الفضول .  
فقال موسى بشره الى معرفة ما كان من ابيه : ألا يمّ حادث امير  
المؤمنين ؟ ... هل اقنعتنا بان خصومنا يفسدون عليه الطمانينة ؟

فاوضحت : خاطبته بما اتفقنا عليه . قلت ان الخيزران ويجبى يضرمان  
في الدولة سعير الفتن . وانهما يد المقتنع الحراساني في الكيد لامير المؤمنين .  
وان العقده لهارون على زبيدة جسر الى تقويض سدة الخلافة بالمهدي ، ورفع  
هارون اليها . فالفرس لا يدخرون وسعاً في استعادة العز المدفون . وقد  
اعتمدوا يجبى في التدمير . ويجبى زخرف للخيزران مناواة ابنها الهادي ،  
الصلب الرأي ، والعطف على الرشيد المائع ، الضعيف . حتى اذا ما تولى  
الامر ، لقي فيه الفرس دعامة واهية ، فلا يصعب عليهم ان ينسفوها آمنين !  
فصاح الهادي : لا فُضّ فوك !

وهتفت لبابة : انك لذات جرأة مثلى ، وبيان خضيب ، يا حسنة ،

فماذا كان من امير المؤمنين ، وقد وقعت في مسيعة هذ الشواجي ؟  
 فاعلنت بدلال : آمن بكل حرف منها . وشاء القدر ان يوالينا ، فاقبل  
 رجال الخليفة بالمقنع الحراساني مكبلاً ، مفلول الغرب . على ان نخوته هدرت  
 فيه وقد مثل بين يدي ابي عبدالله . فاستفاض بالمقال الجافي . فلم يكن من  
 امير المؤمنين الا ان اودى به ، وبلّ بدمه البلاط . ونادى اليه يحيى بن  
 برمك . فبدا المناقق مباحياً بسحق المقنع الثائر . ولكن امير المؤمنين هزّ  
 كبده بما اطلق فيه من حائق التبكيت . فاتمه بالتواطؤ عليه والحيزران ،  
 وبالتمهيد لدك العرش ، والتهويل بالرشيد . فسقط في عضد يحيى ، وانتقع  
 لونه . وغار بعضه في بعض . ورعد ابو عبدالله : « والله ، لا طيحتمكم جميعاً .  
 فلست بمن ينام عن الاستطالة الفادحة ، وهي تكلفكم ارواحكم ، يا يحيى .  
 أتحدثكم النفس بالنيل مني ، وانا القابض على النواصي ؟ ... ألا اربعوا على  
 ظلمكم ، والا حصدتكم بسيفي كسيقان الشيخ ، لا أبالي الرشيد ، ولا  
 الحيزران ! » . فاستخذى البرمكي الخانع . وخرّ على ركبته في حضرة  
 امير المؤمنين معلناً براءته ، وبراعة الحيزران والرشيد من الظنة . فما اصاخ  
 اليه المهدي ، بل نبر : « الموت لكم جميعاً إن يخظر لكم تكدير عيشي ! » .  
 فتمم يحيى بذل ، وهو يعرض سيفه على الخليفة : « ليضرب امير المؤمنين  
 عنقي بهذا السيف ، ان تكن ثقته بي طارت عني ! » . ولكن المهدي حجب  
 دمه ، وطرده من حضرته بنفار وحقد ، فيما يدعوه الى ابلاغ الحيزران ان  
 الحركة تذهب بها ، فلتهدأ في غليانها . فتراجع البرمكي من ايوان ابي عبدالله  
 على كلوح ورعدة ، حتى خيل اليّ ان رجليه لا تحملانه ، وانه يوشك ان  
 يتدحرج مكانه ، فيعض الارض !

فصاحاُ معاً مستبشرين : ليته قضي ونجونا من خبثه . اجدت ، يا حسنة ، \*  
في نسخه من عطف امير المؤمنين !

قالت بتألق البشر : ولقد اختبأت حيث ارى واسمع . والنفت  
التي المهدي فيها ابدو في حضرته يقول ، وقد تواري يحيى مكفناً بجذلانه :  
« رأيت ما يلقي الماكرون ، يا حسنة ؟ » . قلت : « مدّ الله ايام امير  
المؤمنين ونعمه . اصبحت اخشى الجبر بعد الكسر . فليس من الجميل ان  
نغالظ البرمكي ما دمنا سنعمو عنه لدى ظهور الخيزران فينا . بل الجميل  
ان نقهر فيه كل رجاء بنفيه من بالنا ، وباقصائه عنا بلا رجعة الينا . فما  
ان تبدو أم موسى ، حتى نضرب صفحاً عن كل غيبة ، وكأننا رضينا عن  
الشر يستفحل ويسود ! » . فصرخ ابو عبدالله : « ولكني لست المهدي اذا  
مضيت في مسابرة الحية الرقطاء . لم يبق لها مستقر في ضيوري . سامنعا من  
المجبيء التي ، كأنها ليست أم موسى وهارون . واذا مضت في غنجهتها ،  
فلا ترقب مني الا القضاء المبرم عليها . لن انا على حربة مسددة الى صدري اء .  
فابدت ان القوة في الثبات ، لا في الاكتفاء بالتنديد . وزدت في سخطه على  
السيدة الاثيرة حتى اضعحت في خاطره فضالة حقيرة . ولم ارجع الى مقصوري  
الا وقد حشوته حمياً ، لا يحمد لها غليان . واعتقد انه سيظل منها على وقد  
لا يطفئه مكر الخيزران !

فاكبرا الجهد الاروع ، الا ان الحشية انتفضت في عروقهم جميعاً ، وهم  
يتمثلون الخيزران في دالنها على الخليفة . فليس ما يقف بها عن تقويض كل  
ما شيد اعداؤها لمحوها . قال موسى ، وقد انتابه السهوم : اتقوى على النفاذ  
الى رضاه ، بعد كل ما اقمنا بينها من الرواسي ؟

فاعلنت لبابة : ليست دون هذه المعجزة . على ان حسنة تعلن انها  
اجادت التهشيم والتنفير !

فابانت حسنة ، و كأنها ليست من امرها على ثقة : كل ما لاح لي من  
امير المؤمنين دلني على ان ليس للخيزران ان ترجو النهوض من الحفرة .  
أما ان تقدم على الخوارق ، فهو بما لا يتفق لاحد ان يثنيها عنه . فالمكيدة  
قامت على رجلين وطيدتين ، وقد حققتها كما وضعناها . فان تكن الخيزران  
ادهى منا ، فليس العتب علينا في ما تملك من بضاعة التفوق . بل على  
الاقدار . وقد وهبت لها من الفطنة ، والصلابة ، ما يستعجز صفوة الدهاة !  
وغلبهم على امرهم هذا المضاء في الخيزران ، واسترخاء المهدي حياهما .  
وانتشر فيهم الالم والشجن . واذا بموسى يذيع بقسوة ونقمة ما لا يبرح  
يدعو اليه : اذا اخفقنا في تعكير الجو بينها وبين المهدي ، فما علينا الا ان  
نستأصل الدمى لنستريح !

فاستوضحت لبابة ، وقد اتسعت عيناها : وكيف ، يا موسى ؟  
ولم تكن بحاجة الى الاستبضاح ، ولهجة زوجها الجياشة دلتها على مرماه  
السيحقي . فاجاب لا يتقي كتماناً : سنقتلها ، وما برحت اناذي بضروة  
الخلاص منها بموتها . والا نهشتنا بانباها الحداد ، لا تبقي منا على هبابة !  
فقال حسنة ، وهي من انصار ائتلاف الخيزران : وما هي وسيلتك  
الى محوها ؟

فاجاب لا يبالي مغبة البيان : علينا ان نلوذ بالسم . فالسم يطويها .  
ففي صرح اساس من الجوارى من نقوى على شرايئهن ، ودفعنهن في  
خدمة ماربنا !

فبلعت المرأتان ريقهما جزعا، مع رهيف رغبتها في درء شبح الخيزران  
عنها . غير ان موسى ، وقد اعلن مراراً الفكرة ، مضى في تعليلها  
وتأييدها . ولم تجد لبابة وحسنة ما يحول دون الموافقة على الطلبة، مع كل  
ما تنسم به من دمامة . قالت حسنة، وقد طغت احقادها على خلجات الرفق  
النابطة بفتور في جناحها : اجل ، لنقلها . ساوفد اليها جارية بمن تضمن  
مقصورتي تسقيها حنفا !

فاوضحت لبابة : لن نتعب في الايفاد ، ولدينا في صرح اساس من  
بوايينا باخباره ، ويخلص لنا في ادراك الارب . عليّ التدبير ، وكونا بامان .  
فلن تفلت الخيزران من قبضتنا . فاذا تم لها ان تنجو من احبولة اليوم ،  
فلن تنجو من احبولة الغد . وان هي جاوزتها ، نصبنا لها احبولة اخرى .  
وهكذا حتى نوفق للتنكيل الامين بالافعى الفاغرة الشدقين لابتلاعنا !

فصاح موسى بجدة ساحطة : اذا لم ينجح فيها السم ، انقضضت عليها  
بسيقي احترّ رأسها !

ولم يهرب ما تفوّه به من كاسح فظيع . فالابن لا يصون دم امه من  
الاراقة . فقالت حسنة، وقد خشيت ان يفعل ، وهو الطائر الوثبة ، فيفسد  
عليها جهدها ، بل جهدهم جميعاً : ولكن علينا ان نصبر ريثا نقف على  
جدوى تدبيرنا . فاذا هدم امير المؤمنين ، في السيدة الاثيرة طماحها ،  
وقلم اظفارها ، وادنانا منه ، فلن نشتهي ما يعدو هذه الحظوة !

ولكن موسى جلجل ، وقد هاجت فيه اوتاره : هذا التقويض بالابقاء  
عليها لا يكال بالفوز مساعينا . ولن تلبث امي ، ما دامت سليمة الروح ،  
ان تنضو عنها اسمالها ، وتهبّ علينا عاصفة جائحة تذوينا سمومها . فما لنا

غير السم ، او السيف ، ينصفاننا منها !

وهوت يده الى مقبض سيفه . وهجم على الباب ينطلق منه اعصاراً هادراً الى امه يخلع عنقها ، صائحاً بنفاد صبر : ولماذا التطويل ؟ ... بنفسي ساكفيكما شرها . لا محائلة ، ولا سم . بل ضربة جائحة ، ونحن بسلام . هذه علة لا يحسمها غير السيف الباتر ، والا جرفتنا احوالها !

ونارت فيه البغضاء حتى لم يكن يتاسك . سيقتحم صرح اساس ، ويجتث ركنه غير مشفق فيه على روح . الا ان لبابة وحسنة وقفتا به عن مراده الانكد ، صاحتین بارتباع : لن تفعل . لن تفعل . دعنا ننظم الامر على صحة وجه وبصيرة . فالعجلة لا نحمد عقباها ، وستذهب بكل حكمة أجدنا إقرارها !

ولكن هذه اللطّفات لم تعد به عن غلوائه . فهو يتنوى اضطغاناً وشهوة الى قتل امه . لثمت وليذهب في اثرها . على ان يفتك بها . وهنت قوى لبابة وحسنة في ردهه عن الطلبة المتوهجة شوقاً الى سفك الدم . وكادت المرأتان تولولان . غير انه فرض عليهما الصمت ، والا شفى بهما حفاظه . وهال لبابة ما يزعم فتجرات على الصباح به مسترحمة ، مرتاعة : ألا اقتلني ولا تمسها باذية . أتدري ما تستهدف له من عقوبة وضم ؟

فصدّها عنه وهو يدمدم عليها : ابتعدي عن طريقي . اصبحت لا استطيع . هذه المسترجلة لن تكون في عيني قذى . ساقنلها ولينزل بي من الشرور انكدھا . فلن احفل بما سائتهي اليه ، وقد سدت عليّ القبيحة كل منفذ الى المتعة !

وزلت بامراته القدم لفرط الدفعة ، فكادت تسقط الى الارض لو لم



تنجدها حسنة . الا ان الهادي لم يلتفت اليها ، بل استعجل الطفرة الى صرح اساس تغلي فيه نزواته . هذه النيات الكوالح ، المعششة في صدر امه ، ستقودها الى القبر الموحش ، تسيطر فيه على هواها . وليس لذي مطمع ان يميل بها هناك عن رغائبها . فلتأسد في الضريح ما شاءت . اما ان تقلق الاحياء بمكايدها ، وان تحرم ذوي الحقوق نصيبهم من السعد والرفعة ، فهو بما لا يبيح لها التمتع بايامها . سيقطع فيها الهادي كل مهزة الى السؤدد والبقاء وضاعت عنه سبل بغداد في هجومه على صرح اساس . وركب اليه حماراً اقمراً ، لم يجد سواه بباب الدار من مطايا . وابصره الناس في جهامته وسرعته ، فتأملوه متسائلين : ماذا اصاب الهادي من محنة ؟ ... اننا لنراه على احتدام وجفوة !

وذكروا ما بينه وبين امه من مناكدة ، واستقصوا : هل قهرته الحيزران ؟ وما كانوا يرونها على صواب في سعيها لحرمانه ولاية العهد ، وهو ذلك القرم العنيد ، الجريء الفؤاد ، العامر الميكل على نضرة عود ، وغضّ إهاب . على ان الهادي ضاع عن الجميع ، وهو المتطائر الى حاجته يقضها ، وينفض أمه من طوق الوجود . وتناسى انها أمه . فهي الساعية به ، والملاحية حظه من دنياه . على انها ستعلم كم يفرض عليها الظلم من ثمن ، وستؤدي عنه حياتها . وكاد يبلغ صرح اساس . فهو في جادة الصرح الفخم ، المبسوط الرواء . ولكن من يرى ؟ ... من هو هذا المقبل اليه شاهراً سيفه ، وليس يفصله عنه ما يزيد على ثلاث خطوات ؟ ... من اي وكر أطلّ ؟ ... اي نأر له عنده كي يفاجئه بالموت ؟

وارتبك الهادي . لم يبق بينه وبين الموت سوى بضع ثوانٍ . وتجلى له

في السيف المنتضى وجه أمه . فالحيزران رمته به خلج مهجته . وشعر  
بالموقف الحرج ، وقد ابصر بعينه حمامه . ليس له ان ينجو من الفتكة ،  
وكل سعي لردّها عنه محال . وعزّ عليه استلال سيفه ، والمندفع الى البطش  
به لن يمله ريثما يجتوئ الحسام . فلم يكن منه الا ان فزع الى الحيلة ،  
صارخاً ، وهو يلتفت الى ما وراء ، من يتعمد اذاقته الهلكة : اقتلوه .  
اهرقوا دمه !

واوهم هذا المنتضى عليه بالنصّة أن وراه من ادركوا ما ينهد اليه  
من مأثم ، فمالوا الى ازهاق روحه . والتفت شاهر السيف ليرى من يتوعده ،  
فما كان من الهادي ، وقد لاذ بالساحة ، الا ان وثب على خصمه يرمي به في  
الارض ، وينتزع سيفه فيقطع به عنقه ، زاعقاً : يا ابن الفاعلة ، ما ألام  
طبعك . أتريد ان تودي بي ؟

والناس ، وقد رأوا ، وعرفوا الهادي ، هتفوا له يكبرون شجاعته ،  
وفطنته . لم يرغب عنهم انه مغوار ندب . أما ان يملك هذا الدهاء المتأدي ،  
فيردي خصمه ، فيما يوشك هذا الحضم ان يحكم منه شفرته ، فهو بما زاد في  
استثناسهم بولي العهد وحبهم له . وتخلّقوا عليه وصيحات الاعجاب تنطلق من  
صدورهم ، زاخرة بالحماسة والافتتان . وانهاوا بالطعن على الشائين . لا  
كان الجبناء الاوغاد . وشتوا بالقتيل المضرّج بدمه ، وهو من جبارة ضخام ،  
اكتنزت جوارحهم بالقدرة ، وانتشر في ملاحمهم الاعتداد . على ان الهادي  
فاجأه من حيث لم يكن يدري ان الضربة ستهوي عليه . فصرعه واستلّ  
روحه ، عابثاً بمناعته ، وعرض ألواحه . والتفت الى الجمع المحتشد حوله  
يعالن القوم شكره ، ويقول : من يعرف فيكم الزنديق القبيح ؟

فصاح بعضهم : إن هو الا من الحوارج ، ايها الامير !  
فاطلق الهادي في الجنان الحامد النظر الشزر ، ونبر : نال جزاءه .  
فليتعض بحاله امثاله !

واكتفى لا يزيد . واني ان يعود الى حمارة الاقمر يركبه ، وهو على  
متناول النصال فيما يمتطيه . فلن يعتلي غير الجياد العناق ، فتبعده عن مدى  
الشفار . وله من ارتفاع صواتها ما يدرأ عنه مباغئات المهاجمين . وتفاقت  
فيه شهوته الى قتل امه ، ليقينه انها صاحبة الدسيسة الشائنة . فهي من دفع  
الخارجي الى قتل ابنها البكر . غير ان القوم ، وقد بدا لهم في جرأة  
الهادي اليقظى اقداماً وحنكة نادرين ، حملوه على الاكف يعالونونه إجلالهم .  
وخجل من ان يكشف لهم عن نياته ، فاطلق فيه ايديهم . ولم يكن يقوى  
على الخلاص من قبضتهم ، وقد ابوا الا ان يدلوا على تأييدهم له ، وابتاسهم  
ببطولته

وفي لحظات فلائل ، وقع النبا فاصفاً ، صاعقاً ، في آذان جميع من  
حوت بغداد من الخلق . واذا الوفود تهرع الى البلاط تستوضح . وتضخم  
موكب الهادي . وتعالى الهتاف له من كل صوب . وصاح صائح : الى قصر  
امير المؤمنين !

وردد الموكب باسره : الى البلاط ، الى البلاط !  
وانطلقوا بالهادي الى مقر ابيه . والحليفة ما كاد يأذن بالنبا ، حتى  
استكبر الحطب . أتبلغ القحمة بالكاشحين مبلغ الاستطالة على ابنه ، ولي  
عهده ؟ ... وشافه من الهادي ان يكون اتقى الغائلة ببصيرة نيرة ،  
وصولة وارقة . فصان بمصافته نفسه من المكيدة السافلة . على انه رغب في

معرفة منظيها . فمن هم الكارهون لولي العهد ، الساعون لتدوينه ونسفه ؟  
ولم يكن للمهدي ان يتعب في الحدس والتخمين . فما ارباب الدسيسة  
غير يحيى والخيزران . هما الساعيان لازاحة الهادي عن الطريق . والهادي  
خيال يحجب عنهما النور . والمصلحة تهيب بهما الى اجلائه عن أفقهما . وودّ  
الحليفة لو بقي الخارجي على رمق . اذن لتكلم ، وافضى بالراهن الصراح .  
الا ان موته سدل على الحقيقة حجاباً قد يكون صفيقاً . وهل ليحيى ، او  
الخيزران ، ان يعلنوا بلا رهبة ، تدبيرهما القضاء على ولي العهد ؟

وجلجل ابو عبدالله بسخط دامغ : ارى الامور تتخرج في دولتي .  
فالمكايد لا يهدأ لها حال ، كأنني اعيش في جحر ثعابين . على اتي رب هذا  
المنبسط ، ولن اعجز عن كبح جماح البطل . فاليد اللاعبة بالنار ساقطها .  
أبلغ من نذالتها ان تستطيل على ولدي ، ولي عهدي ؟ ... لو لم يكن  
الهادي على رباطة جأش ، ومناعة عصب ، لذهبت به الداهية ، ولكننا حيال  
فاجعة تصيبني في قلبي . اصبحت لا اطيق هذا العدوان المستفحل . وما  
استفحل لولا طول صبري ، ورخاوتي ازاء من حسبتهم يقدرون نداوة  
حلمي . لا ، وتربة ابي ، لن استعدي عليهم غير السيف الماحي . وما  
للحسام المرهف الحد ، يبين المنصور ، ان يأوي الى غمد . فالرقاب تشرئب  
الى حيث لا يجوز ان تتناول ، وقد أبيض لها الزمام ، فبطرت ، وتاهت !  
والتوى على الهادي يعانقه ، ويغالي في ضمه اليه ، كأنه يرغب في ان  
يوقن ان ابنه نجا من المكروه ، وانه لا يبرح يملك العافية . وهناه بضاعته ،  
ورهاقة ذهنه . فما ضاع ، ولا ماع . وهتف ابو عبدالله معجباً بابنه الاروع :  
بملك أفاخر الدنيا . فقد اظهرت ، لجميع من يستظنون لواءنا ، أن في

عروقك يجول دم جدك المنصور ، وانك خليق بولاية العهد . فليس هذا  
المدعو غداً الى ركوب منصب الخلافة بالضعيف ، ولا الجبان . من معدنك  
ينشأ السادة . وعلى كتفين ككتفيك تقوم العروش !

وتساقطت عليه النخلة من كل فم . وقيل الشعر الملبح في ولي العهد  
الهامام . ووثب الربيع على البلاط يتوعد ، ويكبر إقدام الهادي . قال :  
الحمد لله وقد رزقك هذا الشبل ، يا امير المؤمنين ، يحطم بيوائته انياب  
الذئاب . فما حسبت المناكيد يتشاحون حتى يقتحموا العرين . بيد انهم  
جهلوا من يناوئون ، وقد غرّتهم من ولي العهد طراوة عوده . وغاب  
عنهم ان الاقدار ليست في الاعمار ، بل في العزمات ، وان البأس يجري  
في العروق فور اكتحال العيون بلألائها ، فلا يرقب عهد الفطام !

ووثبت لبابة ، زوجة الهادي ، الى صرح امير المؤمنين وفي شفتيها  
اللولولة والاهزوجة . فهي على لهفة وطرب . فجزعت على الهادي ، وسرّها  
ان يكون نجا من الاحبولة . واستوضحت عما اتفق له من رزية ، امعاناً  
في الاطلاع على النبا اليقين . وما ترددت في الاعلان : هذه يد الخيزران !  
وساورها من الظنون ما دم المهدي . فما ثمة غير الخيزران من ناقم  
على موسى ، يريد خذلانه واستئصاله . رأت فيه سيف ابيه القاطع ، فمالت  
الى ثلم حده ، بل الى تحطيم نصلته . الا ان العناية الساهرة انقذت الابن من  
ويل الام ، ونجا الهادي بسلام . ورغبت لبابة في رؤية زوجها لمعالنته  
نقمتها وبهجتها . ونادته ، وقد وقفت وراء الستار المضروب في زاوية  
الايوان . وما تمالكت ، وهي تخلو به ، ان ترمي عليه باسمة باكية ، ودمع  
الجبور يسبق فيها كل بيان . قالت وهي تمسح عبراتها المواتن : يا بني انت

وامي ، أيجنح ابدأ الكاشحون الى اذلال فورة القدرة فيك ؟ ... انك لتردهم بسوفك ، ورسوخ دعامتك ، زادك الله صولة. فما ان تقع عيونهم عليك ، في اوجك ، حتى يعرفهم الكسوف ، وتسيل اكبادهم وهلة وحسداً . ولكن السماء لن تخزيك ، وقد اسبغت عليك نعمتها . فانت حربة في صدور الشائنين ، وبرد وسلام على مؤيديك . وانهم للكثرة في هذا المظمن الفسيح !

فقال وهو يكفكف دمعا : ليس لنا ان نهلح ، يا لبابة . فلا بد لامي من يوم ادوخها فيه . ولسوف يعلم الجميع ، بمن ضمتهم دولتنا ، ان الهادي يملك امره ، وان الخيزران لا تبغني الا شراً . حاولت ان نمسكي بي عنها ، فانظري الى اي دناءة تسفلت . فما كفاها ان رامت نزعي من خاطر امير المؤمنين ، حتى ازمنت قتلي . ولكنها عاجزة في الحاليين ، ولي من رحمة الله ، ومن عطف ابي ، ومن علوهتي ، ما يقيني الانهار . فالخيزران وحدها سموت ، يا لبابة . فان لم تمت بيدي ، ماتت بحقدتها ، وهي لا تكاد تستنشق غير الضغن ، ولا تنغذى بسوى المكر . ويخطر لي ان ابقى عليها ريثما تنفى في مخابثها . ففي موتها ، على مهل ، ما تجرع به مراراً الهلكة ، وتنشهى الفناء ولا تنفى . لثقلها عضواً فعضواً ، بل ذرة فذرة . فهو اشهى لنا ، واوجع لها . فالشمانة تحلو في ذلك الوجه القبيح . لبابة ، انت على صواب في ازدرائك اصلها المعموز ، العليل !

قالت : اقتلها كيفما تشاء ، على ان لا تسفك بيدك دمها . فمن الذل ان يشبع عنك انك فتكت بامك ، وابوك امير المؤمنين ، وجدك امير المؤمنين ، وعم ابيك امير المؤمنين ، ويومك يجهزك لغد تعتلي فيه سدة

امارة المؤمنين . فليس لاعدائك ان يعيروك بطشك بامك ، وقد امسبت  
رب الدولة . والالقيت التباريح . وانقلب عليك حتى الاعوان ، وهم  
يقبضون على سلاح قاطع يشرونه في مناواتك ، ساعة يلمسون فيك النفرة  
والاشاحة . فلا تهب لهم هذا السلاح ، وكانك تنصرهم على التنكيل بك ،  
وتساعدهم على تشويه محامدك !

فاعلم بتؤدة ، وقد لاح له في منطقها جميل الرأي : وهو ما تبدين .  
فلن اسدد اليها سهمي الا حين يضيق بي كل احتمال عنها . ولن اقتلها بيمينى ،  
لثلا تصني الاجيال بالعقوق . بل سادفع اليها من يغتالها . ولن ارتضي  
القضاء عليها بالنصال ، بل بالسموم . فاعهد الى احدى جواريا ان تسقيها  
شربة تصوتحها بها ، ولا رحمها الله . فلا يذيع اني قتلتها ، بل يفشو انها  
قضت نجبها . اما الآن ، فحسي ما ادركت من فوز . ان الايام لتخدمنا ،  
يا لبابة . فما عرفني في حظوة تشبه ما ارتع فيه من نعيم !

واذا بحسنة تبدو مترجحة في اكمل زينة . وكادت تفتح صدرها لهذا  
الظافر باعدائه ، فتقبله بملء شفتيها . بيد انها تهيبت لبابة وامير المؤمنين .  
فلن تثير غيرة الاب ، ولا الزوجة . والمهدي يتوهج غيرة ، حتى ليكاد يختنق  
وهو يسمع عاشقاً يتغنى بهواه . فكيف يرتضي ان يشاطره قبلا جاريتيه  
المرموقة فمٌ وخد ؟ ... والله ، انه ليخلع مهجة هذا الشريك ، حتى وان  
يكن ابنه . ولبابة لا تحتمل مرأى من ينافسها في حب الهادي ، حتى ولا  
في اختلاس قبلة من الزوج المهيب ، القسم . وصاحت الجارية المرموقة فيما  
تبسط يدها لموسى تصافحه : عشت ، ايها الاروع . انك لمن نسل جبابرة  
عظام ، لهم بالرسول عروة وثقى . وما العجيب ان تفتك بالعلاج الوغد ،

بل العجيب ان تهب له اطلاقه من نفس . سلمت بملك ! ... من امثالك  
زيد الرجال . حسبك الخيزران قزماً ، فارفدت اليك من يزهق فيك  
الروح . ألا هانت في بغيته الكفور . فان سهمها ليرتد الى نحرها . أتريدك  
على الفناء ؟ ... قَبِّحْ مأربها الحسيس . على انها ذات فضل ، يا لبابة .  
فظهر للناس لؤمها . وارتفع فيهم قدرنا . سبقتنا الى الشين ، وغسلت منه  
ايدينا . فشكراً ، شكراً ! ... لن يقال : «فتك الهادي بامه ، فيا للذلة !» ،  
بل يقال : « تعمدت الخيزران القضاء على ابنها ، فيا للعار ! » . سلمت ،  
يا موسى !

وسمع المهدي صوت حسنة يعلو ، من وراء الستائر ، فحبا اليها يقول :  
ألا ماذا ، يا حسنة ، أنت هنا ؟ ... اراك لا تنقطعين في هذه الايام  
عن البلاط !

وشاقه ما تتجمل به ، وما يشيع فيها من فواتن . ودنا منها فألقى يده  
الى كتفها ، يستروح ما تغلقت به من طيوب . قالت وهي تبسم له بمستفيض  
الوله : نفسي فداء امير المؤمنين . ان نحن الا الرياحين النامية بغيته وغوثه .  
فاذا ما جئنا اليه ، فلكي نبطل برفقه ورفده ، فنظل على نمونا في طاعته  
ورضاه . ان الزهرة ، مع هيامها بالفني ، لتشتهي انوار الشمس ، يا امير  
المؤمنين ، كي تسبقي مواهتها . فلا عجب اذا ما اقبلنا الى الشمس ، نستمد  
منها الانتعاش والبقاء !

فهتف بابتهاج : عوفيت ، يا حسنة . إن في عرفك من الشذا ما يملأ ايامي  
اخضلاً وأنساً . لكأنك ناسخة اشجاني !  
قالت : وما اهاب بنا الى ارتياد صرح امير المؤمنين ، ما وقع في



مسامعنا عن المكيدة المنسوجة لاغتيال ولي العهد . انها لطعنة في كل قلب  
هذه البادرة الوقحة ، الوغدة . أيقدم الانذال على هتك حرمة رب الامر  
في الدولة العربية ، على متناهي فجاجها ؟ ... ما حسبتني اعيش الى مثل  
هذه الساعة ، يا مولاي !

و كأنها تعمدت اثاره غضبه ، وهو السريع الى الاحتدام . قال :  
صدقت . على اني ساعاقب الانكاس بما ينجع فيهم من ضغط وقهر . فيرى  
كل من يتقبأ ظلي المنشور ، حتى اقاصي النخوم ، ان المهدي لا ينام عن  
منكر . فكل يد استركت في حبك الدسيسة ساقطعها من ابطها . بل  
ساجاوز الابط الى العنق ، واجرف اللثام هامة تلو هامة ، حتى لا أبقى  
على زنيم !

فلم تؤمن بتهديده ، مع غلوه فيه ، وقاديه في سخطه . قالت بنبوة  
من ارتياب : ولكن هل وقع امير المؤمنين على الجناة ؟ ... أثب الى  
ذهنه اسم من اسماهم ، وهم من اسم ؟

فالتفت اليها الجميع ، وقد تجلى لهم مقصدها . وارتفعت الانظار عنها  
لتهوي على المهدي ، وتستجلي ما تنتفض به اساريره . فبلغ ابو عبد الله  
ريقه ، وقد لاح له من حسنة الاحراج . وقال بلهجة تغور في اعماق صدره ،  
وليس ما يسعفها في الانطلاق: اذا جئت انطق بما في نفسي ، يا حسنة ، بات  
العامر خراباً . فلست اجهل ان الامر جسيم ، وخيم !

فاستوضحت الجارية المرموقة ، تميل الى اكراهه على البوح بما عنده :  
ومن يترأى لامير المؤمنين انه اقدم على النكر ؟ ... أيكون هؤلاء الكفرة  
في حرز حرز تقصر عنه صولة المهدي ؟

فلمس في مقالها رهيف التحريض . فهي تغريه بدم الخيزران ويجبي  
 البرمكي وهارون . انها لمتطاهرة الاحقاد جاريته المرموقة . وابي التخاذل ،  
 وهو المفاخر بصدق العزيمة . وهاب تلطبخ يديه بدم احب الناس الى قلبه ،  
 فاعتمد على مسلك ينجو به من اللوم ، ويظل فيه على مكانته . فلا يشع عنه  
 انه تراخى مرة اخرى حبال الخيزران . وهتف : ولكن من هم هؤلاء  
 الكفرة ، يا حسنة ؟ ... من هم هؤلاء المستمعون على امير المؤمنين ؟ ...  
 أتعرفينهم ؟ ... هل تعرض لك اسماؤهم في بال ؟ ... ألا ازيجي عنهم  
 السر ، كي اصطادهم واحداً واحداً ، فتقوم في كل ساحة ، من ساح بغداد ،  
 اعواد تتدلى عليها هياكل المجرمين . هل لك ان تفصحي ، يا ذات الاناقة ؟  
 واحرجها كما احرجته . فهو يدفعها الى الجهر والاثام . وما جهلت  
 سوء مغبة الاعلان ، وستقف به من الخيزران موقف العداوة الصراح .  
 بل لم تجهل ما سيكلفها من صدمات ونباريح ، ولن تنام عنها السيدة الاثيرة ،  
 بل تجاهد في الانتقام منها ، حتى تبيدها . على ان الغيرة ، العابثة بكبد  
 حسنة ، اعتمها عن كل احتراس . ثم هي ابت الظهور بمظهر المتلعم ، الخانع ،  
 ازاء تجاهل الخليفة المبطن بالدهاء . فجهرت بالقول الجسور ، الزاخر بالاحن :  
 من يضمر الشر للهادي ، يا امير المؤمنين ، فيسعى لعزله عن ولاية العهد ؟ ...  
 من يشوّه كل خلق رفيع في هذه البيئة المباركة ، كي يبقى له وجهه ، ويستأثر  
 بعطف امير المؤمنين ؟ ... ألا من يشهد انيابه لركوب منصب الخلافة ،  
 ويبعد عنه كل ذي حق به ؟ ... ان من تتقد ارواحهم بهذه الشبهات ، هم  
 ارباب المكيدة . هم من راموا القضاء على الهادي ، كي ينجوا من تفوقه  
 عليهم في رضاك . غير ان القدرة ، ابت الا ان تحزيمهم ، حبث وهموا انهم

يفلحون . فاذا ما اعتزم امير المؤمنين ان يثار ولي عهده ، فليضرب هؤلاء  
المفسدين ، ولن يخطيء حكمه ، ولن تجترح بينه الظلم !

وكشفت له عن متجهها . فهي تنادي بموت يحيى البرمكي والخيزران .  
قال ، ولم يبق من سبيل الى التمويه : اينجم لك ، يا حسنة ، ان الخيزران  
صاغت خيوط الغائلة ؟

فتفتت لا تبالي : هي هي ، يا امير المؤمنين . فالسلسلة ما تزال متتابعة  
الحلقات . اوجع الفرس ان يهونوا ، بعد عز ، فاحتشدوا في اثر أبي مسلم .  
ووجأ ابوك عنق ابي مسلم ، فقام المقنع الخراساني يطالب في عهدك بالانتقام  
لدم المسفوك . ومن هو المقنع الخراساني ؟ ... هو كل فارسي ، وفي الطليعة  
يحيى البرمكي ، الناعم بخيرك ، والشاهر عليك سيفك ، ولكن في الخفاء .  
فهو يتحين الفرص للعدربك . وتجسم له مطمع الخيزران ، في امتلاك  
الاعنة ، وايقن انها تنيله طلبته ، وقد ركب ابنها المقعد الاسمي ، فشمّر  
لهدم الخلافة فيك ، كي يرصع بها جيد هارون . وما هارون ، في يد البرمكي ،  
غير قصبه مرضوضة ، لا يرتفع لها رأس . الا ان المقنع الخراساني اخفق في  
ثورته . وأبيت الا ان يرسخ الهادي في ولاية العهد ، فهاجت الحواطر  
المهزومة . وفتقت لها حيلة اغتيال موسى . وشاء ربك ان يدرا عن موسى  
الكارثة . فالشكر لمن وفى . ولكن لهذا العيث الكريه ، في الدولة ، ان  
ينتهي . ولن ينتهي بسوى القضاء على من ينقشونه . فليضرب امير المؤمنين  
بيد لا ترحم . فالزنادقة كثرت تحت هذه السماء . ليجتزأ رؤوساً لا ترتدع  
عن غي ، ولا تتوي من بحر . والا اقمنا باجمعنا على خطر . وكان الخليفة  
في طليعة من يستهدفون لوفرة الحزازات الموج !

فايقن انما على صواب . فالمنطق الحق ما تفيض به . بيد انه ، مع  
 استخفافه بالهامات نثناثر ، وبالاماني نجف ، تهيب البطش بالخيزران ويحبس .  
 جل ما سيقدم عليه ابعاد البرمكي عن السيدة الاثيرة . وكأنه بتر ساعدها  
 الايمن ، وحرما قوة التدبير . قال يتحامي ما تستدرجه اليه جاريتيه المرموقة :  
 اني لاؤيدك في ما تذهبين اليه من تخمين ، يا حسنة . فالمكيدة من صنع  
 البرمكي والخيزران . ولكن ابن الادلة على كونها حباها ؟ ... فالهادي  
 اطاح الخارجي في وثبة صاعقة . فما ابقى له منفذاً لنامة . وكنت اود لو  
 ابقى عليه ، ريثا يذيع من حفزه الى ارتكاب الجريمة المنكرة . والله ، لو  
 بقيت في الغادر الانكد ، نخلجة من روح اسئل بها سره ، لانقضت  
 على الاندال الفجار انقراض الضواري ، أهشمهم بمخالب امضى من مسنون  
 الشفار . وأدق اعناقهم عبرة لكل متوقع زنديق . فلا أرحم الخيزران ،  
 ولا البرمكي . بل ما استثنى هارون ، وهو من لا تجمع عنه مودتي . الا  
 ان الادلة تعوزنا ، يا حسنة . فمن لي بان يجيئني بها كي اكتب في التاريخ  
 صفحة لم يسبق لقلم ان خطها ؟ ... فيذيع عني الدهر اني رفعت للعدل منارة  
 تهتدي بها الاجيال ، حتى انظفاه الارحام . احملاوا الي من يدلي بالحجة على  
 تواطؤ الخيزران والبرمكي ، على الهادي ، كي اطرحهما في اسواق بغداد  
 اشلاء دامية ، تتخاطفها الكلاب . اما ان اقتل ، وليس من دليل على  
 الجرم كي استنزل العقاب ، فهو الظلم الديميم ، ونفسي لا تشتهي !

وكان موقفاً في التنصل والاحجام . فابن الدليل الملموس على كون  
 الخيزران ويحيى نسجا الاحبولة ؟ ... وما سها عن حاجته الى يحيى ، مع  
 جفائه له . فالفرس ، مع متفاهم نفرتهم من العرب ، لا بد ان يكبحوا

جماهم ، وهم يبصرون احد سادتهم ، يتبوا في رحاب الخليفة عالي المقام .  
 على حين تفور شكائهم لدن يشاهدون كل هامة فيهم يشدخها السيف  
 العباسي . فتعم الثورة ديارهم ، ويبيت العرش في مهب الاخطار . وتجلجت  
 حسنة حبال منطق المهدي السديد ، لا تسعفا البديهة في اعتراض . فابن الادلة  
 الكاسحة ، كي ينتضيها ابو عبدالله ، ويرشق بسهمه الاكباد النخرة ؟  
 والتفتت الجارية المرموقة الى موسى ولبابة ، تستمد منهما الالهام . فما  
 ارتعشت شفاهها بنبرة ، وقد اقاما مما نشر المهدي على شده . وايقن ابو  
 عبدالله انه افحهم جميعاً ، وقهر فيهم وعورة المطلب ، فساق الكلام الى ابنه  
 الهادي يستطلع : وماذا يلوح لك ، يا موسى ؟ ... ألا توافقي على ما  
 ذهبت اليه ؟

فاجاب الهادي مكرهاً ، ولم يشأ احراج ابيه : اني لاجد الخير في كل ما  
 يستفيض فيه امير المؤمنين !

وسدد الخليفة مقاله الى لبابة مستوضحاً : وانت ، يا لبابة ، ماذا توين ؟  
 فاعلنت وهي تتنهد : الرأي رأي امير المؤمنين . فكل ما ننجح اليه  
 ألا تعاد الكرة . فيسي ولي عهدك ، يا عمته ، مهدداً بالهلاك . فالحفاظ  
 المتأججة لا معدى عن اطفالها ، لئلا نظل عرضة للتلف . وهو بما لا يروق  
 سيد هذه الدولة . أيجتاحنا العدوان ، ونحن في كنف المهدي ؟

ونبرت حسنة : من الائم الفاضح ان يقف الطغاة من ولي العهد هذا  
 الموقف المستطيل ، وان لا يجردوا في امير المؤمنين القوة الكاسرة الشكائم ،  
 الحاطمة الانياب !

فعرّ على المهدي ان تنال لبابة وحسنة من صلابة مكسره ، ورعد :

والله ، ليس لصدر ان يتنفس ، في هذه البسطة ، بسوى اذن مني . فالمخزاة  
لن تتكرر . واذا تكررت ، دمرت' العامر ، واحرقت النامي . وان يكن  
بشخص لكم ان يجيى والحيزران ، هما اليد الجانبية ، فسابعد يجيى عن  
الحيزران ، واميل به عن تأديب ابني هارون . فليس ما يمنع ان يبرح  
بغداد الى احدى الولايات بسوسها . أيرضكم هذا التديب ؟ ... ان في عزل  
يجيى ، عن الحيزران ، ما يجرمها القوة على التنظيم والتفكير . فلا تحاول  
الصيد في معتكر الماء ، ولن تلقى من يهد لها السبيل الى المشهى الوبيل .  
منذ غد سيتولى يجيى الامر في ولاية متناثبة عنا ، لا مجال له منها الى الحيزران !  
فقات حسنة : هذه حكمة زكية ، يا امير المؤمنين . غير ان ثمة حكمة

اعلى . لا تقطعن ذنب الافعى وترسلها !

فصاح متطيراً : وبحك ، يا حسنة . انك لتغريني بدماء يمضني سفكها .  
فما بك كالرقطاء المتقلية في الهجير ؟

فاعلنت بمضاء : إن تضرب اليوم ، فخير من ان تضرب غداً . وإن  
تضرب غداً ، فخير من ان تضرب بعد غد . اطلاق ايدي الائمة ، في المقابع ،  
يبعث على الندم . فما يدريك ، وقد اخطأوا موسى ، ان لا يصيبوه بعد  
حين ؟ ... وما يدريك ، وقد اصابوه ، انك ستسلم ؟ ... ألا حطم ولا  
تشفق ، يا ابا عبدالله . لا تشفق على من لا يشفق عليك . اصبحت اخاف  
شديداً على موسى ، وقد حامت عليه دسائس الحيزران . فإما أن تبعده الى  
حيث يقيم بأمن من الغواشي ، وإما ان تنثر جماجم من يتحايلون على  
شدخ هامته . فالبقظة ، البقظة ، يا سيد هذا المطمئن !  
فابان برغبة حاسمة في اقرار الامور : هذا كله سانظر فيه ، فصبراً .

على ان مصير يحيى بات لا يحتاج الى مباحثة وارجاء . سادفعا الساعة  
المشاغب الى ازربيجان يتولى شؤونها ، ويكون فيها عند تناول يدي ،  
ومرمى عيني . فإن يتحرك ، بتوت فيه محركه ، واخذت انفاسه الحرار !  
وانجز ما وعد . ففي اليوم نفسه دعي يحيى البرمكي الى ولاية ازربيجان  
بسوسها . فاجاب ملوي الهامة . وضجت بغداد للنبا ، ولا سيما صرح اساس .  
فالحيزران لم تكن تهدأ لفرط ارتباكها ، وخذلانها . موسى ولبابة صرعا  
فيها القياش والدلال . وما غابت عنها حسنة ، وقد لاحت لها للجارية يد  
في الحسف والتكدير

وايقنت السيدة الاثيرة ان اعداءها تفوقوا عليها . واقرت لهم ، مكرهة ،  
بالغلبة . واحست بالرعدة تطغى عليها ، وبالجزع يجز في خاطرها . قضي  
عليها في حنان امير المؤمنين . ولكنها ، وهي المفطورة على الجبروت ، لن  
تبيح للباس محوها . فما ماتت ، ولها في البقاء جذور لا يعدو عليها  
الاضمحلال . وصميت على النضال حتى استعادة منزلتها . فلن تنهزم في  
رضى ابي عبدالله . فالبرمكي سيعود اليها . وكل ما تقدر عليها الحالة ان  
تنام ريثا تنبدد الغمامة ، ويصحو الجو . غير انها نومة اليقظان ، فتظل بها  
حذرة ، مفتوحة العين ، والغد لها . وآمنت بهذا الغد ، مع كل ما ينخعها  
به يوما من عابس لحظ ، وجهم حيا . فالقوة تنكشف في الظفر بالنائبة ،  
لا في البطر في الزمن الحصيب

واعتصمت بصرحها لا ترحف منه الى المهدي . فالموعد لم يمن للازدلاف  
والعتبي . على انها ، مع تظاهرها بالصبر ، لم تكن تطيق في اعماقها هذا  
الضيم الكاسف . ولكن وعورة الموقف تقدر عليها الخنوع ، ريثا تهدأ

الفورة . وماذا تستطيع في المهدي من اقناع ، وتبييض صفحة ؟ ... هل لها ان تنكر تواطؤها والبرمكي على ابنها موسى ؟ ... هذا الخارجي ، المغلوب على امره في اغتيال الهادي ، دفعته يمينها الى البطش بولدها البكر . جاءها به البرمكي لتطلقه في صدر موسى شفرة قاطعة . فاصطاده الفتى بحيلة تحجرت بها الالباب ، واكبرتها . والسيدة الانيرة تحشى ، اذا ما تهادت الى الخليفة ، تسأله في نفسها ، ان يحاسبها امير المؤمنين في البادرة الحسيسة ، وان يرميها بالسفال والوغادة . بل خشيت ان يهدم عليها البلاط انتقاماً منها في حقارتها ، وما تورعت عن اباحة صدر ابنها لطعنات النصال وما فتئت تلوذ بالاحتجاب والصمت . فهي على خجل من زوجها ، ومن ابنها ، حتى ومن نفسها . الا انها ستدّرع الانكار ، ولا تهون في رد التهمة . وخصوصاً بعدما سقط اليها ان الخارجي مات ، دون ان يتسع له مجال الى لهفة

وطوت جناحها على غل ، ترقب السانحة المؤذنة في الظهور . وطال جفاء المهدي لها . فما دعاها اليه في تأنيب ، ولا في لوم . وانقضى عليها في عزلتها اشهر ثلاثة ، دهمها فيها الاختناق . فالبلاط ميدان فسيح لموسى ولبابة وحسنة . وهي ، الخيزران ، في زاوية مظلمة ، تجرع مرارة الضيم والاختناق . الا انها لن تموت ، وستستعدي الدهر على شنواتها . فالامل ما يبرح ينعش في خاطرها ، مع كل ما يساورها من فجعة النقمة ، ورهبة الحزبي والحرماني



لم يشأ، هؤلاء الفرس، ان يستنيموا الى الحكم العباسي، المعن في رؤوسهم قطعاً ونثراً، والفاضر عليهم سلطانه بقسوة وزرابة. فما برح ظل السؤدد القديم بمدوداً في اذهانهم. وما انفكت شهوراتهم تسوقهم الى احياء العز المطبور. فاذا قضى عليهم الدين بالانحناء لمشيئة الخليفة، فما ارادهم على الخنوع، وقد ولدتهم امهاتهم احراراً. والخليفة يسترقمهم، ويستخف باقدارهم، فحقدوا عليه، وجبهوه بالثورات يؤلمون بها مهجته. فما ان تنطق جذوة الفتى في خراسان، حتى تندلع السنة النار في جرجان. كأن بلاد فارس ارض براكين، اذا ما خبا فيها بركان، هاج بركان

وتلظى ضرم الفتنة في جرجان، بعد استئصال نغثات المقنع في خراسان، المترحمة على فتاها الندب ابي مسلم، والنافرة الى الاخذ بالنار. وتألّم المهدي للنبا، وضاق به. أتشتعل بلاد فارس، على بكرة ابيها، بالحفاظ السخان، فيما تقبض يمينه على قضيب الخلافة؟... اذن فالقوم على استهانة به، ولبسوا يجلونه محل ابيه من الاجلال والكرامة؟

وكاد يدعو اليه البرمكي يتوعده، ويضرب عنقه عبرة للمستذئبين. الا انه خاف ان يزيد في اضرار اللهب. ربما جاشت اوتار هؤلاء العصاة، انتصاراً للبرمكي المخلوع الجناح. فلماذا التماذي في الاحراج، وقد يدفع الى ما لا تحمد فيه العاقبة؟... فالحكمة تدعو، في البدء، الى خنق الهرج. حتى اذا ما ثبت ان البرمكي هو المحرض، تدحرج رأسه حيث تغور نواصي الشذاذ

ولم يبلغه ارساده من امر البرمكي ما يبعث على الريبة . فانه لمنقطع الى تديير شؤون الولاية بحكمة ودراية بجلائته عن الكيد . فلا يسعى اليه ذوو الفساد، ولا يخالفهم ، وهو المعتكف على ما يتولى من اعمال ، وليس يجاوز ما وكله به امير المؤمنين، وما يحفز به اليه امر المنصب . وهذا الكمال في السيرة صان يجبي من الفتكة . فسكت عنه الخليفة ، ولم يكن له ان يتهمه بباطل . وانصرف المهدي الى التفكير في من يملك الساعد الماحق لبترو المقلقين ، وسد الفوعة المتطائرة الشظايا

اليس له في قاداته من يعول عليه في الموقف الحامي ؟ ... واستعرضهم في ذهنه واحداً واحداً ، وتنفس بألم . ودّ لو سار بنفسه الى قمع الهياج المستفحل . ولا عليه ان هو تعرض للمسايا . فعلى سيد الدولة ان ينتضي بنفسه فيصله في الذود عنها ، ووقايتها العوادي . وفيما يغيب في خواطره الحيارى ، اذا به يفاجأ بصوت نغوم ، يجيبه بمخمر الجذل : السلام على امير المؤمنين !

فشاقته رنة الصوت . الا انها وقعت عليه في غير اوانها . فما يتسع المجال للمنادمة والطرب ، وثمة ما هو اسمى مطلباً . فالدولة تعاني نهش الانياب في المكامن الحساسة من هيكلها . والضرورة تقضي بتعظيم الناهشين الاوغاد . على انه لم ينقم على هذه المقبلة اليه في خلوته تعرض عليه صباحتها . بل ابتم لها ، وفي طلعتها النديّة ما يذهب عن النفس بالشجن . قال يرد التحية بارتباك ومضض : وعليك السلام ، يا حسنة . فما تحملين الي من مبدد للكدر ؟

فهنفت بتأثر مفاجيء : أيعاني امير المؤمنين الاكدار ؟

فاطلق دندنة متأوهة ، متهكمة ، واستوضح : وهل يبدو لك اني على  
بهجة ، يا حسنة ، والاحن تتوائب في جرجان ، ولست ادري بمن اجت  
دابرها ، كأنني على فحط في الرجال ؟

فتعالت فيها صيحة من اهتدى الى الضالة المرجوة ، وسألته بدهش :  
أبيحث امير المؤمنين عن يكل اليه المهمة ، ولديه ولي عهده موسى ؟ ...  
ما عرفت فتى حر كآلهادي ، يا ابا عبدالله . فانه ليضطرم اقداماً وحصافة .  
ابقاه ربه ، وضاعف ايامه . أحسبك خبرته في انقضاضه على الخارجي ،  
كالصاعقة المحرقة . فما كاد الزنيم يدبر وجهه ، حتى كان الهادي يثب عليه  
كالشرارة ويستأصل روحه . ان في الهادي لدعامة أيدة للخليفة المفدى ،  
وللخلافة العليّة . فاضرب به اعداءك ، وليس لمشاكس أن يعود الى  
العبث المستطيل !

فاستصوب الرأي . ولكن الهادي غير مجرب . فاذا ما قذف به ابوه  
المفتنين في جرجان ، خشي ان تنوء الذراع اللدنة باثقالها ، وان يتفوق عليها  
الكاشحون . ولكن ما يمنع ان يسير ولي العهد ، على رأس الجيش ، الى  
تدويخ العصاة ، وان يسدد خطوه قائداً وهبت له الشدائد سمين العظات ؟ ...  
فالمدعو الى ركوب العرش ، لا خير عليه ان هو عرض صدره للنار ، وارتقى  
السدة بضلوعته ، وقوة ساعده ، لا بالاستناد الى حقه بما جهزه له ابوه .  
وجلجل المهدي : اجدت الاختيار ، يا حسنة . سارمي الاندال بولي العهد  
يحصد هاماتهم ، ويدل فيهم العرام . فاين موسى ألقى بين يديه امر التنكيل  
بن تغلي في صدورهم الفحة ، وهم دون البغات ؟

وصفق بيديه . فأطل حاجبه يزمّ نفسه ، حتى كاد يسي شبحاً ضيلاً

إزاء الخليفة المنشور الظل . قال ابو عبدالله باحتدام : ابن الهادي ؟ ...  
أريده بلا ابطاء !

وما توارى الحاجب ، للبحث عن ولي العهد ، حتى كانت حسنة تقول  
بوارف المسرة : ستجد فيه نجلك المصطفى ، وحفيد ابيك الحقيق بما تسند  
اليه من المعالي . فاني لموقنة انه سيكبح جماح الشر بقبضته العاصرة الصلب .  
فلا تقعد به سنة عن اقتطاف جنى النصر . ابن عشرين لن يغور في عويس  
الامر ، وهو قبسة من سلالة انجاد !

فقال المهدي بسني الاغتباط : إن هو قهر الشداد ، قهر مناوئيه . فلا  
تبقى للخيزران عليه حجة في تقديمه على هارون . ساعده اليه في حملة التأديب  
كي ابلوه !

ونفض له يمشي اليه ، وقد بدا في الايوان بصدرة العريض ، وبفتوته  
العامرة ، المهيبة . وأماله اليه وقبله في جبينه . وقال يجزيل الطرب : ارى  
ان ادفعك الى الجلائل تغزوها ، يا موسى . فكن عند حسن ظن ابيك .  
انتدبتك لقمع فتنة جرجان !

فما ارتاع الفتى ، ولا بدر منه الاحجام . بل ضحكت في نضرته الغبطة ،  
واعلن بفضفاض الرضى : ولكني على ما يقضي به ابي . أيدفعني الى اقتناص  
المجد واتباطاً ؟ ... لست نجل المهدي ان افق عن تحقيق الرغبة . اني  
لشاخص على الفور لاطفاء الضرم !

فعاد ابوه الى معانقته ، وهتف : عشت ، يا موسى . ما عرتني بادرة  
من ارتياب بمضاء عزمك . اني لحافزك الى الشر تقتلعه ، وانا موقن انك  
ستوفق للبغية . على اني لن اطلقك سراً ، بل علناً . فتجري الى تذليل

العقبة بطبل وزمر ، وقد حفّ بك جيش ضخم يسير في طاعتك ، وتقوده  
الى الفخار !

فتلظى الهادي ابتهاجاً . فالاماني ملء اليدين تقبض عليها الاصابع العشر .  
قالت حسنة : سوف تراه في الهيجاء سيفاً صقيلاً يقلق هامات اعدائك ،  
يا امير المؤمنين . فما الهادي سوى ظلك ، بل هو مثالك . فالابن تجسّد  
اباه . وستكون به مسروراً ، وسيجيئك بنواصي اعدائك مبدولة صاغرة ،  
تتمرغ في غبار نعليك . فما عرفت المروءة والاقدام ينبعان من صدر فتى  
همام ، كما يتدفقان غزيرين من حوافي موسى الاروع الميمون !

فشزر المهدي حسنة بعين جاولتها الغيرة . وهتف بصوت يترجع بين  
المزاح والجد: انك لتحميليني بهذا الاطراء المستطاب على الشك في النيات،  
يا حسنة . فما بك تسرفين في المديح ؟

فقصفت ضحكة متمادية ، طنانة ، وصاحت بجذل : أي دور في خلد  
امير المؤمنين ان حسنة ، الجارية المخلصة ، تزلّ بها القدم في صادق المودة ؟ ...  
لا والله ، يا ابا عبدالله . هذا ابنك ، ابنك . وقوة ساعده ، وحسن بلائه ،  
يفرضان عليّ الاقرار بالشأو البعيد ، وباذاعة الفضل الحلال . فليطمئن  
بال المهدي الفتّة !

وتتابعت ضحكتها تذيب غيرة الخليفة . أما الهادي فجمد مطرقاً ،  
جليل الطلعة ، رصين العين . هذا كلامٌ لا يلقي الى مثله . وبدا في رزائنه  
كأنه احد اشياخ الوقار ، الراسخين في النبل العريق . فليس لهذا المقال ،  
يفيض به ابوه ، مجالٌ الى الاعلان في مزاح او جدّ ، وهو النابي عن الثقة  
المفروضة على الاب ازاء ابنه الوفيّ ، وعن الحشمة المقدورة على الابن حيال

ابيه . واستدرك المهدي، وقد لمس في بيانه التقلقل، فابان: لتتكلم جادين .  
سأذيع اليوم في طول الدولة وعرضها اني عهدت اليك في الضرب على ايدي  
المفسدين ، يا موسى . وساعدت لك الجيش الحقيق بانالتك الصبوة . فكن على  
أهبة ، ولا تخيب اباك . ولا بأس ان تختار من تسكن اليهم من القادة .  
فمن حقك ، والتبعة ترسو عليك ، ان تنتخب معاونيك !

وكان للنباّ الدولي المتجاوب الاصداء . فتناقلته بغداد بشوق الى بلاء  
ولي العهد . فمن اي معدن هو الهادي؟... وما هي ايام قلائل حتى وقف  
المهدي ، في الجلّة من اقطاب الدولة ، يخطب في الجيش المدعو الى كبح  
جماح المفسدين . قال ابو عبدالله يخاطب جنوده ، بما أوتي من قاهر السلطان:  
انتم ساعدي في تقويض الشعب ، وتدوين الفتنة . فكونوا النبلة الجائحة  
والفتكة البكر . ولقد رصت هامتكم بموسى ، ولي عهدي . فهو بمنكم  
القبضة الساحقة ، والدماع الهادي . واحسبكم تعرفتم اليه بما سقط اليكم من  
علو همته . فكونوا له على صادق عون ، ووافر اذعان . انه ليثب بكم الى  
النصر ، فانطوا له على ما تحفظون في حناياكم لايبه من اكرام . وهو  
قائدكم اليوم ، وخليفتكم غداً . واني لاقده الصمامة ، سيف عمرو بن  
معدى كرب ، ذلك القرم العنيد ، من اقطاب الجاهلية والاسلام . فيستمد  
منه الجرأة والحنكة . ويعتمده قدوة في الكرم والفرّ ، وكسر شوكة  
المعاندين . فانطلقوا ، وعليكم سلام الله . انكم لتقاتلون اشراراً طغاة !

فماج الجمع بالهتاف : الله اكبر ، الله اكبر !

وانبرى من يصيح : الحياة للمهدي، ولولي عهده الهادي . والويل للمارقين !  
وتعاطم التكبير ، وصباح التأييد ، فيما يدفع ابو عبدالله الى ابنه موسى

سيف عمرو بن معدي كرب، معلناً : هذا هو الصمصامة ، المخضّب الشفرة  
بالدم البغيض . اني لاخلعه عليك كي تزيد في مجده ومضائه . انتضاه ابن  
معدي كرب في مغالبة اعدائه ، ونثر به الجماجم كمرضوض الحصى . فانهج  
نهجه ، وكن خير خلف لخير سلف . هذه الاعناق الماتعة في جرجان ،  
باتت يانعة ، فعليك بالحصاد ، وقد اعددت لك المنجل . لا تشفق ، ولا  
تستبق . فكل جيد اتلع اضرب به الارض ، ودمه في عنقي . لا حياة  
للمنافقين !

فتوالى الدعاء بالنصر المبين . وتحرك الجيش ، زاحفاً الى شرقي العراق ،  
في شخوصه الى جرجان . وتمسّت بغداد على نفخ الابواق ، وخفق البنود .  
وسار الهادي في المقدمة بتطلياً جواده ، وشاهراً سيفه . فكان لمرآه الوقع  
الحفّي في القلوب . والتفتت حسنة الى لبابة ، الدامعة العين ، تقول لها ،  
وكانتا واقفتين على سطح القصر ، في حفل من نساء البلاط : أتبكين ،  
والخليفة يزفّه الى المعالي ؟ ... والله ، لم يقدم ابو عبدالله ، في سبيل الهادي ،  
على مبرة تعادل هذه الغزوة الدانية القطوف ، المضمّخة بعبير الفوز والسموق .  
وسيعود منها موسى باكليل الغار ، كخالد وأبي عبيدة . فاطربي ، ان المجد  
لبعفتر جبينه عند قدميك . هذا يوم سينقش في جبينك التفوق ، ويلقي في  
مينك مقود السعد . فالسعد اضحى جارية صاغرة من جواريك !

فغمغمت وهي لا تتالك عن ذرف دمعها : اني لاخاف عليه من المعاطب ،  
يا حسنة . فما يدريك ما يخفي له الغد ؟ ... على اني اسأل فيه الله . فالعيون  
العائنة تزجر له طير النحس يرمّ به ويرديه . وهل تجهلين مخابث الخيزران ؟ ...  
ان تكن وقعت ، في بغداد ، على خارجي يطمس في ابنها النسمة ، فكم

ستهدي في جرجان الى خوارج لا يتورعون عن البطش بالهادي ، كرمى  
عينها الضيقة ، العشوم . فلا ننسى انه يثب على بلاد فارس ، وان بلاد  
فارس وطن البرمكي اللدود !

فهزت هذه المخاوف كبد الجارية المرموقة . الا انها أبت ان يسطو  
اليأس على لبابة ، فقالت تنفخ فيها الجلد والامل : ولكن الهادي ليس  
بالواهي العضل ، ولا بالمستطير اللب . فما ان يشعر بالملة حتى ينسفها  
ويذروها . طيبي قلباً . اني لعلى استبشار بالمهمة الموكولة اليه ، وهي  
عندي الدرجة الاولى في معراج السؤدد ، وستهد له الى الاعالي يربح بقمته .  
والا ، ان هو بقي في الزاوية ، يعاني تباريح الحمول ، فلن يضيء له سنى ،  
ولن يعلو له شأن . اطلبي له ان يجرسه الله من كل مباغتة ، وان يرد عنه  
قسوة التقادير !

ونظرتا معاً الى الكتاب الجراحة ، المتدفعة الى الاقاصي لبضع الدمل .  
وغابت لبابة في نواحيها ، وقد تباعد عنها زوجها في قيادة حملة القمع  
والتأديب . فاشفت عليها حسنة ، وقالت تخفف من لوعة ابنة جعفر : لا  
تتلهفي على بعباده . فما ان يخضد شكيمة العصاة ، حتى يعود . واذا لم يعد ،  
فالخفي به ، ولا عليك . فالجياة هناك اصفى ، وامتع . وابتعدي عن  
اوجرة الذئاب !

واقامت تنفي عنها الجزع . قالت لبابة : لكأني أحس بخلو ما حولي ،  
وقد نأى عني موسى . فما ثمة غير فراغ . واخشى ، اذا ألمت به مكروه ،  
ان تمرّ بي الخيزران وهي نجرّ ذيل التيه ، شامته ، مستهينة . اجل ، يا حسنة .  
تلك الام الشرسة ، الداغرة ، تضعك متخابثة في مأم ابنها . آه للمعالي ، ما



اصعب ركوبها . ففي حلاوتها لذعات من مرارة تذهب بكل شهيد . فلن  
يشتار العسل الصرف من يرفى الى الذرورة ، وفي مطاوي العسل لير النحل !  
وادمت قلبها القطيعة . ونظرت الى الغد ، فبدا لها كالحآ ، على ما  
يتوهج به من اضواء . فالكيد والفس ، هما خير ما تجود به الايام على  
المستعلي . ولبابة ، مع صبوتها الى بلوغ الاوج ، تولتها الحشية من وعورة  
المرتقى . على انها اتكلت على الله ، وهو مبدد كل عسير . وقالت مخاطب  
حسنة ، برغبة ملحاح في درء كل غاشية عن موسى : سألحق به على الفور ،  
يا حسنة . على الفور . فلن ارتضي ان اتنعم ويشقى . وجودي بقربه يدفع  
عنه حفلاً من الرزايا . وهو بحاجة الى رأي صدوق . وهل يلقي اليه هذا  
الرأي سواي ؟

وانحدرت من السطح ، الى صدر الديوان ، تطلب المثل بين يدي  
الحليفة ، عما . وما ابصرها ابو عبدالله حمراء العين ، تنوء بالكمد ، حتى  
بادرها بالصيحة المدهوشة : أتبكين ، يا لبابة ؟ ... ولكنني اطلقتها في  
اقتناص النباهة ، يا ابنة اخي . سيعود اليك على قبض من فخفخة وعز .  
فتتحدث عنك وعن المجالس بالتعظيم . وينحني بين ايديكما كبار القوم  
بوفر من اكرام . فالمجد يببت صنع يده ، لا منحة ازجيها اليه . ويشق  
علي ان تدمع عينك في مجال العبطة . فمن حقا ان تتهيي على جميع  
اترابك ، وقد بلغ زوجك ، من الرفعة ، ما يشاق اليه كل ظامئ الى السوء ،  
ولا يتفق له ان يلج منه الباب ، حتى ولا ان يظأ العتبة . ان زوجك لمن  
يقيمون من دهرهم على حظوة . فاشكري للزمن هبته المثلئ ، واطربي .  
فالظرب خير مفرع لمن ادرك هذا النجح العريض !

واستبقاها ريثما تنجلي دهبه العراك . ولم يكن الهادي رخوا الجناح في التنكيد والتوطيد . فما ان بدا في ولاية جرجان ، حتى ضرب العصاة بباتر فاصل ، زعزع به الهمم الفائرة ، ولوى وثبة اخوان السوء . فسكنت الغوارب الجائشة ، وامتد الهدوء حتى لم يكن لنبسة ان تقلق صفاء الاديم . وطرب المهدي وقد سقطت اليه الانباء السارة . وفاخر بالهادي الهمام . واندفع اليه الشعراء يهشون ويمدحون ، ويطنبون في محامد وليّ العهد الاشمّ الاروع . وانتفت المخاوف عن لبابة ، فاقبلت على امير المؤمنين مستبشرة معجبة . قال المهدي بفيض من جدل وايناس : ما كنت اجهل انه ذلك المقدم الاهيم ، يا لبابة . ففي عروقه دمّ صافي المعين ، وثاب المهزّة . لو كانوا ألفاً ، وكان فرداً ، لمزهمم بلا عياء . هذا من قيل فيه واحد بمقام ألف . فابشري ، يا ابنة اخي !

قالت بمفرط الدلال : رأيت انه حقيق بولاية العهد ، يا عمي ؟

فاعلمن بجزيل الارتياح : اني اعلى صادق الايمان بقدرته وبأسه . ولولا هذه الثقة مني به ، وقد خلعتها عليه بعدما لمست فيه حميد البلاء ، لامسكت عن ان اقلده المنصب المنيف . كوني موقنة ، يا لبابة ، ان اختياري له كي يخلفني لم يكن مرتجلاً . فطال تفكيري في الامر قبل البتّ . والا فما كان يمنع ان اوثر عليه الرشيد ، لو رجعه ابن الخيزران المصطفى ؟ ... ولكن الدولة بحاجة الى سيد كفيء . ولست اجد من يفضل الهادي ، مهما علا نعاب امه الغضي !

وضحك هازئاً بالسيدة الانيرة . وما كانت لتبدو منذ زمن طويل بين يديه ، والجفوة قد استحكمت ، والتناسي يجاهد في الاستسراء . فالعشب

نما في طريق صرح اساس ، وقد تخلى ، فور القطيعة ، معظم الانصار عن  
الخيبران . وغرق صرحها في الوحشة الناهكة ، المرهقة . فذكرت أم موسى  
وهارون ان الخلان لا يام اليمن والاقبال ، لا لعهد اليبوسة والحلكة . فمن  
خبا نوره نحامى الناس الاستضاءة بهديه

وبدا منارة البربري يستأذن حسنة على الخليفة . فصاح المهدي : وهل  
اقبلت حسنة ؟ ... لتدخل . لا ريب انها جاءت تهتني بما ادرك الهادي  
من غلبة !

وفاح الطيب الغالي وقد مثلت الجارية المرموقة في حضرة امير المؤمنين .  
وتهادت حسنة الى صدر المكان على بسمة مغناج ، وخطو تيمس به قامة  
ماتعة . وسلمت بصباحتها النوراء ، على الخليفة ، وعلى لبابة . وقالت : البشرى  
لامير المؤمنين ، وقد محما ولي عهده الشائبة الملطخة نضاعة الاقنى . ما كنت  
لارتاب لحظة بضلاعة الهادي ، يا ابا عبدالله . ابقاه لك ربك ، وزاد به مجدك  
روعة وعلى !

فاضاء الجبور طلعة المهدي ، وقال : ما خاب ظننا بمن ندبنا لمؤازرتنا ،  
يا حسنة . فالحق ابى الا ان يسود . فشكراً اللهم وحيداً !

وقالت لبابة ، وهي من الفرحة في اعلى سنام : كنت في قلق على  
الهادي ، يا عمي ، وهو الحديث العهد بمصاولة الجيوش . اما الآن فاني لفي  
نشوة من ايمان ببعيد شأوه ، وسداد ضربته . واذا اجاز لي امير المؤمنين  
ان ألقى بالظافر المغوار ، انطلقت الى جرجان اقيم بجانب ابنك وولي  
عهدك الباسل الاشوس ، واقاسمه اتعابه . اراه بحاجة الي . ومن له يبذل  
في سبيله جهدي ومودتي ؟

فاستطلع ابو عبدالله : أنتشوقك الرحلة ، يا لبابة ، والاختار تنجاذبك  
في التغفل في هاتيك المجاهل ، وامانتها لنا مشكوك فيها ؟ ... ليس ما يملك  
على المجازفة ، وكنت قد نبتك عنها ، يا ابنة اخي . فما عليك وانت  
بجاني ارعاك ، واجود عليك برفقي ؟

فابتدت الرغبة العزوم في المسير الى زوجها ، معلنة بعدوبة وملاطفة :  
انا في رعاية امير المؤمنين حيث اكون . فلن اخشى الملمة وهو يزودني  
حمايته ورضاه . على ان ذلك المقيم في ساحة النضال ، لا غنية له عن مبسم  
مشرق ، يضيء ايامه بوهج الانس . ولا بأس ان اضحي برفاهي لاجله ، يا عمي ،  
وفي مبادلته خشونة الاقامة ما يسعدني ، ويزيل عني مضمض الفراق . واو عبدالله  
اجاز لي الرحيل بجلاء الدهمة . واني لارى الغمام انقشعت ، ولم يبق في  
الافق كدرة تعكر رونق السلام !

فهتف المهدي معجباً بما يأذن به : يا لك من زوجة صالحة امينة . وددت  
لو شع هذا الاخلاص في دنيا العرب على مداها . اذن لكننا مثال الولاء  
والتضحية . بورك فيك ، يا لبابة . ساوفد في ركابك من يقبك كل وهلة .  
لك ان تسلكي ساعة تشائين طريقك الى زوجك . فاني لاهني الهادي بك .  
حقاً انه لحظي !

وجزعت حسنة ، وقد اباح المهدي للبابة المسير الى جرجان . مع ان الجارية  
المرموقة حضت بنفسها لبابة على اللحاق بزوجها الثاني لدن يفوز . غير ان  
حسنة شعرت بانها ستبقى وحدها في المناضلة بنأي الهادي ولبابة عنها ،  
وهما الدعامتان المنيعتان في المناوأة والصراع . وهل لها ان تتقي كيد  
الخيزران لدن تسمي وحدها في الميدان ؟ ... ان الخيزران لتبتلعها حين

تصبح عزلاء . فان قوتها لفي هذين الجناحين ، بل العكازين ، وبهما تطير ،  
وعليهما تتوكأ في انطلاقها الى هدفها . ومن لها يظاها في كفاحها  
بإتعادها ؟... قالت وهي تميل الى اعلان اسأها ، وتجاهد في التماسك لثلا  
يتجلى استخداؤها: ارجو ان لا تطول غيبة الهادي، يا امير المؤمنين .. فاننا  
لنحتاج اليه في صدر بغداد يزين البلاط بمغامرته ، وجسامه خطره . وهو  
السيف الضارب رؤوس الزنادقة والمكابرين !

فابتسم المهدي وقال: بل ان حاجتنا اليه في جرجان أمس، يا حسنة . وهو  
هناك غائم بطولة ، وكاسب مجد . اما هنا فباذا ترتجبن منه ان يفعل غير ان  
يصادم حساده ومنافسيه ؟... انه ليبيني اليوم في جرجان دعائم العز ، المهمة  
له غداً طريق السدة العليا . فالقوم سيرهبونه وهم يجدون فيه ذلك الحمي  
الكمي ، الذائد بسلاحه عن نفسه وحقه . ولن يخظر للخيزران ان تقيم في  
سبيله العراقي ، ولا ان تهرع الى الدسائس تدمغه بها . بل ستنهيب الكيد  
له ، وهي موقنة انها حبال مجاهد مجرب ، لا تقلقه الدواهي ، ولا يقف حبال  
الفواجع خانعاً ، مكتوف اليدين . ألا سيوري اليه بلا ابطاء ، يا لبابة . فان  
اقامتك بجانبه تزيد في شدته ، وتخفف عنه . فلن تدركه دمامة الوحدة ،  
وانت تهين له من نداوتك ما يربط الجفاف المنشور حواليه !

فكادت الجارية المرموقة تصيح : « ولكن من لي وقد ابقيني وحدي  
للنزال ، يا امير المؤمنين ؟ » . على ان المهدي لم يبع لها اطلاق صيحتها  
الحشيا ، كأنه ادرك بفظنته ما يساورها من بجران ، فقال : اما انت ،  
يا حسنة ، فلن تكوني في عزلة ولك من حدي عليك ما يرد عنك الرزايا .  
فاذا ابتعد عنك الهادي ولبابة ، فان لك من المهدي العضد المانع كل غاشية .

فلن تنال منك الحيزران ولك في امير المؤمنين النصير الامين !

فانحنت بين يديه تقول: ابقى لنا الله الخليفة الوازع الحامي. فاي وهلة  
تجرؤ على مقاهرتنا ونحن نلوذ بنداها ؟ ... لست على هلع من اعدائي ، ولي  
فيك الحرز الحريز ، يا امير المؤمنين . بل يضيرني ان اتعرفي من اصدقائي ،  
وهم العدد النزر . فاذا حرمني الهادي ولبابة أنسهما ، فلن اجد حولي غير  
الكاشحين لولا حذب المهدي علي . فالدنيا مودات وصدقات ، يا ابا عبدالله .  
وانا ، وقد حبست عليك ايامي ، ابيت على نفسي ان ارتبط بوافر الاصحاب .  
فحسي من الفيض قطرات . على ان تكون رويّة تبرد الظأ . غير اني  
ما كدت اهتدي اليها حتى رأيتني منها على نقاد !

واغرورقت عينها . فكادت غيره امير المؤمنين تستيقظ فيه . أتكون  
حسنة على هيام بابنه الهادي ؟ ... ولكن الساعة لا تفصح الى سوء الظن .  
فالجارية المرموقة لا تتفجع على فراق موسى ، بل على هجران لبابة . وانها  
لعلى حق في التفجع ، ولن تلقى بجانبها من يلزمها للمشاورة ، وللكشف عن  
مذخورات الصدور . فليس بوسع امير المؤمنين ان يرافقها كظلمها ، وله  
من مشاغله ما يصدف به عنها . واشفق عليها وهو يراها في لوعتها . وهتف  
يحضها الحنان والرجاء : حسنة ، أنجيل اليك انك وحدك ، ولن يسلك  
امير المؤمنين ؟ ... والله ، لن تشعري بالوحشة وانت في كنفني . أما  
عاهدتك على ان اجعل منك رفيقتي في رحلاتي ؟ ... وستصحينني فيها  
جميعها ، حتى اذا اندفعت الى المعامع . لا تخافي . لن يدهمك الضجر ،  
وستكونين ظلي . فلن تفترقي لحظة عني . هذا البلاط ساحتك ، فجولي فيه  
على مداك . وليس لعين ان تشزرك . ولا لقم ان يتأفف منك . فانت في

كنف امير المؤمنين . ومن المحال ان تزحمك امرأة في مكانتك مني .  
فالخيزران ماتت في عطفى ، يا حسنة . واني لانعاها اليك . لا جادت عليها  
السماء برحمة !

فبت روعها الطمأنينة ، مع استعادته قولة سبق له الجهر بها . على ان الجارية  
ما برحت تخشى . فمن يدري ما يبطن الزمن من اعاجيب المماكرة ؟ ...  
غير انها تظاهرت بالايمان بما عالنها المهدي ، وقالت : ما كان لي ان اشك  
في رحابة امير المؤمنين . حبه لي ، ونبله السامق ، يدفعانه الى السخاء علي  
بمنشور عوارفه . الا اني اتألم للنأي ابنة اخيه عني ، وهي من تشدني اليها  
او ترق ألفة ، وامنع مخالصة !

فابتسم ابو عبدالله ، وقال وهو يقبض على ذراع الجارية الحصة البضاعة :  
لا تهلمي ، يا حسنة . ليس لبعاد لبابة ان يطول . وربما سرت بك اليها في  
احدى جولاتي . فاني لاحس بما يلقي الاصدقاء من جمود وارتيباك ، وقد  
دهمهم الفراق . ولكن الضرورة قاهرة . تجهزي لرحلتك ، يا لبابة . اصبحت  
موقناً ان لا غنية عنك لموسى . فما حكمننا عليه بالنفي كي نحرمه المنعشات !  
واجاز لها الانصراف الى دارها كي تنأهب . ومال على حسنة يجذبها الى  
صدره ويقول لها مازحاً : أتؤمك الوحدة ، وقد نأت عنك لبابة ؟ ... ألا  
ابن تجدين الوحدة ، ايتها العمياء العين والقلب ، وانا على مقربة منك ؟ ...  
أتلقين في الدولة على وسعتها امرأة تطاولك ؟ ... كنت ترهين صولة  
الخيزران ، فابن امست الخيزران ، وقد حجبتها عني ؟ ... ألا تلوح لك ، في  
خزيتها ، مكسورة الضلع ؟ ... والله ، لقد آثرتك على جميع نسائي ، وفي  
رضابك حلاوة ، وفي مبسمك نار . فالفتنة تجري على طفاح فيك . ومن

الراهن انك اشهى امرأة في فسيح ديارى ، وقد استطعت ان تستأثري  
بمخاطر امير المؤمنين !

وعبت بفدائرها بينه . وتلذذ باستنشاق رائحة شعرها ، كأنه حبال  
قارورة من طيب . واطلق فيها قبلات مواتع . وكيفما امسك بها اندلع  
منها اللهب . فهتف في نشوة من لذة : انت من مضرمت اللظى ، يا حسنة .  
فكل ما فيك يبعث على الشغف والحنين !

ولقي في جسدها الريان ، المجدول ، مواضع مسرفة في التملتي  
والنصبي . فتناهى في الاقتطاف والاستمتاع . وتفتنت الجارية المرموقة في  
الحلاب والارضاء . فامست ولها في نفس ابي عبدالله خوالج من تزوع ،  
ودعائم من استقرار لا تعدو عليها المباغئات المقوضة . فتفاقم شغف المهدي بها ،  
كأنه لا يبرح في الحفقة الاولى من ملحاح الهيام . وهتف بها بطاغى الشوق :  
ارى الدنيا في غواليك ، يا حسنة . فكأن باريك اختار اسمى ما لديه من  
فواتن وجاد به عليك . لقد بناك مداميك من قسامة وسحر وسلطان . انك  
لتملكين من قوة الاسر ما لم تقبض عليه امرأة من جميع من عرفت  
من الغواني !

فابتسمت واغتبطت وقد شفاها هذا الثناء الفواح من هواجسها .  
وتمايلت سكرى لفرط الدلال . وسددت الى المهدي عينين اتسع بياضهما ،  
وحلك سوادهما ، فزادت في الاستهواء . على ان نظرتها لم تطل ، وكانت  
خاطفة ، شبه بالومضة ، بما بالغ في وقعها . واذا الاهداب تتعاقد امعاناً في  
السيطرة وفي الاقتناص ، وقد ارحت ، لفرط طولها ، على المحاجر ظللاً من  
التيه ، دل على اعتزاز الجارية بتفوقها في القدرة ، والافتئات بالنهى



والاكباد . قال ابو عبدالله ، وما زال منها على مخمور جوى : لست اعدل  
بك جميع نساء بلاطي . فانت ينمة هذا الحمى . فجرري ما شئت ذيل  
النباهي ، وانت الحليقة بالزهو والاستعلاء !  
وألقى رأسه الى صدرها ينعم في دفته وخصبه باندى وسادة . وما  
انفك شذاها الممرع يملأ انفه ، ويعن في الامساك به . قالت الجارية ، وهي  
تعلم ان الساعة مسعفة في الطلب والادراك : هل لي ان اسأل امير المؤمنين  
في حاجة ؟

فافاض بالقول المتحمس ، وهو الممتلىء النفس كلفاً وانشراحاً : كل  
حاجة لك مقضية ، يا حسنة ، كل حاجة . فاطلي ما تشتهين ، وهو لك حلال !  
قالت على تعتعة وخفوت ، كأنها لا تؤمن ببلوغ الارب : ما فئت  
اعل نفسي بان اكون احدى نساء امير المؤمنين . فهلا اعتقني وتزوجني ،  
فابيت تلك المستعيلة بحق واصالة ؟ ... فاي شأن لي وانا ابدو اليوم في  
البلاط متظاهرة بالسوق والانفة ، ومقامي لا يعدو مستوى جارية ؟ ...  
أفلا ينظر اليّ من حولي ساخرين معلنين : « بظرت الخنفساء ! » ؟ ... ولست  
أومهم في الافاضة بهذه المثلبة ، وموقفي لا يجاوز مكانة جارية . على حين  
استطيع رفع الرأس ، وقطع كل لسان خبيث ، وامير المؤمنين يدراً عني كل  
ما يشوب جبيني من كدرة . وابو عبدالله كان قد تल्पف ووعد بانقاذي بما  
يعيب عليّ حسادي ، مع فيض ما اسبغ عليّ من نعمه الوارفة . فهلا انجز ؟  
وهي كلما دعتة الى اعتاقها ، والعقد له عليها ، استيقظ من سكرته بها ،  
وتذكر الخيزران . فليس يرتضي ان ينكب بطاغوت آخر . حسبه السيدة  
الاثيرة . وعبس ، على كره منه ، وحسنة تدعوه الى رفعها اليه من وهبتها ،

كأن لم يحظر له ببال ان الجارية ستعود الى مطلبها الوعر . وتولاه نفاً كاد  
به يصرف عنه هذه الناهدة الى الارتقاء العجلان ، بل الى ركوب المحال .  
الا انه لم ينس ما عاهدتها عليه من قضاء حاجاتها جميعاً ، فاضطر الى المداينة ،  
قائلاً : هذه امنية لن تستعصي عليك ، يا حسنة . فما ان يصفو الجو حتى  
انيلك المشتى !

فتجرات على الاستيضاح : ومتى يصفو الجو ، يا امير المؤمنين ؟ ...  
فاني لاسمع منذ عهد بعيد هذا الوعد ، وما كان للغمامة ان تسح !

فقال ، وقد اوجعته وخزتها : ليس من امر عسير ، يا حسنة . هلا صبرت ؟  
فايقنت انه يماطل ، وانها لن ترتع في الصبوة . وسال دمعها فابتعد عنها  
المهدي يزوي ما بين عينيه . ليس يقع من النساء على سوى الباقيات ،  
كان فوتهن في سكب العبرة . واني ان يجرح حسنة في اعماقها جرحاً لا  
يبرأ بصدوده عنها ، فرجع اليها يقول : لا حاجة بنا الى التفجع ، يا حسنة .  
ما ان ننتهي من الخيزران حتى ينتظم شملنا . اني لموطن النفس على الخلاص  
من تلك المتعنتة . وعندذاك يصفو لنا العيش ، ويطيب . ولا ارى الزمن  
بعيداً للظفر بالرجاوة . ساصرف عني الصلفة الحرقاء ، المؤلّبة عليّ الفتن ،  
وأحلك محلها . فما يدعوك الى التلّف ، وستبلغين من زمنك ما يعدو المنى ؟  
ففتت من نفس خائبة : طال ارتوائي بهذا الامل ، يا امير المؤمنين ،  
حتى كدت اخشى الظماً !

فدغدغ خدها وقال مداعباً : لن تعطشي ويميني تسقيك . فالشهوات لا  
ترحف الى المرء باجمعها ، بل تقبل اليه فرادى . وليس يضيرك ان تتسلقى  
الذروة خطوة خطوة !

فلوت رأسها واعتراها السكوت . ليس لها ان تذهب الى ابعدها  
ذهبت اليه ، وقد تادت في دالتها على الخليفة . وجنحت الى الانصراف والاسى  
في خاطرها . ابو عبدالله لن ينيلها طلبتها . فكلما حدثته عنها شغلها بالعرض  
عن الجوهر ، واغرقها في وعود بواسم . الا انها على وضاعتها اشبه بالنفخات .  
فما ان تشرق حتى تنشطى في العدم كخالب السراب . ولم يغب عن المهدي  
امتاعها ، فنزع الى خزائنه ينتضي منها عقداً من الياقوت ، ويلحق بالجارية  
فيطوق جيدها بالقلادة الباهرة اللألاء . وصفق يدعو اليه منارة البربري ،  
صائحاً به : احمل على الفور الى حسنة عشرين الف دينار !

فشكرت حسنة ، ولا بد من الشكران ، اكباراً لعطية امير المؤمنين .  
غير انها ابتعدت عن البلاط غير راضية ، وما شفى المهدي طماحها . وظهر  
منها للخليفة انها لا تبرح غير مطمئنة ، فبلغ ريقه تبرماً . هل له ان يتوفر  
على ارضاء الجميع ؟ ... وتجلى خاطره ان معظم المتظلمين منه اقرب الناس  
اليه . فليس للعامة في الشكوى حاجة الخاصة . وراعه ان يكون بين هؤلاء  
المتذمرين من بالغ في ان يجزل لهم الهبات . فلم ينل ذو حظوة من صلاته ما  
نالت الخيزران . والخيزران في طليعة المتلملين الكافرين بالنعى . وحسنة لقيت  
من بسطة يده ما غاضت به على مستفيض الوفر . الا انها تروم ما هو اسمى .  
فهي تطمع في ان تتبوا مرتبة نساء الخليفة ، فتتعادل في العزة والخيزران  
آه من الخيزران ، كم احبت من جشع ، وكم اجازت من دلال . فكل  
زوجة من زوجاته ، وكل جارية من جواربه ، تبغي الوصول الى حيث  
بلغت السيدة الاثيرة . ولكن رحاب امير المؤمنين لا تتسع لجميع هذه  
الشهوات . وتجهم ابو عبدالله . ان نساءه ليقلقنه فيما تقلقه الفتن في بلاد فارس .

ورأى ان يجنح عنهن للنظر في شؤون الدولة ، والاصغاء الى المظالم . وكان  
يستطيب الانصاف . فلا يبدو بين يديه صاحب حق الا ويظهره على خصمه .  
غير انه لم يكن اليوم راضي النفس ، حتى وهو يأخذ من القوي للضعيف .  
فان اضطرابه بين الخيزران وحسنة ، فيجعه بالمدوء والارتياح . ففي اعماقه  
ما يسخ طمأنينته . فلا الخيزران شاكرة ، ولا حسنة . أف للزمن الكنود ،  
والاحسان فيه بات مدعاة للاضطغان !

وضاق به قصره ، فقام بجولة في بغداد ممتطياً صهوة جواده . وشاءت  
الاقدار ان يمر بجانب صرح اساس ، فزفر ، وان يدنو من مقصورة حسنة ،  
فانتفض ، وهتف بنفسه : كلما بعدت دنوت ، كأني فراشة تحوم على سراج !  
و ضرب بمهازيه جواده ، فانتهب الفرس المسافات الشواسع . الا ان  
الخيزران ابصرت امير المؤمنين . والجارية ابصرته . والائنتان اطلقتا فيه  
نظرات الحقد ، ودمدما عليه . وقد تكون الدممة حفزتهما الى التهديد  
باختطاف الانفاس . وليس للغضب قيدٌ يمسك به عن التوكؤ على كاسح الالفاظ

بخصيب الفرحة ، ومرن الاستبشار، تلقى صرح اساس خبر رحيل لبابة الى جرجان . فصادف النبأ في الخيزران مفرط الجذل ، ورخي البشاشة ، كأن الكابوس المرهق انجلي عنها . فباتت اليد تنبسط على مداها ، وليس من حائل يعوقها عن الامتداد الى المرام

ولم تحفل الخيزران بالجارية حسنة ، مع كل ما تجسم لها فيها من رهيف التنافس ، ومع فائز نعمتها عليها . فالسيدة الاثيرة موقنة ان لولب الكيد لبابة . فمتى نجت من ظل امرأة موسى الفاحم ، الضاعط ، تداعى عنها الكابوس ، وعادت الى سيطرتها الشاحطة على نية الخليفة . فتميل به الى ابرام كل مأمول . ويتخاذل الكاشحون . وحسبهم ما تقادوا فيه من طماح واثرة . وهتفت الخيزران بجارتها عتبة : ألا نادي اليّ زبيدة والرشيده . عليّ ان انفهما بصيبح البشري !

واغارت على الرشيده وزبيدة تعانقهما فور ظهورهما لعينها ، وتصبح بمستفيض الطلاقة : لنا الهناء . لحقت لبابة بموسى الى جرجان ، واضحى زمام المهدي بايدينا !

فاستطلعت زبيدة بطرب مباد : هل تأثرت اختي زوجها ؟  
فأوضحت الخيزران : برحت اليوم بغداد الى جرجان ، وانقذتنا من دمامة طلعتها . فكل ما يحجزنا عن ابي عبدالله امحى بانصرافها عن البلاط ، وقد نفثت فيه خبائثها ، وافسدت علينا خاطر ابيك ، يا هارون . وليس بالامر النزر ان يشيخ عنا ابو عبدالله ، سيد الدولة وراعيا !

فقال الرشيد بحشية : ولكن أصفح ابي عنا ، وقد تفاقمت غضبته علينا  
بعد وثبة الحارجي على اخي الهادي ، فأتهمنا بالجنوح الى اغتيال موسى ؟  
فجبرت الحيزران بمديد الايمان : سيصفح . ليس ابوك بالحقود ، وله من  
صفاء النية ما يهيب به الى الاعضاء عن المساءة . وساقعه يبرأتنا من الظنة ،  
وبضرورة العفو عن مجي البرمكي واعادته البناء . وما ان يلتئم شملنا ، حتى  
نقص الاجنحة الدم ، المرفقة اليوم في جو الاعتزاز ، وقد عدت طورها  
في سمو الخطوة !

فقال زبيدة ، ولم تكن تطمنن الى مغفرة عمها المهدي : ولكن لبابة ،  
اختي ، ليست وحدها في مناواتنا ، وثمة الربيع ، والجاربة حسنة !  
فضحكت الحيزران ساخرة . واعلنت بامتهان الواثق بركين سلطانه :  
اما الربيع ، يا زبيدة ، فليس بذئ خطر في مصاولتنا . واما حسنة ، فلن  
تقوى وحدها على المضي في الكفاح ، مع كل ما تفيض به من مكر وبغضاء .  
وانا للخبيثة بالمرصاد . ولست ارى المهدي يرفعها عني ، مع بليغ كلفه بها .  
فهي لديه لساعة من الزمن . اما انا فاني لرفيقة كل حين !

على ان المخاوف ما برحت تواب زوجة هارون الرشيد ، فقالت : ألا  
يبدو لامرأة عمي ان عمل ساعة يعني عن مجهود دهر طويل ؟ ... في حسنة  
من القوة على تعكير زلال الماء ، ما لا يهوي بها عن مكانة لبابة في التهشم  
والتنكيل !

فجمع بالحيزران اعتدادها وزهوها الى الجهر بمخمر الدلال : كنت  
أخشى على نفسي من حسنة ، وقد ظهر لي في المهدي ولوعه بها ، بما لم  
اتبينه فيه حبال جاربة من الجواري . غير اني ما نشبت ان ادركت انه

يسلوها حين ابدو بين يديه . فليس لي الا ان امثل ، في باصرتيه ، حتى  
يتناسى كل ما حشت به الوجدة وعيه من سفاسف وغائم ، مما هبط بها تجاهي  
عن منزلتها . فباتت لدي نكرة لا تخمش ، وهي المقلّمة الاظفار . ولا  
تعصّ ، وهي المفلولة الانياب . كل ما تشيد من بنيان ، وما تحبك من غائلة ،  
تنسخه نظرة مني الى امير المؤمنين !

فاذاع الرشيد : ولكن الذبابة تدمي مقلة الاسد ، يا أماء !  
فاعلنت بغمر من المرح : بروحي انت ، يا هارون . أبعده عليك الوهم  
ان أمك تكبوها القدم ، ولا تقال لها عثرة ؟ ... ولكن جميع هؤلاء  
المتهاكين في البلاط على دس الدسائس ، لتقويضي في خاطر ابيك ، لا  
يقدرّون على قطع خيط نسيل في اخبث غلالة من ريث مبادلي . واذا بدوا  
لك في أثير ، وبطر ، فان هي الاغفلة الزمن الوشكة التلاشي . طب  
قلبا ، وثقّ بامك ، يا ابني . فما دامت لبابة جلت عنا ، فالضيم أذن في  
الرحيل !

وتناهد في الحيلاء . ستعود الى القبض في هذه الدولة على الناصبة ،  
وتنفض من لب المهدي كل من لقي فيه مساند للاتكاء . قال هارون ، وقد  
ادهشه فيها العجب ، وليس ما يبيحه : ولكن ما هي حيلتك ، يا أمي ، في  
استعادة عطف ابي عبدالله ، وقد رضضناه بمروقنا من فروض الولاة ؟

فكشفت عن ضميرها ببسمة تنوء بالتيه ، معلنة بوارف الرضى : سادفك  
اليه ، يا عين أمك . فادخل عليه وهنته بفوز اخيك في جرجان . واظهر  
انتعاشك بالنبا الانيس . واذا ما سألك عني ، فابلغه اني اكابد السقم .  
وان ليس يشقيني سوى مرآه ، ورأفته بي . واني اردد اسمه في ساعات صحوي

وغشيانى . والتمس منه الرحمة للعليلة الجسم والروح . واملك من سعة  
البيان ما تخلب به النفس ، فتجد اباك مقبلاً اليّ ، وفي صدره العفو ، وفي  
طلعته اللهفة . فلست اراه يقوى على القعود عني ، وانت تصف له ، من عصفات  
الداء بي ، ما ينسخ من ضميره كل إحنة وضمن !

فالتفت اليها الرشيد على ذهول . زادته يقيناً ان في نفسها من نقائات  
الروغان ما لا تملوها فيه ختالة . فابانت ضاحكة من سهوه الحسير : كنت  
اعتقدك امضى ذهناً في مداينة الناس . فمن يسلك طريق الصدق ، يا ولدي ،  
يتعب فيه . وثمة من الوعورة ما ليس لقدم ان تسلم من التوائء والاخاديد .  
وابوك ممن يقدر علينا الزمن مصانعتهم ، وفي يناه حظوظنا ومصائرنا . والا  
ركدت رجينا . واكلنا الحصوم قبل ان نحبو الى نضح . اني لساعية للنهوض  
بك الى اسنى الرتب . غير ان صدعات الدهر تسدّ عليّ المهبع . فكيف  
ادوّخها ان لم استنصر عليها المكايدة ، والمخاترة ؟ ... ان الفطين من لا  
يستصعب المين ، والشين ، في ركوبه الى الصبوة . وعليك ، وانت تبلغ غداً  
من زمنك ، ما يجبس عليك ذروة السلطان ، ان توارب ، وتماذق ، للفوز بما  
ينيلك مودة قومك ، وتأيدهم عهدك . والا اذا اعتمدت فيهم على الصدق ،  
اودت بك الصراحة وظاهرهم عليك . وليس لمن يسوس الناس ، وقد اختلفت  
ميولهم ، وتعددت مذاهبهم ، ان يعتصم ابدأ بالحق !

فوقف منها مشدوهاً ، كأنه لا يفهم . بل هو لم يفهم . أيعرضه الحكم  
للتناق ؟ ... وتجلي للخيزران انه لا يبرح في طبعه فظيراً ، فقالت : ارى  
معاملة الناس تندّ في واقعها عنك . بيد ان الايام سترجي اليك عظاتها .  
فكل ما أريدك عليه الآن ان تشخص الى ابيك . ولكن زبيدة ، امرأتك ،



رفيقتك اليه . وحده بما بثت' وعيك . والعقدة المعقدة لا تلبث ان تنحل ،  
وتنقش العمامة ، ويصفو الجهم !

فهمت زبيدة : اني لعاملة بما توحى اليّ به امرأة عمي . ولا اجد ما يقف  
بهارون عن الامتثال للشهوة . فمن يتشوّف الى النواصي ، فعليه ان يحتمل  
على تذليلها بكل ما يلويها . فلا يمك عن الخنائة ، ولا عن طعنة ، حتى في  
الظهر . فالصدام وجهاً لوجه لا يقود في كل ساعة الى الطلبة . فان للروغان  
احياناً من الحسنات ما لا ينكر اثره ، ولا يدحض جداؤه . والا فاني لك  
ان تقهر موسى في ما تتحفظ له نوازعكما ، يا هارون ، وتضطرب به موداتكما ؟  
فارمد عينه ان يخادع وينافق . اما وولاية العهد لا تلاينه ، الا اذا سعى  
اليها في تعاريج وسرايد ، فلم يتكبح عن الاذعان للمشورة ، على ما  
يعتورها من زيف وزور . قال : ومتى اقف في حضرة ابي ، يا أمي ؟

فاعلنت الخيزران بارتياح واعتباط : اوفد اليوم من يستأذن لك عليه ،  
وكن لديه في الموعد !

— ألا يغلق بابي دوني ؟

فشقّ على الخيزران ان يمور الرشيد بهذا العباء كله . وصاحت به باحتدام :  
هل رأيت اباً يقسو على ابنه حتى لا يطبق مرآه ؟ ... ابن اثمك كي يدينك  
ابو عبدالله بالاحتجاب عنك ؟ ... فالتهمة رست في عنقي وعتق يجيى البرمكي .  
اما انت فبراء . ادخل ولا تخش . سيفتح لك صدرأ سمحاً ، ويضمك اليه  
بذراعين مشتاقتين !

وعلا صوت زبيدة عابثاً بكل احجام : ليس لعمي ان يتعبس لنا ،  
ونحن منه على صلة لحم ودم . أينسى ابو عبدالله ابنه هارون ، وابنة اخيه

زبيدة ؟ ... من يخفق بين حوائيه قلب المهدي ، يجهل الحقد ، ويترفع عن الجفاء . فالاصلاب والارحام ، مهما طغت عليها السخائم ، لا بد ان تسكن الى موامة ، وتوكن الى عطف !

ورأت الخيزران ان تدبر الامر بنفسها . فالانكال على الرشيد قد يذهب بالنهزة . وصفقت تنادي جاريتها عتبه . فاطلّت معشوقة ابي العتاهية النفور تقول ببسمة خضلة : ها انذا ، يا مولاتي !

والخيزران يشوقها في عتبه سلامة الذوق ، ورهافة الذهن ، فضلاً عن الوسامة . فهي على خفة روح وفهم ورونق . قالت السيدة الاثيرة : عليك بالانطلاق الى البلاط ، يا عتبه ، وتقيل الارض بين يدي امير المؤمنين ، والاستئذان عليه لهارون وزبيدة . فالرشيد يأبى الا ان يهني مولانا الخليفة بما ادرك من فوز ، في مغالبة الزنادقة في جرجان . فاسرعي وعودي بنا بجوابه . متى يضرب لها موعداً للانخاء في حضرته ؟

فما خفيت على عتبه المحاولة المبطنة بالاستدراج والاسترحام ، وقالت : اني لو ائب على الفور الى قصر الخليفة ، يا مولاتي ، وساجيتك منه بالبهيج الحفي !

وعتبه يروقها ان يحظى البلاط وصرح اساس بصفايا الامس ، وان تعود خلجات القلوب في القصرين الى وازن خفقاتها . فلا تستشري الضغائن ، ولا تُرضّ ضلوع السيدة الاثيرة ، وقد تراءت الخيزران لعتبه كاسفة البال ، شاحبة اللون ، غارقة في الوحشة . فالسودد الفارط انطوت صفحته ، وقفّ اخضراره . فاضحى صرح اساس قاتم الجبين ، اسجم المهجة . فلا قدم نطاً عتبه للتمس رقد ، ولا يجبو اليه صديق ، كأنه مفزعة ، او وكر أبالسة .

وهو بما لا تستنيم اليه عتبة، وقد احست بمضض العزلة الجافية، الكاسرة الضلع  
وازفتت الى معنى امير المؤمنين طائراً منشور الجناحين . ونادت منارة  
البربري. واليه تستنيم، لايمانها بصدقه ووفائه. فهفا اليها العبد يقول: أنت،  
يا عتبة؟ ... ألا ماذا في صدرك من مكنون يروم التبيان؟

فابتسمت وقالت: لدي ما يسرك، يا منارة، يا وجه الخير. هارون  
وزبيدة يبغيان الاستئذان على امير المؤمنين، لتنهتته بما حاز من نصر في  
جرجان، وقد كسر شوكة المارقين!

فغمز بعينه. ما هذه الحيلة المكشوفة السر؟ ... أتهنته، ام زلفى؟ ...  
ان رائحة الاستعطاف لتهبّ منها حادة كآوية. قال منارة متخابثاً: والسيدة  
الاثيرة، يا عتبة، ألا ترغب في الاستئذان على مولانا الخليفة؟ ... اراها  
ابطأت في استعتاب امير المؤمنين!

فهمست في اذنه مؤنبة: ألا اسكت، اسكت، يا منارة. هل سهوت  
عما قضى به ابو عبدالله على الخيزران، وقد منعها من المجيء اليه بلا دعوة  
منه؟ ... ثم هي تقاسي الاوجاع، فانابت عنها ابنها وزوجته زبيدة. ألا  
متى يأذن لها امير المؤمنين في موعد يتبركان فيه بتقبيل يديه؟

وتحدثت عن مرض الخيزران، دون ان تدري ان مولاتها اعتصمت  
بهذا الزعم في استرقاق كبد الخليفة. ولقي منارة في البيان وجيه العذر،  
فانساب الى ابوان امير المؤمنين يتمم، وقد تقوّس ظهره لقرط الانحاء:  
الرشيد وزبيدة يسألان امير المؤمنين في موعد يقرّه لهما، لاداء فروض  
التبريك بالنصر الميسون!

فارتعش الخليفة. وكاد يستوضح: « وابن الخيزران؟ ». غير انه

تذكر منعه اياها من الاقبال عليه بلا اذن منه ، وعالن البربري : ليكونا  
غداً في حضرتي . هذا الشباب الطريّ تروعني طلعتة ، يا منارة !

وحنّ فجأة الى الخيزران . فما حدثه منارة البربري عن هارون وزبيدة ،  
حتى رفّ في خاطره طيف السيدة الاثيرة . وكان قد تناسى وافلح . الا  
ان التناسي لم ينقذه من يقظة التذكار . واحس بما يدفعه الى الخيزران مع  
كل سعي منه لكبح جماح النزوة . فنهض عن سدته للترويح ، وقهر  
الخاطر المهتاج . الا انه تضاعف في العزيمة . وبلغ ، على كره منه ، مجلساً يحفل  
برهط من رجاله يتبارون في الرمي . فقبض على قوس سدده نبلتها الى الهدف .  
فاصاب . وهتف له جميع من حوله . وكأنه استعاد بهذا النجح بعض مرجه ،  
فاستطاع ان يذلّ من اندلاع فورته ، وان يضي في التناسي ، ولكن على  
رجرجة ووهن

وأحسّ بفراغ حوله ، وقد نزحت عنه لباية . بل احس بعناء يحتاج فيه  
الى من يسنده ، ويقيه الزلل . فما كانت تنفخ في سمعه امرأة الهادي ،  
وتغذي به روحه من جفاء وكره ، اشرف على النقاد . فان لم يدركه من  
يجيد ، كلباية ، نفت الحزازات ، وهي ذرعه ، وألقى امره الى الخيزران ،  
مع كل ما يضر لها من نفرة . فما زال يشعر بان وقعها عليه لا يغالب ،  
وبانه مسوق اليها على رغمه ، ما دام لا يجد بقربه من يججزه عنها . غير  
انه ظل يكافح منازعه . فلن يصفح عن سعت لاشعال دولته بالفتن ، كي  
تهوي به عن سدته ، وما تورعت عن تنظيم المكاييد لاغتيال ابنها الهادي ،  
والخلاص به مما يعترض طماحها من عقبة عنود

ورقد ليلته يتقلب على قتاد . وهاله ان يكون عدوه في جنبه ، وان

يعيا عن طمسه. وأقرّ بغلبة الحب. فهو رب الامر في هذه الدولة ، الممتدة  
الجنبات حتى لا يكاد يغرب عنها ضوء النهار. الا انه ازاء الحب كليل عاثر،  
لا يرجح احقر عبد من عبيده. وهذه العادة القاهرة ، المتوسدة اعلى مرتبة  
في المطئن العربي ، سيطرت على جوارحه ، فامسى جياها مانعاً رخوآ ،  
كأنها ربة الشأن ، لا هو . فما هو الا الكافي الموثق . ورصد بجي هارون .  
ان هارون ليطلمه على سريرة الخيزران ، وله من صفاء الطوية ما يهيب به  
الى الاعلان

ورقف ، في الصباح الباكر ، في شرفة قصره ، يرقب ان يطل هارون  
وزبيدة ليستطلعهما حال السيدة الاثيرة . وما عالنه الحاجب ان الزوجين  
بالباب ، يلتسان الوقوف في حضرة امير المؤمنين، حتى اصلح من هندامه،  
وجاهد في قبر ارتبأكه . وربع بسدته مهيباً جليلاً . ودرج اليه الرشيد  
وزبيدة يلتويان ملياً بين يديه، ويحفان الى العرش للتبرك بيمين ابي عبدالله.  
فلم يمنع عنها راحته ، بل بسطها لها وهو يتسم ، ويضمهما الى صدره ،  
ويقبلهما بشوق. قال يعاتب بجلي التأثر: طال هذا النزوح عني . فما افعدك  
عن ارتياد القصر ، وانما لا تجهلان مقامكما مني ؟

ودعاها الى الجلوس عن جانبه. هارون عن يمينه، وزبيدة عن يساره.  
وصاح بحاجبه ان امنع عني كل مستأذن عليّ. وحبس مجلسه على ابنه وابنة  
اخيه . قال هارون : ما كنا لتفتّر في التماس رضی امير المؤمنين . الا ان  
مولانا الخليفة من اشغاله ما لا يطيق الاحراج . فصبرنا ريثما صفا الببال ،  
ولاح النصر ، واقبلنا نعلن التهاني ، وندعو بدوام العز والسعد !

وقالت زبيدة : امير المؤمنين مائل ابدآ في الافئدة والنهي . غير اننا

ابينا ان نصدف به عما هيا له نفسه من تأديب الزنادقة الكفار . اما وقد  
ألقى عنه هذا العبء ، بما ابتهجت به الارواح ، فرأينا ان نفو الى مشاطرته  
المسرة ، والى الجهر بمسيرنا ابدأ في طاعته . وما نحن منه سوى افلاذ كبده  
الدارجين في الارض !

فاطال اليها النظر ببسمة مخضوضرة ، بمراع ، وقال : ان عيني لتقر  
بمرا كما واننا لباب نفسي . فمرحى لكما تبدلان لي من مودتكما ينبع  
الولاء . ولكني لست ابصر بينكما الخيزران . فابن هي أمك ، يا هارون ،  
تقاسمكما اداء الاستبشار ؟

ونطق بحافز من صميمه المشتعل بسورة الهيام . فلم يحتمل التفاضي عن  
الاستيضاح ، ومرأى هارون احيا في صدره حينه الدفين . ولم يتلعم الرشيد  
في الجواب ، فقال : أمي تشكو غائلة الداء ، يا امير المؤمنين . ولولا ما  
يلم بها من اذية ، لاستعجلت الوثوب الى رحاب الخليفة ، تؤدي مفروض  
المخالصة . فان امير المؤمنين ليرسخ منا جميعاً في اكرم موئل . وليس  
لنا سواء من راحم مجير !

فهتف ملهوفاً : أتكابد الخيزران الالم ؟

فاوضحت زبيدة تنصر الرشيد في الابانة : هي منذ اسبوع على غليان  
جبين ، يا عماء . فالحمتى لا تغرب عنها ، وقد امعنت في احراقها ونهكها .  
واحست من نفسها بانكسار العزيمة ، فاوفدتنا الى امير المؤمنين نهنى  
بالفوز الفضفاض ، ونعتذر عن اقعدها الداء عن القيام بالتبريك ، واعلان  
لزام الطاعة !

فصاح مبهوتاً : وكيف سهوتما عن ابلاغي ما تعاني ؟ ... ايضيركا

اطلاعي على النبأ الوجيع ؟

فقال الرشيد يتناهى في الرقة : لم نشأ ان نزيد في الاحراج ، يا امير المؤمنين ، وقد خيل الينا انها وعكة عارضة . بيد ان الواقع نسخ الظن !

- وهل تتألم الحيزران بما يأتي عليها الحراك ، يا هارون ؟

فافاضت زبيدة بفاجع المقال : انها لمقعدة ، يا امير المؤمنين . تثق ولا تهاك . ويدعمها احبائنا القوي . فاذا رأى عمي ان يجود عليها برحمته ، فيعودها وييسط عليها نداءه ، فانه ليسبع عليها العافية . ان لجفاء امير المؤمنين اياها الاثر البليغ في عنائها . فما الخليفة سوى غيث الله . إن امطر انعش . وإن امسك اتلف . فالرأفة ، يا عماء !

وكانها جرته ، على رغمه ، الى السيدة الاثيرة . فصاح بهلع : أأكون الجاني على امرأة عمك ، يا زبيدة ؟ ... لا والله ، يا ابنة اخي . لست بمن يجور على الحيزران . اني لوائب اليها الساعة اعودها . وحق من براني من عدم ، ما كنت لاصدف عنها لولا ارتيابي بمودتها ، ونجتها لابنها البكر . فليس اخوك موسى بالنكرة ، ولا الرذل ، كي تسعى أمك للاعتداء على ايامه ، يا هارون . اراها جاوزت في الخطوة الكايبة حد الامومة السحرة . أفلا يكون موسى نطفة امتصت دما ، وتعدت بلحمها ؟ ... وعلى م تشتهي هدمه ، ولم اقف عليه ولاية العهد دونك ، وقد جعلتك صنواً له فيها ؟ ... فانت من بعده صاحب الحق الصادع . وتراوى لي في المنام ، يا هارون ...

وسكت يتحامي الاعلان . وانتابه خادش الاكثاب ، فhez رأسه ولواه ، كمن تراكمت عليه الشجون . فهاج الفضول زبيدة ، واستفهمت بهتفة

بمخضّبها صارخ الاخلاص : ماذا تراهى لك ، يا عمي ؟

فاجاب بمرارة ، وقد عاد يهز رأسه كمن تساوره الفجيعة : ما لي وللجلاء ،  
يا زبيدة . ان النبأ لناخع يجزتنا جبيعاً . دعيني من الانغماس في الكوارث ،  
يا ابنة اخي . ولننطلق الى الخيزران . فما عراني من حلم لا تبتهج به روح  
من ارواحنا ، وهو يصيبنا في دعامة منبوعة من دعائم بيتنا !

فتولى الشده هارون وزبيدة . ما يعني امير المؤمنين ؟ ... على ان  
المهدي ، وقد اتقى البيان ، زاد في شرهما الى الاستجلاء . والتفت بعضها  
الى بعض في طريقهما الى صرح اساس يستبحثان . من يكون المهدي  
بالمكروه ؟ ... والايان بالاحلام زيّ شائع ، يملأ دنيا العرب ويعدوها الى  
الاطراف . فما يلوح في المنام اشبه بالامر المقدور ، لا ندحة عن وقوعه .  
وشاق الرشيد وزبيدة ان يتبيننا الكارثة المنذرة . فلم يهد لها لهما ابو عبدالله ،  
وهو يتقدمها على متن جواده الى صرح اساس ، مخترقاً مناهج بغداد الى  
السيدة الاثيرة

ونبأ النفار ، المستعكم بينه وبين الخيزران ، على المدى اشهر رحاب ،  
ثقب كل مسمع . وجنح بالناس الى القول : « قضي على الخيزران ! » .  
غير ان بعضهم ، وهم ممن يتفاءلون خيراً ، حتى بالرزايا ، لم يؤمنوا بان الحُصام  
يبلغ اشده بين الصرحين المنيفين ، وللخيزران من القدرة على الاستهواء ما  
تنهار ازامه الجوائل العُند . وللمهدي من الشغف بالسيدة الفضلى ما لا  
يرتضي القطيعة على الامد . واصاب المتفائلون . وابتسموا لصدقهم في  
التخمين ، وقد لاح لهم الخليفة يطوي السبل الى مبيت أم موسى . وقالوا :  
عادت الامور الى مراتعها في الوكرين . فابن لبابة وحسنة تعيثان عيبتها



الفسيد ؟

وعتبه ابصرت من بعيد موكب امير المؤمنين زاحفاً الى الصرح .  
فانفتلت الى الخيزران صائحة برهبة : مولاتي ، مولاتي !  
وتأملتها في وهلتها الخيزران ، فاستوضحت بخوف : ماذا يا عتبه ،  
هل من بلية ؟

فاعلنت الجارية بارتياح تنبسط في اعماقه فرحة الاستبشار : اقبل الينا  
امير المؤمنين !

فاستدارت عينا الخيزران هلعاً ، وهزتها المباغنة . ما جاء اليها عفواً  
امير المؤمنين . فلا بد من عذر فزع اليه في ارتياح صرحها . وما العذر الا  
الرغبة في عيادة الزوجة العليله . والخيزران ، زاد الله في همها ، على عافية  
راجحة . واقلقها ان ينخدع المهدي بما اختلقت من حيلة ، فهتفت بجارتها  
بمديد ما أوتيت من فطانة : عتبه ، اصلحي سريري . علي ان اضطجع ، كي  
يؤمن ابو عبدالله بما تمقت له من فتكة داه تديبني !

وهفت الى سريرها ترقد فيه ، وتخفي بالغطاء وجهها ، وتزع منه المساحيق .  
وعمدت الى الزعفران تصبغ به قسامتها ، وتخلع عليها الاصفرار . واطلقت  
الأنثى البواكي . فهي تغور في لجة الالم . ودخل عليها ابو عبدالله ، فوخز  
قلبه منظرها الرث . انها لفي زفير وضى . وانحنى عليها يقول وهو يتضائل  
اشفاقاً ، كأن لم يبق فيه من الخليفة غير كبد مقروحة : ما بك ، يا خيزران ؟  
فالتفت اليه بعينين مسترحمتين ، دون ان يرشح مقولها بنامة ، كأنها  
عاجزة عن النطق . قال المهدي بمهادي اللهفة : ألم يرحم فيك الداه حتى  
سلامة اللسان ؟

فتنهدت. وهمّ دمعها بالانحدار حسرة على نفسها . فقال ابو عبدالله يحثها  
على البيان : ولكن تكلمي . اريد أن أصغي الى حديثك !  
فغالبت نفسها على النطق، وجادت بغمغمة ترشح بالاسى: الصدود يقتل،  
يا امير المؤمنين !

فخلبت له باسيف بيانها . وأحس بان في قلبه دموعاً تترقق . وجاهد  
في الامساك بماء عينيه عن المتون ، فقال وفي حنجرتة غصة عضوض : والله ،  
لست ابغي ان يعدو عليك الضيم ، يا خيزران . ولكنك خرجت عن موئل  
نعمتي . فما كنت اريدك على نسج الاحابيل قدمين بها مهجتي ، وكدت  
تذهبين بابنك البكر . فهل يطيب لك العيش وانت تودين في وبؤسى ؟ ...  
محا حقدك هداك . فرفقاً ، وما نحن ممن يريدون لك الاذى . هلا تربثت  
في كره احب الناس اليك ؟

فجمجت ، وبودها لو تجلجل ، فيملأ صوتها صرحها: لا يزال امير المؤمنين  
يسدد اليّ ظنة انا منها سليمة الضمير . فكيف اجرؤ على النيل من سيدي  
وموئل عزي ؟ ... ولكنهم الوشاة زخرفوا لابي عبدالله ما يجلو لهم به  
اقصاؤه عني . ان السماء لتشهد اننا ما حاولنا نكرآ ، ولا انطوينا على غلّ .  
الا انهم الحساد ، وما هيلتنا فيهم ، يا سيدي واميري ؟

وعادت تكنوي بدمعها . فكاد المهدي يفنى شعوراً . قال يستجير بها  
منها : ألا ازيلي عنك هذه السواجم . فان مرآها ليخمش جوارحي . اني  
لمحتاج الى الاستمناع بنضرة احاديثك، لا الى الوقوف حيال فيض شوونك .  
اذا كنت ظالمة ، فعفا عنك الله . وان تكوني مظلومة ، فعفوك عني . هل  
يرضيك التناهي وبحو الماضي ، كأن لم ينتشر لكل ما وقع سحاب ؟

فأهبطها العرض، ولم تكن لترجو الفوز به. غير أنها كتمت ما انتفضت به حوائرها من طرب. وقالت وهي تشكو إبدأ وطأة الداء الكابسة : ليس لي الا ان اشكر لامير المؤمنين حنوّه عليّ في سعدي وبؤسي . فان الشكر لمفروض علينا لرب الدولة، سواء في النعمة او النقمة. غير ان النعمة تذهب بالارواح ، يا ابا عبدالله !

وشهقت شهقة كان لها في نفس المهدي ابلغ وقع . فأنحى الخليفة على هذه الغارقة في سرير الداء يقول بسلامة طويته ، ساحلاً منه كل حرد عليها ، كأنها لم تنله بمساءة : بروحي انت ، يا خيزران . لكأني احس ، وانا اراك تنوئين بعلمتتك ، بالداء ينزل بي . عوفيت ، يا هناء ايامي . اذا غضب عليك محمد المهدي ، فلقد اوجعه انقطاعه عنك بمقدار ما احزنك الصدود . الا اني لن اقتح اذني لشافئ حاسد ، ولا لواش كنود . فاحيزران هبة الجنة لابي عبدالله . وليس ابو عبدالله بمن يزدري عطايا السماء !

وعانقها وقال : هوّني عليك . ستعيشين كما كنت ، موفورة الكرامة ، راضية النفس . فالبلاط لن يضيء الا وقد اشرق فيه سناك . فمتى تبتلين من سقمك ؟ ... أوفد اليك طبيبي ؟

ولم تكن بحاجة الى طبيب ، وهي السليمة من النهكة . فالطبيب يفضح خديعتها . وعلا صوتها يذيع بدهاء خمير : حسبي ان انعم بعبادة امير المؤمنين كي اشفى . فان رؤيته بلسم للجراح ، وبعث للاكباد النخرة . لا ارى الداء يلزمني والخليفة يجود عليّ برضاه !

فابتسم وقد اطربته فيها روعة البيان . وقال بمستطيل المسرة : زيديني من هذه الشوادي !

وانتفت من خاطره حسنة ، الجارية المرموقة . فلم يبق لها بين اضالعه  
متكأ ، واخيزران تحتل سويداءه . غفر لها كل سعي مشؤوم ، وكل مأرب  
خبيث . واستوخى حياها لا يميل الى ارتحال . فقالت السيدة الاثيرة ،  
والبيقين بالسيطرة على حجا امير المؤمنين ازال عنها شوائب الكمدة : لم  
يكن للعوادي منفذ البنا ، ونحن نعتصم بكنف ابي عبدالله ، بمعزل عن  
النمامين . اما وقد درج هؤلاء في فناء الخليفة ، فامسبنا من لا ترعى لهم  
حرمة . ما عرفت الغضاضة معرفتي لها في هذه الايام ، يا امير المؤمنين . غير  
اني كنت واثقة بان الغشاوة ستنجلي عن العين المخدوعة بالسراب . فتتقد  
الحقيقة لسيد هذا المظلمن بسرناها النصيع . والحمد لله ان يكون الامر جرى  
كما شاء الانصاف ان يكون !

واستوات على الخليفة حتى بانث لا تخلو منها فيه نزفة . فالسيدة الاثيرة  
عادت تستقر ببال المهدي سيدة اثيرة . قال وسخائه تتلاشى فيه : لا ترجعي  
بي الى الاويقات الدم ، يا خيزران . فلقد نسختها من نفسي . هاتي ما يجب  
الي يومي ، ويجفزني الى الاستثناس بغدي !

فالتفت الى هارون وزبيدة تقول ببسمة وارفة : لست ارى اشهى  
من هاتين الريحاتين يتعطر بشميمهما امير المؤمنين . فالفتوة الجبهة ، اللدنة ،  
تجري في معارفهما ، وتترنح بها اعطافهما . ولن يزيد في رونقهما وقدرهما  
سوى عوارف ابي عبدالله الفيح !

وطاب لها النفاذ الى رضاه . فتميل به عليهما وتبلغ منه هارون ما  
بلغت لبابة لموسى . فتألفت طلعه بالبشر ، وهو يجيل ناظره في الفتوة  
القشبية ، تجر اذيال النضارة والوسامة . وما تمالك ان قال : اني لاجد في

هاتين الحليتين اكرم دور تاجي . فرعياً للصباحة المثلى تنبخر في ابي البرود .  
ألا استمتعا بغلواء العمر ، اهما الصفتان . انما في موسم الصباية اللاعبة .  
فاغتنماه وقلبياً لذائذه الهوامي !

وردد ما سبق له اعلانه ، كأنه لا يجد هارون وزبيدة من دأب غير  
الاستمتاع باللهو والهيام . فقالت الخيزران تبغي ما هو ابعد شأواً : ولكن  
الرشيد بات يقوى على انتضاء السيف وخوض المعارك . فما يقف به عن  
الانطلاق الى مغالبة المارقين ؟

فادرك مقصدها . ما تروم الا ان تقيم من الرشيد ندأً للهادي . قال :  
ولكنني لن انجل به على المعالي بتزودها . فما ان تحين السوانح حتى اطيروا به  
الى استدرارها . فتنبأ لركوب الوعر ، والوثوب منه الى المجد ، يا هارون !  
فقالت بلجاجتها الماثورة : ولماذا نرقب السوانح ، يا امير المؤمنين ،  
وفي الدولة مجال الى الاستعلاء والبلاء ؟

فنظر اليها بقطوب . فهي ما تزال اياها في فرض مشيئتها ، كأنها لا  
تعتبر بما ألقى عليها من عظات زواجر . واستوضح ببعض جفاف : وابن  
هو المجال ، يا خيزران ؟

فكادت تعلن : « في جرجان ، يا ابا عبدالله ! » . الا انها خافت ان  
تسيء الى روحه بهذه الاستطالة على رغبته ، وقالت : لست اميل الى رؤية  
الشر يستدئب في هذه الدولة الايَّدة ، يا امير المؤمنين . ولكن اذا تحركت  
بواده فلا تنس هارون ، وهو يكفيك الاعباء . فان في جوانحه من الجرأة  
والحنكة ما يرفعه الى مصاف ابيه الامثل واجداده المساعير !

فخجل هارون ، وتورد خداه ، كأنه العذراء . وادناه منه المهدي يقبله

ويقول : لا عجب أن يتوفل همته في مصاعد الحزم والاقدام ، يا خيزران ،  
وهو من تربة لم تثبت غير الصيد المقاديم . له اسوة بجده المنصور ، وبعمي  
ابي العباس ، وعمي ابراهيم !

فهتفت تمنعني في اسره : وبك ، يا امير المؤمنين !  
فتايل زهواً ، ولقي في الخيزران من تستنم اليها افانين الارضاء . فلا  
تخطى . الملائفة ، ولا تفوتها الفرصة لامتلاك المهج . قال وهو يجيل عينيه  
فيها وفي هارون : لن اتواني في اعداده لليوم الازهر ، يا خيزران . فطبيبي  
قلباً . صدقت في ما تبغين له من التمرس بالصعاب . فعلى من يقبض على  
الناصية ان يكون من السادة والقادة ، المشهود لهم بالنفوق في كل مضار .  
وما ان تلمع شرارة تنذر باكفرار الجو ، حتى ادعو الرشيد الى جلاء  
الخطب . فكن على أهبة ، يا رجاوة ابيك !  
فانتشر الطرب في محبا السيدة الاثيرة . وقال هارون : ما انا غير نبلة  
في قوس امير المؤمنين ، له ان يطلقني الى حيث تسددني يمينه !

وقالت زبيدة : كلنا فداك ، يا عماء !  
فسره هذا الامتثال لرغائبه . ومال على الخيزران يقول : اريد لك  
الشفاء العاجل ، يا مفرجة الكروب . لدي الساعة من الشؤون ما يناديني  
الى انجازها . غير اني ساعود !

فمشى هارون وزبيدة في تشييعه حتى امتطى جواده وتوارى . وهتفت  
الخيزران على بهجة متبادية ، فيما يخلو لها الجو ، وقد نضت عنها الغطاء ،  
ووثبت الى هارون وزبيدة تعانقهما : خلعتنا علي الحياة بما اعددتنا لي من  
مصاحبة امير المؤمنين . فكل ضم تلاشي عني ، وكل محنة تداعت . فان لنا ،

في صفحة الغد، من زخارف النعمى، ما يكتب لجميعنا الهناء الرخي. ستملك في هذه الدولة الامر، يا هارون. فلست الحيزران ان لم أوطىء لك مهاد العز! واطربهم نجاح الحيلة. قالت زبيدة: ان الحظ ليساعدنا على اعدائنا. فما دامت اخي لبابة تزحت عن بغداد، فلن تصدمننا عقبة. وليست الجارية حسنة بمن يقوى على تكدير الافق، وقد امست عزلاء، لا تستطيع ان تشهر علينا سلاحاً!

فضحكت الحيزران من حسنة. فمن تكون كي تنصب العراقيل?... انها لقطرة ماء في مرشف النار. قالت السيدة الاثيرة: ما بالننا نلتفت الى الخنافس?... اعداؤنا موسى ولبابة والفضل. وتقبل حسنة في آخر الشوط. ومن الغبن ان نقيم وزناً للمهازيل بعدما نأى عنا العتاة. رحيل لبابة بدد الاسى. غير انها لن تهنا في جرجان، وساقواض كل رعد وامل تموج في غلائلها. ما ولاية العهد لسوى هارون!

وارتجت ان يطل على الدولة العباسية يوم كالح المهجة، مستطير الشر، فيهب هارون للذود وكبح جماح الرزية. ولن يكون الهادي خيراً من ابنها المصطفى. وستستدعي يحيى بن برمك لبعض الرشيد في الكفاح، ولن يجيبها المهدي بعدما ألقى اليها امره. فلا غنية لصرح اساس عن حكمة البرمكي المنفي الى ازربيجان، مسلوخاً من عطف امير المؤمنين

واليوم المرجو اشرفت شمس. فالقائد « ميشال » البيزنطي استباح في الشمال حدود الدول العربية. فحقت المهدي على العليج الوقح، ونادى في قومه: الى الجهاد، يا من تظلمهم الرايات السود. ان سيوفكم المصقولة لتأبى ان تشوي بالاغمد، والعدو يرتع في لحمكم، وينهش كرامتكم!

وهرعت اليه الخيزران للتذكير : مولاي ، لا تغفل عن هارون !  
فصاح ، وقد راقته المهزة السخية : لعينيك ، يا خيزران . سيكون على  
رأس مئة الف مقاتل !

فعدت الى الاسترحام ، وهي موقنة ان كلماتها في المهدي اشبه بالامر  
القاطع : مولاي ، زوده صفوة الابطال !

فعلن : ولكنهم باجمعهم في خدمته ، يا خيزران . فما عليه الا ان يختار !  
فابتدت بجرأة لا تهيب امدأ يقف بها عن غلواتها : لست اجد افضل من  
يحيى البرمكي ، يا امير المؤمنين . فأنجده يحيى !  
فروى ما بين عينيه ، وصاح بغيظ : عدوت الحد ، يا خيزران . أندعو  
الينا من هووا عن مكائهم منا ؟

فدنت منه على مذلة هفى تقول : اصفح عن المخلص للسدة العليا ،  
يا ابا عبدالله . فالمرجفون افتروا . فهل يسيطر على نية المهدي المرجفون ؟ ...  
ما كان يحيى الا النصيح الحفيظ ، المؤاسي في النازلة ، والمغتبط في الرفاه .  
يوجع قلبه ان تلم بنا الدواهي ، وبجاهد ببعيد ادراكه ، وماضي وسعه ،  
في انقاذ مجدنا من طواحن العتاة !

فبددت فيه كل نقمة على البرمكي ، حتى بات يراه منكوباً بما آل اليه  
من تشريد واغضاء . على انه ظل يتأسك ، فقال : دعيه الى سائمة اخرى ،  
ابتها الآمرة الناهية في المهدي المدعان !

قالت بصوت يرشح بالاستعطاف اللتاع : لست اجد سواه حرزاً يقي  
الرشيد الاخفاق . فانصره به ، وادفع عنا الحبية . ليكون ناراً مندلعة على  
اعدائك ، فيصوتهم ، ونغم به خادماً اميناً في خدمة هذه الدولة ، وعليها



وقفنا الارواح !

فتمت وهو يتسم : انك لذات صولة في الاقناع ، يا خيزران . جاريناك  
في طلبتك وأعدنا اليك البرمكي ، على ان يتحامي الزوجان !

فهنفت بفسيح الطرب : تبعته في عنقي ، يا امير المؤمنين . أما بدا  
لك في ازربيجان ذلك الوفي ، المعتم بالامانة للخليفة ، ايده الله ؟  
وانحنت على يده تقبلها دليلاً على بليغ الشكر . فالتفت المهدي الى وزيره  
يعقوب بن داود يقول : ليرجع الينا يحيى البرمكي ، يا يعقوب . فلا محيد  
عن الانتفاع بثاقب رأيه ، ويانع علمه !

ويعقوب بن داود تولى الوزارة ، لدى المهدي ، بعد انقطاع ابي عبدالله  
معاوية بن عبدالله الاشعري عنها ، لوحشة اصابته في ابنه ، وقد اطاحه المهدي  
بتهمة الزندقة . قال يعقوب مدهوشاً من استعادة الخيزران سلطانها المترامي  
على الخليفة : سعباً وطاعة ، يا امير المؤمنين !

وما هي غير ايام سراع حتى كان يحيى بن برمك يقبل الارض في حضرة  
ابي عبدالله . فقال المهدي بجلال الصفوح : وهبناك للخيزران ، يا يحيى .  
فعدت لديها الى ما كنت فيه من اخلاص في النصيحة ، وغيره في الخدمة .  
والزم هارون . عقدت له راية القيادة في مقاتلة اجلاف الروم !

جفل الاروام حيال وثبة الرشيد عليهم بجيشه الضخم . واخلوا آسيا الصغرى ينزورون في قاعدتهم « بيزنطة » . وتأثرهم هارون يضرب في اقفيتهم السيف . فبلغ بقواته ضفاف « البوسفور » بشرف منها على عاصمة الروم ، ويحمم متوعداً . ابقى وراءه ، من اعدائه ، ألوف القتلى يفسدون الهواء بنتن هياكلهم المتناثرة ، وألوف الجرعى يملأون الجو انيناً واستغاثة . ونصب على شواطئ الممر ، الفاصل بين الشرق والغرب ، العلم العباسي الاسود يتبه دلالاً على الاعلاج المختبئين ، في مطاوي الاجحار ، فرقاً وخذلاناً وسقطت الانباء الى المهدي فاستنشق عرف الغبطة . جناحاه يبسطان ظلها المديد على الدولة المترامية الجنبات ، ويصونانها من القواصم الراضخة . فليس لموتور ان يفلح في خطوة غادرة . الهادي في جرجان ، والرشيد في آسيا الصغرى ، يحطمان كل عدا ، ويكتبان لابيها الصفحة المجلوة في سقر المجد . وتمايل المهدي جذلاً . من يجرؤ على الالتفات ، بعين شزراء ، الى الحمى المصون ، والاسد البقظان ؟

وهفت الخيزران الى قصر السلام تصيح بابي عبدالله بمندلع المسرة :  
 أرأيت الفتى النجد في ترويع اعدائك ، وتوطيد اركان دولتك ، يا امير المؤمنين ؟ ... تطايرت رؤوسهم تحت نصلة سيفه ، كأنه يضرب في هشيم . فأسرف في تبديدهم حتى لم يبق منهم غير هامات مبتورة ، واشلاء منشورة ، غابت فيها الساق في الذراع والامعاء ، كأن الانذال غاروا في لجج في الدم !  
 فاعلن المهدي بفضفاض الارتياح : لنا البشرية ، يا خيزران !

وضحك للسيدة الاثيرة بل، حنجرته وفيه . فهتفت، وقد كادت تضيق  
بها دنياها لمتادي فرحتها : وهل بقي لك ما تعيب على هارون، وهو يتسلق  
بجده واقدامه ذروة البطولة ؟ ... كنت تجد فيه خشي ، وتعتبره القعود  
عن المعالي، فماذا تلمس اليوم في ضلاعته ؟ ... أتظل تتهمة بالحمول، وتباهر  
بانه لا يصلح لسوى الحدور ؟

ففقده ضاحكاً حيال سموخها وبطرها ، وقال : بدأت اعرف فيه نجابة  
من نشأ في مهدنا، وربي في حضننا . فهو من اصلا ب قوم بنوا للمجد الدعائم  
الرواسي ، وانقذوا الانفة من الكبو والاسفاف !

قالت وما زالت العنجهية تتوالب فيها : ومن تعدل به وقد عجمت  
عوده ، وبان لك شأوه ؟ ... ألا تتوسم فيه فرخاً من افراخ البزاة، يرفع  
من شمم العباسيين الى حيث يجزى كل سمو ؟ ... لست دروب الروم  
الوعرة ، كسبل جرجان المعبدة . وليس الروم الصلاب الشكائم ، كالفرس  
المقيمين على ديننا ، واعماق مهجم تحتلج بطاعتنا . فالروم يميلون الى نسفنا،  
كأننا لم نكن ، وهم اعداؤنا في المذهب وفي الدم . على حين ان الفرس ،  
وقد صاهرناهم ، وصاهرونا ، وانطوا مثلنا على شرعة الرسول ، لا ينهدون  
الى محونا، بل الى مشاطرتنا السوداء . فاذا ما ظهرنا فيهم مؤذنين، مدوخين،  
ذكروا انهم منا في القوادم ، وان الخضوع للكتاب يجمعنا معاً في سبط  
واحد . فيزول عنهم العصيان، وتلتوي المغالبة . ونسي جميعاً اخواناً، إن  
لم يشدهم العرق ، شدهم الاستمسك بعروة النبي الامين !

فلم يغضب المهدي للمفاضلة ، بل قال وهو يبتسم للسيدة الاثيرة مباسطاً  
اياها : ألا نترحزح قيد أمثلة عن طماحنا، يا خيزران ؟ ... والله، ما عرفت

في النساء من تبلغ في التثبث بالرأي بعض ما انت فيه . كاد هذا الجماع  
يكلفك الغالي . فما يدعوك الى الرسوخ في مخاطره ؟

فاوضحت بشدة : مائة جماع ، بل مصلحة ، يا امير المؤمنين . فمن  
الخير للعباسيين ، ولا سباً للمهدي ، ان يتولى هارون بعدك الامر . فيستقر  
بالمنصب من هو خليق به ، وتجري سياسة الدولة على مستوى قويم من  
الحنكة والسداد . اما اذا انتهت الخلافة الى الهادي ، فمن لك يقف بالغواية  
عن مستفحل رعوتها ، وبالفوضى عن مستشري نكدها ؟ ... خو في على  
الدولة ، من العثار ، يحفزني الى الاعتصام بعنادي ، يا ابا عبدالله !

فهز رأسه وزفر . ليس له ان يدحض جهالة الهادي ، وفي موسى من  
الفورة ما لا يسكن الى هدى . على ان هذا الجهول من البسالة والحمية ما  
ينسخ فيه المنقصة . فاعدته قسوته لكبح جماح الشر ، واريحيته لامتلاك  
الناصية . وربما كان الرشيد ارحب صدراً ، واسلس قياداً . على ان الاعتزاز  
والتحكم ليسا في الولاة عيباً فاضحاً . وارجع المهدي ان تلج عليه الخيزران  
في فسح ما ابرم . فلماذا هذا السعي الاخرق لمحو المكتوب ؟ ... ولجأ  
الحليفة ، البرية الدخلة ، الى التؤدة في مخاطبة السيدة الاثيرة ، وليس يميل الى  
مقاطعتها كشأنه في ما تصرّم من عهد . قال وكل ما فيه يرشح بالجد والرزانة :  
هل لي ان ادري ما يحملك على هذا المقت تكتينه للهادي ، وهو ابنك ،  
يا خيزران ؟ ... كنت اجد ، في منافرتك اياه ، باعث غيرة ، لو انه ابن سواك  
من نسائي . اما وانت ولدته ، فلماذا تنظون له على الكره العصف ؟ ...  
فلا تنطبق لك اهداب الا وقد سللته من خاطري ، وانزلته من مرتبة  
سامقة لا اراه افتأت بها !

فعلت فيها احقادها ، وهتفت بغيظ : ولكنه دون ما تتوسم فيه من  
المخايل ، يا امير المؤمنين !

فاعلمن يحفظ غيبة الهادي : لا يلوح لي منه ذلك السقط ، كما يلذ لك  
ان تصوّره . فان يكن يجيبك بالعصيان ، وامرأته تنفت في ما حولها  
الزراية بك ، فليس عصيانه ، واستصغار لبابة لشأنك ، بما يقوّض فيه كل  
فضيلة ، ويجيز حرمانه ما هو حقّ به من مرتبة . فدعيه لما اقمته فيه ، وما  
هو بمن يخشى ظله . لا ، يا خيزران ، صدّقيني ، عهد موسى غير طويل !

وتصاعدت من حنجرتة أنفاسٌ حرار . وأنّ يجهد ولذعة . فحدقت  
اليه الخيزران مدهوشة ، ولم تدرك سر حرقتة ، ولم يتكشف لها ما يفيض  
به من لغز . كيف لا يكون عهد موسى الهادي طويلاً ؟ ... هل حدد  
ايامه ابوه في سرير الخلافة ؟ ... ورقبت بياناً ، وقد فاتتها الجرأة على  
الاستطلاع . فقال المهدي يؤدي كلماته متأنياً ، ملتاعاً : ابصرت في منامي ،  
يا خيزران ، ما لا تبرح تكتوي به كبدي . وهو بما لا احسبك تطربين  
له ، مع متفاهم غضبتك على الهادي . فترامى لي كأنني دفعت الى موسى  
قضيياً ، والى هارون قضيياً . فأورق من قضيب موسى اعلاه ، واورق  
قضيب هارون حتى لم يبق فيه ملمس الا صاح فيه الاخضرار . وهي رؤيا  
كدت اقصها على الرشيد وزبيدة ، يوم اقبلا يهتناني بانتصار موسى في جرجان ،  
ويطلعاني على ما ألمّ بك . الا اني تمالكته ، ولم اسأ ايلاهما بالمرّوع الدامي .  
أدرين على مَ تدل الرؤيا الجافية ، حفظك الله ؟

فوقفت ازاءه مدهوشة ترصد ما لديه من تأويل للحلم . قال بمضض  
قاصم : ان تكن غابت عنك حقيقة الرؤيا ، ألا فاعلمي انها تشير الى ضوولة

عهد موسى في الحكم . فما ان يربع بدست الخلافة ، حتى ينهار . فتنبض  
روحه وهو في عنفوان السن . ويقبل بعده هارون فتطول ايامه ، وتزهر  
سنواته . وما دام الزمن خادماً ، فما يلجّ بك في حرمان موسى -  
واحسرتي على موسى ! - مرتبة هو فيها لشهور عجاف ؟ ... فما ان يستمتع  
بالعز حتى تهوي به القدم في حفرة المنون !

فلم تؤمن بصدق الاحلام . وليست تريد ان تستند في طماحها الى الواهي ،  
المشكوك فيه . ومع يقينها ان للرؤى اثرها في النفوس ، وان القوم  
يلمسون فيها الواقع ، ويجرون في تقديرها على اقتناع بنفاذها ، سخرت  
بمعتقد الناس . واصرت على ان تبصر بعينيها ، الاثنتين ، ابنها موسى مخلوعاً من  
ولاية العهد ، والرشيد راسياً فيها . قالت والهزم ينمطسى في كلامها : زاد  
الله في ايام امير المؤمنين ، ما كنت لاشترى خيالاً في ظلام . ربما صدقت  
الرؤيا ، وما يبدو للمهدي المفدى غير الراهن الوثيق . على انها قد تطيش . وابن  
نمسي وقد زاغت عن مسلكها ؟ ... ما نخعتني ببليّة ادهى من هذا الرفق  
بموسى ، يا ابا عبدالله !

وران الاسى على الخيزران . وبدا فيها كمد الحبيبة . فساء المهدي ان  
تتألم . وقال يزدلف اليها بلطيف نبرة : لا تمتعني ، يا خيزران . فما اردنا  
بك شراً ، وقد وهبنا لولدك الحق بما ناه فيه سواهما بالاخفاق . وكنا  
نجاريك في رفع هارون ، دون موسى ، الى المنصب المختار ، لولا ان نكون  
جاهرنا قومنا بما ازمعنا . وليس لنا ، وقد نشرنا على الناس رغائبنا ، ان  
نتراجع في ما سبق اليه اللسان !

فاعلنت متحسرة : لكأنك تبغي قهري ، يا امير المؤمنين !

فانكر عليها الظن الاثيم . ما رفع موسى ليزري بها ، بل ليعمن في اكرامها ، وقد حاز ولداها الشرف الاثيل بركوب مقعد الخلافة . اما وهي الناقمة على موسى ، فاي حيلة يفرع اليها المهدي ليبعد الهادي عن منصب اقره فيه ، فترضى الخيزران ، وتنفرج برظمتها ؟ ... قال ابو عبدالله بعد بمضّ تفكير : هل لديك سبيل الى نقض المبرم ، يا أم موسى ؟

ونادها عمداً بكنيتها كي تذكر ابنها البكر ، فيوقّ له قلبها . بيد انها لم تتأثر بشور الامومة ، كأن موسى ليس منها في حلّ ولا حرم . وقالت بشدة : ليس من سبيل ، مهما ضاقت ، يعسر على المهدي انتهاجها . فمن عقد العقدة يجلّتها ، يا ابا عبدالله !

— ولا يمتحننا الناس ، يا خيزران ، ولا يعيروننا القلب في الرأي ؟ ... والله ، اصبحت اميل الى خلع الهادي ، من ولاية العهد ، كي افوز بابتسامة لينة من رطيب فمك . فارشدني الى الصعيد الآمن لثلاث اعرّ، وأرمى بضعف الحجا . كيف نغزل موسى عن مسند أبحنا له التوكؤ عليه ؟

فقلت لا ترهب وخامة المغبة : يدعوه اليه امير المؤمنين لثلاث يتمرّد في جنده بجرجان ، ويعالنه امر الخلع ، واثبت الرشيد !  
— وينقضي الامر بلا فتنة ، ولا سفك دم ؟

فصاحت وقد ادركت ان المهدي بات في قبضتها مرخيّ الجناحين ، طوع الشهوة الملحاح : ومن يجرؤ على الفتنة ، يا امير المؤمنين ؟ ... لا احسب هذا الوالع في دمه ولدته امه . ولا ينسّ امير المؤمنين ان له من مضاء الرشيد ما يطبّح كل وقح زنيم . ليقبل كلمته ، فيخشع حيالها كل جبار عنيد . ما هؤلاء المستظلون لواءه سوى رجاله وعبدانه . وليس لذي مكنة

فيهم ان يسير في مناخضة محمد المهدي !

ونفخت فيه العزيمة ، وقد خشيت عليه من التداعي . وعزّ على المهدي ان ينكص ، وينكث . فقال يلهو بالمعاطلة : هي لي فسحة من الزمن ادقق فيها في ما تدفعيني اليه . وعندني ان نصبر ريثا يبدو فينا الرشيد ، وقد عاد من مناكرة الروم . فتبدا لل رأي على بصيرة ، ونعلن ما نراه يتفق والمنشود !

فراّت من الحكمة ان تلوذ بالصبر . حسبها ان تكون مالت بالخليفة ، في ولاية العهد ، عن نصره ابنها البكر . فالرضى بخلع موسى فوزّ جسيم لها ، ما كانت لترجو بلوغه . بل ما كانت ترجو ان يرغب ابو عبدالله في العودة الى المباحثة فيه . اما وقد جاوزت المأمول ، وسمعت المهدي يوافقها على الطلبة ، فستهب له ما يطمع فيه من اويقات للتدقيق والتفكير . ولن تقف منه مكتوفة اليدين ، بل ستقوده الى رجاوتها مستعدية عليه الرشيد وزبيدة ويحيى . وستكون لها كلمتها الفاصلة . ولن يصدها ابو عبدالله عن البغية ، ما دامت لبابة في جرجان نائمة على عهد قلىق ، تحسبه وطيداً وقد عصفت به ريح هصور .

وكتبت الحيزران الى الرشيد ان عُدّ وقد استوسق لك الامر . ففي بغداد ترقبك المعالي . وكان قد زحف الى مناخضة الروم يصحبه خالد بن يحيى البرمكي ، لا يحيى نفسه . فالخيزران استبقت يحيى بجانبها ليقود خطوها في تذليل العسير ، واستنجاز المروم . ويحيى اشار بعودة هارون ، وكتب الدعوة . فالنهزة تفرض اغتنامها ، ما دامت لبابة في نزوح عن امير المؤمنين ونمي الى حسنة ان الوثام بلّال الدواخل الجافية في قصر السلام وصرح



اساس . فتلاشت جزعاً . وادركت ما تكلفها الوحدة من ضم . فلم يكن  
للخيزران ان تنفذ الى بال المهدي لو حرصت لبابة على مقامها في البلاط .  
اما وقد جرت الى جرجان في اثر زوجها ، واباحت المضار للخصوم ، فمن  
الشاقّ على حسنة ان تجلسي في الشوط ، والواقفون لها بالمرصاد يعرفون  
وثباتها ، وينفقون جناحيها . واغارت على قصر السلام تنتحب وتطالب ابا عبدالله  
بعده . فاكرم الخليفة وفادتها . وهشّ لها وبشّ . ودغدغ خديها . وتظاهر  
بانه لا يبرح يقرّها منه في السامق من الجوانح . على ان هذه الملاينة لم  
تكن لتصدف بحسنة عن غلباتها . فهتفت : هل قام على الرمل ما بنينا ،  
يا امير المؤمنين ؟ ... ابوك ، رحمت الله عليه ، لما شاء الفتك بعمه عبدالله  
ابن علي ، جزاء عصيانه ، شيد له بيتاً على الملح . وما توى به عبدالله الجبار ،  
حتى كانت مياه الفرات تعبت بالدعائم وتديبها . فانهارت الجدران على عم  
ابيك ، وقضت عليه . وهكذا انت في جاريتك الامينة حسنة . بنيت لها في  
حوانيك بيتاً منيفاً ، فاتن الزخرف . ولكن على الرمل . فما ان بدت  
الخيزران ، حتى تساقطت عليّ الحيطان تدفني تحت انقاضها . وهو ما كنت  
اتوقع ، يا امير المؤمنين . مع سعيك لاقتاعي بانك في مودتي على الابد .  
ان حسنة لعائرة الجد في شغفها بالمولى الجليل !

وبكت بين يديه بدموع سخان . فجار في كفكفة هذه السواجم .  
فالخيزران تبكي . وحسنة تبكي . أف هؤلاء النساء ، ما اسخاهنّ بالنجيب ! ...  
وما جهل ابو عبدالله انه لم يقم من الجارية المرموقة على حفاظ . فما ان  
عاهدها على عقد هواه عليها ، حتى ظهرت الخيزران تدمر المعالم ، وتستأثر  
بالمودات . وهو ما رقت حسنة ، وحدثت منه امير المؤمنين . فجاهر ابو

عبدالله بالرسوخ في العهد ، ولن يقوّض ما انشأ . الا ان الخيزران كالرياح  
السواقي ، تذهب بكل مكتوب ، وتمحو كل ميثاق . قال الخليفة يبرّد  
لهبة المدامع : ولكني ما نسيتك ، يا حسنة . فانت ابدأ في نظيرة نسائي .  
وان كنت اجزت للخيزران ان تبدو في حضرتي ، فما اعدتها الى مكانها  
الاثير مني . وهي دونك . وانت تلك المكرمة عندي، ورفيقتي الوحيدة  
في رحلاتي !

ولكن هذه الوعود ، على حلاوتها ، بانت مُزّة الطعم لدى حسنة . وقد  
تناهى فيها الايمان بان لا ثبات ، لامير المؤمنين ، على رغبة لا تلقى في الخيزران  
ارتياحاً . ورأت الجارية الحسيرة ان تلوذ بالهادي ولبابة . فتدفع الى جرجان  
من ينبئها بالخطر المشتمر الاردان . وتهيب بهما الى الاحتراز من دسائس أم  
موسى . قالت ودمعها لا يفتأ يجلد بلا هوادة خديها : انك لتدلني ، يا امير المؤمنين ،  
وانت ترفع بي الى شاقق ، ثم تقصيني عن مرتبتي ، فاهوي الى حيث يشمت  
بي اعدائي . اصبحت لا اطبق الظهور في اترابي ، وانا الضائعة في عطفك ،  
المنكوبة برضاك !

فضمها اليه هاتقاً بها : أينسالك امير المؤمنين ، يا حسنة ، وانت لديه في  
طليعة من ينفخه بمخزور الصباية ؟ ... لا بارك الله في من يسلك . الا انها  
سياسة المواامة ، يا وجه الخير ، وارانني مكرهاً عليها . فليس لي ان امضي  
في مناكدة أم موسى ، وقد اطلقت ولديها الى اقتحام النيران . ولكن اين  
هي منك ؟ ... بعوضة في حوض !

غير ان هذه الشوادي امست كليلة في حسنة ، وبانت تراها جوفاء اللب .  
ولم تعتب الجارية المرموقة على المهدي في جنوحه عنها . فامست تعرفه معرفة

اليقين . انه اضعيف حبال الخيزران . ولم تعتب على الخيزران ، والسيدة  
 الاثيرة تنهد الى بلوغ اربها . بل عتبت على الحظ . هو هو الجاني . وستقاومه  
 حسنة بما تستطيع . لا نهادن ، ولا تنكص . الا اذا تحطمت سهامها ، وانقطع  
 وتر قوسها . عندذاك ستدعن للمقدور . واصغت الى ما يجاملها به الخليفة  
 من التآسي . ولكن دون ان تحفل بما يلقي اليها . ليرجع امير المؤمنين الى  
 الخيزران . وسوف يندم . وربما كان يحفر قبره بيديه . فالجارية المرموقة  
 سنتقم انتقاماً جارفاً ، فشوشاً . فإما هي ، وإما الخيزران ، ومن يخطر في  
 حواشي الخيزران من مردول البطانة . وانحنت في حضرة امير المؤمنين  
 ترقب ان يأذن لها في الانصراف . فاضحت تشتهي الابتعاد عن مقر نخزي فيه  
 وشكرت بحيا كمد ، وبكلمات مراض . قال المهدي يباعد في المؤانسة :  
 لا تزال مرتبتك لدي على مناعتها ، يا حسنة . فما كانت لتكسفنك الخيزران .  
 ومن يدري ؟ ... ليس ما يبعد ان تصبحي في حرمي من زوجاتي !  
 وخيل اليه انه ينيم فيها مضض الحبية ، وهو يعلمها بالخطوة السامقة .  
 بيد ان حسنة ملئت الوعود الخالبة ، وليست تعقد ، ولا تهر . وعادت  
 الى الشكر دون ان تقوى على ستر خذلانها . فكل ما ينمق لها ابو عبدالله  
 سيظل جافاً ، جديباً . وانكفات الى مقصورتها ، وامانيتها في نواح . الا ان  
 طماحها في زئير . ستزعج من نفسها كل هيام بابي عبدالله ، وتنحو في ولها  
 نحو الهادي . فلا بأس ان تشاطر لبابة حب موسى ، وتستبدل بطلعة الاب  
 وجه الابن . فمن حق الهادي ان يتسرّ لها ، على ان تظل امرأته لبابة في الرعيل  
 الاول من حظاياها . بل السيدة المقدّمة في نساءه . فإن تم هذه الرغبة ،  
 فلن تبقي الجارية المرموقة من المهدي والخيزران والرشيد على خليجة . فالسم

في تناول يمينها للاجهاز على الجميع

واستقرت باحدى زوايا حجرتها تطلق الزفرات الحوانق. وكادت نخنق بجوابها . وما زالت تطمع في ان توفد الى جرجان من يبلغ الهادي ما اعتزم ابوه، وما استعادت امه من الحظ المكين. فامست سيدة الدولة، والبلاط يخلو من لبابة . ويخشى ان تمنع عن موسى حقه بولاية العهد ، وان تجبس الامر على هارون . وليس لمهمة الابلاغ سوى الجارية سعدة . فتدفعها حسنة الى جرجان ، وفي شفتيها رسالة جبهة تنشرها على مسمع من ابن الخيزران البكر ، ومن اخت زبيدة . فلما ان ترجع لبابة، وتكبح جماح الخيزران المستأسدة ، وإما ان يباح للجارية المرموقة تقصير ايام المهدي

ولكن حسنة لن تنزل بامير المؤمنين فتكتها، الا وقد استمتعت بالجني من المنى . فاي منزلة يجلها منه الهادي ، لدن تدفع عنه شبح ابيه المضطرب الرأي ، المائع الكلمة ؟ ... فهل يسمو بها منه الى حيث ترتع في حياض المهدي ؟

ان حقدما الطاغى ليشدّ بها الى الانتقام الحاصد، حتى اذا تنكب الهادي عنها . فستخدم مأربه عفواً في ركوب شهوتها . وليس يضيرها ان تمدي مغمورة، مهجورة، حين تودي بالمهدي وبالخيزران، وتشفي قلبها من ازرائها بها . فلن تبلغ الخير في مودة هذا المتلاشي حيال بسمة ، بل حيال نظرة تسدها اليه أم موسى

وأبت حسنة التقهر في مأربها ، على وعورته وخطره . ستضرب في أس الدولة فذيفة ناسفة لا تبقي فيها على ذي حس . واقتعدت الظلمات تعاند في ان تبدو للنور، حتى في مقصورتها. فهي في حزن على نفسها، وفي حداد على

املها . وغلت في جوانحها البغضاء . ستنتقم . وكل من ابصرها من خدمها  
وجواريا خشى الدنو منها ، وهي ذات شراسة في حنقها ، وذات كتمان في  
مصيبتها . فلا تكشف عن اشجانها في حضرة من هم دونها

وطال انحباسها في الزاوية دون ان يوفد اليها المهدي من يقرئها السلام .  
لكأنها الحاملة المنسية . واشتدت بها الضغينة وهذا الاهمال يعصف بها .  
ورسخت في نيات السوء . فما دام ابو عبدالله لا يكثر لها ، فلن تكتب  
له البقاء ، والسوانح لن تضيق بها للفوز بمقصدتها

ورقبت مؤاتاة الايام . فلا بد ان يسخر عليها الزمن بما يحقق الرجاء ،  
ولتذهب عنها بعدذاك حياتها . حسبها انها انتقمت لقلبها المكلوم ، ولامنيتها  
المخدولة ، منتصفة من ختل الحدثان . واذا بالرشيد يعود من ضفاف  
« البوسفور » اجابة لرغبة امه . فاندفع المهدي للقائه بعظماء الدولة ، ويجيش  
يمور بالطبول والمزامير والاعلام . بل هفت الدولة العربية قاطبة الى اللقاء ،  
هاتفه للغازي اليافع ، القائم ، مع لدونته ، باعباء الكفاية والمجد . وضه  
المهدي الى صدره برعشة مستطيلة من صافي الحنين . وقبله في جبينه متمماً :  
وهبك الله من العمر ما يقبلك على هذه البسطة ، من الدنيا ، سيداً ملء  
برديه الغلبة . انعشت روحي ، وزدت في سعدي ، وانت تقهر اولئك  
الاذناب . فمن حسبنا الاوغاد كي يتحككوا بنا ؟ ... ان هم الاجرني ،  
مهازيل !

وصاح بمن حوله : مرحى للرشيد !

فضاقت السهول والفجاج بترديد المتناف . وبدت الخيزران في الحشد  
تضم ابنها الصفي الى قلبها ، وتطلق دمعة الفرح . نالت ما اشتهت . وسوف

تدرك ما لا تزال تشتهي . فما دام مجال الحظ اتسع ، وطال ، فستسلكه  
حتى الامد . ودعت من حولها من الجوارى ، المقتعدات الموارج ، الى  
الانشاد ترحيباً بالفتاح القاهر . ورشته بالزهر والطر . وجارتها زبيدة في  
مهزة الایناس

وقامت الزوراء قومة الرجل الواحد في التكبير للرشيد، الظافر باعلاج  
الروم . فامتلات الطرق بالرجال ، والنساء ، والاطفال . وكلهم على حفاوة  
وبشر . فدخل هارون عاصمة ابيه كأنه احد الغزاة المصاليت . واشرفت  
به بغداد . وفتحت له ارحب صدر . وانبت في الدهماء ، بوحي من الخيزران  
وبجى ، من يصبح : ولاية العهد لهارون ، لبطل العرب الحمي . عاش  
هارون ، ولي العهد !

فعبس المهدي . ما هذا البيان الشاذّ النغم ؟ . . . وكاد يدعو الى اخفات  
الصيحة ، وفيها ما يعكر صفو اليوم البهيج . غير انها تفاقمت حتى امت  
هتافاً ملحقاً ، يعاد ثم يستعاد ، ولا يسكن له قرار

وانبسطت جوارح الخيزران تدغدغها الاغنية الحلوة . وتبادلت وزبيدة  
النظر الممرح . وابتسمت طويلاً ابتسامة النشوة والاعتزاز . انها لتخطو  
حثيثاً الى المنشود . وبحتت ، من كوة هودجها ، عن بجى البرمكي . فاذا نظرانه  
تصبّ على الهودج بشوق ومسرة . فماذا بقي لاميرو المؤمنين كي يعترض  
على رغبة الشعب الصارخة ؟

ووقف الموكب ، على غليانه ، في امنية معنى السلام ، قصر الخليفة . ودخل  
السادة الاعلام البلاط . وكان للشعراء ، من امثال بشار ، وابن ابي حفصة ، وابي  
العنابية ، النصيب الجزيل من القول الجدلان . فتناهوا في صوغ قلائد المديح ،

يرضعون بها نحر الرشيد الهمام . وضفرت له غواني القصر أكلتة الغار ،  
يطوقن بها هامته ، اقراراً بحسن البلاء ، واناقة الصنيع

وتكلم المهدي في الجموع المألثة ساح القصر ، لا تني تطلق هتافها :  
« هارون ولي العهد !... ولاية العهد لهارون ! » ، فقال : الحمد لله الذي  
زاننا بالقوة الغالبة ، واقام منا هداة انجاداً ، ورزقنا توأمين ندين نعتمدهما  
في العواشي ، هما موسى وهارون . والشكر لكم ، انتم ارباب اليد الماضية  
في المصاولة ، وفي قهر الطغاة المستنصرين . فما من مكرمة الا وتجد فيكم  
رايتها المرفوعة . سنبدل للرشيد من فيض ارجيحتكم ما تقرّ به عيونكم .  
فانصرفوا على بركة الرحمن !

فهنفوا له هتافاً صيحاءاً ، واكرموا باذخ مشيئته فغادروا باحات القصر .  
وتبودلت التهانى . واجرى ابو عبدالله على قومه الرزق الوفير . فغرف من  
بيت المال ، لا بالحنات ، بل بالبدر يسخوها على السائلين . واكل الفقراء  
هنيئاً ، مريئاً ، من خير امير المؤمنين . غير انه لم يطلق نامة في امر ولاية  
العهد . فعزّ عليه ان يجيد عن سنة اقرّ معالمها ، وطبع رواسمها . ولبس  
ما يعلن المهدي بما يجوز العدول عنه ، والمواربة فيه

وتباحث صرح اساس في قعود المهدي عن حبس ولاية العهد على هارون ،  
دون موسى . وبدت الخيزران مدهوشة ، فقالت : ولكن الجموع على بكرة  
ابيهما النمست بالحاف من ابي عبدالله انصاف الرشيد . فما به يفضي عنه مع جليل  
سعيه ، وصادق بلائه ؟ ... فهل كان للهادي ان يبلغ من الروم ، ما بلغ  
هارون ، وهو قاهرهم ، حتى لم يبقَ فيهم ذو جرأة على رفة هذب ؟ ...  
اعرف المهدي عادلاً ، لا يهضم حقاً ، فما يمك به عن حق ابنه هارون ؟

فقال يحيى البرمكي : هذا النصر ، تقبض ايدينا على نواصيه ، لم يعرفه العرب في عهد معاوية ، عاقد راية القيادة لابنه يزيد في مغالبة القسطنطينية . ولا في عهد هشام بن عبد الملك ، المفوض الى اخيه مسلمة امر الروم . فالانثان بلغا ضفاف البوسفور ، الا انهما عادا عنها مهزومين . اما نحن فذوخوا العلوج ، ورجعنا بهالات النصر . وغزوة موفقة ، هذا شأوها ، لا ترجحها ولاية العهد . قال هارون نصيبه من العلي بجده وحزمه ، ومن الغبن ألا يرتقي الى حيث لا يعادله حظي !

على ان المهدي لم يكن ليرضى بمحو ما كتبت يمينه . فليس للخيزران ان تحاول ما لا سبيل فيه الى لين . فالكلمة المعلقة تنزيل ركبن ، لا تمحى حروفه ، كالنقش في صخر . فهاج هياج الخيزران . واطلقت تعاتب رب قصر السلام ، صائحة ، غضبي : أهذا ما يلقى من ابي عبدالله الاصفياء الاوفياء ؟ ... ألا ماذا يقدم عليه موسى في جرجان ؟ ... انه لينام بملء عينيه ، ويقلق الأذان بشخيره السقيم . وكل ما اندفع فيه لا يجاوز مناوشة صبية . فهل تقيمه بمستوى هارون ، خاضد شوكة الجبابرة ، الشوس ؟ ... والله ، اني لادعوك الى النصفة ، يا امير المؤمنين . كفتنا الميزان بين يديك ، فانظر أيها ترجح ، وأيها تشيل . فالافعال تتكلم . ومن الحيف ان يتجانف ابو عبدالله عن القسط في الحكم . وليس من الحكمة ان ينعم بالرفعة غير الكفي !

فنهذ ابو عبدالله الى التسوية ، كأنه لا يزال يبيح للايام ان تنوب عنه في حل المشكل ، واعلان الكلمة الفصل . غير انه احس بالاحراج والضيق ، فنزع الى استشارة ضميره . واذا ما يعالنه به ضميره ان ليس لمن فهر الروم ان يستوي ومن اخمد فتنة الفرس . فالفرس ، كما قالت فيهم الخيزران ،



قوم يدينون بدين العرب ، ويجدون في الخلفاء العباسيين نفحة من انفاس  
الرسول . على حين ان الروم اعداء في السياسة وفي المذهب . فمن يدوّنهم  
كمن يدوّن عدوين مزدوجين ، المنافس في السيادة ، والكاره للدين . على  
ان ابا عبدالله يلتهب حيرة كلما فاضل بين موسى وهارون . ويضيق به مثواه  
فيهرع الى حسنة يلتمس لديها الراحة ، ويرجو البرء من بجرانه . ولكن  
الجارية المرموقة اضحت لا تشتهي مرأى الخليفة ، المستهين بعهوده لها . فتلقاه  
بفتور ، حتى ليكاد يحنق ويهدر دم الجارية . الا انها تبكي وتظلم ، فيرقّ  
للساكية المغبونة . وما ندّ عنه انه لم يفرّج عنها الكربة . بيد أنه لا يعد ،  
وكل وعد يسيء الى الخيزران لا نصيب له من الوفاء

ويلاطف حسنة . ويجب لها الاموال والحلى . ولكن الجارية الحردة  
تلتمس ما هو اسمى واوزن . وطالت على ابي عبدالله المهدي الرجرجة . فلا  
هو لدى الخيزران مطمئن المهجة ، ولا عند حسنة مأمون الانس . ومال الى  
الخلاص من الاضطراب العاثر بجلده . فليس يطبق الارتباك الفاشي في نفسه  
حتى يوشك ان يعيبه عن امره . وذات ليلة ، وهو يقيم من الخيزران على  
جهامة ، ويكاد يعود واياها الى ما تولاهما بالامس من مستفحل القطيعة ،  
انحنى بين يديه فارسي مقبل من جرجان يقول : لم يبق لنا من مفزع سوى  
امير المؤمنين ، ادامه الله وبسط عزه . فالهادي ينزل بنا من ضروب المخاشنة  
ما يرضّ فينا الانفة ، ويبدد الطمأنينة . فلسنا اعداء ابناء اعمام النبي كي  
نلقى من التنكيل ما يذهب عنا بالروح ، وبالروح . فالمرء منا بات لا يأمن  
الهلكة ، حتى على ثوائه بالمسجد يتعبد خالقه . وهي حال لا احسب خليفة  
رسول الله يرضى بها لمن تشدّم اليه عروة الدين الخفيف ا

فاوجعت الظلامه المهدي ، وصبا الى تبديد العنجهية . غير ان التدمير  
توالى حتى لم يكن يطل يوم الا والمنظلمون يقرعون باب امير المؤمنين .  
واذا وفد من ذوي المكانة في جرجان ينحني بين يدي ابي عبدالله ليقول :  
نصر الله امير المؤمنين على اعدائه ، وشتت شمل معانديه . ما وقفنا بين  
يديه ، على التواء هامة ، الا لتبدي ما يرمينا به موسى ، ولي عهده ، من ويل .  
فسلبنا اموالنا ، وهددنا بسبي نساءنا ، إن نحن لم نبايعه بالخلافة ، وهو الجانح  
الى الانفصال عن ابيه ، وانشاء دولة في فارس تناكد دولة المهدي ، وتنتهك  
حرمتها بما تفاجئها به من ترويع . وهالنا الانسلاخ من عطف امير المؤمنين ،  
فاتفقنا على المجيء اليه ، خفية ، لمعانته الطاعة ، ومصارحته بما تنتزى به  
جرجان من فورة نوشك ان تطغى . فلا ترحم شيخاً ، ولا ترقّ للطيم !

فقال ابا عبدالله ما يشكّ في اذنيه من قاصم رهيف ، ونبر : أيفعل  
الهادي ويتنكر لابيّه ؟ ... ومن براني من عدم ، إن كنتم تقصون عليّ  
الاراجيف ، فلا طيحتكم طبع الاماليد في هبوب الاعاصير . ما أحسب  
الهادي يتورد على ناجله ، فيعقّ المنعم عليه بالضياء وبالمنزلة . خذلتكم ارواحكم  
إن كنتم كاذبين !

فاجابوا ولم يروّعهم التهديد : ما كنا لنفتري على ابن سيدنا الخليفة ،  
ووليّ عهده . بل ما كنا ندلف الى حامينا الامين ليردّ عنا المتالف ، لولا  
اننا نعاني من قسوة الهادي ما تكبو به الهمم ، ويذل الكرامات . فيسومنا  
الشقاء والقسر . ويفرض علينا من المكاره ما تنبو عنه طاعتنا لخليفة رسول  
الله ، ونحن من اعوانه ومثقيه !

فقوّضوا فيه كل ما يدّرع من مناعة ازاء الاحداث . أيفكر الهادي

في الاستئثار بفارس ، ويحدد اياه ؟ ... واكفهر المهدي . وجحظت عيناه  
سخطاً وامتعاضاً . ولكن أيؤمن بما يلقي اليه ؟ ... لقد توالى الظلامات  
حتى بات الايمان بها فرضاً . وما درى الخليفة ان الخيزران ويحيى البرمكي  
اتفقا على ايفار صدره على الهادي بهذا الدس المنكر . فهما من رشقاه بهؤلاء  
الشاكين من ابناه جرجان ، لبيلا به عن نصره موسى . وتشنجت اعصابه .  
واكتوى بما يقع في سمعه . فاذاغ في نافثي التضييل : ساندبر امرم بما يصون  
سلامتكم ، وينيلكم الانصاف . عودوا الى دياركم آمنين ، ولا عليكم . فالهادي  
لن يغفل عن حق ضائع ، ولا يرضى ذمة من يخفر الذمام !

ونادى اهل الرأي من رجال الدولة ، وفي طبيعتهم يحيى البرمكي  
والربيع . فقال الربيع ينكر ما رمي به الهادي من فرية العصيان : ليس  
اولى من استدعائه اليك ، يا امير المؤمنين . فاذا لبي فهو المطيع . والا  
صدقت الظنة . وللخليفة ان يقطع صلته بولي عهده ، ويتجهم له !

وما استطاع البرمكي ان ينفر عن تأييد الربيع في ما ابدى من نصح ،  
لثلا تنفضح المكيدة المنسوجة الاديم في صرح اساس نفسه . غير انه زاد  
امعائاً في الاسامة ، فقال : وليحذر امير المؤمنين بما قد تجرّ العودة من  
وبيل الذبول . فليحتس في جنده من وخامة المنقلب !

فالتفت الربيع الى يحيى واصطكت اسنانه حقدآ . ونفثت عيناه النظر  
الشرر . وجبجهم في ما بينه وبين نفسه : يا للؤم الطافح سماً . الله من  
النفس المتمرّغة في الاثم !

قال المهدي : سادعوه الي . فالرأي ما اعلن الربيع . وسابث عليه  
الارصاد . فاذا وضع لي مينه وغشه ، كان المطبق مأواه . وقد اضرب

عنه عبرة للمتطاولين . فلن يكون عندي ، اذا تمرد عليّ ، أفضل من المقنع  
الحراساني، بل يرجعه في البغضاء والجحود . فان عدوي لمعدور وهو يقلوني .  
اما ابني ، المجبول بدمي ، فاي عذر يملكه في الانقلاب عليّ ؟  
واوفد الى جرجان من يبلغ الهادي : امرع ، ابوك يدعوك !

الا ان الهادي ، وحسنة تنشر في اذنه المؤلم الناعب ، اوجس من  
الدعوة شراً ، وتردد في التلبية . ماذا يريد منه ابوه ؟... أينهد الى سوى  
خلعه من ولاية العهد ؟ ... قالت حسنة وهي تطلق اليه من بغداد جاريتها  
سعدة : عادت الخيزران فوثبت في البلاط الى مكانتها السامقة . فان يعاد  
لبابة عن مشوى امير المؤمنين اباح للماكرة ، على متبادي وسعها ، الزتوع في  
النعم والصدقات . فباتت ولا كلمة سوى كلمتها ، ولا شأن لسواها بين  
اقرب المقربين الى الخليفة . وتراخى المهدي في حذبه على جاريتها حسنة .  
فلا يخاطبها الا مدهانة لثلا يسدد فيها طراوة الحس . ورجع هارون من  
مقاتلة الاروام خفتاق اللواء . فسعت الخيزران لوقف ولاية العهد عليه .  
وقد تكون وفقت للمأرب . واضحى موسى مهدداً بالخلع . فلترسخ قدمه  
في جرجان . ان بعده ، في جنده ، عن بغداد ، يمانع في اقرار التدبير الظالم ،  
ويبعث على الاحتراز والتأني . فكل دعوة ترد عليه من الخليفة تفرض  
الاحتراس وسوء الظن . فالخيزران شفة نمامة ، وعين قحامة ، تفيض  
بالجباث ، وتقوّض المعصنات !

وهذه الشواذخ الدوامي اقلقت في الهادي الضمير . أينقض ابوه ما  
ابرم ؟ ... وخطر له الاستئثار بجرجان . فيبني دولة فارسية اللون ، عربية  
الوجه ، يدوّخ بها عرش بغداد . غير انه تريت . فمن الحطل استباق دورة

الزمن . وليس بالصعب عليه، عندما يشاء، تبديل الميسم المطبوع . فما ان يلوح له ، من ابيه ، التجانف حتى يعاجله بالصدام . والمشاكاة آن اوانها ، وهذا الرسول المطلّ عليه من بغداد يقف بين يديه لابلاغه دعوة الحليفة بالمسير الى بغداد . فهزّ الهادي رأسه ، مستخفاً برغبة ابيه، واعلن باعتداد: ألا ليعلم امير المؤمنين ان ما كلفنا من اشراف، على التوطيد في جرجان، لا يزال يدعو الى بقائنا فيها . ومتى استتب الامر، ودانت الناصبة ، لن نتوانى في الامتثال لرغبة سيدنا الاثيل !

وصرف عنه الرسول لا يكرم مثواه . فلبوقن المهدي ان ابنه موسى لا تحفى عليه المغلقات . هذا الفخ المنسوب لن يسقط فيه من يبدو شجاً في حلق الحيزران

وابو عبدالله ما وقف على قعود موسى، عن الاذعان، حتى رسخ في خاطره ان هؤلاء المتظلمين، من خروج الهادي على سنن العدل، لم يجهروا بالافك . فان موسى ليميل الى مناكرة ابيه بانشاء دولة تعادل دولة بغداد، بل تعلوها . وفي التنافس من الحظر ما يقلق الهناء ، ويتوعد الغد . واستعان المهدي برأي البرمكي : ماذا يلوح لك من الناشز ، المجاهر بالعصيان ، يا يحيى ؟

وشعر يحيى بارتباك المهدي وجزعه . ففكر ملياً قبل ان يعلن بمصانعته المتلبسة بالولاء الفطير: ليس لامير المؤمنين الا ان يشخص بنفسه الى جرجان، ويعود بالهادي الى بغداد . وما ان يسمي في كنفك ، يا مولاي ، حتى تذيع فيه مشيتك . فيعزّز عليه التمرد وانت تضرب عليه جندك نطاقاً لا تتلم له عصمة !

فاطمأن الى الرأي . لن يخضد شوكة الهادي الا والفتى في حضرة ابيه .

فاذا لم يستسلم طوعاً ، استسلم استحياء . ونشر الخليفة في بطانته انه ازمع الرحيل الى جرجان . وتذكر حسنة . فلا بد منها في الرحلة الشاقة ترطبها بمواهبها . فهي صديقة الهادي ولبابة ، ولها فيهما الاثر الموموق . عدا ان مير المؤمنين وعددها بان يزجيهما ، في طليعة نساءه ، يوم يجوب الامصار . وحبا اليها يعالنها الرغبة ، قائلاً : هذا هو الموعد ، يا حسنة ، فتأهبي . سندفع الى جرجان في زيارة موسى ولبابة . ومن سواك للرحلة الميمونة ؟ ... امامك ثلاثة ايام لاعداد حوائجك !

فبوغنت بالنبا . ما يجنج بابي عبدالله الى بلوغ جرجان ورؤية الهادي ؟ ... وكانت قد سمعت ، ولكن بمن لا تفرض قوله راجح الثقة ، ان موسى تنمر ، ومانع في المجيء الى بغداد ، وقد استدعاه اليها ابوه . وتراعى لها في الدعوة اثر شفاف من كبد الخيزران . فقالت في نفسها : « ان يكن يستأسد الهادي ، ويزري بشهوة ابيه ، فعلي ان امدت اصابعي الى النار ، فاغنم اندلاعها ، وازيد في ضررها ! » . والآن ، والخليفة يهب بها الى مرافقته في الوثبة ، لم تمنع ، ليقينها ان وجودها ، على مقربة من الهادي ولبابة ، يزيد في مكنة موسى ، ويضعف من لظى الخيزران . فقد تجري هناك الامور ، وحسنة بجانب موسى وزوجته ، على غير ما تطمع فيه السيدة الاثيرة . فيتداعى المأرب ، ويتلاشى الحلم . قالت حسنة بابتسامة خضيبة : على عيني ، يا امير المؤمنين ! فضعها اليه يتحسس فيها موانع الهوى ، ويقول : لست اعرف اللذة الا بين ذراعيك ، يا ذات الحد الاسيل !

فابانت بفتح غرار : وستكون راضياً ، ايها السيد الاوحد !  
غير انها ما انسلخت من المهدي حتى كانت تندلع الى جاريتها سعدة

تقول بمجلة تقرض الكلام : سعدة ، هذا اوانك . تعالي !  
فاعلت الجارية بلهجة الملهوف المطواع : ماذا ، يا سيديتي ؟  
- أريدك على العودة الى الهادي في جرجان !  
- حباً وكرامة . وفي مَ تَرجيني ؟

فاوضحت بتؤدة ، كأنها تصطفي ألفاظها : ابليغيه ان اباه سائر اليه .  
ولا يسير اليه لسوى خلعه من ولاية العهد . وساكون رفيقه المهدي في  
الرحلة . وبوسعي ان افضي الحاجة على وجهها الاصح . فعلى مَ يقرّ رأي  
الهادي ؟ ... أنضرب فاوجع ، ام اتوانى وابيح للحظ الانطلاق في مجاه  
الرجيب ؟

فاتسعت عيننا سعدة ، ومضتا بهريق خشيان ، تجلي منه حسنة ان وصيفتها  
ادركت البغية . قالت الجارية المرموقة تستطلع : أفهمت ؟

- فهت ، يا مولاتي . ومتى اسلك طريقني الى جرجان ؟  
- على الفور . وليندّ عن الجميع انك منطلقة اليها . فاندفعي سهماً  
سبوقاً . وعودي في لمحة خاطفة . وقد ألقاك في الطريق ، وبعد ايام ثلاثة  
سيجري موكب الخليفة في صعيد جرجان . فاسبقينا وارجمي اليّ بمشينة  
الهادي الراهنة . فهو موقن اني استجيبه في كل ما يبدي من رغبة ، ويجري  
من تديرو !

فاعتلت سعدة سنام ناقة سبوح طوت بها الفدافد والجبال والاوادية الى  
بلاد فارس . وكان لمرآها في مقر الهادي رعشة استغراب . فانبرت لها  
لبابة تستنطقها بارتباك : ماذا ، يا سعدة ؟ ... أفلقتني بهذه العودة العجلى !  
فنضت عن بيان مولاتها ، الجارية المرموقة : امير المؤمنين زاحف الى

جرجان ، لتنجية موسى عن ولاية العهد ، وجلسها على هارون . هكذا تريد الحيزران . وسيدتي حسنة تعالكنما انها ستكون في موكب الخليفة . وليست تنتكب عن العمل بما تطلبان !

ففتفت لبابة جازعة : أيزحف البنا الخليفة ليزيل الهادي عن ولاية العهد ؟ ... ولكنه يتعسف ابو عبد الله . بماذا اساء اليه ولي عهده كي يخلعه ؟ ... ان الحيزران لعقرب تحذق اللسع . غير انها ستعض صلب الحديد ، لا رسغ ابنها البكر . تعالي ، يا سعدة ، واسردي للهادي ما ابلغتكم اياه مولاتك . فان ما يحاول فيه اعداؤه لفظيح !

ومن هم اعداؤه ؟ ... امه ، واخوه ، وابنة عمه زبيدة . وضحكت لبابة ضحكة متهمكة مرّة . وقادت سعدة الى الهادي تشر عليه ، بحق ، قولتها المضطغنة : أتدري ما يقود سعدة البنا ؟ ... مولاتها حسنة اطلقتها الى جرجان كي تقصّ علينا ما يروم فينا الخوصم !

فتفتح ناظراه الماء وفضولاً . وجلجل بقسوة : وماذا يرومون فينا ؟ فاوضحت جارية الجارية : مولاتي تبلغ سيدي المهيب ان اياه يقتحم اليه السبل ، لينزع منه ما سما اليه من منصب . فلن تكون ولاية العهد من سوى نصيب هارون ، امتثالاً لحكم الحيزران . وتسال مولاتي حسنة عما تستطيع في خدمة سيدي ، وقد اختارها المهدي ، دون جميع نساته ، رفيقة له في الرحلة !

فصرخ موسى ، وكل ما فيه على احتدام ، وارتيجاف : ماذا تثرثرين ؟ - لا تثرثرة في ما ابدى . فالحقيقة كامنة في كل كلمة تلقى الى سيدي ! فاذاذاع وما يروح على صرخته النفور ، المختلجة بوفر من هزه : وهل كلف



ابي نفسه مشقة المجيء اليّ ليخلعني ؟ ... لست اراه راجعاً في الصفقة . فما كان عليه الا ان يُشير كي أطيع !

وثارت فيه عجبته ، فرعد: ولكن رويد امير المؤمنين. انه ليكرهني على النيل منه وهو يبدو ازائي ليجردني مما وهب لي . أيعطي ابو عبدالله ويستود ؟ ... يقضّ صلي ان لا يظفر بالارب. لا والذي نفسي بيده ، لن يرجع المهدي الى بغداد سليم الروح ، وهذه بغيته . فاني لآخشي ان تسبقني يميني الى ايدائه، وهو يدعوني الى التخلي عن منصب اراني فيه صاحب الحق المنيع . تباً للخيزران ، ما اعداها على الانصاف . الا انها ستلقى ما يحطم اضالعها . فلا المهدي ، ولا هارون ، سيد الدولة العباسية ، بل انا ، موسى الهادي . أبلغني حسنة ان تضرب ضربتها، وهي عندي بمقامها من ابي عبدالله . بل سأرفعها الى ما يجاوز شأوها في دولة ابي . لتدفع عني لؤم المهزلة ، بانقاذي من والد شتيت الرأي ، تائه القرار ، ولها مني ما تطمع فيه من شأن . يؤلمني محو من نجاني . الا اني مكره ، لا بطل . لتذهب حسنة بروح امير المؤمنين قبل وصوله اليّ، ولها نصف دولتي ، بل دولتي على فسيح ارجائها . فان صدري ليتسع لها على مداه !

فتعتت سعدة ، وقد خلع قلبها ما تسع من دعوة الى البطش بامير المؤمنين : أبلغها أن ... أن ...

وأرتج عليها . فما استطاعت نطقاً لفرط ما سادها من رهبة . قال الهادي بشدة لم يكثر بها للجلجة القينة : ابلغها ان نسقي المهدي السم ، وكفانا الله شر الحصام !

فكادت تسقط الى الارض لفرط ما استحكمت منها الوهلة . فاستقصى

الهادي : ومتى يرغب ابني في ان يأتي اليّ ؟

فتحايلت على نفسها في النطق ، مغفمة يجهد تكاد تفيض به حشاشتها :  
هو في الطريق ، يا سيدي . نأيت عن بغداد فيما يتأهب لبراحها . واحسبه  
اجتاز اليك من المراحل نصفها !

فهدر : أتذيعين صدقاً ؟ ... ألا ما يبقيك بين يديّ والخطر يشق اليّ  
القبافي ؟ ... عجلي في الانصراف الي حيث تنشب مخالب مولانك في من  
يريدني على الهلكة . أهددني الخطر ، واذت هنا ، قبالي ؟

ونفض كأنه بهم بالوثوب على الجارية فيختلس لبيها . فتخاذلت سعدة ، ولم  
تكن تدري كيف تتالك ، وتبلغ الباب . وامسكت بذراعها لبابة تساعدها  
على الخطو ، وتخطبها بقولها : تعالي ، يا سعدة . ساعالك بما عليك . فالامر  
بات يحتاج الي السعي الحازم ، السيد . لا ارتباك ، ولا ابطاء . والا قضي  
علينا جميعاً . وفاز الكاشحون الغدرّة !

وسارت بها الي حجرتها تمس في أذنها : ان تكن مولانك تحرص على  
حياتها ، وتريد لنا ولها الراحة والسودد ، فلتسكب في طعام امير المؤمنين  
السم . والآتي في قبضتنا وقبضتها . فمن المحال ان تنجو حسنة من كيد  
الخيران اذا انكسرت شوكتنا !

ودست في يدها حقاً ، وهي تبدي بحذر ، وبصوت وطيء : هذا هو  
العلاج . فلتحسن مولانك نفسه في طعام امير المؤمنين ، والنجاة مأمونة ،  
والسعد جاثم في العتبة . فلن نقضي على الخيران بسوى القضاء على عمي .  
انها لدبسة منكورة . ولكن لا معدى عنها في خذل المنتمرين !  
فاوسك الحق ان يفلت من قبضة سعدة ، لشدة هلعها ، لولا ان تخفيه

في صدرها . وانسأت من معنى الهادي وكل ما فيها على ذعر . اي مكيدة تدير في ليل أليل ستتولى مولاتها تفجير حممها?... وماجت الوصفة هولاً . وعادت تعطي سنام ناقها المرسال ، وهي تحرص على نفسها من ان تندرج الى الحضيض . فان ما تراهى لها ، وأذنت به ، ليميع له القلب الصليب

واختبأت في زاوية هودجها ، وهي في شبه خبل . وامتنعت حتى من الطعام ، وما فتىء شيخ الديسة الرابع مائلاً لعينها . كيف تقتل سيدتها امير المؤمنين ؟ ... أفلا تهترء الدنيا ، ويغور الافق ؟

وبلغت « ماسبندان » . فقيل لها ان موكب المهدي يرسو فيها ، في انطلاقه الى موسى . فدفعت الى مولاتها من يبلغها سراً انها رجعت من مهمتها . فظفرت اليها حسنة بحيث الميل الى الاستطلاع . وحسنة تقيم على إير ، بانتظار الوصفة الحاملة رسالتها الحطرة الى الهادي ولبابة . ولاحت لها فانقضت عليها ، تستوضح بشوق خشيان ، وهي تتلفت الى ما حولها ، وناظرها يختلجان بالفزع ، وبالرغبة في الاطلاع فوراً على الحجيء : ماذا ، يا سعدة?... بم عدت اليّ من الرهط الامين ؟

فما زال الوهن والاكفهرار يطغيان على الوصفة . قالت وهي تضطرب : هما يطلقان في الامر يدك . فاستعيني على المهدي بما يجزيه ، ويرديه . واذا كنت بحاجة الى دواء حاسم ، فإليك بهذا الحقي ، هدية لبابة اليك . ففيه الصعقة القاتلة ، كما اسمعتني . عاجلي به امير المؤمنين ، وأعتسه الدولة بين يديك . صارحني الهادي بانه سيرفعك منه ، الى حيث لم يعرض لك في ضمير ان تبغني ، اذا انت دفعت عنه عدوان ابنه !

فابتسمت حسنة . ولكن ابتسامتها بدت اشبه بالتكشير ، كأن هول

الموقف يأبى عليها الانبساط . سترتقي الى ارفع ذروة . الا ان لطفة الدم  
لن تنجلي عن بشرتها وقسامتها . فستظل تبصر ميسم الجريمة مطبوعاً في نفسها  
وجسدها . ولولا كرهها للخيزران ، لعدت عن الاثم المشوب بالدناءة والجحود .  
غير ان نفرتها من السيدة الاثيرة ، وحقدتها عليها ، دفعها في سياق اهوائها .  
ستضرب ، ولتترزل الارض !

وتناولت الحق من وصيفتها ، وقد انتضته سعدة من صدرها تروم الخلاص  
منه . وكانت تحس ، وهي تحمله ، بانه صلّ ينهشها . وطاب للجارية المرموقة  
ان تنعم بملذة الوعد ، فاستدرجت سعدة الى التوكيد تسألها : هل وعدك  
الهادي وعداً قاطعاً بان يقيمني لديه في اسنى منزلة ، وانا اردّ عنه اذى أمه ،  
ومبعة ابيه ؟

— وعدي بان يهب لك الدولة على فسيح ارجائها . ولكن أنتعدي مولاتي  
بامير المؤمنين ؟

فزوت حسنة ما بين عينيه . وألقت على جاريتها نظرة متوعدة ، كأنها  
تهدر بها دم الجارية الوقحة . ولم تجب ، بل انصرفت الى امير المؤمنين ،  
والحقّ في كمها ، والبسة في ثغرها . فقال المهدي وهي تلوح له طروباً  
لعوباً : لا اراك على سوى اخضلال محيا ، يا حسنة !

فاجابت بفنبحها الميأس : وهل لي الا ان اكون كذلك ، وانا في  
كنف امير المؤمنين ؟

قال : ان لوسامتك وبشاشتك فضلاً عليّ ، وهما تعشان روحي . فهل  
لك في جولة نشرف بها على هذه الانحاء ، وربما لن يتفق لنا ان نرتادها حيناً آخر ؟  
فاجابت بعدوبة مشرقة : ليس لنا ان نعاند امير المؤمنين في شهوة ،

ونحن نجري في ركابه حتى الامد !

فراقته فيها آيات الفطانة . وقال يجاهد في نفي الاشجان عن نفسه

المعذبة : هيا ، يا حسنة !

فقلت بصوت نعوم : هلم ، يا امير المؤمنين !

على انها ، قبل ان تنطلق في ظل الخليفة ، الى ضواحي « ماسبذان » ،  
نادت اليها بعض خدما ، وعهدت الى اثنين منهم في صنع الحلوى للرحلة .  
وكلفت عبيد زنجيين خنق سعدة ، لثلاث بوح بما تعلم . ولم تكن منها على  
ثقة شعبي ، وقد لمست فيها الرجرجة . قالت وهي تخاطبهما على خلوة :  
اخذها في هذا الليل . واطرحاها في بئر مهجورة . وعودا اليّ بخصلة من  
شعرها ، وباذنيتها ، ولكما اسنى عطية !

فانحنى العبدان يعلنان الطاعة ، وليست تخفى عليهما مكاييد الصروح .  
فما هي بمهمة التنكيد الاولى الموكولة اليهما ، وقد تعوّدا الغوائل يجرّهما اليها  
الولاية . فلا بد آنأ ، بعد آن ، من هذه الحواسم ، للخلاص من المزعجين . وبعد  
سويعات ، كان المهدي في موكب ضئيل الى الحماثل والادغال ، المألثة  
هاتيك الهضاب . فرام ان يبيع نفسه من عنائها ، ولم يكن مطمئن الروح  
الى ما يجهد فيه له . فانه لمقبل بارتخاء عزيزة الى جرجان ، لعزل ابنه موسى  
عن ولاية العهد . وما كان له ان ينكر على موسى الضلعة ، والجدارة .  
ولا ان يتنكر لعهد نادى به وأقرّه . الا انها انباء السوء المتظيرة اليه عن  
المادي ، وإلحاح الخيزران الثاقب ، ليل نهار ، اذنيه ، لا يبسح له تزرأ من  
راحة . وشعر ابو عبدالله بوخز الضمير ، وهو يقترب من جرجان . وكاد  
يرجع الى بغداد ، نازعاً من نفسه الافتئات بحق ابنه موسى ، لولا ان يقع

في وعيه ان الهادي ينهد الى العصيان، والى انشاء دولة ترحم عرش بغداد .  
فالخوف من قيام هذه الدولة ، فت في عضده ، واحرق مبعته . وهو ما  
يسبب به الى الانقراض على معقل الهادي في جرجان، فيقلّ حده، ويقوّض  
قاعدته . وما كان يرى الامر جسيماً صعباً، لولا انه يصادم فيه ابناً حبيباً اليه  
وافضى الى حسنة بما يغلي في حناياه من المشجيات . قال وهو يجوب  
واياها الرياض والمضاب : ليس لي ان اغتبط بمسيري الى الهادي اقلق فيه  
المهجة ، يا حسنة ، وهو فلذة من افلاذ جناتي . غير ان طماحه يقودني الى  
ما لست اشتهي . فما كان عليه وهو يجيبني الى ملتسمي ، ويمحو عنه وصة  
العصيان ؟ ... ولكنه غرّ عنيد . أيكايده اباه وليس له ان يرتع ، لولاي ،  
في سوّد ولا في جاه ؟ ... أف للابناء العققة ، انهم ليدمون اكبادهم  
واكباد منجبيهم . ما حسبتني ألقى في الهادي هذا الدلال !

فاوضحت الجارية المرموقة : ان يكن الهادي ضلّ عن مهبع السداد ،  
فلا ينسّ امير المؤمنين ان ثمة الحافظ الراغم ، وهو الحرمان بعد العطاء .  
فليس للخليفة المفضل ان يسترد بيسراه ما وهبت يماه . على اني موقنة ان  
المهدي بريء من تبعة التخلف ، وما قضت بالفادحة الا الخيزران . ولكن  
هل لسيد جليل ، كمولانا الخليفة ، وبين يديه يسجد الاقبال ، ويخشع الكماة ،  
ان يصغي الى امرأة تركب جموحها ؟ ... للخيزران ان تلتمس ما يطيب لها ،  
يا مولاي ، وعلى النهية النيرة ان تزع وتهدي . فلا تنحني ازاء مشيئة امرأة  
يستوي لديها الدرّ والحصى . ان الهادي لعلى وزر ، وقد عصي . وعلى ضم ،  
وقد أصيب في حق وضاح !

فما استطاع ان ينفي . حسنة تنطق بالبيان المفهم . وآثر الصمت .

لم يكن عليه ان يصبح للخيزران . ولكن هل له ان يتذوق علالة من هنا  
 اذا جاني أم موسى ، وادار لها اذنأ صماء ؟ ... وتأوه . فهو ينوه بالارتباك  
 واشرف الراكب على قرية « رزين » ، وحلّ فيها . وسكت المهدي  
 عن اعلان امره . هذا ليس امير المؤمنين ، بل احد افراد الناس ، يصحب  
 قوماً ينجون الامصار انتجاعاً للعافية . ودعا الى ضرب خيامه في ناحية  
 معتزلة من القرية . وامرت حسنة بالموائد فمدّت . وجلس في الصدر امير  
 المؤمنين يأكل ، وفي نفسه كمدّة ، وفي لبه بجران . وتفنن المداعبون في  
 المفاكهة . بيد ان الانس لم يكن يأوي الى بال ابي عبدالله  
 وتهادت اطباق الحلوى . وابو عبدالله على شغف بالقطائف المحشوة بالجوز  
 والسكر . فاعتكف على طبق منها يأكل بلذة رويّة ، مع كونه يمور في  
 شجوه الاسيان . وهتفت حسنة بصوت مرنّ ، وهي تراه يغوص على الطيبات :  
 هنيئاً مريئاً ، يا امير المؤمنين !

فابتسم لهذه الفارعة ، اللدنة . وقال يغالب ما يعتريه من اكتئاب : ان  
 للشهوة مسارب الى النفس وانت تتأوجين في العيون ، يا حسنة !

وكانت مباسطة تفتحت لها الحناجر على مستطيل القهقهة . ونهض المهدي  
 يعقد مجلسه ، ويصغي فيه الى مطارحات الحاشية . وغنت الجوارى ، ورقصن ،  
 وباعدن في نقر الدف والعود ، كأنه يوم أغرّ ، محجل . واستقرت حسنة  
 بجانب ابي عبدالله تجاهد ، كما دل عليه مظهرها ، في ان تحيي في نفس الخليفة  
 المسرة . غير أن ابا عبدالله ما ان يبسم للنضارة المبسوطة بين يديه ، حتى  
 يتجهّم ، وقد عاودته احزانه . واذا به يشعر بألم وثأب يخزه ، كأن في  
 احشائه مسماراً رهيف النتوء . فتمالك . الا ان الام قنادى . فشكا المهدي

وجعه بانين المكروب : من يلمّ بتسكين المضض ، فينقذني ؟ ... اني  
احترق وانمزق !

فقام رجاله وقعدوا للملحة الكاوية . ماذا دهى امير المؤمنين ؟ ... ولم  
يبق فيهم ذو اطلاع على شربة ، او علاج ، الا وسفها للخليفة . ونودي  
الطبيب ، ولم يكن في الرحلة عنه غنى . غير ان الطبيب لم يجد كلاماً يوضح  
به الداء . فوقف من الرزيئة على حيرة . واشتدت بالمهدي الاوصاب . وعلت  
صرخاته : انجدوني . اني احس بالموت يمشي في عروقي !

فران على القوم الجزع . وصبغ الاكفرار الوجوه . ووهنت قوى  
حسنة . هل اشرف على منيته ابو عبدالله ؟ ... وشعرت الجارية المرموفة  
بمخفقان شديد في قلبها . وبردت يداها ورجلاها . وغار الدم في شفثيها ،  
وفي خديها . وقبضت على راحة امير المؤمنين ، كأنها تروم ان تبثه الحياة ،  
وهي بحاجة الى من يمسك فيها الرثوع . وصرخت باعلى صوتها : تداركوا  
مولانا الخليفة . أليس فيكم من يستنقذ خليفة الرسول ؟

ولم تكن تجهل ان الضربة ماحية ، لن يعتصم منها المهدي بآمن ، والجارية  
المرموفة صبت بنفسها السم في ما التهم امير المؤمنين من قطائف . فالحق  
الصائر اليها من جرجان ، تحمله سعدة باشارة من لبابة ، اراق جميع مائه  
في الاكلة الطيبة ، وعلى التلذذ بمضغها ، وازدادها ، يعتكف ابو عبدالله .  
وحسنة ماسكبت السائل القاتل في القطائف المحبوسة على المهدي ، حتى دعت  
الخدم الى عرضها عليه ، دون سواها . ففعلوا . وكانت الفاجعة الريداء  
وتقياً الخليفة المرضوض المهجة . واستجار على امره بالله . فصاح الطبيب  
عندذاك : امير المؤمنين يعاني فتكة السم !



فالتفت الجميع بعضهم الى بعض على دعر. من اودى بسيد الدولة؟...  
من اذافه السمّ النسّاف؟ ... ما ابقى ابو عبدالله في صحفة القطائف على  
بقية يستدل منها على السمّ في الحلوى. واهتر المهدي واستغاث: من ينقذني  
ويشاطرني دولتي؟

ورلوت حسنة تخفي باعوالها اثما. ولطمت وجهها. وشقت جيوبها.  
واكتوى المهدي بالالم. وتلاشي نفساً في نفس بين زجيرة الحقد، ونجيب  
اللوعة. وطار الى الآفاق ان الخليفة العباسي الثالث جاد بمهجته. فتوتحت  
الاعطاف على مرح في جرجان. وجمدت العيون على رعب في بغداد. من  
الضارب الناحر؟ ... فراجت اقوال. واذيعت شوائع. وتحمز اثنان  
للوثوب الى الدكة. فتى جرجان، وفتى بغداد. وصال فتى جرجان ورعد،  
يميل الى اضرامها ناراً اكولاً. انه لصاحب الحق الامثل. وأسرّ الى زوجته  
لبابة بقول رضي: سلمت يد حسنة. صانتني من دم عارّ عليّ ان اذريه  
بنفسي. وكدت اسفحه لو لم اقع على من يقيني الشائبة!

فابتسمت لبابة ابتسامة تترجع بين الفرحة والحشية. فما مضى مخيف.  
الا ان ما سوف يأتي اخوف. وستتطاحن القوتان المتنابدتان عيناً لعين،  
وصدرآ لصدر. فهي السنة المئة والتاسعة والستون للهجرة. وقد اوشكت  
فيها الدولة العباسية ان تشرف على الاضمحلال، لولا ان يتداركها الحلم،  
ويشفع فيها السداد. فهزّتها بصرع المهدي كما هزّ الاعصار شامخ السنديان،  
ويكاد يقتلعه من جذعه، هشيماً يكفّنه الهشم

## الفصل الثاني

### قاتلة ابنها

١

طغت موجة الذعر على بغداد، بل على الدولة العربية في مسطرة تخومها،  
لذن نعي اليها ابو عبدالله محمد المهدي ، الخليفة العباسي الثالث ، وابن ابي  
جعفر المنصور ، مالى الدنيا رهبة ، وماحي العتاة

وراع القوم ان يتلاشى ، في ومضة خاطفة ، سيد ملء جوانحه العافية ،  
وظفاح كبده النشاط . فهو في الثالثة والاربعين . في مستهل الكهولة .  
الا ان الشباب لا ينفك يتواثب فيه على جمام . فتبسط عليه النضارة  
مواحتها . ويشع في طلعه العزم . وله من ضلعة ألواح ، ومناعة أعصابه ،  
ما يأبى على الوهن الناهك ، والفناء العاجل ، ان يدبأ اليه

وذاع في الدواوين ، والمجالس ، ومضارب الوبر ، والفلوات ، على منتهي  
آمادها ، ان ابا عبدالله قضى غيلة . فالشحنة ، المستأسدة في الصروح ،  
اودت به . ولم يكن يملك القدرة على ارضاء المتحاسدين المتنابذين . وجنح  
فريق الى القول ، لا يتحشم ، ان الهادي قتل اياه ، وقد سعى خلعه من

ولاية العهد. وثمة من روج ان الخيزران دوت المكيدة ليستتب لهارون الامر  
وهذا يجيب البرمكي الى صرح اساس على سهوم ورعدة . تداعت الخيلة  
المنظمة لقهر موسى والافتئات بحقه . فما نادى ابوه بخلعه كي يستأثر بالامر  
هارون . ونفرت الخيزران الى البرمكي ، وهي تبصره يلج باب مقصورتها ،  
هاتفه بمرير الالتباع : رأيت اي داهية نجتاحنا ، يا يحيى ؟ ... والله ، كسر  
الاوغاد ضلعي ، وقد حرموني الساعد القاطع ، والسيف الحامي . فمن لنا  
يتدبر بليتنا ، وينقذنا من الاضحلال ، ايها الصديق الاوفى ؟

وناحت السيدة الاثيرة ، وهي تجمجم فيما تسكب دمعها : لم يفتك به  
غير موسى . غادرنا اسداً زائراً ، فما عدا عليه ، بين ليلة واختها ، كي يتوسد  
التراب ؟ ... خصومنا غير نائمين عنا ، وهم يمدون عليه خطونا ، بل نفَسنا .  
كيف السبيل الى دره البلية ، يا يحيى ؟

وغاصت في النوح الخيزران . كل ما شيدت صار الى الانهار .  
فالموت العاصف بابي عبدالله فوض المنيع ، واطاح المرجو . لن يركب  
مقعد الخلافة غير الهادي . وهو ما يخضخض مهجة السيدة الاثيرة ، ويذيب  
املها . فاي سؤدد يبقى لها ، وابنها البكر ، الصلب الشكيمة ، سيقبض  
على الاعنة ، ويدير الامر على هواه ؟ ... قال البرمكي ، والكمدة تطبع بمسماها  
القائم اساريه : علينا بالصبر ، يا ذات الجلال . فليس لذي جبروت ان  
يعاند المقدور . مات المهدي ، وستنفذ فينا وصيته باقرار الهادي ، في الخلافة ،  
قبل هارون . ولا ندحة عن طأطأة الرأس للحكم المعلن . فالهادي خليفة المسلمين !  
فرض المقال الماصر كبدها . وهتفت بغيظ : لا ، يا يحيى . لن يتسلم  
غير هارون مقود الدولة . واذا كابر الهادي ، اوغرت عليه صدور الجند .

فأثيرها فتنة دامية ، جارفة ، لا تبقي من المناوئين على روح !

فلم يلهب البرمكي بما تلهب به السيدة الاثيرة من حنق يزيد عن المهدي . بل قال بحصافة الاريب ، العليم : مهلاً ، يا ذات الجلال ، ليس الزمن بالمؤاتي لاضرام الفتنة . ربما التهمتنا الهائجة ونحن نشعلها ناراً جموحاً . فالخزانات تضطرم في صدور الكارهين لبني العباس . وليس الكارهون بالعديد الضئيل . والحكمة توحى لنا بان نذكر رؤيا المهدي ، وان نعتد عليها في التدبير . لن يعمر موسى في السدة العليا . قصاره ان يدبر فينا الحكم سنة ، او بعض السنة . ولا يضيرنا ان نصبر على ضم يهضنا فترة من الزمن ، ثم تضحك لنا الايام عن نعرها الشئب . لعلنا خضوعنا باستسلام رصين للمشيئة المبرمة ، مخافة ان يقول فينا الشامتون اننا نخاذلنا حبال النائبة . وإن خدعتنا الرؤيا ، فلن نخزي في الركون الى البواتر تفلنا ما نصبو اليه من شهية ، سبين !

فما اصاحت له وهي تنهد الى العجلة . قالت والكره يغلي في دمها : لست اؤمن بالرؤى . انت تقذف بالقول الضغث ، يا يحيى . اذا اجننا للهادي ان يسود ، فانه ليطوينا الواحد تلو الآخر . ويزجينا الى الارماس نتوسدها . فالسلامة في المقاومة . والغلبة في الطفرة . ان الجند ليحاربنا ، والدولة على رحبتنا تدعنا ، وقد رسا في الاذهان ان الهادي قاتل ابيه . لنشعل الثورة ، ايها البرمكي ، والفوز لنا !

فمنع في اضرام الثورة . لن يفسح للشهوات الرواكد طريقاً الى الانفجار . فما ان بوصم الهادي بتهمة القضاء على امير المؤمنين ، ابيه ، حتى يتحفز للوثوب الطالبيون ، والعلويون ، والحوارج ، والفرس ؟ ... ومن لهذا

التيار المنتمّر يصدمه ، وسيطفي على كل نخم ومصر ؟ ... فتضيع الخلافة على العباسيين ، ويتحكم فيها اخو نزوة ، لا يطبق ظل موسى ، ولا خيال هارون. فيجئت ارومتها. ويقضي على الخيزران ويحيى وسائر اللف. قال البرمكي : اوثر ان تجنح الخلافة الى الهادي ، يا مولائي ، على ان يقتنها موتور قبيح. فلا بأس ان تنتهي الى موسى ، وتسلم من انياب اعداء البيت العباسي . فلست تدري اي شر يعول ونحن نفرع الى الفوضى كي نشفي بها الاضغان . علينا ان نتقي الندم ، يا ذات الجلال . فما يبرح موسى ابنك . ومهما نغم عليك ولدك ، فلن يدفعا الى الهوان . لكن على نزوة من رصانة ، ولنفتح للهادي صدورنا . فمن المحال ان يتعبس لنا ، ونحن نقره على ما اقره عليه ابوه !

فجلجلت الخيزران : لكأنك اصبحت من شيعة الهادي ، يا يحيى !

قال ابن خالد البرمكي : العاقل من اتقى جموح العاصفة، ايتها السيدة الاثيرة . فليس لثنا ان يعتمد على الشغب ، في موقف يفرض علينا السكون. سنبايع الهادي بالخلافة احقاقاً لمشيئة المهدي، ونغم مودة الناس، وندراً عنا ظنة الفتك بابي عبدالله . وعندما يقبض موسى على الزمام ، فلا بد ان تساوره عنجهيته ، فتتفر منه الرعية ، وتعلو مكانتنا ، وتوجه الينا الانظار . وتقبل الينا الامامة طائعة ، بل مستجيبة . فلا نكلف انفسنا الا الهدوء في سريرها . واذا طال عهد موسى في الحكم ، وجرت سفينته في مهج يبح مؤاتية ، فلا يصعب علينا ان نضرب الابن بسلاح اردى الاب . رواحدة بواحدة . والبادي، اظلم !

— أنقله حين تسمن ضلعه ؟

— ما تميل اليه اليوم سيدتي، سنحاوله في الآتي ، ولا خشية من سمانة  
الضلع . وكل ما علينا الساعة ان نتربث . فالتأني نعمة من نعم السماء !  
فتأوهت ونبرت : انك لتغلبني على امري ، يا يحيى !  
فاوضح : بل الزمن هو الغلاب ، يا ذات الجلالة . وكل ما علينا ، كي  
نستدرجه الى المواممة ، ان نسايره في حكمه ، حتى اذا ما والانا ، قبضنا  
منه على الناصية ، ودفعناه في خدمة مآربنا . المهدي قضي ، فمرحباً  
بالهادي . ليس لنا ان نكافح المقدور !

فكبح جماحها . واحست بالهزيمة ، فبردت حديتها ، كالقدر الفائزة خمدت  
تحته النار . على انها جبرضت بريقها . ودل الاكفهرار في معارفها على احتمالها  
القهر ، على كره منها . ونادت اليها الرشيد وزبيدة ، تقول لهما بلهجة كابية :  
هل سمعتما رأي يحيى في ما يدعوننا اليه الموقف من سعي ؟

فاستوضحت زبيدة بشوق : وماذا يرى السيد البرمكي ؟  
فاعلنت الخيزران ، وهي تتلفف : يحيى يبب بنا الى الاستعانة بالتؤدة .  
فلا نطالب ، ولا نخاصم ، بل نوقب وفور السانحة !  
فدغم الرشيد باحتراس ، وقد راعه ان تغضب أمه : ليس لنا ان نصدف  
عن نصيحة البرمكي . فهو ابي ، وقد مات ابي . لك ان تقضي بما تشاء ،  
يا ابا الفضل !

فألقت الخيزران على ابنها نظرة ساخطة ، تتلظى امتهاناً ، وصاحت به :  
أراض انت بما يذهب اليه يحيى ؟ ... كنت احسبك أحمي أنفأ . أيرورك  
ان يسود اخوك وتخزي ؟  
فصغ وجهه الاحمرار . وسكنت نامته وهلة . قال البرمكي ينجده :

لا تغضي عليه ، يا ذات السنى . فهو قرين الصواب . ليس لنا ان نبيع  
للاخوان ان يتقاتلا ، وما يبرح الاب في نعشه يرقب من يدفع جثثانه الى  
التراب . سنشخص الى قرية « رزين » ، في « ماسبذان » ، ويتولى الرشيد  
الصلاة على ابيه قبل دفنه . وينادي بالهادي ، فيبايعه . وتنطلق الدولة في  
خطوها المأمون ، لا تزال بها القدم في منحدر صلد ، فيكتب لها البوار !

فاعلنت الخيزران : أنبايع ونحني الهام ؟

فاذاع يحيى البرمكي بسطان اللبيب ، الواثق بصحة بيانه : لا معدى  
عن المبايعه . لنجنع الى مفروض الحكمة ، يا أم موسى !  
فضربت كفاً بكف ، وهتفت بالتبايع : واويلاه ، انها لكسرة كاسفة  
لا قبل لنا بها !

غير انها لانت وألقت امرها الى البرمكي . فهو الصديق النصيح ، الباقي  
على الدهر . وليس لها ان ترتاب منه بولاه ، ولا بسداد رأي . واجال يحيى  
في الرشيد عينين تنضحان بنزفة من امر ، وقال بنبرة جازمة : هلم ، يا هارون .  
ليس لنا ان نتأخر عما يجب بنا اليه المقام من صلاة ، وجنازة ، ومبايعه !  
وجرى بهما موكب حفيل حزين الى « ماسبذان » ، لا يداع المهدي مقره  
الاخير . هذا ملكٌ ضخم يلفظ روحه ، وعلى بطانته وشعبه ان يبذلا الوسع  
في الترحم عليه . قال يحيى ، وهو يحث السير بجانب الرشيد ، الى المآثم المعقود  
في ربوع فارس : حذار ان تبدر منك رعشة خوف ، او فورة حدة .  
فافعل كأن الامر يجري عفواً . فلا مكيدة مدبرة ، ولا خصومة تفصل  
بينك وبين اخيك !

فاعلن الرشيد : ساعمل كأن ابني مات قضاء وقدراً . فلا يد اطعمته

السم اضطفاناً عليه . ولا بغضاء تبعدني عن أقرب الناس إليّ . كلنا في  
المصيبة على معادلة ، يا أبتاه !

واشرف الموكب بجلاله على « ماسبَدان » . وبلغ قرية « رزين » واجماً ،  
مرضوض الحشاشة . وولولت حسنة . وتنتفت شعوها وهي تبصر الرشيد  
ويجيبى البرمكي . فالحُوف من ان تعرفوها الظنة اهاب بها الى الامعان في  
ابداء الجزع والنحيب . وخلعت عنها حللها الزهر ، وارتدت المسوح .  
وحلت غداثر شعرها ، وعافت الحُضاب والمساحيق . واحمرّت عينها لفرط  
سكب الدمع . واعولت والرشيد والبرمكي يدنون منها : يا للويل . انهار  
صرح المروعة ، وتداعى ركن الجلال والجود . فمن للبلية القادحة يدرأ عنا  
اهوالها ، يا هارون ؟

فبكى الرشيد . وأطفّ حاجبا يجيبى على عينيّه ، وانتشر في اساريه  
القطوب . ولم يلتفت الى حسنة وقد لمس في عبراتها الكلفة . بل أكبّ  
على الجثمان الوقور ، المعروض على دكة عالية ، وقبل راحته . وحذا حذوه  
هارون . واطلق على ابيه الدمع المتّان ، وقد شعر بجسامة الفاجعة

وناحت النائح على موئل الكرم ، ونبعة المعروف . وكبّر الجند .  
وتعالت صيحاته الملتاعة . ان الخطب لجلل . ووقف الرشيد ، فضلى على  
ابيه ، ونادى ببياعة اخيه الهادي . فلم تصدق الآذان ما يسقط اليها . هل  
اقدم هارون على المكرمة السمحة ، وتناسى ، في الموقف الفصل ، ما بينه  
وبين اخيه من تنافس مرير ؟

وجالت النواظر في النواظر دهشاً واعجاباً . موسى الهادي اضحى امير  
المؤمنين . وباع الناس . وطاب قلب يجيبى البرمكي . هذا ما ابتغى .



ويأبى الدهاء انتهاج مسلك آخر . فالعدول عن وصية الراحل ، المعلنة ، طعنة  
في صدر الدولة العباسية . بل قذيفة في ركنها لا تسلم بها من التدمير  
وقفل القوم الى بغداد يحملون من « ماسبذان » اوجع ذكرى . واقاموا  
يرصدون مجيء موسى الخليفة ، وقد بايعته الامصار العربية جميعاً . والهادي  
ركب دواب البريد . وأطلّ بعد مسير عشرين يوماً على الزوراء ، مرفوع  
الهامة ، ممتلىء النفس اعتداداً . ولم يشأ الالتفات الى امه بعين شزراء . فهفا  
اليها ، فور بلوغه بغداد ، يقبل يدها ، ويذرف دموعه سخينة على ابيه ،  
ويقول بحرقه : ستظل امي في مقامها السامق . فكأن المهدي لا يزال ملء  
العين والاذن . وهي من قبل ، ومن بعد ، طريقي الى النور . فلن تهمل  
لها طلبه ، ولن يزدري مقال !

فاستفاض الخيزران في اذلال الدمع . وقبلت ابنها البكر في جبينه .  
وتمت بحرقه جنان ، وخيبة امل : ابقى الله لي ولدي . فجعتني السماء بالعقل  
المدبر ، والقلب المؤاسي ، الا انها لم تحرمني جناحي . فما ازال قادرة على  
الخطو ، حتى وعلى الطيران ، باعتادك ، يا موسى ، واعتاد اخيك هارون !  
وصافح موسى اخاه الرشيد ، وعانقه ، واعلن : هذا اخي ، معقد الرجاء  
فيما . فكن بجاني سيفاً مسنوناً ، ولك الامر من بعدي في دولة العباسيين !  
وسجد بين يديه يحیی البرمكي يذيع خضوعه . فقال الهادي : لا تصدف  
عن الرشيد ، يا يحيى . فانه ليجتاج الى خمير رأيك ، وينبع اخلاصك . نحن  
في هذه الدولة يدٌ واحدة ، وإن تعددت اصابعها . وسندفعا في طريقها  
المرسوم ، وقد مهده لها جدي المنصور ، وابي المهدي !  
وخطب في المحتشدين في باحة القصر يقول : مات المهدي يتغمده الله

برضوانه ، وقام فيكم على اثره من ارتضيتموه خليفة وسيداً . وستختبرون  
من حذبه عليكم ، ومن حسن مداراته لكم ، ما توقعون به ان اليد الساقية  
العطاش ، المضمة الكلوم ، لا تبرح تسوسكم . فالمنصور والمهدي اقدمما  
فيكم على نظامين مختلفان لوناً ، وان كانا يتشابهان جوهرأ . فالشدة البادية  
في المنصور ، تراخى عنها المهدي ، مع سعيه لاعلاء شأن دولة ترسو على  
عواتقنا تبعاتها . اما انا فسأجري فيكم على منوال لا هو الشدة على اقصاها ،  
ولا اللين حتى اطرافه المائعة . فسالموا وانتم بنجوة من النخعة . كل ما على  
الوالي ان يقود الرعية بعدل وحزم !

فعلا الهتاف : عاش الهادي امير المؤمنين !

على ان القوم احسوا بالعنف في المنطق ، والدلّ في الوقفة . وما ندّ  
عنهم انهم حيال فنى في الرابعة والعشرين ، لم تحنكه التجارب ، ولا خففت  
من غظرفته السن . فما يبرح اعجز العود ، على لدونة إهابه . غير انهم  
أعجبوا منه بالصلابة ، مع نفورهم من الطغيان . فانهم ليطمثون الى الاعتزاز  
في السادة . وانصرفوا وهم يرددون فيما بينهم : في الهادي منعة المنصور  
وبطشه . فعلى اللاعبين بالنار ان يتثدوا . عهد الحلم انقشع ظله !

غير ان المهدي لم يكن دون ابيه بطشاً . الا انه قصر عنه جلالاً ليفوقه  
كرماً . وهمت الخيزران في اذن البرمكي : ماذا يلوح لك ، يا ابا الفضل ؟  
فاجاب بحبي راضياً عما بدا له : لا ارى الا الخير ، يا أم موسى !  
قالت : ألا ينشب فينا محالبه ؟

— لا احسبه يفعل ، وحاجته الى رضانا ليست دون حاجتنا الى رضاه !  
فاطرت السيدة الاثيرة . فما الخليفة سوى ابنها . والابن في رفقها

اشبه بالزوج . فلن ينساب الى لبه العقوق . بيد انها تعرف من قسوة الهادي ،  
ومياه الى الاستقلال بالرأي ، ما يعني عن البيان . وهو ما تكره فيه . على  
انها مالت الى الظن بانه لن يؤلم فيها رهاقة الحس ، وما يخفى عليه انها أمه ،  
وان الله دعا الى اكرام الوالدين . وودت لو كان هارون في مرتبة موسى .  
الا ان الافدار جنحت عن النصرة . وعلى الخيزران ان تدعن للراهن الواقع .  
فالمناضلة وخيمة المغبة ، كما قال يحيى البرمكي . ولكن أترضى الاتزواء في  
صرحها ، كأنها في صومعة ، من وهب لها الخليفة الراحل الدنيا وما فيها ؟ ...  
ان حاشيتها لتقدر عليها اعانتها على امورها . فهل يجيبها الهادي الى كل ما تلتبس  
من رجاوة ورفد ؟

هي تقوى على استدراج موسى اليها ، لولا لبابة وحسنة . اما وهناك  
الموسوستان ، إمرأته والجارية المرموقة ، فليس لها الى الاستظهار عليه سبيل .  
وباتت أم موسى تهاب الجارية حسنة ، بعدما ازدرتها ، في عهد المهدي ، حيناً  
طويلاً . الا ان المهدي ركدت ربحه ، وانطفأت روحه ، وليس ما يمنع ان  
يقم الهادي جارية ابيه في كتلة نسائه ، فتبيت ولبابة ججراً متعالى الفحيح ،  
تنفث فيه لهاتان ، طافحتان بالسم ، وشاياتهما بالخيزران . ورهبت السيدة الاثيرة  
الغد الطالع . وراعها ان يهي ساعدها ، وتزلّ قدمها . فاستطلعت البرمكي  
بألم ناحب : أظن تلك الاثيرة في عهد موسى ، كما كنت في عهد المهدي ،  
يا ابا الفضل ، فلا تُردّ لي كلمة ، ولا يجيب سعي ؟

فادرك البرمكي ما ترجع فيه من هول . وقال ينفي عنها الوهلة : لا  
اراه يجحد أمه . فاذا ما داريناه لقبنا فيه الالف الصفي !  
فغارت في سهومها . ان الضربة لقاصمة . ولكن على الخيزران ان

تتقي وقعها باللين والمداورة . فلا تبدو جافية ، مستنصرة ، كما ظهر منها في  
ايام ابي عبدالله . ويسحق روعها ألا تبقى تلك السيدة الاثيرة ، الملتوية في  
حضرتها الهامات !

واقبلت على الرشيد تضمه الى صدرها ، وتبكي وهي نجمجم : حرس الله  
مهجتك ، يا عين أمك . هذا حظنا من دنيانا . فلم يكتب لنا بلوغ الارب .  
فلا تمتعض ، ولا تغضب . لا بد ان ينجلي الافق ، ويصحو الجو !  
ولم تكن تدري كيف تنجاب الغمامة الربداء . فالهادي لا يبرح في  
الريق من العمر ، سليم البدن ، منيع العضل . فاذا ما رقت موته ، فكأنها  
ترقب ماء من صخر ، بل رفقاً من ذئب . وضحكت في نفسها من رؤيا  
المهدي . قضيبٌ يورق اعلاه ، وقضيبٌ يورق كله . وغمغت بلذعة في  
حوانها : اضغات احلام !

وما انفكت تشتهي ان يموت ابنها البكر . ولو اتفق لها الساعة ، مع  
كل ما تستمتع به من عطفه ، ان تلوي عوده ، لانزلت به الموت . فالبعض  
المستشري فيها ما فتىء يأكل من لحمها وخيلائها . وان تكن تحتل تزق  
موسى ، فما كانت لتطبق دلال لبابة ، وغطرسة حسنة . وهو ما يستل منها  
الزفرات اللهاب

وكادت تتمزج وهي تبصر حسنة متلفعة بالمسوح ، غائصة في الحداد على  
المهدي . وأفضت بسخين شجوها الى الرشيد وزبيدة ، قائلة بألم يستشيط  
غلاً وسخطاً : هل ابصرتما ما هو ادهى ؟ ... قتلته ولبست عليه الحداد .  
يا للختالة ! ... مات فيها الحياء والاباء . قضت عليه ، وبكنه . هل من  
مكر اسفل ؟

وارتجفت السيدة الاثيرة حنقاً . فقالت زبيدة ، ولم تكن دون الخيزران نقمة  
على حسنة : انها لتلعب بنا جميعاً . وسوف نلقاها تداور موسى ، كما داورت اياه .  
فتحتل لديه ما ادركت لدى ابي عبدالله من حظوة . وربما ... وربما ...  
فهتفت الخيزران بصوت أجش : وربما زحمت في مودته اختك لبابة .  
أليس هذا ما يروفك ان تعلمي ، يا ابنتي ؟

فابدت زبيدة : هو ما اوضحت امرأة عمي . ستلقى لبابة الضنى من كيد  
حسنة . والله ، لتنتزعن منها الهادي بحيلة تضرب بها الامثال في القهر  
والمراوغة . غير ان لبابة هي الجانبية على نفسها . فلولاها لم تبلغ الحال ما  
بلغت من الشدة . وعلى من يدلل النمر ان يحتمل نهش انيابه ، وخذش  
مخالبه . انقذ الله أخي من الشر المهدد بالوبال !

وسكت الرشيد ، وكل ما يلوح له لا يرضيه . فلا أشر اخيه ، ولا نفار  
امه ، ينزلان منه منزلة التأيد ، وهو طالب مواهمة وموالاته . وساده  
اليقين ان يداً ائيمة بطشت بآبيه ، وما مات المهدي عفواً . ولكنه لا يملك  
الدليل على المأثم والآثم . وبمن يلتمس ائزال العقاب بالجاني ، ان يكن ثمة  
من تعمد اختلاس الروح ، وقد يكون هذا الجاني ذلك المستأثر بالناصبة ؟  
لقد انساب الى عرف هارون ما تواضع عليه ، في البسطة العربية ، اهل  
الرأي والفتنة . حسنة اطعمت ابا عبد الله السم بوحى من الهادي . على ان  
الحجة ، على صحة التهمة ، بائدة الاثر . فاللفظ بالشائعة يزيد في اضرار  
الشحناء ، وفي الجمعية بلا نفع

وآثر هارون ان تطوى الافاريل صوناً لجلالة السلطان ، ولاحدوثه  
البيت العباسي المستوي في الذروة . وما حفل بنزوع حسنة الى اخيه الهادي ،

ولا بسعيها للمواربة . فكل ما نهد اليه ان يستقر الامر بنصابه ، وان تجري  
الدولة في طريق مأمون ، غير محفوف بالهلكة . ولم يقلقه ان يسمع من  
عيونه ان حسنة تغدو وتروح الى اخيه الخليفة ، لتبكي بعين ، وتضحك بعين .  
فتتلطف على المهدي ، وتغتنط بركوب الهادي سنام الملك . وتطلب انصافها  
برفعها الى مرتبة نساء الخليفة ، وهي من دفع موسى الى المقام الاسنى . فقد  
جاهدت حسنة ، في معتقد الرشيد . ولمن يجاهد الحق بالمكافأة . فاذا ما  
اجازها موسى ببعض ما يعادل صنيعها ، فما اتى امرأ إداً

على ان هذه الجائزة ستدوم بدوام الهادي . وبعدها سيكون للرشيد  
رأيه وحكمه ، اذا بقي في عداد الاحياء . وخطب من جاء يقص عليه اخبار  
حسنة بقول حازم ، حشن : دعوني من نفن الخنفساء فينفاقم به اشمزازي  
من ابنا الدنيا . حسنة تبحث عن خيرها ، وعلينا ان نبعث عن خير البيث  
العباسي . فلتحاول ما تملك من وسع ، وسنحاسبها في زيغانها ، اذا وفقنا  
 يوماً للمأربة !

واطلق لهذه الساعية للتقويض ، كي ترتقي على الانقاص والجهاجم الى  
مظامعها ، يدها في الكيد والنميمة . فما جنح بها عن الاخلاص سوى غيرتها  
من أمه الخيزران . فلو توارت السيدة الاثيرة ، من الساحة ، لظل المهدي  
ينعم بالبقاء . الا ان إلاح أم موسى في امتلاك كل وزين ، وحجب كل  
منافس ، قضى على ابي عبدالله . ولتنتد لبابة . والالقي الهادي مصير ابيه ،  
وحسنة عين مفتوحة ، ويد مقووضة

على ان موسى ولبابة لم يتجهما لحسنة ، بل جاوزا في اكرامها الامد .  
فما بدت للهادي في مسوحها ، نخر ساجدة بين يديه ، وتقبل الارض ، وكان

قد بلغ بغداد ، وخطب في مبايعه خطبته الصاعدة ، حتى هتف بها : تعالي  
اليّ في العتمة ، يا حسنة !

وشقت لهجته عن العطف والرضى . واطاعت الجارية المرموقة . فحبت  
اليه فيما تغور بغداد في الظلمة . وما استأذنت عليه حتى كان ينهض اليها ،  
فيقبض على ذراعها الرافعة ، ويقول بجزيل البشر : دام لك الانس ،  
يا حسنة . امانتك لي درأت عن نفسي الوحشة . وانقذتني من تلطبخ يديّ  
بدمه ، وهو ابي . شكراً لاريجيتك المثلى !

وامال بها عليه يختم بشفتيه مبسها . فامعنت في الالتصاق به . وتنهدت  
عن فيض اشواق . وتمتت بجنين ظمئه الى نقع الغلة : مولاي ، ما اهانها  
من ساعة !

رابت ان يلتوي عنها الا وقد اسمعها انها اضحت من نساءه ، بمقام  
لبابة نفسها ، او تلو لبابة . وما ابطأ في الابانة ، وليس يجهل ما وعد به .  
قال ، وهو يشدّ حسنة اليه حتى يكاد يصرها ، لفرط اكباره محاسنها :  
ستكونين من نسائي اقراراً بجميل سعيك . فانت في حريمي بعد سيدة  
أنسي ، ومجلى بلاطي ، لبابة !

ولم تكن تطمع في ما يسمو هذه المكانة . لبابة في الطليعة ، وهي في  
اثر ابنة الاكرمين . فلن يسعها جناحها في الطيران الى ما يجاوز هذا  
المدى . قالت وعيناها تبتلان بدوب الابتهاج الثري : شكراً للسماء ،  
وقد التفت اليّ امير المؤمنين !

ووهبت لقبلاته جيدها وصدورها . وشاقتها فيه الفتوة المخصاب ، والجلالة  
السامقة ، فتراخت بين يديه عطية خالصة . هي عبدة من عبدانه في ميولها

واحاسيسها ، وستجري في خطوه مستميتة في رضاه . فلم يذهب مجهودها ضياعاً ، وقد جازفت لاجل الهادي بجياتها ، فيا تسقي اياه نقيع السم  
وتفتنت في نفعه بالملذات الكامنة في دمها الفوار . فكانت بجانبه اشبه  
بها في حزن ابيه ، وقد رنحتها ساعة الاستسلام . فهتف الهادي بجذل ريتان :  
ان فيك لنواضر ايكاراً ، يا حسنة ، لا اراني وقعت على نظائرها . كان ابي  
سعيداً بقربك ، وانت تسرفين في هذه العطايا السماح !

فتذكرت كلمات ابيه . بمثل هذا المقال المانع الدفء كان يخاطبها  
ابو عبدالله ، وهي تسخو عليه بكل ما يختلج فيها من شهوات لواعج .  
وايقنت انها قبضت على زمامه . فما من خيزران اخرى تصدف به عنها  
قد يؤلم لبابة ان تتصدى لها من تنافسها في مودة الهادي ، غير ان حسنة  
ستبدل ، من نفسها ، ما يميل لبلاية الى وثيق الايمان بانها السيدة الاولى في  
نهيبة امير المؤمنين وحرمه . فلن تجد فيها ذات استطالة على الحق المصون .  
قالت حسنة تعالن الخليفة المطمئن فيها الى نوافج الطيب : كل ما تنبض  
به عروقي من شعور تتأجج به روحي ، وانا انعم بعطف امير المؤمنين .  
هذه المنة المخلوعة عليّ تجنح بي ، الى اليقين ، اني اسعد الناس !

وألقت رأسها الى كتفه ، متممة بتوهج الفرح : نلت من زمني ما  
اشتهي ، يا مولاي ، وانت تملو بي الى حيث يحتجب عن عيني زينة القوم ،  
ولا يبدو حتى الاقبال . ولكني اربأ بنفسي ان اكون عقبه في طريق لبابة .  
فاني من زوجتك المجلوة لصديقة ، لا يقلقل طماح ولاها ، ولا زحام .  
فهي في البدء ، ونحن في الاثر . واذا قضت عليّ بان اتوارى عن حنانك ، فاني  
لانزع ، مكتفية بما اسبغت عليّ من عطاء ، ما حسبني ابلغه في يقظة .



فان صداقتي للبابة تفرض عليّ ما تستطيب السيدة الاولى من تضحية !  
فقال باسماء ، وقد راعه ما تحقق به نفس حسنة من عذوبة وفداء :  
لبابة تلقى فيك اختاً صادقة المبرّاة ، يا حسنة . فلا يخطر لها حيالك انها  
ازاء ضرّة ، تسومها القهر ، وتثير فيها الغيرة . وخير لها ان اجنح اليك ،  
من ان أهيمن بمن لا تطيق لها ظللاً . فلا اراكما تتناهشان ، وقد امسيتا معاً  
في مقدمة نساء الخليفة !

قالت حسنة بمديد الاستكانة : بروحي لبابة ، ولست ارضى ان اعكّر  
عليها صفو الماء !

فعاد يضمها بعنف ، وهو يجاهرها برفق وبشاشة : اذا طاب لك ان تقفي  
على رأي لبابة فيك ، فاني لاصارك بما كان بيني وبينها في حديث عارض  
عنك . قالت : « حذار ان تغفل عن حسنة ، يا موسى ، وهي تذيب لاجلنا  
النفس والمقام . فالخيزران تفلوها ، وتريد لها الموت . وهي تناوى الخيزران ،  
وقد سبقتها في عطف ابيك . فاذا ما ظفرت بما ترجو من سيطرة ، وركبت  
مقعد الخلافة ، فلا تنس الباذلة المتلاف . فلنكن من نساءك ، لا من  
جواريك . ومن الفرحة لي ان اجدها على كذب مني ، وقد بنتا على هوى  
ودين ! » . ومن تبئني هذه النجوى ، فليس يؤلمها ان ارقى بك اليّ .  
يبهج قلبي ان تسمي ولبابة على وحدة في الميول . ستقبل وشيكاً من جرجان ،  
وتهنئي بك ، وتهنئك بالتمهيد لنا الى هذا الموئل المنيف !

ولبابة ما زالت في جرجان . ولما بدت في بغداد ، وألمت بما كان من  
الهادي في حسنة ، ظفرت الى جارية الامس ، واحدى سيدات اليوم ،  
تعانقها ، وتذيع فيها ببشر فيّاح : هذا قليل فيك ، يا حسنة ، وما اديت

الينا من خير جلا عنا الظلمة . ان البلاط ليزدان بمثلك ، وانت فينا على  
نضيد روعة ، و باهر و فاء . وليس من العجيب ان تصبح الجارية المرموقة  
سيده مرموقة . فكل جائزة اجراها عليك امير المؤمنين دون ما وجب لك  
عليه . فما انصفك الا وقد ضمك الى حظيرة نساؤه . فمنحك حقك من  
الاکرام !

وعادتا تعانقان . و قهقها معاً ، قهقه الشمانه ، و اسم الخيزران يعرض  
لها في الحديث . قالت حسنة ، وقد اشفت من السيدة الاثيرة بازالتها عن  
مكانتها الشاهقة : لا احسبها تنفض منها ما انتابها من خمول . فالذروة  
تصدعت بها ، فهبطت الى الحضيض . انها لنهاية كل متغطرس حقود . تاهت  
علينا ، في عهد عمك المهدي ، حتى امسينا حياها نكرات ، بل حشرات .  
فهدمت كل ما بنينا ، وعبثت بكل ما ابرمنا من عهود ، كأنها من سوا في  
الاعاصير . و ملّ المهدي سعائياتها و غرائبها ، الا انه كان يجد نفسه حياها  
مكرهاً على الامثال ، كأن لها عليه السلطان القهار . فنقوده في خدمة  
مقاصدها طائعاً ، حسيراً ، وقد تلاشت فيه كل عزيمة على المغالبة و النكوص .  
بيد ان زمن الامس التوى ركنه ، و انكسفت شمسه ، و اضحى زمام الامر  
بايدينا . فماذا نستطيع المرخوضة الذرع ؟

فقال لبابة بفضاض الانس : ظلت ترتع في لحوم الناس ، و تدكّ  
منعاتهم ، حتى رتع النكد في لحمها ، و اذلّ ناصيتها . على ان الخير في محوها .  
والا ان هي بقيت تنفس و تعيش ، فليس ما يحول دون خطبها مودة ابنها .  
و بوسعها اذ ذاك ان تنفوق ، و تستعيد مقامها الاثيل ، وهي ترخر بدعاء  
نقصر عن حجب صولته ، و الحؤول دون منشوده . فالحكمة تدعو الى

الإبادة، لا إلى الاكتفاء بقطع ذنب الأفعى. فإذا ما ارتقت عند قدمي ولدها،  
مستجيبة لفضي، تناسى الهادي حقه عليها، وأباح لها الأزدلاف إليه، فترتقي  
على رغمتنا إلى قمة أنحدرت عنها. فحذار، حذار، يا حسنة!

فانسع امام حسنة أفق كان مغلقاً عليها. فما يمنع الخيزران أن تستعيد  
مكانتها، وتغزو موسى، وهو قطعة من كبدها، كما غزت محمداً زوجها؟...  
فإن يكن الهادي ذلك الناظم الجبّير، فما خلاصيره من سلامة طوية أبيه.  
فيعفو عن المسيء إليه، وقد استوفده السماح. ولا بد لحسنة، وهي تروم  
العيش الزلال، من أن تقطع على الخيزران كل طريق إلى الهادي، والأهان  
على أم موسى التوغل إلى حيث يتراءى لحصومها أنها تنوء بالعياء. فإذا ما  
فجعها موت المهدي بتعظيم رجلها، وقصّ جناحها، فلن يطول الأمد على  
نمو الريش، واندمال الجراح. والتفتت حسنة، إلى لبابة، تقول بغيظ وثاب:  
اجل، علينا بسدّ كل منفذ لها إلى موسى. والآنمكنت من استهوائه، وقد  
تغذى بلحمها ودمها وليانها. فالأمومة تغري، يا لبابة. صدقت، يا ابنة  
جعفر، لا يحيد عن سحق الرأس، بعد قطع الذنب، والأولانا الحسيف،  
وشقينا حيث ينجم لنا اننا بامان. فما عرفت مكرّاً تنطوي عليه حنايا  
خبيثة كحنايا الخيزران. ولقد لاح لي، يا اختي...

وسددت إلى لبابة عينين معكرتين، تسودهما الوهلة. فقلقت لبابة  
واستوضحت جازعة: ماذا لاح لك؟... ألا اوضعي!

— لاح لي أن ما تحشين أطلت بوادره. فلنكن على يقظة. موسى هفا إلى  
أمه، فور رجعت إلى بغداد، يعزبها بابيه، ويعدها باستبقائها في حظوتها.  
فأنحى يقبل يدها، وينفي هواجسها. لن يسيء إليها، وهو في عنفوان

مجده ، كما اساءت اليه في ريعان عزاها . بل يهب لها ، من القدرة والحول ،  
ما كانت تقيس فيه في سطوع عهد ابيه . وهي كلمات انعشت من روح  
عبدة النار . فاستشقت منها الخيزران رسوخ السعد في طاعتها . واستعاد  
بها يحيى البرمكي الروح ، والهادي كلفه المضي في تأديب الرشيد . ان شيعة  
فارس لمستمرة في مناواتنا ، ونحن سادة هذا العهد ، يا لبابة . فهل ترضين  
عن خذلاننا ، حتى ونحن نرفع الراية بايدينا ؟

فارتاعت لبابة ، واستفهمت بلجاجة : هل اقبل الهادي على امه يلثم يدها ؟  
— هذا ما كان منه ، يا ابنة الخير . فما وطىء ارض الزوراء ، حتى  
وثب نواً الى صرح اساس ، يعزي ويفيض بالمواثيق ، كأنه يجهل من  
هي الخيزران !

فتفت لبابة ، وهي تنتفض ألماً ، وقد وقع ما تحاذر شره : ما خيل  
اليّ انه يقدم على هذه المفقوة . اما وقد فعل ، فزاد في ضرورة احتراسنا  
من حبال الفارسية الغدور . لا ندحة عن ابادتها كي نجيا . وليس للسم  
المودي بابي عبدالله ان يعف عنها !

فما ابطأت حسنة في الموافقة . قالت : هو ما اعلنت ، يا لبابة . جنت  
على المهدي باحتكامها عليه ، وستجني على نفسها ، إن يحدثها طماحها النازي  
ابداً ، بالاحتكام على موسى . فالموت واقف لها بالمرصاد . وجلّ ما علينا ،  
قبل افنائها ، ان ندعو امير المؤمنين الى التحرّز منها !

وتوائب فيها الكره شديد الغليان . أتستعيد الخيزران مرتبتها ، وتستعين  
بمناوئها ، حتى وهم يتقلبون في مهود النعمة ؟ ... انها لنكبة لم تنبض في  
ظن . قالت حسنة : لنندفع الى امير المؤمنين ولنطلعه على الملمة المتحفزة

للاقتضاض . فما اراه يرضى عن سيادة عصابة الشر . والا ظلت الفخاخ  
الفارسية منصوبة ، في وسعة الدولة العربية ، للاقتناص والاعتبال !  
واندلعتا الى امير المؤمنين لسانين مسنونين ، يطعنان وينحران .  
فاخيذران ، الفارسية المنتمى ، تحاول ويجيبى البرمكي ، الفارسي الجذع ،  
اطاحة الدولة العربية . فالوشاية المستفيضة في حسنة ، على مسمع من المهدي ،  
ستتردد في وعي الهادي . الا ان السيدة المرموقة - وقد خلعت عنها لقب  
الجارية - نسبت انها تواطأت ، والهادي نفسه ، على نفث الاشاعة في اذن  
ابي عبدالله . فهل تفلح في اقناع من حبك ، واياها ، دسيسة الامس ، بانها  
على صدق في اذاعة نعمة اليوم ؟  
ابدأ شبح الخيذران . فكم تملأ الخيذران في فسحة العرب من مدى .  
وكم يخلع الاكباد مرآها الرهيب ، المهيب . فكأنها من دنيا العباسيين اصغراها ،  
خافق القلب ، وحديد اللسان !

يحيى بن برمك على مستطيل بسمه . هوى المهدي وما تزلزلت الارض .  
 فالعز المبسوط الرواق ، لا يبرح ركين الدعامة . فما خشيت الخيزران ،  
 من الهادي ، بددته حرمة الامومة . فالسيدة الاثيرة لا تزال تلك السيدة  
 الاثيرة ، وقد حباها موسى السلطة والجلال  
 وشاق البرمكي نجح تدبيره . فما كان على ضلال وهو ينادي بالتريث ،  
 وبانالة الهادي حقه الصراح . فالشر لم يعصف بالخيزران ، ولا بالرشيد ،  
 وهما يجريان في مشورة يحيى الصدوق . فالهادي ، وقد تسم السدة ، لم  
 ينكر لأمه . وما هي ذي الايام نواتي الخيزران ، كأنها لم تنسلخ من عصمة  
 ابي عبدالله . قال البرمكي ، وهو يبدو في حضرتها منبسط الاسارير ، قريـ  
 العين : ماذا بدا لذات السني في اقراره على ما ارتأيت ؟ ... ألم يكن  
 موقف السعي يحيى البرمكي فيما ينسادي بالتؤدة ؟ ... لا نبرح في مستقرنا  
 من السؤدد ، يا مولاتي ، والهادي يب لنا حرية المهزة . فكأن البلاط لا  
 يزال مشوانا ، وانف لبابة راغم ، ونفس حسنة خانعة ، ومداء . حاول  
 الكاشحون اقضاءنا عن مرتبة النعمة ، فباؤوا بالحيلة . وانهم ليجرضون كيدهم ،  
 ويكتنون بالحسرة ، وقد اقلت منهم التفوق . لا عليك ، يا ذات الجلال ،  
 لن يغفل الله عن متيقه !

وما خفي عليه انه يتادى في الافك والزور . فإني اتقى الله في دفع  
 المهدي الى حرمان ابنه موسى حقه بولاية العهد ؟ ... ولكنها كلمات  
 تلقى جزافاً . وليس يحيى باول من استقاد البطل الى مبيع الحق . قالت

السيدة الاثيرة ، وقد غشيتها وفرّ من طرب : لا احسب من انعمت به  
على المكارم يزدريني ، يا يحيى . فالهادي لم يمت فيه الحفظ . وهل يكون  
الابوعماً نما في احشائي ، وخلعته على الوجود ؟ ... يخطئ شديداً من يعتقد  
ان الابن يشيح عن امه ، وهو يجد فيها من الحنان ما لا يلمس في ابيه ،  
ويسخو عليها بعطف لا يستمتع به منه ابوه . فالام تستدر بضعفها ، وحنوها ،  
رفق ابنتها بها . فيحس ابدأ بانها تحتاج اليه في مغالبة طمحات القدر . بوسعك ان  
تنشر ، منذ الساعة ، على اصدقائنا ، اننا لا نبرح راسخين في احرارنا . فما  
نفر عنا الدهر كي ينفر بنوه . صرح اساس ما ينفك في اشراق الامس .  
فاذا مات المهدي ، فلم تمت الحيزران !

وتاهت في نشوة الاعتزاز . قال يحيى : لا ، لم يخن الحظ ، يا مولاتي .  
ويضحكني من خصومنا ان يمضوا في كيدهم لنا ، مع كلال مخابثهم عنا .  
فقد حملت اليّ الجارية ، أمة العزيز ، وهي عين لنا على الهادي في صدر  
مأواه ، كما تعلين ، نبأ استهنت به اكثر مما جزعت له . فروت لي ان موسى  
اعتق الجارية حسنة ، وتزوجها في ليلة ليلاء ، دون ان يقشو في الناس الخبر .  
فكأنه نهج نهج المهدي حبالك . وما كان يجمل به ان يتزوجها ، فور موت  
ابيه ، وقد كانت لابي عبدالله . فهل للولد ان يهتك ستر من نجله ؟

ومال يحيى الى معرفة ما يكون للنبا ، من اثر ، في نفس الحيزران .  
أترضى عنه السيدة الاثيرة ، ام تجلجل بنزق ورعدة ؟ ... وأم موسى ما  
كادت تأذن برواية البرمكي ، حتى شعرت بان جوانحها ترتفع من اماكنها ،  
وبان قلبها وهي بنياطه ، وكاد يجمد فيه الحفقان . وصاحت من نفس تجيش ،  
وقد نتأت عينها ، ونضض فيهما المول : هل تزوج موسى الجارية حسنة ،

يا ابا الفضل ؟ ... ماذا ، ماذا تنفث في وعيي ، يا يحيى ؟

فاجاب بيرودة المستهين : مائة غير الظاهر الملموس . تزوجها ، يا ذات  
الجلالة !

فاختببت ، كأن كل جارحة فيها على جيشان . هل تزوج الهادي  
حسنة ؟ ... اذن لم يبق ريبٌ بكونها قتلت المهدي . فلم يكذب من  
رماها بالظنة . بطشت بابي عبدالله حين بدا لها منه انه لن يجارحها في قهر  
الخيزران ، ولا يعادها بها . والهادي دفعها الى هذه الفتكة ، بتدبير لبابة .  
على ان حسنة ابت اختتام الروح ، الا وقد قطع لها موسى على نفسه عهداً  
بان يتزوجها . وما أعلن العهد ، حتى كان ابو عبدالله ضجيع التراب . وهو  
ما اعيد سرده ، في صرح اساس ، واستعيد . غير ان الخيزران لم تؤمن  
به الايمان العريض ، الا ويحسى البرمكي يجاهرها بان الهادي ضمّ الى نسائه  
الجاربة المرموقة ، بعدما اعتقها وتزوجها حرّة . وعاد فانخلع بال الخيزران ،  
وكان قد اوثقه الهادي بيمين الرباط ، وسكب عليه غمراً من بلسم . فان تكن  
حسنة اضحت من نساء البلاط ، فاي امل سينضو عنه الغلاف ، واي مطمع  
سينبلج له فجر ؟ ... لا ، لم يخفف موسى عن أمه . قالت السيدة الاثيرة :  
لكأن المهدي نُشر وطوي ، يا يحيى . هاتيك المنى الشوارد ما كادت تستقر  
بسبط مفتول ، حتى عدا عليها الانتثار . لا أبا للدهر ، وهو المماذق . كل  
ما أفاء به علينا ، استرده منا . يرفعنا ليهوي بنا . فكأنه الطين اللزج ،  
وليس لقدم ان تهدأ منه في صوب . حيرني زمني ، يا ابا الفضل ، وليس  
لخطوة فيه ان تجري على غرار الاخرى . أيقطعنا الرجاء ؟

فقال يحيى بطول أناة : ليس لذي يأس نهضة ، يا ذات الجلالة . اذا



حاربنا الزمن، فلن نبيح له نواصينا ، بل سنطاوله بسلاح امضى . فان تكن حسنة ارتقت الى حظوة نساء الهادي ، فما تبرح مولاتي صاحبة المقام الاسمى ، وهي أم الهادي نفسه . ولا ارى الخليفة يشيح عن أمه ، وقد رسخت في نهيته تعاليم السماء . الله نفسه بوصي باكرام الوالدين ، يا أم موسى !

فهزت برأسها جزءاً . وقالت بنبرة ذليلة ، لطفى : ولكن لا اكرام للخيزران حيث تكون لبابة وحسنة ، يا ابن برمك . لقد دل موسى ، باقتوانه بجارية ابيه ، على انه ذلك الحاطف بيديه الاثنتين روح المهدي . وهل ترقب ، بمن قتل اياه ، ان يكرم امه ؟ ... لا تزال بعيداً عن سبر غور النفوس ، اها البرمكي . تداعى مجدنا ، وتنت دنيانا ، ولم يبق علينا الا ان نقتعد الزاوية . وهذا منتهى الويلات !

ودهم اكتاب متلاف السيدة الاثيرة . وتعب يحيى بن خالد البرمكي في ان يرد اليها الروح ، فاعياه الجهد . فلم تكن الخيزران تتأسك ، على صلابة شكيبتها . بلوغ حسنة ، جلالة نساء الخليفة ، رض مهجة الفارسية ، المشيدة في دولة العباسيين بلاط الاكاسرة . وهفا اليها الرشيد وزبيدة يغالبان في المؤاساة ، وفي ازالة الكربة . فما شفيت الخيزران من كلومها . قال الرشيد : ولكنني ابذل الوسع والروح في رضى امي !

فضمته اليها ، وهي ما تزال ماضية في اساهها . وقالت بالتباعد : ابى القدر ان يكتب لنا النجح ، يا هارون . أترى ابن صرنا من الزراية بافقدارنا ؟ ... اضحى عبيدنا سادتنا !

ونسبت انها من طينة حسنة ، وان الزمن الوهّاب نشلها معاً من جوف العدم . قال الرشيد يضمّد الكبد المقروحة : ليس من دأب الايام

ان تثبت على حال ، يا اماء . فكما والتنا ، ستأى عنا في موالاته سوانا .  
وجل ما علينا ان نقرها بالصبر . فليس ما يذل القدر الجائر ، كالصبر على  
مكارهه . فمن ضاق به الجلد ، اكنسحه الشؤم !

قالت الخيزران ، وهي تنهد: انها لنصائح من ذهب ، يا ولدي . ولكن  
اي صبر ينقذني من كيد لبابة ، ابنة عمك ، وحسنة الجارية الوضيعة ، الطافرة  
الى مستوانا ؟ ... فهل تنامى عنك ان اخاك تزوجها ، واضحت في بلاطه  
من ذوات الرفعة ؟ ... امست بمقامنا هذه المجهولة الاصل ، الدنيئة الروح !  
فلم يدعش هارون . حسنة بذلت كل سعي لبلوغ القمة . وستلقى فيها  
الخيزران عدوة جاثمة . الا انه المقدور ، ولا مفر من حكم القضاء . وعلى  
السيدة الاثيرة ان تعالج الموقف بما تفرض عليها الحكمة من لسان . فتألى  
الهادي بلطافة من يحس بانه مغبون ، مدحور ، الا ان حسن السياسة يأتي  
عليه الظهور بمظهر الكافي . وتكلم الرشيد فدل بيانه على رشد . لا ندحة  
عن مسايرة المكتوب ، واغتنام النهضة حين يبدو لها ظل . قال : علينا  
بالانحناء للمشيئة الطاغية ، يا أمي . ومهما بلغت القسوة من الهادي ، فلن  
يخزيك . على ان تراعي فيه الوسع . فلا تغالي في المطلب ، ولا تعاندي .  
ولن يتفق للزوجة ان تتفوق على الام البصيرة . حسنة ادركت الشهوة  
في مقابل الضربة الغدور . فما تزوجها الهادي عن كلف بها . والمرأة غير  
المسكة بلب زوجها ، لا كلمة مسموعة لها عنده . فلا ترقبي اذاً من حسنة  
ان ترجحك في خاطر موسى . سيتبرم بها بعد ضوولة من الزمن ، ولا سيما  
حين يذكر انها قاتلة ابيه ، وحين يتجلى له في هيكلاها شبح الجريمة . فينفر  
منها ويقصها عنه . وللبابة لن تكره امرأة عمها حتى تقتل فيها كل عزة ،

وكل كرامة . فلا بد ان تجول في جبينها نضاضة من حياء . فسيري الى  
ابنك كلما هزتك اليه الحاجة ، وصارحيه بشؤونك ، وانا الكفيل بانه لن  
يحتجب عنك فراواً من التلبية !

وسمع البرمكي فاستجزل الرأي . على الخيزران ان تصانع الزمن ،  
وقد مال عنها . فالمصانعة تستهويه . واستفاقت الخيزران من حديثها ، وبأسها ،  
وهي تصغي الى هارون . هذا الفتى اللدن يجيد النصح ، كأنه اخترم قبل  
الاوان بالحكمة . ورأت ان تحاول السيدة الاثيرة . فلا خسران في مداراة  
الحبل لثلا ينقطع ، ولها بشعرة معاوية خير عبدة . عدا ان موسى لم يقطعها ،  
بل ابدى لها من الملاينة ما لم تكن ترقب منه

واستعانت بدعائها ، فلوت من عنجبيتها . لا هوان في اخفاء الاظفار .  
ومشت الى القصر في موكبها الفخم ، الجرّار ، وفي مقدمته يسير الف من  
العبدان ، وفي مؤخرته المئات من الجوارى ، تهنى امير المؤمنين بما يرفل  
فيه من نعمى ومجد . وقالت بغداد ، على بكرة ابيها ، والخيزران ترحف  
بهذا الجيش الى الخليفة : ما تفقرت الفارسية عن قمة السعد ، مع عصف  
الانواء بها . ولم تزال في مناعة النور !

وملأ الموكب ساحة البلاط . ورأت لبابة وحسنة ، فامتعضتا حنقاً ،  
وكوت الغيرة الحمراء اضالعهما . قالت حسنة ، وهي تزوي ما بين عينها :  
أبصرين الوقحة ، يا لبابة ؟ ... ما تزال تترجح في دلالها ، كأنها لم تصب  
بمقتل . انها لتغزو القصر فاهية ، آمرة . ألا خسئت . لتذوقن السكال إن  
تكن تعتقد ان الحظ لا يبرح خادمها !

فاعلنت لبابة : ولكننا ملأنا سمع امير المؤمنين بما يخذلها . وسوف

ترين اي لقاء جاف يعدّ لها . سنأى عنه وهي تقسم بالله ، وبلائكته ، على  
انها لن تعود الى موسى !

وبدا في محيا حسنة الشحوب . لا تبرح الخيزران على جلالتها الوارفة .  
فكان المهدي لا ينفك يتوهج ، في الدنيا ، عزة وخيراً . والسيدة الاثيرة  
دخلت القصر كالفاتحين . وما استطاع الخليفة ، ابنها ، الا ان يوفد للترجيب  
بمقدمها وزيره الربيع . وهو نفسه مشى الى باب الابوان ينحني للسيدة الاثيرة ،  
ويصافحها بمتناهي الاليناس ، ويقبل يدها

وقبلته الخيزران في جبينه . فقبض على معصمها ، وسار بها الى صدر  
المجلس ، يفسح لها بجانبه ، قائلاً : مرحباً بام المؤمنين !

فشاققتها الحفاوة المستفيضة التجميل . ووضع لها ان ابنها الرشيد ، ويجيى  
البرمكي ، كانا على صواب فيما يدعوانها الى الاعتصام بالامل . فما ذوت  
كل علالة من رجاء . وعرفت نداوة المسرة طريقها الى مبسم الخيزران .  
فتألق البشر في محيا السيدة الاثيرة ، كأنها لا تبرح ثاوية بمهجة ابي عبدالله .  
وتراهى لها ان لبابة وحسنة كليلتان عنها . فلن تظفرا بها ، مع اشراق زمنهما ،  
وقد افرّها ابنها منه مقر التجلة والاستعلاء . قالت : يسرّني ، يا ابني ،  
ان تحرص على دولة زاهرة تعب ابوك في البناء لها ، ضنيناً بفغوايتها . فكن  
فيها المشيد ، الساعي لزيادة المداميك ، لا المقوّض الميسد . لم تهرم دولة بني  
العباس ، وانت تتولى مقاليدها . فانفضح بما يغلي في عروقك من دم الشباب ،  
وارفع لها هيكلًا تطح به عين الشمس ، وتقتعدها . اننا لنعاهدك على  
العون . فسرّ في الطليعة ، ونحن نبذل لك الارواح ، عن سماح . يفرح  
قلبي ان اسمع المعجبين بالمهدي يقولون في الهادي : هذا ابن ابيه !

فانبطت اساريه طرباً ، وابان متحمساً : ما دامت أمي تهب لي  
النصرة ، فلست بمن يهرب التبعة ، مع كل ما يلوح لي فيها من باهظ العبه .  
لا يبرح الهادي نسمة من انفاك ، ايها السيدة الاثيرة . فزوديه نصحك  
التمين ، واسدي اليه المعروف . فلا ينقك يحتاج الى ساعد غلاب كساعدك  
فيتكى عليه !

فملاً قلبها اطمئناناً ، وقالت بنبرة من عتب : أتوتاب باخلاص أمك؟ ...  
ولكنها تستميت في الحذب عليك . اندفع الى المعالي ، وكلنا جنودك . ففي  
رفعتك رفعتنا . فلا توفرف الاجنحة وتصفق ، إلا حيث يرى الرأس  
ان يطير !

فهتف بجمام فيه : سلمت أمي . ان دولة لا تهتدي بهدي الخيزران ،  
لاشبه بالسفينة التائهة ، وليس من ربان يديرها . سنحرص ابدأ على رضی  
سيدة هذه البسطة ، العامرة الرأي ، السلبية الروح !

وطالت المجاملات ، ولبابة وحسنة تسمعان من وراء ستار ، وتكادان  
تنشقان نقمة وهولاً . اين ما نفثنا ، في روعه ، من تحريض على أمه الساعية  
لتقويض الدولة العربية ، واعادة مجد الاكامرة ؟ ... أما دخلنا عليه  
مولولتين ، تمنعان على العرب سؤددهم ، وتندرانهم بالاستعباد ، ما دام للأه  
الخيزران في بزوغ ، فاوهمها انه يؤمن بمكايد أمه ، وانه سيحطم رجلها  
فلا تمشي ، ويستل لسانها فلا تتكلم ، ويفقأ عينيها فلا ترى ، ويقضي  
فيها القضاء الماحي على الحتل والروغان ؟

على انه ما كاد يبصر هذه الام ، حتى تناسى ما هدد به من ويل ، ورحب  
بالزائرة ترحيب المشتاق ، المهالك على التفاف الشمل . فصرفت حسنة باسانها ،

ونبرت وهي تشرى على الضيم : هذا هو المهدي بعينه . فلا نبرح نعا في  
مبعة ذلك . كادت تنهار دعائم السماء وهو يتوعد ، وما اطلت المغضوب  
عليها حتى امسى العباب المعتكر زلال الماء . فماذا يكمن في هذه المرأة من  
سر قهار ، يا لبابة ؟ ... ما نوثك ان تنسفها ، حتى تضرب في كبد البقاء  
وتندأ . نرميها بالفرية تلو الفرية ، بما لا يثبت على هوله حي ، فتذلل مكايدينا  
بنظرة خاطفة . ما ان تبدو ، حتى يضمحل كل ما تعبنا في نصبه من احابيل .  
كنا نحس ، في ايام ابي عبدالله ، بانها باتت محمولة على نعش . غير انها لا  
تنشب ان تستفيق ، وتمزق الكفن ، وتبدو كاصح عباد الله بدناً وروحاً .  
وخيل لنا ان الحال ستبدل في عهد الهادي الكاره لها ، الراغب في افنائها .  
الا انها ، ما نعشت في عينه ، حتى تنامى ما حشونا به ذهنه من اقاويل  
تعرضها للذبح . ان لها من سلطانها ما يفرض على النفوس اجلالها ، ونسيان  
مخازيها . فما العمل للنجاة من ظلها المقيت ، يا آختاه ؟

فتذكرت لبابة حقّ السم المملوء في جرجان ، والمهروق في ماسبّدان .  
فما عليها وهي تقعه في قصر السلام ، وتسكبه في صرح اساس ؟ ... هذا  
خاطرٌ جال في نفس لبابة ، فاذا عته في سمع حسنة . وانها لتعود اليه الساعة ،  
داعية الى الاعتقاد عليه في اتقاء ويلات الخيزران . فجمجت ، ولكن بحق :  
وهل لنا ان نداويها بسوى ما يخرس نأمتها ، يا حسنة ؟ ... الدواء عندي ،  
وليس يضيرنا ان نعالجها به . فليست خيراً من المهدي ، كي يموت ، وتسلم .  
ولا هي افضل منا ، كي تتهادى على المقعد الوثير ، وتتملعل على الشوك . ما  
فنتت تسقيننا المرّ دهاقاً ، وكيفما ادرنا اعيننا ، وخزتها بمسار . فهل لنا ،  
وقد بلغنا الذروة ، ان نظل من الانكاد ، فنحبو على مضض يبيض فينا دعة

الاطمئنان ؟ ... اقلبها ، يا حسنة ، ودما في عنقي !

فابانت حسنة ، وهي ترتعش حقداً : لن اتهاون في تسديد الضربة ،  
يا لبابة . إن يم المهدي ، فليس ما يميز بقاء الخيزران . دهاؤها الاشأم  
دفعه الى الموت . وعليها ، وقد عبثت بمهجته ، حتى اذاقته حتفه ، ان تلقى  
حظه من المحق . لي ، في صرح اساس ، من لا يججم عن صب السم في الدم .  
هذه المتأثرة خطونا ، تأتي علينا ان ننعم لحظة بصفاء الرغد . كتبنا  
عليها الموت !

وأحسنا ، وهما تبصران الخيزران في فخفختها ، وفخامة موكبها ،  
بالشعار المسنونة تحزّت في حرانيتها . وتجهمتا لفرط الكسوف . اية سيدة ،  
من ربّات السلطان ، تدرج في مثل هذا البذخ الجياش ؟ ... فكأنها وحدها  
البسطة العربية . وما نأت عن القصر ، محفوفة بالبشاشات ، غارقة في مهود  
العز ، حتى انقضت لبابة وحسنة على الهادي ، ترعقان بمستطير الغيرة :  
أهذا ما عاهدتنا عليه من كسر شوكتها ، وتقليم اظفارها ؟ ... ولكنك  
تخاذلت جبالها حتى لم يكن يبدو منك انك امير المؤمنين ، سيد البدو  
والحضر ، قاهر الملوك ، ومفتتح البلدان . بل لاح منك انك من الحاشية .  
فاين استعلاء موسى بن محمد المهدي ، ابن جلا وطلاع الثنايا ؟ ... أتکید  
لك وتكرمها ، وترفعها عنك وهي تبغي محققك ، وتلتمس عونها ورضاها ،  
ولن تكون عليك الا صاعقة وبركاناً ؟ ... أترجو ان تنسرك في تدبير  
الملك ، وهي الساعية لخلعك ؟ ... انك لتروّعنا هوانك ازاها . فهل  
نسيت من انت ، ونسيت من هي ، وقد تهالكت على الغدر بك ؟ ... كنا  
نعتب على ابيك ، وهو ينزها منه المرتبة العليا ، ويجري في رغائبها . على

ان المهدي زوجها ، وما لقي منها ما لقيت انت من أشرها ولؤمها . وم  
سعت لسلبك حقك وقتلك . فكيف تغفر لها ، وتشفق عليها ، وقتل  
برّها ؟ ... أفلا تعلم انك تربي في حجرك افعى ، وانت تبيع لها منك ،  
ما رتعت فيه من ابيك ، وقد كلفت اباك الروح ؟

وفارتا كالمرجل في ابعده من الغليان . بل اشبه بجبتين هاجبتين  
تخدمان فجيحاً ، وتكشير انياب ، وقد هدرت فيهما لواعج الاوتار . وما  
كان يدري الهادي الى من يلتفت منها ، ومن يخاطب من هاتين القاذبتين  
بالحمم ، المتطيرتين شظايا كواسح ، كأن في صدرهما زلزالاً يشور . وهتف  
الحليفة جبال دمامة الحطب العاصف به : ألا ويديك . ما جنيت على  
المروءة ، ولا نخرت الفضيلة ، وانا اكرم أُمي . جاءت اليّ تهنئي بركوبي  
مقعد الخلافة ، فاحسنت وفادتها . وهل يلبق بي ألا ابدو جبالها ذلك  
الابن الرفيق ، المانح العفو عند المقدرة ، والكاتب للامومة صفحات الاعجاب  
والاجلال ؟ ... ألا ماذا يقول الناس ، في امير المؤمنين ، وقد ازرى بامه ،  
وصفع فيها مشبثة الخلائق ، الأمر باكبار منزلة الوالدين ؟ ... أروكما  
ان يقال عني اني جلف ، عاق ؟ ... ألا يكفي ما لقي مني ابي من تنكيد ؟ ...  
والله ، ان هو الا التكفير عن اثم سلف ، يجملني على الاسترخاء تجاه  
الحيزران !

واصاب منها مكنن الاقناع . الا ان الغيرة ما كانت لتنقع . ونضض  
مقول حسنة يرشح بالبغضاء : تكفير امير المؤمنين ، عن نبيله من ابيه ، لا  
يقدر علينا احتمال الاستعباد . ما اعلناها حرباً على المهدي ، الا وقد احتكمت  
علينا الحيزران ، واذلت لئيرها اعتاقنا . فهل يرضي ابا جعفر ان يستمر



فينا الارهاق ؟ ... كنا نصبر على المهانة ، اكراماً لمصلحة الخليفة ، اما  
وليس في الانحناء للمكروه طائل ، فلسنا باضطرار الى مكابدة احوال  
الغطرسة والصلف . ففي نفس الحيزران ، من الحفاظ ، ما يقيمنا منها على  
خشية واحتراس . وهل يقضى علينا بان نكون في بيتنا على خطر ؟

فنبر : ما اشد جفائك لامي ، يا حسنة !

فاذاعت بمجة : وما اكفرها في التجني علينا ، يا امير المؤمنين !

- ولكنها اُمي ، وعليكم جميعاً ان تشاطروني تبجيلها !

- ونحن من نساك ، ولست تريد لنا الزرابة باقدارتنا . لو كانت هذه  
الام ، على مسكة من حدب عليك ، شأنك فيها ، لاقتديناها بضائرنا . الا  
انها حرب على امير المؤمنين ، حتى وهي تضمه الى صدرها ، وتقبله في جبينه ،  
وترجوله الاستمتاع بالعمر الطويل . لا احسب امير المؤمنين نسي وثبة  
الخارجي عليه ، شاهراً لاغتياله سيف المنايا . فمن دفع الخارجي الى الفتك  
بابي جعفر ؟

وتناهت في الطعن على أمه . ليست تميل الى رؤية هذه المتشاحمة في  
وطيد صولة . فابتسم وقال : لن تبلغ مني ما بلغت من المهدي ، يا حسنة .  
فلا ازال املك امري !

وكأنه امعن في اثاره احقادها . فدمدمت عليه لا تهيب : ان يكن  
المستهلّ يدل على الختام ، فاني لانعى الى امير المؤمنين صلابته وعزته . لم  
يبق علينا الا ان نرفع الحيزران الى سدة الخلافة ، في هذه الدولة الناصلة  
للون العربي ، والجائحة الى الانطباع بطابع الفرس . فالاكاسرة قوم لم  
يموتوا ، يا ابا جعفر !

فاقلقت فيه منعة الصبر . وهو نفسه تعجب من مديد جلده . فما كان  
ليطبق الدغدغة . فما به يحتمل الوخز ، بل الطعن ؟ ... ونهض وقد صاحت  
فيه سخائمه : مكانك ، يا حسنة . لا تزالين طريئة المثوى في هذه الاكفاف .  
فان تكن دالتك علينا ، تبلغ هذا الامد في ديببك ، فكيف وقد امسيت  
على خبيب ؟ ... لا ، لست الخليفة اذا اغضيت عن الاستطالة . ما الخيزران  
سوى أمي . ولا مي حرمة عندي امانع في انتهاكها . فالزمي حدك ، اذا  
شافك ان تربعي في عظمي ، والا ... والا ، يا حسنة ، فالكيل يطفح .  
واني لاعيدك من الانفجار !

وارتجف سخطاً . ووضع الغضب في الجبين ، والعينين ، والشفتين .  
فاستخذت حسنة . اجتازت شوطاً بعيداً في التكبيت ، وغاب عنها انها في  
حضرة الخليفة . وتمت بنامة مرضوضة : ولكن اخلاصي لامير المؤمنين  
يحدوني على تحذيره من الغاشية . ليس اطلاق يد الخيزران بالامر المحمود  
المغبة . والايام ستوضح صدقي في النبوة ، يا امير المؤمنين !

فصرخ بها ، وحنقه يستطير شعاعاً : لست اجيز لقول ان يتجرأ على  
أمي بمثلبة . فهي أم الخليفة ، لا امرأة من خليط الدهماء !

وسمعت لبابة ، فنامت بما يجلبج الهادي . ولم تستطع ان تتماك حبال  
الشوادخ المنقضة على حسنة . فقالت بامتعاض شعر الخليفة باثره الناهك في  
نفس السيدة المجلوثة : لسنا نميل الى الفصل بين امير المؤمنين وأمه ، وحق  
ابننا جعفر ، يا موسى . الا اننا نلقت الخليفة الى امر خطر ، قد يكون نداءً  
عنه . فالعفن لا يمسي عطراً . والذئب لا يصبح حياً . فالخيزران ستظل  
الخيزران ، وانوفنا راغمة . فلا يطلق لها امير المؤمنين الرسن ، والا كعمه

فيها الجراح ، فيتعب حيث لا اضطرار الى الضنى !

فما انكر على لبابة استجادة البيان . انها لتنتطق عن بلاء . ولكنه  
يضنّ بامه ان تحزى ، مع ارتياحه بجنانها ، وایمانه بكرها له . فالخيزران  
لن تصبح مسكاً ، وهي الحبيثة الدخلة . الا انها من ازجاء الى مدرجة  
الاحياء . واضطر الى ابداء اللين تجاه لبابة . هذه ابنة عمه ، قبل ان تكون  
امراته ووالدة ابنه جعفر . وانه ليجد في جعفر زينة العمر ، وبهجة الزمن .  
قال وهو يختبئ في حيرة عمياء : وكيف أتعبس لها ، يا لبابة ، وقد عاهدتها  
على المسألة ؟ ... اراني اسأت التدبير . غير اني اعلنت موقفى ، ولن ارجع  
عنه — مع يقيني اني فيه على غبن — الا اذا امرفت امي في طماحها . ولا  
بد ان تسرف ، وهي السؤل الملحاح . وعندذاك سأقف بها عن غلبانها ،  
فلا تعدو الامد . أترضيكما هذه العزمة ؟ ... انكما لتضيقان عليّ بسطة  
الجراح !

فقال لبابة : وهو ما سيضطررك اليه عاجلاً شره أمك ، ولن تشبع  
الخيزران . وكل ما نهند اليه ان نقيمك غوائلها . وستراها تنافس البلاط  
في الابهة والعظمة ، وتدعي انها الدولة العباسية حتى منتهاها . فيهرع القوم  
الى صرح اساس مسترفدين ، مستعطفين ، وفي ظنهم ان رب الامر هناك ،  
لا في هذا المعنى ، وان الخليفة اداة لينة في قبضة أمه . فما للخيزران الا ان  
تشاء كي تجري الامور في الصعيد المتمد . فلا حران ، ولا انحراف . وهو  
بما لسنا نريد للهادي الحازم ، النيرّ الذهن . زمن المهدي احمى ، وليس  
لصرح اساس ان يقود الامر فينا . واذا جرّ زمناً في اثره البلاط ، فمن  
حق البلاط اليوم ان يستعيد يده الطليقة من كل قيد ، كما كانت حاله في

## عهد المنصور!

وقالت حسنة ، وقد تشقت عرف الطمانينة فيما تميل لبابة بالهادي الى الاحتراس من الخيزران: لسنا نبغي النيل من شأن امير المؤمنين ، ولا الحد من سلطانه ، ونحن ندعوه الى اجتناب السقوط في المهاوي . ان هو الا الاخلاص يدفعنا الى ايضاح المخاطر ، كي يتحامي سيد الدولة شرها . ليس في الركون الى الخيزران ذرة من رشاد ، ايها المولى المهيب !

فاشدت به حيرته حتى لم يكن يتدي . فماد رأسه ، واصابه دوار ، فهتف بتأفف عريض : آمنت بصدقكما . والله ، ليست الخيزران غير مداجية . تقسم لي بالسما على الحنان والامانة ، وتسعى لحذلي وتهديمي . ولكن لا غنية عن انتظار غلوها في مطالبا لكرمها ، والامساك بها عن ثاديا . هلا صبرتما على امير المؤمنين ؟

فما خفي عليهما انهما اخرجتاه . وابتعدتا عنه تخفان من عبء الجوارح . وايزوتا في احدى حجرات القصر تتبادلان الرأي في القضاء المبرم على أم موسى . قالت لبابة : اعتقد اننا بلغنا من نفسه ما لا يزيغ به عن صبوتنا . فلن يبقى في الدولة العربية من يقال لها الخيزران !

فقال حسنة بوفر من قلق : زادني يقيناً انه في طباع ابيه ، يا لبابة . هكذا كان ابوه . يقيم الدنيا ويقعدها سخطاً على الخيزران . وما ان تطل الخيزران حتى يمسي السخط عطفاً وحنوآ . لسنا نهيب به الى ايلام أمه ، بل الى درء انياب الافعى عن صدره قبل ان تنهشه ، وتذهب به . هذه ليست أمأ ، بل نائبة من انكد نواب الدهر !

وتجلى في حسنة من القهر ما جاوز ما يساور منه لبابة . فهزها الهادي

بعنيف المقال ، ما لم تكن تلقى بعضه ، حتى ولا شبه اثر منه ، في المهدي .  
ابو عبدالله كان يظنّ بها ان يقسو في الوعيد عليها . قالت لبابة : لا ارى  
عهد مودتها يطول . فقد حدثناه عن مبتها وفساد سريرتها بما يمنح به عن كل  
سكون اليها . وسوف يعاني من نهمتها ما ينهد به الى الملل ، بل الى النفور ،  
فبصرفها عنه مخذولة ، مجفوة !

على ان حسنة لم تكن ترقب هذا الجفاء . وهو اذا وقع فلن يزيد على  
مدى شعلة عارضة ، سريعة الحمود . والامثلة وافرة في عهد المهدي . ما  
ان تقع بين ابي عبدالله والخيزران الواقعة ، حتى يسود الازهان ان قصر  
اساس تداعي ، ودارت عليه الدائرة . غير ان هذا المتداعي لا يلبث ان  
يبدو كالعروس المجلوبة ، كأن الكسوف لم يخضد فيه نفخة الخيلاء .

والهادي نطفة جاد بها المهدي . افليس الابن من طينة الاب ؟... قالت  
حسنة على ياس من الغد : ان القدر ليهزأ بنا ، يا لبابة . فما من سعي  
محاولة الا ويردّ فيه كبدنا الى نحرنا . اترتع في الذرورة ، ولا نقوى على  
محاولة مستأسدة ؟

غير ان لبابة لم تستسلم الى ما يأخذ بروح حسنة من فنوط . فالخيزران  
كانت ترهبها وتنقيها فيما المهدي ينشر راية المجد ، فهل تقتنر عليها اليوم ،  
وامير المؤمنين زوجها ، والرأي في الدولة رأيا ، والمقام الاول مقامها ؟...  
قالت تزيل عن حسنة اشجانها : لا تخافي منها . ساسحقها . لتنبخر الآن ما  
شامت ، فسوف يأتي يوم اخلع فيه قلبها . كل ما علينا ان نمنع في نفث  
البغضاء في مهجة امير المؤمنين . فنظير له ان شأنه يكاد يحى ازاء صولة  
الخيزران . علينا ان نخفي في ما بدأنا . ولا بد للكيل ان يطفح ، وان

يذهب فيضانه بلجاجة أم موسى ، الفارسية الكنود !

ورأت حسنة ان تساند لبابة في الرغبة ، وان تبيح لها مطلق الرأي ،  
مكتفية بان تجارها في السعي ، ما دامت الميول واحدة. فلن تعرض نفسها  
لخزي آخر يفجعها به الهادي . قالت : سألزم حدي ، يا لبابة ، لثلا اوغر  
صدر امير المؤمنين . على اني اؤيدك في جميع مساعيك ، ونحن متفقتان على  
هدم الخيزران . صدقت . لا بد ان تخرج الهادي بالخاصة المقيت ، فينتكر  
لها ، وينفضها من طوقه ، كالخشرة الوبئة !

وكانت الخيزران عند معتقدهما. فقصّ صرح اساس بالوفود، وقد شاع  
في القوم ان الهادي وأمه على وثيق عروة . ولم يكن هناك سوى طالب  
حظوة ، وملتمس رفق . فاضطرت الخيزران الى الاستجابة لاستبقاء مكانتها  
في النفوس . وترددت الى ابنتها تسأله انجاز ما وعدت به . فلم يكن  
الهادي ليردّ الرغائب على وفرتها، ورجاحتها. من حق أمه ان تطلب، وتنال  
ولكن التذمر من فحولة الخيزران عمّ وساد . فعدا لبابة وحسنة الى  
الوزراء والقادة . وما أحجم الربيع عن التظلم في حضرة الخليفة نفسه .  
قال : ادركتنا الحيرة في امر مولانا ، حتى كدنا نجعله . أهو الهادي ، ام  
انه الخيزران ؟

فابتسم الهادي ، مع شديد امتعاضه من استيضاح وزيره النمام الارب ،  
وقال : كلانا اهل لها ، ايها الربيع . فلا انا ارجح أمي ، ولا هي ترجحني .  
أنجهل من هي الخيزران ، وقد كانت سيدتك في عهد ابي ؟ ... لسنا ننجو  
بهذه السرعة الطائفة نقوش الزمن ، يا ابا الفضل !  
الا انه حنق على أمه في قرارة ضميره . أنحجبه حتى يتضائل شأوه ،

ويبيت في مسند الخلافة شجعاً يبعث خياله الممجوء على الشك فيه؟ ... قال الربيع ، وهو بمن راعهم ان تستعيد الخيزران خطرهما ، وتحمل مكانتها الفارطة في صدر الدولة ، كأنها القابضة يمينها على محصر الخلافة ، والمتفتة ببرة الرسول: ولكن الناس لا يملكون البصيرة الوقتادة، يا امير المؤمنين. فيؤلمهم ان يعيد التاريخ سيرته ، وان ترتقي الى سنام الحكم امرأة تسوس الامة بالعاطفة ، لا بالعدل . انصارنا يكادون يفلتون منا ، وهم يبصرون خصوم العهد في الجنة ، على حين يشقى الاخذان الاصفاء !

فغصّ الهادي بريقه . هل بلغت الحال في الدولة هذا المبلغ الغضيب ، فتستسر الخيزران حيث هون الحلان والاعوان ؟ ... لا ، ليس الهادي بالضعيف الذرع . فهو هو الخليفة ، لا ذات الحجاب والمئزر . على ان بسمة ظلت تحوم على شفتيه . فقال بجهد في ابداء البشاشة: لا تجزع ، ايها الربيع . فما تبوح الخيزران امرأة خليفة ، وأم خليفة ، وحاضنة ولي عهد. ومن ترمى عزاها ، واضاء سناها ، فمن الانصاف ان ترتع في حفيل المجد! على حين لم يكن يؤيد في سره هذا الافتئات بحقه . فهو الدولة ، لا أمه . هو الخليفة ، لا الخيزران . وتعجب من نفسه وقد اباح لامة هذا المدى ، مع متفاهم غيرته على سلطانه . وتذكر ما افضت اليه لبابة وحسنة من تحذير من الخيزران ، وما تنفكان تقولان له : « ستحجيك وتملك الامر في المطائق العربي ! » . ولقد حجبتة . هذا ما يعالنه به الربيع ، وزيره . فلم يبق في دنيا العرب من يبصر في بغداد صرحاً غير صرح اساس

لا ، لن يحتجب عن قومه . ان الخيزران لتعدو طورها . واعتزم ان يذل منعها بالوقوف بها عن فورانها. هذه الطفرة لن يطول امدها، وسيقصّ

منها الهادي الجناحين . ورقب ان تأتي اليه أم موسى . ومن عاداتها ان تبدو ، في معظم الايام ، في حضرته . غير انها لم تكن تبدو الا وفي شفتيها سؤلة . هذا القائد تريد رفعه الى مرتبة يسمونها شأوه . وهذا الصفي الامين لا بأس ان يقبض ، في احدى الولايات العامرة ، على المقاليد . وهذا الشاعر اجاد المديح ، فلينعهم بمكنتز العطاء . وهذا النصير الوفي ابدى الاخلاص ، فليكن له من ديار امير المؤمنين ضيعة وافرة الجنى

والهادي كان يهب باسراف . فلتشمخ أمه . وليعلم كل من دبّ عليها ان الخيزران ذات كلمة قاطعة . فالتكفير عن مقتل ابيه يفرض هذا السماح . غير انه منح أمه من القدرة ما اقرر به قصره ، وضاق به صرح اساس . فاضى الناس لا يلججون بسوى اسم الخيزران . وهو ما ازمع امير المؤمنين الخوول دونه . فيجذب اليه الابصار ، لا الى سواه من الناس ، حتى وان تكن تجعبه به آصرة رحم . وما ان تمايلت الخيزران في القصر ، تستأذن على الخليفة ، حتى هتف الهادي بالحاجب : لتنظر أم موسى . لدي من الشؤون ما يقدر عليّ الاعتكاف على انجازها ، قبل الالتفات الى ما عداها وتعمد إذلالها . هذه طليعة القاصات . فاضطربت الخيزران ، وألمّ بها سهو شاذخ . أيمنها ابنها من الدخول عليه ؟ ... ولكنه لم يجيبها ، قبل الساعة ، بهذه النواهك . فما دعاه الى كسر شوكتها بالمهانة الطحون ؟

ونجبت من نفسها ازاء من يدلفون في بطانتها ، وليس لباب ان يستعصي على الخيزران . واقلقتها البادرة . هل من غاشية تدهمها ، وتفسد عليها خاطر ابنها موسى ؟ ... وتمثلت فوراً أخيلة لبابة وحسنة والربيع ، اعدائها الانكاد . هم من اوغروا عليها جوانح امير المؤمنين . وجمدت



مكانها كالمصعوفة . واستجيت من الالتفات الى ما حولها ، ولم تكن تدري  
ابن تخفي باصريها . ونضح جسدها بالعرق ، يجرج فيها طلاقة الحركة .  
وقامت بجهد : أليكون لدى امير المؤمنين من المهام ما يجسه عنا ؟ ... لا  
بأس . سنتظر . فلن نذهب باوقات ابي جعفر ، وللدولة نصيبها من سمعه  
وبصره ! .

واكرهت نفسها على الابتسام ، لتبديد الوهلة السائدة . وسرّي عن  
الحاشية والحيزان تبسم . فالدعوة الى الانتظار لم تؤلم روح السيدة الاثيرة .  
ولكن الانتظار طال ، وتوترت عروق أم موسى . فغاطبت الحاجب  
تستوضح : هلا ابلفت امير المؤمنين اتنا ببابه ، وان لنا زمناً ليس بالقليل  
نرقب ساحة المثل بين يديه ؟

وما تعودت هذا الاضطراب ، ولا سبياً في البلاط ، وهي ترى فيه مأواها .  
واحست بالعرق والحجل يقرصانها ، فهانت نفسها ، والهادي على ارتياح ،  
وقد كبح نخوتها . وما أذن لها في الوقوف في حضرته الا وهو موقن انه  
تلم شموخها . ولم ينهض لها فيما تبدو ازاءه . ولا هشّ ، ولا بشّ . بل  
خاطبها بجفاف ، كأنها امرأة غريبة لا يربطها به وشاح قرين ، فقال : ماذا  
تلتسين ، يا أماه ؟

فراعها ما يساوره من انقلاب ، وما يتلبد في اساوره من فسوة .  
وشعرت بالاعصار يهب عليها ، فادركت انها على خطر . ولكنها تجاهلت  
ما وثب الى بصيرتها ، ولم تعجز عن البسمة . قالت بنديّ المؤانسة : جئنا  
الى امير المؤمنين نسطيح بطلعته الميمونة ، ونقرئه السلام . فمن المفروض  
علينا ان نتبرك بانس خليفة الرسول !

واجادت كلمات الاستواء ، وهي الداهية ، اللسان . بيد ان هذه الصفايا ما كانت لتخرج بامير المؤمنين عن كمدته ، فقال بلهجة قاطعة ، ناضبة من كل رفق : ثم ماذا ؟

فما نأت الابتسامة عن شفقي السيدة الاثيرة ، وان يكن تجلى لها انها اقبلت في السؤال في ساعة من ساعات الغضب . قالت تتناهى في الممالأة : حسي ان ادرك ما اوضحت ، يا امير المؤمنين ! فابستوضح ينتطح للشر : أما من حاجة ؟

فرأت ان تكشف عما جاءت اليه فيه . ربما رقّ لها فؤاد ابنها ، وقضى لباتتها . قالت : هناك حاجات ، يا امير المؤمنين . غير اني لست ارى المقام مسعفاً في ازاحة الستار عنها ! فنبه بصوت أجشّ : وما هي ؟

فخيل اليها ان الدعوة الى البيان تشير الى الرغبة في الملاينة ، وان الهادي ليس متبرماً بها ، بل هناك ما ازعجه ، وما استطاع فيه تبديد الغمّ فيما تعرض له . قالت : أيجيز لي الموقف الاعلان ؟

فمال الى سماعها في طلبتها ، كي يضرم شرارة الحصومة . واجاب بما يستولي على لبه من جفاء: ألا اوضحي . ليس ما ينفر بي عن الاصغاء اليك . فما تشتهين ؟

ومنذ اربعة اشهر وهو يقضي حاجاتها ، ولا يتوانى في نصرة . قالت ، وقد استدرجها الى الابانة : اقبلت استنجزك حاجة عبدالله بن مالك ، يا ابا جعفر !

وكانت قد طلبت اليه انصاف عبدالله من ريبة علقت به ، فوعد بالنظر

في الطلبة . اما الآن فما استقرّ بوعيه اسم عبدالله ، حتى كلع جبينه ، وتفتح  
منخره تأففاً ، وزمّ شفتيه ، ورعد بلاسع نبوة ، كأن صوته السوط :  
أتحاطبيني بامر هذا الزنيم ، ولا تدرين ما بدر منه ؟ ... ألا اخبريني كيف  
ترضين ان ينسلّ هؤلاء الانكاس الى صرحك ؟

فهاها انفجار غيظه ، ولم تعرفه منذ ارتقائه الى سدة الخلافة في هذه  
الحشونة . ورسخ فيها اليقين ان الكاشحين عبثوا بها لديه ، وازالوا عنه  
حده عليها . غير انها تأسكت على الهزة ، وقالت بقوة في الاداء : لا بد  
من اجابتي ، وقد وعدت عبدالله بن مالك بالنلية !

فهدر مستهيناً بجرمتها : لا تكرهيني على ما لا سبيل اليه . فالويل على  
ابن الفاعلة . أيتشامخ علينا ، ثم يقبل اليك في انقاذه من غضبتنا ؟ ... لا  
قضيتها له ابدأ . فما شأنك وهذا الحيث تشفعين فيه ؟ ... دعي عنك  
العورات ، وليس لك ان تستويها !

فعلا فيها الحق ، وجبرت باحتدام : ولكنها حاجة تضمّنتها له . ولا  
احسبك تخيّبني فيها !

فصاح بحقد : ليس لكل حاجة تعاهدين على قضائها نصيب من النجم  
عندنا . فاشجحي عن السفاسف ، وليس لمن في مستواك ان ينشط لها !  
فخلعت عنها كل هيبة ، وزعقت لا ترهب جلال الموقف : اذن ، والله ،  
لا اسألك حاجة ابدأ !

فاذاع بمتطير الاستخفاف : ، اذن ، والله ، لا أبالي !  
فرضّ اضالعتها . واندفعت الى الباب مغضبة . فصرخ بها بفيض من  
حقق : مكانك تستوعبي كلامي . والله ، لئن بلغني انه وقف ببابك احد من

قادني ، او من خاصتي ، او من خدمي ، لا ضربن عنقه ، واقبضن ماله .  
والا فاني نفي من قرابة الرسول . ما هذه المواكب تغدو وتروح في كل  
يوم في بابك ؟ ... أما لك مغزل يشغلك ، ولا مصحف يذكرك ، ولا  
بيت يصونك ؟ ... اياك ثم اياك ان تفتحي بابك للمي ، او ذمي ، والا  
لقيت من نعمتي ما لا يثبت على هولاه صوابك !

فارتدت سحتها . وانصرفت على ارتجاف واختناق ، ما تعقل ما تطأ .  
نسف فيها الهادي كل دلال . وانكفأت الى صرحها مهيضة المهجة ، دامية  
اللب . اعداؤها ظفروا بها . وارتمت في صرح اساس على ذوب حشاشة .  
الا ان هذه الحشاشة ، الذائبة ، ملكت القدرة على تفجير كربتها . فصاحت  
الحيزران بجميع من ضمهم مئواها : ان الهادي ليدر اذنيه الى الشائنين .  
ظلوابه حتى اقصوه عني . فالويل للاعبين بالنار ، وسيحترقون فيها . لست  
الحيزران اذا نمت . على الذل . فالهادي يجهل اي سخيمة أضرم ، واي  
بركان أثار !

وهاج صرح اساس ، كأنه هادر السيل . ودرى يحيى البرمكي ، فتجلت  
لعينيه الدسيبة . غير انه اقبل يروض الجماح . قال يلطّف من حدة  
الحيزران : ألا صبراً ، يا ذات الجلالة . هل غاب عنك من هو ابو جعفر ؟ ...  
ان لنزق الشباب مواعد يضيع فيها الهدى . ما موسى سوى ابنك ، ولثلثك  
ان يصفح عن زلة الابناء !

على ان الحيزران اشتعلت زفيراً . قالت وهي تلهث ، وكل ما فيها على  
انتفاض : رأيتني ازاهه احقر من بعوضة ، يا يحيى . فاهانني وتوعدني ، وقضى  
عليّ بالانزواء . والا اطلق فينا لسيفه الزمام . فهو يتهددنا بالقتل . رأيت

الى اي شرّ انتهينا ، بعد ابي عبدالله ؟  
وناحت السيدة الاثيرة . ولكن نواح الجبروت . فالجرح النزيف ستضده  
باكباد الساعين بها . لن تطبق اهداها ، للموت ، الا وقد اطبقت كل هذب  
في مناوئها

وحشد الهادي في ابوانه رؤوس دولته يعلن فيهم باستكبار ساخط ،  
موتور : أيما خير ، أنا ام انتم ؟  
فراعم الاستيضاح . واجابوا بدهش ورهبة : بل انت ، يا امير المؤمنين !  
فاستطلع ، والحشونة في صوته ، والعنجهية في نظره النائمة ، الناقمة :  
وأيما خير ، أمي ام أمهاتكم ؟

فاجابوا ، وقد شاقهم ان يلمّوا بالباعث على هذا التنقيب الناقل ،  
والواقع جليّ ، جهير : بل أمك ، يا امير المؤمنين !  
وساءلوا انفسهم : « هل اعترت جنة الخليفة ابا جعفر ؟ » . قال ، وما  
زال يستقضي بصارخ الاحاح : فأيتكم يجب ان يتحدث الرجال بمخبر عن  
أمه ، فيقولوا فعلت أم فلان ، وضعت أم فلان ؟

فاوضحوا ، وقد اخذت تتضح لهم البواطن : ما من احد يجب ذلك ،  
يا امير المؤمنين !

فرعد : اذن فما بال الرجال يأتون أمي ، ويطيب لهم ان يتحدثوا  
بحديثها ؟ ... اني لامنع كل عين من الالتفات الى صرح اساس ، واحطم  
كل رجل نجبو الى عتبه . ربة الحدر للخدر ، ولا يحيد . والا فما كان  
للخدور ان تقوم ، ولا للرجال ان يتولوا ازمة الامور !  
فقهّموا . امير المؤمنين يأبى على الخيزران ان تنصرف الى معالجة شؤون

الدولة. فالهادي نفض منه كل وصاية عليه، وابتغى ان يقوم له في الحكم شريك. هو وحده رب الامر. وعاد العشب ينبت في طريق صرح اساس. فالناس انقطعوا عنه هلعاً. وعادت السيدة الاثيرة الى العوور في عزلتها، كأنها الحبيس. وما تنكسف للمرة الاولى الانوار في صرح الخيزران. فاحد تعود هذه اللطمة، كما تعود ان لا ينام على المكروه. فالمرذولة، المجفوة، لن تبسح للقدر، المنقلب عليها، ان يطيل نفرة الصدود

البشائر تذاق في البلاط بفيض من بهجة ، فتقع في الآذان نديّة، جنيّة،  
لتبشها الافواه صياحة ، لهي . امير المؤمنين قضي على أمه باقتعاد مطارح الزهد .  
فليس لها ان تسوس الامر في الدولة ، وما هي من اهل الرأي ، ولا من  
اصحاب القيادة . فكل ما عليها ان تلزم صرحها للتوفر على شؤونه ، ولعبادة  
ربها . وهفت حسنة فيما تعانق لبابة : هذه هي الرجاة الطفحي ، يا أم  
جعفر . فهنيئاً لنا الفوز الوثيق ، وعلى الخيزران العفاء !

ورقصنا لفرط الطرب . عذا بجلى الطمانينة . فالشوكة انتزعت من  
الجنب ، بل من الحلق ، وطُرحت في النار تفتى فيها . وقايل البلاط على  
مستباح النشوة . فالسودد استقر بيمين الخليفة . وليس الذي دعوى الافئثات  
بحق ، ولا الاستمسك برغبة . . وتاه انصار الهادي عجباً . وايقنت الدولة  
العباسية انها بامير المؤمنين ، لا بمن يجرون في الحاشية . وهفت الى الابوان  
لبابة وحسنة تسجدان بين يدي الخليفة ، معلنتين بحميل بسمة ، وجدل نبوة :  
مرحى لامير المؤمنين . بضع الدمثل بما أوتي من قدرة على الحسم الشافي .  
ماتت العقرب مكفنة بدمها ، واستراح البال ، وقد أمن سبها !

فاوجعه ان يقال في أمه انها عقرب ، وما يزال ابن الخيزران . بيد انه  
تصامّ عما نفتت امرأتاه من مطعن . وقال بلهجة خشنة ، يطفو عليها الاعتداد ،  
ويلتمس بها لنفسه المعاذير : لم يكن بد من هذه القطيعة . والله ، ما كنت  
اريدها . الا ان الخيزران سعت لها . فالفوران المتأجج فيها يأبى عليها ان  
تهداً ، كأنها في فوهة بركان . ولقد اصبحت اخشى ان تحرقنا بنارها .

فليس لامرأة ان تقبض على الاعنة ، في دولة لا تسلس مقاودها لسوى الرجال . والرجال انفسهم يكبون في المهمة العسيرة . فكيف بالنساء ، وقائدهن الميل الاهوج ، لا الروية والسداد ؟

فقال لبابة : الحمد لله ، وقد ايقن امير المؤمنين اني وحسنة لم نكن نداجي يوم طلبنا اليه اجتناب الهفوة ، ودرء البلية . فمارقبتنا من افئثات ، واحتكام ، وقع ، وليس للخيزران ان تخالف نهجها المرسوم . فهي لا تنهأ الا وقد طغت كالحباب ، حاجبة من وراها . الا ان رغوتها كانت في عهد الخليفة موسى الهادي فقايع سريعة الانطفاء . سحقته رأس الافعى ، يا ابا جعفر . فابشر بالهناء المستطيل !

وهتفت حسنة : اسعد الله ايام امير المؤمنين . ان تكن الخلافة الجنة ، فالخلاص من الخيزران سدره المنتهى . لكأنك دفعت عنك الداء العقام وانت تنفضها من طورك ، وتقص جناحها . والله ، وددت لو طويتها طي القرطاس ، وكان القبر لها غلافاً . فالشؤم يجنح عنك إن تفعل . والا كان لك من بقائها ما ينفث سمومها . أتدري بما اشبهها ، يا امير المؤمنين ؟ ... بالذئب الحطّاف . فلا نأمن جانبها الا وقد حطمتنا انيابها ، بل رأسها . والا ظل الحوف من عضاتها يتوعدنا ، ما دامت تحتلج في صدرها نسمة . اما وقد ضربت ، فأوجع ، يا مولاي !

فضحك ضحكة مغتصبة . وقال بتمهك البيان : حسنة لا يصفو لها خاطر الا وقد بسطت أُمي على نعش ، وجرتها الى الرمس . عندذاك يلدت لها العيش ، وتمس بانها في رغد !

فابتسمت حسنة ، وقالت بمديد السعي للكشف عن اخلاصها للخليفة



زوجها: لست اجور على أمك لسوى انقاذك من جورها، يا امير المؤمنين.  
والا فما كان لي ان اجبل فيها نظرة واخزة ، ولا ان اقول كلمة قارصة .  
الا انها الرغبة في صونك من الدواهي الدم ، وأمك ليست لك . قهرت  
فيها الحيلة ، فاسلخ منها كل رجاء . فلماذا تكون ولاية العهد في اخيك  
هارون ، لا في ابنك جعفر ؟ ... قد تستعين بها الخيزران على تنظيم امرها ،  
والتحفز للوثوب . فالناس يشوقهم ان يكونوا من خليفة الغد على مسألة  
وملاينة . وفي مثل هذا الازدلاف استبقاء لآمال الخيزران . فجردها من  
سلاحها ، لئلا تجرّده علينا ، ايا السيد المقدّى . فمن مصلحة قصر السلام ان  
يتلاشى في العدم صرح اساس !

فكأنها اوحى اليه بما يبحث عنه ، ولا يهتدي الى معرفته . انها لتشقّ  
امامه أفقاً فسيحاً يستنشق منه عرف الامان ، ويستصبح بالألأته . وراقه  
خلع اخيه هارون عن ولاية العهد ، وإقرارها في صلبه . فيزدان بها ابنه  
جعفر ، وتنحدر من الاب الى الابن . وهو الرأي الحميم . فان هذا الشعب  
يبيح للاشداق النهمة المجال الى القضم والالتهام . فيضطرب الامر . وتشقى  
الدولة بالمطامع الرهاف . وبدا من الهادي انه مطرق . واذا به يطلق باصرتيه  
في لبابة حيناً ، وفي حسنة حيناً آخر ، ويقول : هذا ما لم افطن قبل الساعة له .  
صدقت حسنة ، يا لبابة . فلماذا تستقر ولاية العهد باخي ، لا بابني ؟ ...  
جعفر اولى بها من هارون . فان ابننا حليق يركوب السدة . لا ، لن استبقئها  
في هارون اخي ، وللخيزران عليه السلطان النافذ . فتضيق به علينا  
الحناق ، وتفصل عنا الناس ، وهي تعدم بالمناصب والجعائل للغد المرتجى ،  
يوم تعود فتستأثر بالحل والربط . ألا ابن الربيع ، وزيري ، اتباحث واباه

في الحاضرة الحطرة . فعلينا ، وقد ضربنا ، ان نوجع . لا فضّ فوك ،  
يا حسنة !

قالت حسنة تغلو في النصح : اذا اوجع امير المؤمنين فقد احتاط .  
فالخوصم غير نائين عنا . وميضمنا ان يقلقونا ، ونحن في بسطة العز . انهم  
لقوم لا يركن اليهم ، يا ابا جعفر ، وفي ضمايرهم خبت وزنخ . فاعيدك ان  
تستقيم الى ابالسة يضرمون لك النار ، كي يشووك على وهجها . ولكنهم لن  
يفلحوا باذن الله ، وامير المؤمنين يدّ حاسمة ، وعين بصيرة . فيحطم فيهم  
كل منعة ، ويقلم كل ظفر ، لثلا يتناولوا الى حيث لا يجدر بالزرارير  
ان تحوم !

فصق بيدبه ينادي حاجبه ، ويهتف به : ألا ابن الربيع ؟  
فان ابا الفضل لينصو مقوله عن التدبير السوي ، وفي نهته بوارق من  
حصافة نبوة . واقبل الربيع سيفاً احذب في قبضة الخليفة . قال الهادي :  
ألا ماذا يلوح لك ، ايها الربيع ، في الاستعانة من كيد الخيزران على امرنا ؟ ...  
أيجمل بنا ان ننبد هارون من ولاية العهد ، ونحبسها على ابني جعفر ؟

فادار الربيع اليقظان باصرتيه في من حوله ، ليعرف من افضى الى امير  
المؤمنين بهذا الرأي الجزل . ولاحت له لبابة وحسنة ، فوقع على مصدر  
الشظية العافية ، وابتسم ، وقال : ليس من منطوق يرشح بالصواب كهذا  
المقال السديد ، يا امير المؤمنين . فلا يصحو الجو ، ويصفو الاديم ، الا وقد  
حصرت بيديك السلطة بجميع اغنتها ، واستوليت على كل دعامة فيها .  
وإن أبقيت في ايدي اعدائك دعامة ، او شبه دعامة ، بل حجراً من الصرح ،  
فالخطر ينذر بكالح العاقبة . استأصل في أمك واخيك كل مظهر من

سؤدد ، ولك العز التليد والظريف !

فهمت لبابة وحسنة للوزير الربيع : عوفيت ، يا ابا الفضل !  
فقال متناهيأ في اللين استدرارأ لعطف الخليفة ، حتى كاد ينهار لفرط  
امعانه في العتبي : والله ، لست ابغني الا الخير ، يا ابا جعفر . فان لجناحك ،  
المدود علي ، من فضل المعيث الوافي ، ما ايقنت به اتي مها اصفيت الود ،  
فلن اقوم بوفاء بعض ما اصطنعت عندي من يانع الجميل . ان اعداءك لذوو  
قوة ومكر ، مع كل ما تذلل فيهم من نخوة ، وما تطمس من عرام . فاذا  
ما استنزفت بقيا النبال في كنانتهم ، فانك لتأمن كيدهم . وبوسعهم ، بنصلة  
واحدة يجيدون رميها ، اصابتنا في مقتل لن نسلم من وباله . فانزع منهم  
كل قدرة ، وليكونوا في ركابك من احقر موابلك !

فأيد الهادي ما يسخو به وزيره من سمين المشورة . عليه ان يزيل عن  
أمه كل سلطة على الايداء ، والا كابد من حفاظها ما يكعه في حكمه .  
فالخيزران ان لم تستطع ان تجرح بلسانها ، عضت بانباها . وإن تحطمت  
في شدقيها الانياب ، نفتت من حنجرتها سها . وان عدمت السم ، نطحت برأسها .  
وان اصيب عنقها بالشلل ، مزقت باظفارها . وان برت اظفارها ، ركلت  
برجلها . فلا نجوة من ويلها بسوى القضاء عليها ، حتى لا يبقى فيها عين  
ترى ، ولا مقول يتكلم ، ولا ظفر تحدش به

قال الخليفة يلحف في الاستشارة ، وقد استأنس بما ازجى اليه الربيع :  
وهل ترى القوم يبابعون في الامصار جميعاً ابني جعفرأ ؟  
فابتسم الربيع ابتسامة يور فيها التعجب من هذا الاستيضاح الجازع .  
واعلن يشدة : وهل من يجرؤ على التقهر عن الموافقة ، يا امير المؤمنين ،

وبين يديك المصير؟ ... انك لقاibus على القسطاس. وليس لنافتح في الفتنة  
ان يجازف بروحه ، ويتنفس عن معاندة . فالامر بين يديك على اطلاقه ،  
وما للخليفة الا ان يأمر لتطأطأ الرؤوس هيبة واجلالاً !

— وما يكون من الرشيد ، ايها الربيع ؟

— سوف ينحني ، يا امير المؤمنين . فما هارون غير المطيع لمشيئة يعلنها  
سيد الدولة . وان هو كابر ، فليست يد الهادي بحاجة الى من يدعمها لتحوش  
الرقاب . فإما السجن ، وإما السيف . والا فالاذعان المحض لشهوة مولاي !

فجلجلت حسنة : انك لتتطق عن هدى ، ايها الربيع !

وخشيت لبابة على ابنها الصغير من تطاحن الاهواء ، فهتفت : ألا لتحذر  
العوادي ، يا امير المؤمنين . فلا يبرح ابننا جعفر في فئة من لم يبلغوا الحلم .  
وعلى م يقوى ابن ست سنوات في مغالبة الرجال ؟

فالتفت اليها الربيع يقول بثقة المطمئن : لا عليك ، يا ذات السنى .  
أنخاف عليه وقد عصه ابوه ؟ ... ان امير المؤمنين لوارف السطوة ، صلب  
الشوكة . وما لذي استطالة ان يسخو بروحه ، وينال من جعفر المقتدى .  
اقمنا حوله سوراً من الاكباد نقيه به التكبد . صانه الله من ضئيل الوخزة .  
اننا لبني له الغد الحظف فيما ننصبه خلفاً لايه !

واوضحت حسنة متحمسة : ولكننا نفقاً كل عين تنظر اليه بمقت وحقد .  
امير المؤمنين هذا . وخليفته هذا . ولا يحمد عن قهر الاعصاب في صرح اساس  
كي يمسي كوخاً مهجوراً . فالسيادة هنا مشواها ، لا في ذاك المغنى الغدور !  
فقال الهادي على اقتناع بصباحة المبتغى : بقي عليك ، يا ابا الفضل ، ان  
تدعو الناس الى المبايعه . فتحشد في القصر القادة واصحاب الحظر في دولتي .

وتظلمهم على ما ازمعنا من أربة . فمن جانبنا ، خلعنا عليه الامان . ومن  
اجتنبنا ، اتزلنا به الويل . فليحذر اللثام المماكرون !

فاذاع الربيع برحراح المسرة : ليوقن امير المؤمنين ان ما من هامة  
تعلو مداها . فمن لم يؤيد عن رغبة ، تطامن عن رهبة . ولي العهد جعفر بن  
موسى ، على حدائة عهده بالفظام !

والربيع لا ينهد الى سوى هذه الرجاوة ، وبها ينجر يحيى بن خالد  
البرمكي ، مؤدب الرشيد . فما دام يحيى يمسك بشعرة من صولة ، فهو خطر  
على الربيع . ودعي قادة الدولة الى المبايعة والتأييد . ووقف فيهم الربيع  
خطيباً . فقال بعنجهية صاحب الامر المبرم : ايها القوم ، اسمعوا وعوا .  
امرني مولاي الخليفة ، ابقاه الله ركناً أيداً لعزتنا ونعمتنا ، بان ادعوكم  
اليوم الى القصر كي ابلغكم ما قرّ عليه الرأي من صائب التدبير . فقد رأى  
امير المؤمنين ، بتنافذ حجاه ، وثاقب حكمته ، ان يخلع اخاه هارون  
الرشيد عن ولاية العهد ، وان يقفها على ابنه جعفر . ولا اراني مضطراً فيكم  
الى استعادة كلمات يزيد بن المقفع في من جمعهم معاوية لحصر الخلافة بابنه  
يزيد . فتلكم يوافقنا على ان امير المؤمنين هذا . وخليفته هذا . ومن ابى فهذا !  
وردد كلمات حسنة ، وهو يشير الى اثنين ، الى الهادي ، والى ابنه  
جعفر ، المستقر بلصق ابيه . اما الآخر ، وهو سيفه ، فهوت يده الى مقبضه  
تدغدغه . فهتف القادة وارباب الشأن في الدولة : الهادي خليفتنا ، وابنه  
جعفر ولي عهده . مرحى للربيع !

فجهر الربيع بالقول الفرحان : بورك فيكم . ما كنت لارتاب بولائكم  
لسدة الخلافة ، ولا بوفائكم لامير المؤمنين . هذه السيوف ، وقد صنتموها

في اغمارها ليوم الفخار ، ستخترطونها في الذود عن كرامة الهادي وابنه  
جعفر ، ولي العهد . ولستم من ذرية الابرار ، اصحاب الكرامات ، اذا  
انتضيتوها لخدمة مقاصد ذوي الضلال ، الانكاس !

فرعدوا : ما تجري في سوى خدمة القابضين على ناصبة الامامة .  
خليفتنا الهادي ، وخليفة خليفتنا ابنه جعفر . دامت السيادة في البيت الزاخر  
بالمجد والسعد !

ووقف الهادي ، فتطاوت اليه الاعناق . فحمد واثني ، وقال : إن  
نكن هامة هذه الدولة ، فانتم ذوائبها . والذوائب زينة الرأس . اني لوائق ،  
وانا ابدو فيكم ، بوقوفي في اكرم قوم ، واصدق عشير . فعلى سواعدكم  
تشدّ الدولة صُعداً الى مراقي الكمال والتبّه !

ونعش جعفر الصغير ، يقول بنامة رفيقة ، كزغب المخمل : السلام عليكم !  
فارتفعت الاصوات بهتاف المرح : وعلى ولي العهد السلام . عاش ولي  
العهد الغضّ النضير !

واغرورقت اعين الهادي ولبابة وحسنة ازاء المشهد البهيج . ان من  
الفرح ما يذري الدمع . وقال الهادي ، وقد دعا الى بسط موائد الطعام ،  
يقري هؤلاء الانجاد : لنبلغ هارون ما صارت اليه ولاية العهد . فليس له  
بعد اليوم ان يتقلد شارتها ، ويباهي بعزتها !

ودفع اليه من يعالنه نبأ الخلع . والرشد جمع بعضه بعضاً في صرح  
اساس ، يتقي سطوة اخيه الهادي . وما كان ليندّ عنه امر ابي جعفر ،  
الصلب الشكيبية ، الصعب المراس . ويثس قرة عين الخيزران من غده .  
وهتف بامه ، وبامرأته ، وبيجبي البرمكي ، متأفقاً بما يدعونه اليه من رسوخ

في ولاية العهد الرجراجة : ولكني لست اريدها لنفسى . افلقتموني برؤيا المهدي . فهل بلغ منكم السخف ان تؤمنوا بعارض الاحلام ؟ ... ان الهادي لمن عمري . وسيقيم في مقعد الخلافة حتى تبلى عظامي . فما بي أهو بالتفآخات ، ولست بمن كئبت له السيطرة في هذه الدولة الريآ؟ ... حرّروني من نير كابس يثقل عنقي ، وخذوا عني ولاية العهد . لست اريدها ، وكل ما فيها يعالني انني ساشقى بها . مباركة الخلافة للهادي يرتع في نعماتها ، ولابنه من بعده يرعاها . وما بكم توقعون بيني وبينه ، وهو اخي ، وانا اتنزل له عن كل حق انالني اياه ابي ؟

فجزجت الخيزران ، وقد كوى مهجتها هذا الاصرار من الرشيد على التخلي عن ولاية العهد: أتكون من نفاذ الجلتد بما لا تصبر به على النكد؟... ألا املك بعض الرشد ، وانت الرشيد . هل اخطأ جدك المنصور ، وهو يزيناك باللقب الاثيل ؟ ... هذه الدولة ستزحف اليك بمجدها وفخفتها ، وستكون سيدها . فان اخاك لقصير العمر فيها . والله ، لئن وهبت له الافدار حظاً في البقاء ، لاصرعن مشيئة الدهر اللثيم . اعزمت فيه اجثاث الروح . لن يعيش اخوك ، يا هارون !

فلم يحفل بهذا الوعيد الاجوف ، وما ثمة غير كلمات تلقى جزافاً . أتكون الخيزران اقوى من امير المؤمنين ؟ ... قال يتفر بما تريده عليه ، مع بليغ اثرها في نفسه : دعيني من الوعود الهشاشة ، يا أمي . لقد ملتها خاطري . ولاية العهد أبرأ منها ، ولست بمسكاً باذيلها . فإن يسلمها مني الهادي ، فله ذؤابتها وسنامها !

فزعت أمه : اراك ضيق الصدر . وليس للرجال ان يتضعوا حبال

النواب . أما تكون من نسل المنصور ؟ ... ولاية العهد مكتوبة لك ، ولا ارتضي ان تشيع عنها . فهي في عنقك حتى الموت . فالهادي نفسه لا يقوى على خلعا عنك . فما اقرّ المهدي ، وتواضع عليه ارباب الامر في الدولة العباسية ، ليس لذي سلطان ان يهدمه ، ويعيث باحكامه . فالهادي يقوى على ان يكون خليفة . ولكن ليس له ان يحو المنزل المكتوب !

وبوغتوا بالجارية عتبة تدق عليهم الباب وتقول ، وقد مثلت بين يدي الخيزران تسدد اليها المقال المرعوب : بباب القصر احد رجال الخليفة . وهو يلتمس الوقوف بين يدي الرشيد ، لابلاغه رسالة امير المؤمنين !

فانتفض فوراً في ذهن الخيزران ظن السوء . وجحظت عينها . واستفهمت بلهفة : أيكون بالباب رسول امير المؤمنين الى الرشيد ؟

فأوضحت عتبة بنعمة جازعة : نعم ، يا مولائي . أبيع له الدخول ؟ فترددت الخيزران في الجواب . غير ان يجي البرمكي لم يجد من بأس في الاصغاء الى رسول الخليفة . قال : علينا بان نبيع له الدخول والكلام ، يا ذات الجلالة . وليس لطلبة امير المؤمنين مرد . فلنذكر انه الخليفة ، وان اللين اجدى من الجفاء والعدا !

فنبهت السيدة الاثيرة بصوت كالح ، غضبان : ليات بنا رسول امير المؤمنين ، يا عتبة . فماذا يريد منا الشانئون ونحن في عزلتنا ، لا نبارك ولا نلعن ؟ ... أيعكرون علينا حتى وحشة الصومعة ، وزهادة النسك ؟

فاعلن يجي : ليس لنا ان نتذمر الا وقد سمعنا ، يا ذات الجلالة . فاین هذا الرسول ، يا عتبة ؟

ولم يشأ البرمكي ان يرقب اذن السيدة الاثيرة في اباحة باب الصرح



للوافد ، وليس من دخوله بد ، وهو لسان امير المؤمنين . ولم تعترضه  
الخيّزان ، مع متفاهم وهلتها ونقمتها . وجلّ ما بدر منها انها تآذت في  
البربرة . وألقت على الرسول نظرة شائكة ، فيما يقف ، ملتوي الرأس ، بين  
يديها ويدي الرشيد . واستقرت بعبوسها ، وما دعت الرسول الى الابانة .  
وخشي يجبي ان يجلو ، هذا المستأذن عليهم ، لامير المؤمنين ، ما لقي من  
جفوة . فدعاه الى الايضاح ، فائلاً برزائه المثلى : كلنا اسماع ، يا صاحبي .  
فهاهنا ما عندك . في مّ اطلقك امير المؤمنين البنا ؟

فتسبب الرسول الموقف . وكادت شفتاه تعاندان في اعلان الخطب  
الجلل . فهو يحمل نعيّاً ، وليس الناعي كالشهير . قال بصوت ضعيف الرنة :  
انتدبني امير المؤمنين لابلاغ مولاي الرشيد ، ما لست اراكم تقبلونه بمسرة .  
الا انها مشيئة الخليفة ، ولا ندحة فيها عن الطاعة . امير المؤمنين يقول انه  
نزع ولاية العهد من اخيه هارون ، وخصّها ابنه جعفرآ . وعلى مولاي  
الرشيد ان يعي ما قضى به الخليفة الهادي ، زاده الله استعلاء وهدي !

فكان زلزالاً يعصف بالصرح . بل كأن الرشيد يُنعى . فاعولت الخيّزان  
وزبيدة : وارشيداه !

وجحظت منها الاعين . ووثبت الدموع تتوي . وكادتا تولولان لو لم  
يقف يجبي بن برمك مستطلعاً برصين الشجو : ولكن امير المؤمنين ما برح  
يرى في اخيه الرشيد ولي عهده ، يا هذا . فمتى خلعه ، وأقرّ جعفرآ ؟ ...  
ألا تكون على خطإ في ما تذيع ، فسمعت غير ما اوضحت ؟ ... امير  
المؤمنين عهد اليّ في اعداد هارون لولاية العهد . وهو ما اجهد فيه وسعي .  
فكيف يقوّض الخليفة ما بني ؟

فقال الرسول ، وقد ملك وضاء البصيرة في المحاورة : ليس لذي  
عصمة ان يتقي احكام الساعة . امير المؤمنين رأى اليوم غيباً ، ما لاح له  
بالامس رشداً . فنفر الى احقاق الناصح ، الصراح !  
فافاض الرشيد بالقول الوئيد : نحن في اكناف الخليفة على خالص  
الطاعة ، ايها الرسول . فعُدْ اليه وابلغه اننا ارتضينا ما خلع عنا ، كما ارتضينا  
بالامس ما ايد فيه اباه في خلعه علينا . فنحن ابدأ رهائن عوارفه ، ولسنا  
نرى في كل ما يهب لنا غير فيض من مننه !

فصرخت الحيزران بنواح شرس : لا ، لا ، يا هارون !  
وقالت زبيدة ملتاعة ان لا . وردد يحيى ما جهرت به المرأتان . وزاد  
فهتف : انا منطلق الساعة الى امير المؤمنين اقنعه بفساد التدبير . ألا انصرف ،  
ايها الرسول . انا في الطريق الى مولانا الخليفة !  
وصاحت الحيزران : اذهب . اذهب اليه وشدد في استبقاء الرشيد في  
ولاية العهد . الغد بين يديك ، يا يحيى !  
وابدت زبيدة بارتعاد : لا ترجع الينا الا وقد ثبت هارون في منصبه .  
كلنا يتكل عليك ، يا ابا الفضل !

فنهز بنفرة بما آلت اليه الحال في البلاط : لن اعود الا ظافراً ، او  
قتيلاً . فإما ان يثق بي امير المؤمنين ، وإما ان يقتلني . ستسمعون من  
اجباري ما تطمئنون اليه !

ووثب الى قصر الخليفة سهماً زفوفاً . ان الاعداء ليبغون سحق العظام .  
وكان يقول في نفسه ، وهو يختلس السبل الى القصر : ما سدد الينا الطعنة  
غير لبابة وحسنة والربيع . كانوا حرباً علينا في عهد المهدي ، وما يزالون

يضطهدوننا ، ويجنحون الى تدويننا . ولكننا أيقاظ !

وبدا منه انه في متفاهم الحدة. غير انه صمم على خطوة لن يرجع عنها. فالرغائب لا تدرك بالحمول ، والجهاد مقدور في نبيلها . وما كاد ينأى عن صرح اساس ، حتى كانت الخيزران وزبيدة تدنوان بغيظ من الرشيد صارختين به ، وقد كادتا تلتهمانه : ما بك تطوي جناحك لدى اضعف صرخة ؟ ... أنكون من البغاث ، وانت سليل الشواهين ؟ ... ما تراك الا ترغبي لدى كل بادرة يفجأك بها اخوك . فابن ضلاعتك ؟ ... ألا تدري انك تمثل في الدولة الكفة التالية في ميزان الحكم ، وانك اشبه بالخليفة ، وانت من يجيء بعده في المرتبة ؟ ... هذه الميعة فيك تقتلنا . سيضحك منا الهادي حين يعلم انك تخاذلت حبال إنذاره ، كأنه قسّض فيك العظام . ألا احفظ فينا ، برباطة جأشك ، صلابة المكسر ، والا اخزيتنا . أنتهار لدى الصدمة الاولى ، كأنك من خزف ؟

فهنف : لا اريدها ناراً اكلوا في دولة شيدناها بعد دهر كامل من استهانة باقدارنا . سواء قبض على الناصية موسى ، او هارون ، فالدولة ما تزال عباسية الطابع ، لا يتبدل فيها عنوان نقشه ابو العباس بناتق سنانه ، وادى عنه بنو قومنا دماً رويماً ، زكياً . انه لطيب لي بلوغ الذروة ، والاستئثار بالحكم ، ولكن هل لي ان اشاغب ، واضرمها معامع ضروسا ، وقد عزت عليّ الامنية ؟ ... خفنا من غلوائكنا . ما الهادي بذلك الغريب عنا ، وهو منا وفينا . هذا ابنك ، يا خيزران ، وابن عمك ، يا زبيدة . هذا اخي ابن ابي محمد المهدي . فكيف تدعوانني الى مناكرته ، ولن اكون عدو شقيقي ، فانخر نفسي بيدي ؟

فزجرت الحيزران ، وفي منطقتها وجبينها تعقد الشراسة عالي قبائها :  
هو شقيقك ، الا انه خلعتك مما نصبت فيه ابوك من حظوة . أيصيبك منه  
هذا الحيف ، وتظل ترعى فيه حرمة الاخوة ؟ ... انك لتلين حتى تسمي  
مجتاً مبذولاً لكل غامز . أفلست ابن المهدي والحيزران ؟ ... اذكر من  
انت ، وادفع عنك عيائك . فانك لتتضائل بما يزيل عنك مناعة العرق .  
ان يكن الهادي سيفاً ، فكن مجتاً . والا فكيف تروم اقتعاد سرير الملك ،  
وكسب مودة الامة ؟ ... فالامة لا ترتضي سيداً مرضوض الذرع ، وهي  
تصبو الى غطريف يقودها بصلافة تجفو الخنوع . فاذا ما جررتها وراءك ،  
فانها لتطيعك اكثر منها وانت تسير وراءها . فقاوم الهادي اذا أصرّ على  
عزلك ، ولا عليك اذا غرقت الدولة العباسية في الدم . فإن يتجهم لك  
الظفر ، فلا كان الملك ، وسواك سيعلب الضرع !

فلم يكثر الرشيد لتخريض امه وامراته ، وفيهما نتخدم البغضاء  
والرهبة . وابن تسمي الحيزران وزبيدة وقد ازرى الهادي بمكانة اخيه ،  
وحرمه المقام المنيف في الوسعة العربية ، وهو فيه تلو امير المؤمنين ؟ ...  
فالتعس يستصفي فيها كل ذرع ، ويبينان اشبه بالجنث المحنطة . فيتحدث  
عنهما الناس كما يتحدثون عن هياكل الامس الدارسة ، بالكلام المبهم  
الجاف ، وقد مات فيها شأو الطماح والعزة . وما تشتهيان ، من دنياهما ،  
غير السمين من العلالات . قال الرشيد يطفئ فيها جذوة النار : ألا صبراً  
ريثاً يقبل يحبي البرمكي !

واحمد غلبانها المستعر وهو يحدّثهما عن يحيى . اجل ، عليهما بانتظار  
البرمكي ، ماحي المهانة ، ومقبل العثار . والبرمكي لقي من يمهد له الى

امير المؤمنين . ورأى ان يستعين عليه بالدهاء . فيذلّ حباله حتى يكاد يتبحر .  
ويعد بالطاعة . ويدعو الى التؤدة . كأنه نسمة خير ، وشعاع يمن . وقبل  
الارض في حضرة الهادي ، كما اعتاد تقبيلها في حضرة المهدي . ولم ينهض  
من سجده الا وقد اباح له ابو جعفر الوقوف . فوقف ، ولكن كلقوس .  
ولم يقرب ان يجيز له الهادي الكلام ، فقال : نحن في قبضة امير المؤمنين  
اسياف الحق ، واجناد الولاة . فاذا مثلنا بين يديه ، فلا تأتي لسوى  
اعلان الخُضوع ، وابداء الاجلال !

والهادي لمس في مجيى المواربة ، وهو يلتوي ازاءه ، ويستكين حتى  
يكاد يصبح هباء مذروراً . وضحك منه في نفسه . وادرك الباعث على هذا  
الخنوع . ما لاح رجه البرمكي لسوى دره العاشية عن الرشيد . وتكلم  
الحليفة ، فقال هازناً بالفارسي الداهية : ألا ماذا ، يا مجيى ؟ ... اي سانحة  
مباركة تدفعك البنا ؟ ... هل من حاجة لك فنقضها ؟

ولقد اصفى الى رسوله الى الرشيد قبل ان يأذن ليحيى في الدخول .  
وتبين من اقوال الرسول استخفاف اخيه ، ورضاه عما أصيب به من تنحية .  
كما ألمّ بما افاضت به الخيزران وزبيدة من احوال . بل هو اطلع على رغبة  
البرمكي في المجيء اليه ، قبل ان يسقط اليه ان البرمكي بالباب يلتمس  
الوقوف في رحاب امير المؤمنين . وتاق الى سماع هذا المتهالك على ارضاء  
الخيزران ، وعلى الذود عن مكانة هارون . باي كلام سيخاطبه ويستعطفه  
في ما لا يبيع الرجوع عنه ؟ ... قال يحيى ببسمة فرض عليها الميعة  
والغلو في الزلفى : ادام الله عهد امير المؤمنين مشرقاً وطيداً . ليس لنا  
الا ان نبتهج وقد تولى ابو جعفر الامر فينا . فيرفع من شأننا ، فيما

يسوسنا ، بما وهبته العناية من سخاء قلب ، وعفة ضمير . ولسنا نتردد في اقرار حكمه في ما يقدر علينا ، وليس يخالطنا وهم من ارتياب بصدق النبوة ، وصواب المرمى . فما يعلن خليفة الرسول هو الحق ، والعدل ، وليس لآياته المنزلة تبديل ، ولا لحكمها التواء . الا ان المفاجأة بهذه الآيات تدعونا ، احياناً ، الى الجرأة على امير المؤمنين في التماس ارجائها ، لا نحو سطورها . ولولا انها الغيرة على الخليفة ، ابقاه الله خفتاق الرابة ، لاجبنا عن كشف ما في الصدور من حوافز الاخلاص !

فتعاضم مطلب البرمكي وضوحاً . اقبل يجيبى للشفاعة في الرشيد ، والتطويل له في ولاية العهد . وظلت نبرة السخر فاشية في مقال الهادي ، فقال متجاهلاً : ألا افصح ، يا مجيبى . ليس في مقامنا متسع للالغاز . ماذا تريد ؟

فاعلم البرمكي بمتناهي الاحتشام : لا اريد ، يا مولاي ، بل ارجو ، بل اتضرع اليك في ما يوحى به اليّ ضميري من خير لدولة تعتز بانك حاميتها . شئت ان تنزع ولاية العهد من اخيك الرشيد ، ولا امتعاض مما ابرمت ، ولا جدال في ما ذهبت اليه حصافتك وبصيرتك . وما تدرك انت ليس لمثلنا ان يفتن اليه ، ولا ان يشكّ في ما ينضح به من الروية للباب . وان الرشيد ليرضى التنزل عن حقه ، وقد رأى مولاي الخليفة ان يستعيد منه ما كتب له ابوه . ولكل هل من السعي السديد ان نستلّ منه هذا الحق ، وما برح المهدي نديّ التراب ، يملأ دنيا العرب بروحه ، وخياله ، كأنه ما يزال يسود ؟ ... ليس للرشيد ان يتمرد على مشيئة امير المؤمنين . لا والله ، يا ابا جعفر . ولكنه الميل الى اقرار الامور في مواضعها . فاذا

ما انتظرنا النضج في جعفر ، فليس في الانتظار دليل على عناد الرشيد ، ولا على حرمان ابنك ما يشوقك ان يتبوأ من سلطان . وما لطفل ، ابن ست سنوات ، ان يتولى رتبة هي في الدولة دعامة . فهل يضير مولاي لو ابقى اخاه في المنصب ، ريثما يشب جعفر ، حرسه العناية ، عن الطوق ، ويمسي خليقاً باعتلاء الارائك السامقة ؟

فوقع الهادي في بيان البرمكي على مكنتز الحجا . ليس لجعفر ان يتولى مقام ولاية العهد ، وهو ذلك الطفل الجاثم في سنواته الست . بيد ان الخليفة لم يشأ ان يؤيد فوراً مؤدب الرشيد ، وفي التأييد العجلان ما يدل على طيش وعقم تدبير . فتظاهر بانه على اطراق ، كأنه ينظر في ما يعرض عليه يحيى بن برمك . ونجلى ليحيى انه اصاب من الخليفة ملمس الاقتناع ، فقال :  
أیظن امير المؤمنين أن الناس يسلون الى ابنه الامر ، وجعفر لم يبلغ الحنث ، ويرضون به اصلاتهم ، وحجهم ، وغزومهم ، وهو الحديث العهد بالفطام ؟ ... اخشى ، وقد خلعت عنها اخاك ، ان يسمو اليها جلة اهل بيتك . فتخرج من ولد ابيك الى ابنا اعمامك ، وكلهم يشحد لها المطامع . وتكون قد حملت الناس على النكث ، وهوت عليهم أيمانهم . فلو تركت بيعة اخيك في مستقرها ، وبويع جعفر بعده ، كان اوكد . حتى اذا ما بلغ مبلغ الرجال ، سألت اخاك ان يقدمه على نفسه ، فيظل الامر في ابنا ابيك ، ولا يشره الى الامنية الحيرة من يعزلكم عنها ليستأثر بها !

فازداد الهادي يقيناً ان البرمكي يذيع حقاً . وما تمالك ان اعلن :  
نبتتني الى ما لم اكن منه على معرفة ، يا يحيى . ليس لي ان اهدم ما بنى ابي . اجل ، جعفر لم يدرك مرحلة الحلم . فلنبتق الامور كما هي ، ريثما يبلغ

ابني أشدّه . وعندذاك ادعو الرشيد الى التنزل عن حقه في سبيل جعفر ،  
وتعطي الحالة في نهجها القويم !

فابان البرمكي ، والفوز الرشيد بالارب ملاً قلبه اغتباطاً ، رقد تعجب  
من ادراكه البغية بسهولة لم يرقبها : وهو خير ما يفعل امير المؤمنين !  
على ان الهادي استوضح ببعض ربية : وهل يوافق على هذا الرأي  
اخى هارون ؟

— ليس لهارون ان يمانع في ما يريد عليه امير المؤمنين !  
قال الخليفة : اذن فليعهديني على اعتزال رتبته يوم يجاوز جعفر عهد  
الصبا . فلن اقدر عليه الذل وهو اخي . على ان يسرع في الموعد الى  
الوفاء . فلا يكرهني على انتزاعه عنوة من مقام نخلى عنه طوعاً !

فاعلن يحيى : وهو ما سيفعل ، يا امير المؤمنين . ساقوده اليك لمبايعة  
جعفر ، ولك ان تعهد اليه في المنصب حتى الاجل الموعد !  
فوافق الهادي على المطلب ، قائلاً : لا بأس . ليأت الينا هارون ، يا يحيى .  
فليس لمن نجلها أبّ واحد ان يتناكرا !

فهذا يحيى الى صرح اساس في طفرة الصقر . ودخله هاتفاً ، لا يتناسك  
لبليغ فرحته : ابن السيدة الاثيرة ؟ ... ابن الرشيد ؟ ... ابن زبيدة ؟  
فهرع اليه الثلاثة يستطلعون عينيه ، وفمه ، مخبره . فصاح بمديد الجذل :  
ما رغبتنا فيه نعمنا به . بشراكم !

فنهفت الخيزران بمخضّ البهجة : هل بقي الرشيد في ولاية العهد ؟  
— بقي فيها ، يا أم موسى !  
فراعاها ما يذيع . واستفهمت بقصي الدهش والخبور : وكيف وفقت



للبغية ، يا يحيى ؟ ... هل أوتيت قوة السحر في موسى ؟ ... ألم تكن هناك لبابة وحسنة ؟

— كنا وحدنا ، يا مولاتي . فخطبت امير المؤمنين بما فتح عينيه للصواب . قلت : « أتولي ابن ست سنوات مقاماً لا تسعفه السن في التوفر عليه ؟ ... ما ضرتك ان تستبقي الرشيد ، ربنا يبلغ جعفر عهد الحلم ؟ ... فهل يخيل اليك ان هذا الوليد يقوى على تدبير قومك في صلاتهم ، وغزوم ، وحجهم ؟ ... ما ان يجول ابنك ، في مراتع الرجال ، حتى يتنزل له الرشيد عن حقه في ولاية العهد . أما ان تفرض عليه ، اليوم ، التخلي عن منصب لا نجد من يتولاه من ابنائك ، فكأنك ازلت الخلافة عن بيتك لتبها لمنافسيك . وما اكثرهم في هذه الدولة . فتق باخيك . ولا تلق الامر الى من لا يبرح لدن الالهاب ، عاجزاً عن مغالبة هوجاء الريح ! » . فما تمالك ان صدق ما كشفت له عنه . وجل ما سألتني فيه ان ادفع اليه الرشيد ليعاهده على ما استنفدت في بلوغه الجهد !

فتقلص عن الخيزران البشر ، وهي تلمّ بالتدبير . فالعزل لم يُنقض حكمه . وزعقت خشياً : ألا ماذا اقدمت عليه من مستضعف البدعة ، يا يحيى ؟ ... لكأنك اذعت هارون !

فالتفت اليها باسماً ، لا يحفل فيها بسورة الحدة . وقال بمنهل الطمانينة : لا تجزع سيدتي الاثيرة . ما انتهيت الى هذا المخرج بسوى مشقة . وهو كل ما يسعنا ان نثال من الهادي . وعلى سيدتي ان تتقبل برضى ما احرزنا ببلوغ الوكد . سيبقى هارون في مكانه من ولاية العهد ما يجاوز السنوات العشر . ومن يدري ما سوف يدهمنا في هذه الحقبة . فهل نسيت مولاتي ما قص

عليها المهدي من رؤيا ؟

واشار الى ما تراهي للمهدي في المنام من قضيب بورق كله ، ومن قضيب لا بورق سوى اعلاه . والقضيب المورق كله يرمز الى بقاء الرشيد طويلاً في سدة الخلافة . على حين ان القضيب المورق اعلاه ، وحسب ، يعلن قصر عهد موسى بالمنصب الاول في الدولة . فصرخت الخيزران جازعة : ولكن من يثبت لي صدق الرؤى ؟ ... قضيت علينا ، يا يحيى . عبت بمشيئة المهدي واجزت لاعدائنا التفوق . لم تكن ذلك المحدثك البصير في ما بلغت . واضيعه العمر ، وقد تلاشى كل ما تعبنا ، على مدى سنوات فساح ، في إحكامه . هويانا عن مرتبة العز . واحسرتاه !

فقال يحيى يمنع عنها التداعي : لا ارى ثمة ما يهيب بولاني الى الاسى . فكل ما استطعت نزعته من امير المؤمنين استلمته بعزيمة غلابة . واني لاخاف ان يعدل عنه اذا صورت له لبابة وحسنة الاذى في ما اتفقنا عليه . اعتمدي على الغد ، وانت الراجحة . يكفيننا ان نظل على حالنا ، وبجاننا ساعة نحن فيها . وليس لاحد ان يلمّ بخفايا الآتي ، يا صاحبة الجلالة !

فنشر الصمت الحائر بساطه على المكان . فالباس والرجاء اعتلجا في كل صدر . فلم يكن للاربعة ان يرضوا ، ولا ان يعضبوا . على ان الغضب رجح الرضى في ضمير الخيزران وزبيدة . اما الرشيد فما بالي . ومع اعجاب البرمكي بنفسه ، وقد عاد من المهمة في شبه غلبة ، لم يقوَ على ابداء الابتهاج بما حاز بعدما جبهته الخيزران بالنفرة . على انه وذلّ لو رسخ الهادي في ما تواضعا عليه ، فلا تخرج به امرأته المرموقتان ، لبابة وحسنة ، عن العهد المقطوع وارجعه التردد في اجابة امير المؤمنين الى ما اقرّ من رغبة . على الرشيد

ان يسرع الى اخيه كي يعاهده على تخليه عن ولاية العهد، يوم يتزعرع جعفر،  
ويمسي ذا رشد ونضج . و حار البرمكي في ما ينهج من اسلوب لدفع  
هارون الى البلاط ، مع غناد الخيزران . فما وعد به يحيى لا بد من انجازه ،  
والا انقطع عن صرح اساس ، ان يكن فيه غير مسوع النصح . قال يجهد  
جهده في الاقناع : ليس افضل مما كان ، ابنتها السيدة الاثيرة . واحسبك موقنة  
باخلاص يحيى البرمكي . ان اخلاصي لهذا الصرح ينهد بي الى الايمان باننا ،  
في ما استعدنا من حظوة ، ابعد ما تقوى اليوم على استصفائه . فلينهض  
هارون الى اخيه ليعالنه المواممة ، ويجاهره بالطاعة !

فهمت الرشيد : ها انذا ، يا ابناه . اني لاجد الهدى في ما ذلت  
وادركت . وما كان للهادي ان يهاتنا بهذا السماح ، لولا ان تبلغ منه بجدة  
ذهنك ، ودهائك ، ما ليس لذي لب ان يدنو اليه ، بعد الازماع على  
المناكرة . اعدت الينا المجد فيما يوشك ان ينبو عنا ، يا ابا الفضل !

قدمدت عليه الخيزران بهلع ونقمة : أهذا الاستخذاء تحاول ان تبلغ  
قدر الرجال ؟ ... يا حبيبتنا فيك ، وانت هذا التكلمة !

فقال يحيى متأففاً : دعينا ننظم امرنا ، يا ذات الجلالة . يحيى ليس على  
خلال . فمن الرشدا الامثل ان نرضى بالمعروض علينا . اعيد القول ان موسى  
لن يعمر طويلاً . وسنظل في مرتبتنا ريثما تحطمه المنون . وما ان يلتوي ،  
حتى نفر الى الاعنة فنقبض عليها ، وندير شؤون الدولة بلا عياء ، كأن ما  
اقرّ ابو عبدالله لم يتبدل . وليس لطفل ان ينازعنا مقاماً مكتوباً لنا ،  
وولاية العهد لا تبرح في قبضتنا . اذا نظرت مولائي ببعض الروبة في ما  
اخاطبها به ، ايقنت اني انطق بالخير ، واصبو الى الجدوى . مصلحتنا في

ان لا نعيد قيد ائمة عما ننعم به من مكانة آيدة !

وامسك بذراع هارون هاتفاً : هلمّ ، يا ولدي !

فاذاع الرشيد : اني لمنطلق الى حيث ترجيني ، يا ابتاه . هيا !

وبرحا معاً صرح اساس ، والحيزران تمييز حنقاً . الا ان قياد الامر ،  
وقد افلت منها ، قضى عليها بالاذعان المكره . ربما كان الهدى في ما يدعو  
اليه يجيى . وارتمت السيدة الاثيرة مبرطمة ، مبرورة ، في مقعد قريب منها .  
تقلقل المجد ، وهانت العزة . باتت أم موسى مغلوبة على امرها . وكانت ،  
لبضعة اشهر خلّت ، الدولة على قصي رحابها . وظهرت فيها الضعفة  
فاطلقت الزفرات . انها لفي ازمة منكرة من الحيلة والزراية . وتوعدت  
ابنها موسى . سوف يرى الانكسد . انها لطالع شؤم ساعة انتفاضة في حشاها .  
وصممت على ابادته ، وما تلقى ضيراً في نحر ولدها . هذا جباح لواعج الاوتار .  
ونظرت الى الغد . فان لم تصدق رؤيا المهدي ، زوجها ، فستقدر عليها  
الصدق . هددت مراراً بقتل الهادي ، وستقتله إن هو مضى في معاندتها .  
قالت وكل ما فيها على ارتعاد لفرط غضبتها : عليّ ان ارقب مسير الاحداث .  
فاذا جرت في الصعيد غير المؤاتي ، زجرتها بما املأ به بسطة العرب اعوالاً  
وزييراً !

والاحداث لم تنصر الحيزران . فما كاد الرشيد ويجيى البرمكي يقفان  
في حضرة الخليفة ، حتى ابتدرهما ابو جعفر بقولة جازمة ، تقطر امتعاضاً :  
ما اتفقت عليه ويجيى لا سبيل فيه الى الانجاز . عزلتك عن ولاية العهد ،  
يا هارون ، وخلعتها على ابني جعفر . فليس لك ان تمارس سلطانها ، ولا  
ان تعتمص بمنعتها ، وانت نقيّ منها !

فاستقرت عليه الاعين الاربع بشده . ما كان هارون والبرمكي ليرقبا  
ان ينقلب الهادي على نفسه في لحظة . ولاحق فوراً ليحيى اصابع لبابة  
وحسنة تلعب بنهية امير المؤمنين ، وتقوده الى ذبح أمه بمديّة الجلاّد  
هدر الغلّ دم الخيزران !

لبابة وحسنة بالمرصاد. فلا يخطو الحليفة خطوة، الا وتحسبنا عليه. ولا يفضي بكلمة، الا وتدققان فيها، وتستجلبان مرماها. كأنهما، وقد لمستا فيه الضعف حيال أمه، اضحتا تحشيان عليه الانزلاق في فنج الخيزران. فتسلبها اياه أم موسى، وتخذد شوخهما، وتعود الى غمرة الدلال فتتهادى فيها بمخمر القياش

ولبابة وحسنة منذ ابصرتا البرمكي، في البلاط، رقبنا اندلاع الغاشية. ما يقبل يحيى لسوى النسف والتدمير. فيستأصل ما اجتهدنا في غرسه، وتعللتا بنائه، وقد بات المأمول في القبضة. وهرعتا الى مكاتهما من ابوان ابي جعفر، تنصتان كالمعتاد. وسعنا ما ابدى البرمكي من رأي، فهزت كل واحدة منهما برأسها، وصرفت باسنانها. فما يحيى والخيزران غير ثعبان وافعى، اندسا في بطانة الثوب العباسي للدغ كل من يحاول اصلاحاً، ويروم إحكام ميثاق

قالت حسنة وهي تكاد تتمزق حقداً: أسمع؟ ... انه ليطنخ له السم، ويدعوه بمكر وقحة الى التهامه. لكأنه الخيزران. وانه لمنها. فلا عجب وقد تعادلا. ألا كيف يطلب اليه استبقاء الرشيد، في ولاية العهد، ريثما يكبر جعفر، فيرضى موسى؟ ... أما يعلم انه يقضي على نفسه، وقد ابقى في الجو جرثومة من وبيل الوباء؟

وكادت تثب الى صدر الديوان فتصيح بالبرمكي: «ألا اخرس، يا وجه الشؤم. ما تحوك الا شركاً تنزع به الى اصطياتنا. ولكننا اصبحنا على

بيتة من نفاقك . اطرده ، يا امير المؤمنين . بل اضرب عنقه ، وانقذ الدولة من غدره ومينه . فما يريد الا فساداً وشرأ ! » . الا ان لبابة امسكت بها تكرهها على الجلوس ، وقد قرأت في عينها ما تسعى له من فضيحة . وخاطبتها بلهجة الامر المتجلي في نظراتها ، وفي كلماتها العنيفة على خفوتها : مكانك . ما فات الاوان ، وما تزال لنا الى امير المؤمنين سبيل فنعالسه بدمامة المأرب !

واختلجتا معاً ، وهما تسمعان امير المؤمنين بوافق البرمكي على مقصده ، ويطلقه الى الرشيد كي يأتي به اليه ، فيعاهده على المهادنة . وكالسيل الجارف تدفقتا على الخليفة صاهلتين : أنظّل تكبو في الحطو ، يا موسى ؟ ... أيقودك ابدأ البرمكي في خدمة مكايده ، فيضرم تحتك النار لاحراقك ، ولا تحس باللهب يلتهم جنانك ومهجتك ؟

وهتفت حسنة ، باكفهرار وغيظ ، وهي تحس بالارض تميد بها : ولكنهم يمتون النفس برؤيا ابيك . أما جاءك ما افاض به ابوك عن قضيب يورق اعلاه ، وقضيب يورق كله ؟ ... حسبوا ذلك القضيب المورق اعلاه عهدك في السدة ، وفسروه بانه غير طويل الامد . على حين يمتد عهد هارون وتددلى فيه عناقيد السعة واليمن . واذا ايد صرح اساس رغبتك في خلع الرشيد ، والمناداة بجعفر ولياً للعهد ، على ان يبقى الرشيد في المنصب لا يجلو عنه الا وقد كبر جعفر ، فانه ليتعلل بزوال ملكك في الوشيك ، وبانتقال السلطان اليه . وكأنك ما عزلت هارون عن ولاية العهد وانت تبقيه فيها ، ريثما ينمو ابنك ، ويدرج في رحبة الرجولة ، وسيظل الذئب يعيث شرأ في القطيع . وان لم يكن صرح اساس ينطوي على سوى هذه المخبئة ، فمن

المفروض عليك هدم اركانها وهو يتقاسمك ، وما تبرح ملء الوجود !  
فانارت ذهنه بما كان منه على خمود بصيرة . ونظر اليها طويلاً كأنه  
يزداد من عينيها المنوهجتين بالضعينة بياناً و يقيناً . ونضضت شفتاه بقوله  
مدهوشة ، كالمستيقظ بعد نشوة : صدقت ، يا حسنة . والله ، اصبحت المرعى .  
ما في صرح اساس غير نيات فاسدة ، ومطامع مسنونة . لا ، وتربة جدي  
المنصور ، لن يبقى الرشيد لمحة في ولاية العهد . كدت ابقيه فيها عشر  
سنوات ، وربما اثنتي عشرة سنة . ولكنه غير جدير بها . فالمنافقون لهم من  
عقاب ربهم ما يعرفل مسعاهم الدنيء، ويقوّض امنيتهم السفينة . وضع لي من  
مكرهم ما لم اكن منه على جلاء !

فقلت لبابة : اراك اسلمت اليهم بما اضاع فيك البغضاء . ومن لا  
يبغض ، يا امير المؤمنين ، فلن يقطن الى المكاره يتقيها . لبطل فؤادك مخضباً  
بالحق . فالخذ وحده ينير سبيلك ، ويكشف لك عما يحاول فيك اعداؤك  
من خيم ، فتتحرّز من دسائسهم واحابيلهم !

فنبه : واني لهذا الحقود ، يا لبابة . غير ان رفيقي بامي يقدر عليّ صفاء  
النية . اما وقد وضع لي مكر الثعالب ، فاني لانزل مني الضعينة منزلة الحلم .  
سوف يبدو لكما من نقمتي على اولئك المهازيل ما يخضخض فيهم الروع .  
فالبرمكي مقبل اليّ بهارون ، وستريان وتسمعان ما يكون مني فيهما .  
فصبراً !

وهاله ما يلوح له في أمه من خدعة . أصفح عن مكايدها لحرمانه حقه  
في الخلافة ، كي يلقي منها هذا الخنثل الدميم ؟ ... أظن الخيزران تلك  
الخيزران ؟ ... ورقب عودة البرمكي بصحبة هارون . واقام على فائر



الحنق ومتفاهم الجفاء . سيزلزل الارض بالانكاد . وما كانت لتهدأ فيه  
 الغصص ، وقد امسكت بخناقه . فالغلّ فيه على طفاح . وعقد ناصيته ،  
 وغارت عيناه تحت رفرق من حاجبيه ، لتجحظا في وقيبهما وتطلقا السهام  
 الرهاف . لم ينصفه حظه ، وقد اقام له من أمه واخيه عدوين يسعيان لاذلاله .  
 عدوه في عبته . وما انحى بين يديه الرشيد ، والبرمكي ، حتى استدلا من  
 اساريه انه على قطوب ونفرة . بيد انهما علّتا هذه البادرة بطبع فيه  
 غليظ . اما وهو يفجأهما بقولته اللاطمة ، فايقنا ان الرأي المعلن التوى  
 فيه ، فمحا معالم ما اتفق عليه والبرمكي ، وقد عكّر الحوصم ، المقيمون على  
 خشية ، زلال الماء . واستوضح البرمكي والبشر يغيض فيه ، والاضطراب  
 يسود نهيته : ولكن هل يذكر امير المؤمنين ما اذن فيه ، ودعا اليه ؟ ...  
 ما جئنا الا امثالاً لمشيئته ، ننادي بالتنزل عن ولاية العهد ، ونبايع بها  
 جعفرأ المعبوط اليمن !

فهدر موسى : والله ، انك وصحبك لمن الغش في منتهى آمامه ، يا يحيى .  
 أيطيب لكم ان تثبتوا هارون ، ولو لزم من موقوف في ولاية العهد ، كي يرثني  
 حين اموت ، استناداً الى ما ذاع فيكم من رؤيا المهدي ؟ ... ألا سفه ظنكم .  
 لاعيشن في جلباب الخلافة حقبة ما احسب ايامكم تمتد اليها . فما انتم الا  
 كالحنافس ، يسحقها وطئي . ألا خففوا من عنجهيتكم ، والا نثرت لحومكم في  
 مهب كل عَصوف . ارهب نعتي ، يا يحيى ، ولا تطوح بهذا الغلام الرخص .  
 فانك لتقوده الى المهالك وانت تزين له الغدر اقداماً ، والحسة رفعة . وابلغ  
 الخيزران ان زمنها مضى . فان يكن لهاها يضيّق بها ، فلن أفق عن اذاعتها  
 حتفها . لكأني اراها تستطيب الولوغ في دمها !

فهتف البرمكي هالماً : ولكن امير المؤمنين يسيء بنا الظن . والله ، ما  
عرضت لنا رؤيا المهدي في خاطر . فما التمسنا من ابي جعفر ، الابقاء على  
الرشيد ، لزمان موقوت في ولاية العهد ، لسوى رغبتنا في صون الخلافة من  
التنائي عن هذا البيت الصفي . اما وامير المؤمنين ينفر عما استصوب ،  
فليس لنا ان نكرهه على ما لا يطمئن اليه . فالرأي ما يبدي امير المؤمنين !  
فاحتدم الهادي حتى قُصِر عن مداه ابوانه . وجهر بمسنون نبوة : انك  
لتبث عن قبرك ، يا يحيى . لاهديتك اليه الطريق . ما غرقنا لولاك في  
هذا السيل من الدسائس . فكأنك مارق من الدين ، لا تردعك عفة من  
خلق عن المشاين تنغمس فيها . اما والله ، لتكوننّ عبرة . ضلّ ابي مبيع  
الرشاد وهو يفسح لك البنا . بل ضلّ جدي المنصور ، على بعيد حنكته ،  
عن مصلحة الدولة وهو يجيز لأبيك الاتصال بنا ، والاندماج فينا . ستعلم  
من امرك ما يقهر فيك كل شغب ونفاق !

فشعر البرمكي بالزوبعة تجتاحه . بل شعر بالنار تندلع عليه ونوشك ان  
تلتهمه . وتذكر ما انفق له في زمن المهدي ، وقد نقم عليه ابو عبدالله  
بتحريض حسنة . حسنة بعينها ولسانها . ونفاه الى ازربيجان يتولى زمامها .  
ولقد نجا يومذاك بغوث من الخيزران . اما اليوم فمن له يتقذه من الورطة ؟ ..  
قال بمرضوس لهجة : ابقى لنا الله امير المؤمنين ، وليس لنا ان نخالف له  
بغية . فان يكن يجد في قلبي ما يزيد في مجد هذه الدولة ومنعتها ، فلست  
ابخل بدمي على احياء المجد ، وتوطيد الركن . ها هوذا عنقي ، يا مولاي !  
فصرخ به الهادي : دمك لا يوطد ولا يجي ، ايها المراوغ الاشأم . بل  
يدفع عن الاجساد عضات ذبابة موجعة . فلا يخليل اليك انك ترجع ذبابة

خبيثة ترعج وتمض ، ولا خلاص منها بسوى طمسها . وكنت أطلع يدي  
بدمك . الا اني استنكف ان يصيبني منه رشاش لا يذهب عني ننته . فالى  
السجن ، يا نسل ابليس . أتزعج الى المخائلة ، وابيقك تسرح وتمرح على  
هواك ؟ ... لا ابقاني الله اذا فعلت . ألا اقبضوا عليه واسجنوه !

ولم يكن باضطرار الى التصفيق في دعوة حاجبه اليه ، والحاجب سمع  
زئير امير المؤمنين وهفا اليه ملياً . ووقعت عيناه على يحيى البرمكي ،  
وقد طأطأ يحيى الرأس حتى كادت هامته تلتصق بالارض ، واعلن بنحشوع  
وخوف : لتكن مشيئة سيد امري ونعمتي !

فاشار الهادي الى البرمكي مذيعاً بسخط : اودع هذا الوقح سجن  
المطبق ، ولا تبع له ان يبصر النور ، ولا ان يخاطب مخلوقاً . وكبل يديه  
ورجله بالسلاسل ، ولا تهب له في يومه غير كسرة من الخبز ، وطاساً  
من الماء !

فتمتم يحيى : ليس لي الا ان اشكر الله وقد التفت الي امير المؤمنين !  
فزاد هذا الاستسلام في موجدة الخليفة . ونهض ويده بمسكة بمقبض  
سيفه ، مجلجلاً ودمه في عروقه على جيشان وطفرة : صه ، لا أم لك . لا  
تخرجني فاخطف رأسك !

فاختنق الكلام في صدر يحيى . وقبض الحاجب على ذراع البرمكي  
المكظوم الغيظ ، وجره الى المطبق الرهيب . وهو سجن مظلم انشأه في  
بغداد ابو جعفر المنصور لمعاقبة العصاة . وشيع الهادي اسيره بنظرة تستشيط  
فيها السخائم ، وبسحنة ربداء تستطيل نزوات . وجنح الى اخيه الرشيد يقول  
بصوت أجش ، قاصم : كأنني بك تحدث نفسك بتام الرؤيا ، يا هارون .

ولكنك ترجو ما ينبو عنك ، ودون ملتمسك غزو السماء !  
فما بين الرشيد ولا تلعم . ومن العجيب ان لا يجبن ولا يتلعم في  
الموقف الصعب ، وهو المفطور على الوداعة واللين . بل قال يندد باخيه حبال  
ما بداله من قسوة الهادي على يحيى البرمكي ، وخروجه عما نشر من  
عهد : على رسلك ، يا امير المؤمنين . فمن تكبر اتضع . ومن تواضع ارتفع .  
ومن ظلم انخذل . لئن انتهى الامر اليّ لاصل من قطعت ، وأبرّ من حرمت .  
ولا صيرن اولادك اعلى من اولادي ، وازوجهم بناتي ، واقضي بذلك حق  
الامام المهدي عليّ !

فطمأن المقال الانيس من حدة الخليفة ، والتمتع في وجه الهادي السرور  
فهتف : ألا ادن مني ، يا هارون . والله ، انعشت نفسي بما زفت اليّ من  
نضير البيان . ما غاب عني انك شقيق نفسي . الا ان للايام احكامها القاهرة ،  
يا ابن أُمي . فاذا ما نضوت عنك ولاية العهد ، فلن انسى ان ارفعك الى  
حيث تسمي وكأنك الدولة . دع لجعفر ابن اخيك المجال الى السؤدد ، وكن  
له نصيراً ، فتجري الامور برأيك ، وتوقن انك قابض يجمع يدك على الناصية .  
ان جعفرأ ليسنتيم الى عمه في تنظيم الامر ، وهو يلقي في الرشيد كنانة  
الرشد !

فنهض هارون وقبل يد الخليفة ، اخيه . وتراجع الى مكانه في زاوية  
الايوان . فصاح به الهادي : وحق المنصور والمهدي ، لا جلست الا معي ،  
في صدر مجلسي !

وقرّبه اليه . وعاد الى التصفيق ينادي حاجبه معلناً : الا ابن قيم  
بيت المال ؟

فما استعان به من عنف ، على سلخ ولاية العهد من اخيه ، فرض عليه الاسترضاء . وبدا قيم بيت المال يسلم وينحني ، حتى يكاد ينقصف . فجهر الهادي : احمل الساعة ، الى هارون الرشيد ، اخي ، الف الف دينار . واذا ما فتحت الحراج فانطلق اليه بالنصف !

وساق قوله الى الرشيد مديعاً : اعتمدني ، يا هارون ، كابيك . بل كشريك لك في الحكم . فلن اتادي برأي لا يظفر بتأييدك . ولن اعقد صلة لا تحوز موافقتك . هذه الدولة ، وقد احكم المهدي بنودها ، واقامنا على نواصيها ، تدرج بمشورتك ، وحنة فطنتك . فلا تبطن لها الا الخير . ولا تلمس لها غير النجح . ما جعفر ، وهو ابن اخيك ، سوى ابنك . وكأنه قطعة من كبذك . فاذا ما تنزلت له عن حقلك ، فكأنك لا تزال تقرأ عيناً بهذا الحق . وليس من حقد بيننا يرين على الارواح ، ولا من عداه يفصل بين القلوب !

وسعى بوفر من لين ودهاء لتضيد الجرح النزيف . فركن اليه الرشيد ونام على الاذى . لن يثور على اخيه ويقلق فيه الامنية الجموح . فاذا افلقت منه ولاية العهد ، فما برحت في بيته تنشر عليه ظلالها الوداعة . وحسبه ان يكون شقيق الخليفة ، وان يمسي غداً عم الخليفة ، وكان السؤدد ما يزال رابضاً في العرين . قال يجيب اخاه عما ازجى اليه من انيس التصافي : ما كنت لابغي ان تقوم بيننا الشحنة ، يا امير المؤمنين . فالمهدي ، رحمت الله عليه ، ما دعا الى الحطام ، وقد قسم بيننا المجد . الا انها المطامع الناهدة الى الاستئثار بكل جليل ابعدت بعضنا عن بعض ، وما من دافع الى المصالحة . ان من يدرك شأن الاخوة ، ويدين بمذهب جمع الشمل ،

مؤمناً بركة الرحم ، ليزيب من نفسه لاجل وحدة العرق . اراني واياك  
وابنك من حزمة واحدة ، يا موسى . وكل ما اسألك فيه ان تعفو عن  
البرمكي . فليس يجيب ، مؤدبي ، بالعدو ولا الشاني . ان هو الا غرسة  
بين ايينا وصنيعتك . وانت من ابقاه في مهمة انتدبه لها المهدي . أما وكلته  
بي يتقف أودي ، ويشق لي الطريق القويم ؟

فابتسم الهادي ابتسامة تنهد الى الملاحظة . وقال برفيق نبوة : هلا وهبته  
لي لبعض الزمن ، يا هارون ؟ ... لن تلمّ به غاشية . الا اني احاول  
ترويضه بما لا يفسد بيننا الالفه . فهو من اعداء وحدة هذا البيت ، كأن  
شهوته ان يرتع في خصومتنا . أفما تراه يلتبس لنفسه الرفعة بالمتاجرة  
باكفاننا ؟ ... ما دمنا على انفصال ، فهو صاحب الرأي والمشورة ، المنتفخ  
الصدر زهواً ، والمعن في حبك الدسيسة . واذا ما اتحدنا هان شأواً ،  
وضاق سعياً . على اني سأعلمه ، وهو يرسف في اغلاله في المطبق ، نبل الروح ،  
وكرم المهزة . فلا تقلق عليه . وحق جدك المنصور ، لن تصاوله داهية !

فاعلن الرشيد : ولكني ، وقد اقبلت واياه ، يا امير المؤمنين ، يعزّ عليّ  
ان ارجع الى صرح اساس وحدي . فإما ان تسجننا معاً ، وإما ان ننصرف  
معاً ناعمين بملكك الوسيح !

فضحك الهادي بمخضّ البشر . غير انه بشرّ لا يخلو من مصانعة ،  
وقد اراد به ابو جعفر التخدير . وألقى يده الى كتف الرشيد وقال : لا  
عليك . لن تطول اقامته في سجنه . أفلاتيسح لي ان اطهره من ارجاسه ؟ ...  
هي ايام قلائل وستلقاه بعدها لديك !  
فرهب الرشيد ان يعود الى أمه عاطلاً من يجبي . فما يكون من

الخيزران وهي تبصره ينكفىء اليها على رجل واحدة، مخذولاً، اقطع؟ ... فلم ينل حظوة الاعتصام بولاية العهد، ولو لمحدود الاجل، ولا تقهر عن البلاط سليماً من المعاطب، وقد ابقى في قبضة الهادي مؤدبه يحيى. وعاد يسترحم. فافصاه عنه الخليفة بخالب القول، ومطول الوعد. واضطر الى الانصراف على خيبة. فماذا جاء يفعل في البلاط؟ ... ما كان له ان يجاري البرمكي في الاجابة. والبرمكي جنى على نفسه، وقد امسى في المطبق، ذلك المجلس الرابع، ولدى السماع به تنهد العزائم، وتنخلع الافئدة. وجنى على الرشيد، وهو يسوقه الى الخليفة ليجرّده عفواً من ولاية العهد، كمن يمدّ عنقه طوعاً لنصلة البتار. والخيزران رقت هذا الانتقام الاسام، وابت على الرشيد ان يدرج الى اخيه. ولكن يحيى انتصب كالقضاء، يمانع في ان تعاني كلمة يذيعها الامتهان والفشل. آه، كم يجهل ابن برمك ما ينضح به البلاط من اخاديع، وقد حفل بلبابة وحسنة!

ودلف هارون، على ارتباك، الى صرح اساس. وودّ لو كان هذا الصرح بعيداً فلا يبلغه، وهو الملمّ بما سوف يصدمه من نقمة وبغضاء. فلن تبقي الخيزران على شتية الا وتلطسه بها. وليس يجهل امه. فالخيزران اذا فارت اشبه بالزلزلة. فتنكسف الارض، ويفور الفلك

واحس بالوهن يعتربه في رجعته الى صرح اساس. فاخذ يقدم رجلاً، ويؤخر اخرى. ويجتهد في تقصير خطوه كي يطول المجال، ويبعد عنه مرأى أمه الغضوب. وضلّ عن قصده في حمى من الدهول والحشية، كأن في رأسه أتوناً يتضرم. بم سيخاطب الخيزران لاطلاعها على الفاجعة الرمداء؟ ووقف بباب الصرح وقد حرنت ركبته. فلن يمثل في حضرة أمه بمزق

الكرامة، مبدد الهمة . ويبحث عن عذر سديد يتقي به حنق السيدة الاثيرة . فكيف يدراً عنه الغضبة القاصمة ؟... والخيزران كانت تنتظر ، على غصّة ، عودة هارون ويحيى ، ولا تؤمن بنجاحهما . فهي على يأس من بقاء الرشيد في ولاية العهد ، مع كل ما يعلله به اخوه من منى ، لم تكن ، في عرف الخيزران ، غير طبخة خادعة من صلب الحصى . ولاح لها الموكب يعود ، وقد استقرت باحدى شرفات مخدعها ترقب اطلالته . والمخنت لتري ما يتقد في الاسارير من بوارق . أتظرب الخيزران ، أم تتلف ؟ ... وراعها ألا تبصر إلا هارون . فانسلخ وحده من الركب ، وحبا الى مدخل الصرح متضعماً ، كالأعزل في غزوة . ألا ابن يحيى ؟... وانفطت السيدة الاثيرة . وهفت الى الباب وكل ما فيها على حيرة وجزع . وصاحت بملء صوتها صيحة مرعوبة ، دلت على ما تعاني أم موسى من وهلة : ألا ابن البرمكي ، يا هارون ؟

فتلجلج . أياصاحبها بمقر يحيى بن برمك ، ويحدثها بما نالهما من فسوة الهادي ؟ ... ونظر اليها مشدوهاً ، وقد عصاه البيان . فتبينت في ناظره النكبة الصاهلة . وصاحت هالعة : ألا اطلعتي على امره ؟ ... هل بطش به موسى ؟

فظل راسباً في صمته ، كأنه اضاع النطق . فصرخت به وكل ما فيها على احتدام وذعر : ألا ما بك كالجماذ الاصم ؟... هلا تكلمت ، وزحزحت عني الوهلة ؟

وودت لو انسلت فوراً الى جناحه تكشف عن سره . فطمط بجنجل ورهبة : نقض الهادي ما ابرم . فما كدنا نقف بين يديه لمعالنته التزول عن



حقي بولاية العهد ، حتى اذاع فينا انه يؤيدني في خلع الولاية عني ، ولكنه لا يعهد اليّ فيها ريثما يتبرع ابنه جعفر . مخافة ان نكون استندنا في التخلي عنها الى رؤيا المهدي من طول عهدي بالحكم ، وقصر عهد موسى . فنصانعه لنظل سادة الموقف . ويدركه الموت ونحن ارباب الامر . فينتهي اليّنا الحل والعقد ، وكأننا لم ننفض منا الحق الاثيل . وتضيع على جعفر السدة العليا . فابان يجيى خطل الرأي . فغضب الهادي ، وندد بيحيى ، واتهمه بالزندقة والزيفان والافساد . ودفعه الى المطبق !

فزعت ولم تكن تتمالك لشدة غيظها وذعرها: هل دفعه الى المطبق?...  
ويحك ! ... أتهدى ، يا هارون ؟

فتمت بذلة والتباعد : لا هديان ، يا أماء ، بل حقيقة ناعمة . يجيى بات في السجن . وافي لاخاف عليه من اذى الهادي . فما اجابني الى الافراج عنه وانا اسأله فيه . بل دعاني الى التريث لبعض الحين . ففي نيته ان يكسر شوكة العداة في يحيى !

فهزت الطعنة الخيزران وحطمت اضالعا . واحتدمت فيها سورة الحق ، واستأسد فيها الوجل ، فساد الشحوب محياها . ان حجب البرمكي عنها لتدويخ لها . فتضيع في تدبير شؤونها ، وتبيت عزيلة القدرة ، مرضوضة العصا . وتولاها العمي ، كما تولى ابنها . فالمصاب عقد لسانها وأذلها . ويجهد استطاعت ان تستوضح بكلام عليل ، مكفهر : أياكون يحيى في المطبق ؟ ... واويلاه ! ... قسم الهادي بهذه الضربة ظهري . ألا من هيجه علينا بعد رأفته بنا ؟  
ودنت من الرشيد تقول بشبه انهار في عزوماتها : عدمت أمك .  
أرايت مبلغ انتقام اخيك منا ؟

وشاع في صرح اساس نبأ اعتقال يحيى البرمكي في المطبق ، فارتج  
الصرح ، كأن احدى العوادي الشداد صبت عليه مراهبها . بل كأنه فوجى  
بصاعقة احرفت ودمرت وروعت ، لا تبقي على حلم ، ولا على دعامة .  
ووقف الجميع واجبين لا يفيضون بنامة . وشعرت الخيزران بوهن في همتها ،  
فدعت اليها عتبة تتكى عليها ، كما تتكى على الرشيد . وماجت في الصرح  
غمغة ناعبة تعلن : أصيبت ذات الجلالة بشبه غيبوبة !

والخيزران بلغت مضجعا لتنبطح فيه ، كغصن كسرتة العاصفة . وتعالى  
انبتها كأن الداء فتك بها . وانطفأت فيها جذوة الابانة . فعصف الرعب  
بجميع من يظلمهم الصرح ، وخيم عليهم كابس البحران . فهم حبال رزيئة  
غاشمة . على ان هذه الغانية ، المهيضة الذراعين والرجلين ، الشلاء اللسان ،  
المحتضرة ، ما لبثت ان زحزحت عنها شبح الموت ، ووثبت من فراشها  
تصبح بمستطير الضغن : ولكن موسى لن يريح في المصاولة . بل سوف يندم على  
ما يكلفنا من ارهاق . نحن لن نموت ، والروح ملء الوهج فينا . فالموت  
للمعتدي العاق . ألا سوف ترى من ينهدم منا ، يا موسى !

وما كانت في هذيان محموم . فالانقلاب من العلة الى البرء تجلى فيها ،  
كأنها تجتاز اعجوبة . فعادت فجأة الى الزهو والوعيد ، كما كان شأنها في اوج  
سلطانها . وتعجب جميع من حولها من هذا التبديل الرهيب . أتكون اقوى  
من الداء والعياء ؟ ... أما ثذها الخطوب على احتدامها وعنقها ؟ ... ورنث  
اليها العيون متيئة مرتاعة . وظل السهو سائداً ، وقد شعر القوم بانهم حبال  
الخوارق . فتفتحت الشفاه دون ان تجود الاسن بنطق ، وليس في جميع  
هؤلاء المبصرين من لا يؤمن بالمعجزة . ومضت الخيزران في تهديدها تقول :

وقعت الواقعة ، يا بني أُمي . ولم يبق علينا الا ان نتشابك في معركة تحرق  
الاحياء ، كأنها تقصص في هشيم . فالويل لموسى !  
وحثت على اضرام الفتنة . ستندلع من صرح اساس هبة تصوح البلاط  
ومن فيه ، لا ترعى حرمة للخليفة ، ولا لنسائه واولاده . وشعر الناظرون  
الى أم موسى بان الخيزران لن تذهب ضحية مبتدلة . فستكافح الضيم حتى  
آخر نسمة بين حوانبها . وتكلمت عتبه ، فقالت بحماسة غضبي : لا يزال  
في هذا المعقل ، من دنيا العرب ، بأس وشتم لا تلوى لها هامة . فمن  
وهب لنا عز الامس فما ينفك ينفحننا بالمناعة !

وسكت الرشيد . ما حاول اتقاهه تسعى أمه لاشعال ناره . فالتنافس  
في الجاه والسؤدد يقض المضاجع ، ويؤرث بين القصرين . ولكن أيشهد  
الرشيد المعركة ؟

خطر له ان يرحل عن بغداد في جولات شواسع ، في اطراف البلاد ،  
يلهو فيها بالصيد ريثما تنجلي الغمامة الفاحمة . وليصقر الهادي ولينقر ما شاء .  
خلا له الجو . الا ان الرشيد حاذر ان يفضي ، على مسمع من أمه ، بما في نفسه ،  
ولن يسلم من سخط الخيزران . فهي تريده رجلاً لا خنتى ، حتى اذا ما احتدمت  
بينها وبين الهادي ، كان الرشيد فارس الرهان

وتعجبت من هذا التقهر في هارون عن أخيه ، وهو من هزم الروم  
في حربين جارفتين . أيجزم المقدم ؟ ... على انه اذا حجج ، فلن تهون هي ،  
ولها من صلابة جأشها ما لا يقر بانكسار . ستفزح الى كل حيلة في محو ابنها  
البكر . ولن يلومها اهل النظر ، وموسى ينتهك فيها رهبة الجانب ، وشموخ  
الناصية

واطرقت تفكر في ما تعتمد عليه من عدوة في النفس . ولم تجد غير  
السم منقذاً من الدهمة . فتوفد الى موسى من يطبخ له ، في قدر الطعام ،  
الموت . وصهلت كالجواد في معترك الاسنة : اليّ ، يا عتبة !  
وارادتها على خلوة . ستباحث واياها في ما تقرّ من تدبير . ولن تعدم  
من يلقم الهادي المنية ، وقد بثت في البلاط العيون على وفرة . وثمة من  
يحسبهم الهادي من الخلّص ، وهم جواسيس عليه للخيزران

قالت السيدة الاثيرة تعالن عتبة ، وقد ضمتها حجرة خالية ، أحكمت  
الخيزران ايصاد بابها : لا غنية عن الفتكة الحاسمة ، يا عتبة . هلا دعوت  
اليك أمة العزيز ، جاريتنا في بلاط المهدي ، فنبلغها ما ننوي ؟ ... هي  
نفسها ستدس السم ، ولها مني جائزة ترفعها الى ذروة الرغد . سيوري اليها  
واطلعها على اللبانة . بل اوفدي اليها من يمس في سمها انك تحتاجين الى  
محادتها في امر جسيم . وليكن لقاؤكما في دار نائية ، من دور انصارنا .  
فلا تبصر كما عين . واليك بالسم . ما على أمة العزيز الا ان تصبّ بضع قطرات ،  
بما في هذا الخقّ ، في طعام الهادي . وعلى موسى العفاء !

ولم تتلعم الخيزران وهي تخرض على البطش بابنها . ولم ترهب . كأن  
هذا المنبتق من احشائها ليس منها . وكان في موته فرحتها . فقالت عتبة  
وهي على دين مولاتها : سمعاً وطاعة ، يا ذات الجلالة . رسولنا الى أمة  
العزيز يرقب ايمامة . سأزجيه على الفور الى البلاط . وسألقي في العشية أمة  
العزيز حيث تعودت ان اراها !

فتناولت الخيزران من صدرها حقاً صغيراً ، أعدته للحوامم . وألقته في  
عين عتبة دون ان ترتجف يدها ، وهي تقول : لتكن الحكمة رائدها . فلا

تعرّضنا ولا تعرّض نفسها للفضيحة . فالموقف يفرض السرعة والحذر !  
قالت عتبة بثقة غلابة : لتطمئن مولاتي . سيجري الامر على هواها !  
وأخفت الحلق في عبا ، وهي تعاهد الخيزران على الصدق في الوكد ،  
والنجح في المسعى . وانطلقت الى من تعوّدت ان توفده الى أمة العزيز  
تدعوه الى التسرّبل باطمار ذوي الحفاصة ، والنفاذ الى قصر الخليفة مدعياً  
الرجم بالغيب . ولا بد ان تبصره أمة العزيز وهي تعرفه ، فتناديه ، وتحلوه  
به فيطلعها على رغبة مولاتها

وفي الغروب كانت عتبة تلقى أمة العزيز، وتذيع فيها مشيئة أم موسى.  
فارتجفت أمة العزيز حيال العباء الفادح، وتمتمت بوهلة: أتطلب مني السيدة  
الاثيرة الفتك بامير المؤمنين ؟

وما أوتيت القدرة على اداء الكلام ، وقد طاووها العبيّ ، وشاعت في  
قسامتها الصفرة . اي مهمة كاسحة تنتدبها لها الخيزران ؟ ... ولمست فيها  
عتبة الملح ، فقالت ببسمة تحيي بها المهمة الخائرة : هل تعدوك المهمة ؟ ...  
ولكنني اعرفك ذات مضاء . فاين ما كنت تتباهين به من وسع ؟ ...  
أنخشين سوء المعبة ؟

فنظرت اليها أمة العزيز نظرة من تضطرب فيه الروح، كأنه على اصفاء.  
وقالت وهي تعصّ بريقها : أنجفى عليك ما تفوض اليّ السيدة الاثيرة من  
رهيب الجهد، يا عتبة ؟ ... ألا ما يكون مني وقد انكشف امري، وافتضح  
سري ؟ ... اي عذاب جائح ألقى ؟ ... سلتفتن ارباب القصر في الانتقام  
مني بما لم يسبق لذهن ان ابتدع من ضروب التنكيل !

فلم تنقشع بسمة الاغراء عن محيا عتبة . قالت : ولا تنسي اي نعمة

ستبتخربن فيها وقد فزت بالارب. فالخيزران ستهب لك من الوفر ما تنوئين  
 به . فيحالفك السعد ، وتغوصين في البهجة . لم تدخلي القصر لسوى العمل  
 برغبة السيدة الاثيرة . وهذه احدى رغباتها . فما عليك وانت تقدمين على  
 تحقيقها?... اذا كنت ذات اقتدار ودهاء، فليس من يدري بك. وستضربين  
 ضربتك وتنتصلين منها . وبوسعك ان تنوحي على الهادي، وقد اوديت به،  
 شأن حسنة في المهدي . اذاقته السم وملأت الارض لولة تفجعاً عليه .  
 وربما نالك من الحظوة ما تستمتع به حسنة نفسها . فيتزوجك الرشيد ،  
 وتستقر بك القدم في حرم امير المؤمنين : فإن تكوئي ذات طماح، فاجبي  
 أم موسى الى ملتسها . انت حيال وجهين. إما اليمن الاوفى، وإما البؤس  
 الاشأم . والا بقيت كما انت. جارية مغمورة، محبوسة على زريّ الخدمة !  
 ووقع مقال عتبة من نفس أمة العزيز موقع الاغراء . فومضت عينها  
 ببارق الخيرة ، ولكنها ما خلنا من دفة الموامة . وتقاسمها الخوف  
 والطمع . فاذا رفضت مطلب الخيزران، هانت. واذا اخفقت في صبّ السم،  
 ذهبها الموان . فلن تنجو في الحالين من مبيد المكروه. على حين اذا توفرت  
 على رضى السيدة الاثيرة، وافلحت، فاليسر مكتوب لها. وقد تبلغ ما تخرج  
 به نفسها من منى . قالت والآمال تردحم في اعماق الضمير ، وتطفى بعض  
 طغيان على فورة الوسوس: ابلي السيدة الاثيرة، يا عتبة ، اني ساكدح  
 في شهوتها. هاتي الحقّ. سأتكلم في امري على القدر. فاذا ادركت المرجى،  
 فلي من حسن حظي ما يجتمع عليّ الانس. والا انتهت الى اسوأ ما يتسكع  
 فيه ذر شقاء وحسرة . سأخطو خطوة مكتوبة عليّ ، يا ابنة أُمي ، فلا  
 حول ولا ...

فسرّ عتبة ان تبلغ من أمة العزيز مكنن الافئاع . قالت : لا اراك في خطر . فاذا اتقيت بصيص العيون ، فانت سالمة . كوني من امرك على يقظة ، وليس لبال ان ينالك بظنة . فان للاقدار يداً تسعف في الشدة . ولا احسبك تتدمرين وقد ارتقيت بجذك الى اخدار امير المؤمنين !

فسكنت أمة العزيز . فالمهمة الثقيلة العبء ، الرهيبه التبعة ، مالت بها الى التفكير الشاق . فهي في ذهول عن نفسها . بل هي في خوف من نفسها ، وستندفع في وثبة مجهولة العاقبة . فإما تبلغ بها القمة ، وإما تغرق في قعر اللجة . بل في لجة لا قرار لها

وانفصلت عن عتبة على اطراق شفّ عن خاطر شئت ، وذهن تعبان ، احست بهما انها مكرهه على امرها . فليس لها ان تعاند الخيزران في الامنية ، والا لقيت حتفها ، حتى وهي تعتقد انها من الامن والطمانينة في امنع مقام . كأن الملكة ترقبها انى مالت . وكادت تضع عن طريقها لفرط ما ساورها من مخاوف . كيف تفس السم للهادي ؟ ... أتلقبه في طعامه ، أم تمزجه بشرابه ؟ ... أتغفل الطهارة ، وتصب القطرات القاتلة في قصعة الخليفة ؟ ... ولكن قد يأكل من هذه القصعة كل من جلس الى مائدة ابي جعفر ، فهل تقدم أمة العزيز على محوة جارفة ؟

ودخلت البلاط متجهمة المحيا ، مرتعشة الخطوة . انها لمدعوة الى زعزعة ركن دولة ، وتبديل مسير الزمن . على انها ، مع كل ما يختلج فيها من بلبلة ، ما استطاعت ان تجيد قيد هذب عن شهوة الخيزران . وما غاب عنها انها مجبرة على الامتثال لطلبة السيدة الاثيرة ، وانها اذا افلحت فالخير أجيرها ولم تكن تجهل طهارة القصر ، وقد توسمت في رئيسهم الحنين اليها . فهو

يسعى لخطب مودتها ، وفي عينها السوادوين ، الواسعتين ، ما يتمثل به  
ظبيات الصحراء . وكذ في الازدلاف اليها . وانشدها فتيق الشعر . الا  
انها حجزت عنه الصبوة . فلن تبدل نفسها لخدم ، وهي بغية امير المؤمنين .  
فكان يجد الهادي في انوثتها الريتا ما يبيح فيه الشوق . فيرشف الوجد من  
ناظرها الدعجاوين ، كأنه يقع فيهما على مبعث فتنة

وهي ذات رقة وغنج . الا ان الحُبث المنشور فيها لا يبيح جليساها  
الركون اليها ، وملامسا اللينة تقبطن الانياب الحداد . والهادي ، مع شغفه  
بها ، اتقى فيها عضات المكر . فيهتف بها وهي تتودد اليه : والله ، ان  
عينيك لتجمعان الضدين ، يا أمة العزيز ، وفيها الروعة والعدر . فاني لاستنشق  
منهما عرف الصباية .. واخشى عمقهما وليستا تستقران على ولاء . فكأنك من  
فئة الثعالب ، يا فاجرة !

فتضحك حتى لا تكاد تفيق . ويدغدغها الهادي فتزداد ضحكاً . وتبيت  
كتلة مائعة لا تتاسك . وتجاهد في البيان وقد ثابت الى رشدها : عفو مولاي  
عني . انه ليظلمني في سوء ظنه بي !

ومن كانت في هذا الموقف السامق من الخليفة فلن تلقي قيادها الى رئيس  
طهارة . الا ان حاجتها اليه نزعته بها الى المسالمة . فهي باضطرار الى استعداداته  
على امير المؤمنين ، بل الى الانتفاع من غفلته للقضاء على الخليفة . فان  
ولية نعمتها ، الحيزران ، لتقدر عليها اختلاس روح الهادي . وستختلس أمة  
العزيز هذه الروح ، اجابة لالتاس أم موسى ، المالكة منها الناصية ، والمتلاعبة  
بها كعصفور مقيد بجيظ ، تنجاذبه يد طفل حرك

ونادت أمة العزيز رئيس طهارة القصر تقول بفضاض الغنج : ماذا



اعددت لنا اليوم من فاخر الحلوى ، يا ابن سكباجة ؟ ... أليس لديك ما يروق العين والفم ، من شهية مأكّل ، وطيب فاكهة ؟  
فادهشت فيها هذه الطلبة المسولة الاداء، الحميلة الرنة، ورئيس الطهاة، وما عودته اياها أمة العزيز، المسرفة في الصدّة والدلّ. فهتف بنبرة من مرح: ولكن اذا خلا القصر، على رجه، من الطعمة الزكية ، فسأعدّ لك منها ما تبتهج به نفسك . بروحي انت من روعاء خلوب . الا ان لديّ طبقاً من الفطائر جهزتها لامير المؤمنين . فاذا شئت ان اجيئك ببعضها فعلت، وانت الغائمة . ستدركين منزلة ابن سكباجة وانت تذوقين فطائره اللذيذة . فمن المحال ان تكوني وقعت على هذه المتعة . قليلاً واعود اليك بما يملأ شهوتك، ويميل بك الى الرضى عن هذا المجفوّ ، المستميت بمودتك ، والراجع عنك بالاخفاق والمذلة !

وهمّ بالانطلاق الى البغية . فنادته أمة العزيز بحدة : يا ابن سكباجة ، لا تتعب نفسك في حمل الفطائر اليّ ، وساجري الى التهامها في وكرك . اني الاحقة بك فوراً !

وهزت اليه ركبتيها، فصاح: ألا مرحباً بالكوكب الزاهي ينير ظلمات أتسكع فيها !

وما ابطأت في اقتحام مخدع الطعام ، وبدعا نجس حقّ السم . ستنتر قطرات الموت على الفطائر ، وتحقق رغبة الخيزران في نسف امير المؤمنين . واقبلت على الطبق ببسمنها القانصة ، تذيع باكبار حفيّ : انك لسيد من أعدّ طعاماً ، وارضى معدة ، يا عطاء. فانت تهب عمراً آخر لمن تجود عليه بلذوى اطاييك . سلمت يداك ، ودامت ايامك . ان امير

المؤمنين لهنيء الروح ، وهو ينعم من يديك بالمأكل السمين !  
واكبّت على طبق الفطائر تلتهم باعجاب هذه المعجونات المقلّبة بالسنن ،  
الطرية ، المحشوة باللحم والصورير . واتسعت في فم عطاء بن سكباجة ،  
رئيس الطهارة في قصر الهادي ، ابتسامه حمقاء ، لفرط ما انطوت عليه من  
مبعة الافتتان والصبوة . أمة العزيز لانت في محاطبته ليناً فيأحاً تكاد به تسخو  
عليه بنفسها ، وقد واصلته بعد جفاء . وتمتعه هذا الانقلاب الموالى فيها . فقال ،  
وهو لشدة فرحته لا يكاد يجيد البيان : لست ارى من هو أحقّ منك بهذه  
الصفايا . كلي وابتهجي . فالرائع للرائع . والشهيّ للشهيّ . انت خير من  
يدرج في هذه البسطة من دنيانا ، فتمتعي بما جادت به عليك نفحة الدهر !

فاكتفت بان تضحك ، وبان تمنع في الاتهام ، كأنها على ناهش جوع .  
وظلت مخضبة المحيا ببسمة المرح والدلال . واذا بها تجلجل : ولكن اين  
الماء ، يا ابن سكباجة ؟ ... أفتاثر تهيج العطش بافورها الحرار ، ولا ماء ؟  
فنبز : حباً وكرامة ، يا سلبية السحرة !  
وانقتل الى ابريق الماء يملأه ، ويعود به الى الجارية المخاتلة . وكانت أمة  
العزيز قد رشت السمّ على الفطائر ، حتى لم تبقى في الحُقّ قطرة . واخفت  
الحُقّ برشاقة في عبها يتوسد مكانه ، وهي تجيل عينها في ما حولها ، وتتنفس  
عالياً بارتياح . ما من عين رأت . وضحكت لعطاء . وهو يرجع اليها بالابريق  
الطفحان . وقالت بمازحة ، آسرة : في عينيك بريق تحرقني ومضاته ، يا عطاء .  
أفتكون بهذا المقدار على جنون بي ؟

فصاح : وحق من براني من عدم ، اني لاجد السعادة في نظرة يتكشف  
لي عنها كهيل اهدابك . فكان الحياة لم تفضح لي سرها الا وقد رنوت

اليك . الا انك بالغت في تعذيب هذا المستهام ، حتى لكأنك تستحلّين دمه .  
فاشقي علي عبدك !

فتطارت في سمعها قهقهة جمدها قلباها رعباً ، وقفّ شعر رأسيهما  
هلعاً . وأطلّ عليهما وجه ساخر ، مخوف ، ما بصرا به حتى تلاشت فيهما  
كل عزيمة ، وران عليهما الاصفار . وفتحها فيهما بارتياح ، وما كانت  
أمة العزيز لتقوى على ابتلاع آخر لقمة قضمتها . واتسعت الاعين وهلة ،  
وارتجفت الركاب . وسقط من بين ابن سكباجة الابريق فتحطم . فاشتدت  
السخرية بالوجه الناقم ، المخوف . وجهر بنبرة فضقت لها عظام الجارية ورئيس  
الطهاة : تابعا ما بدأتما من مؤانسة . فما بكما تغوران في الوجوم ؟

فاحس كل منهما بان الروح على وشك ان تلتوي عنه . وابقنا ان الموت  
ارحم لهما من هذه الوقفة الماحقة . وشزر الوجه الرهيب أمة العزيز بعينيه  
الشرستين مدمدماً عليها : أنت على غرام بعطاء بن سكباجة ، يا كريمة  
النبعتين ؟ ... والله ، لقيت غطاءك . ما اراك الا من هذا العجين . لو  
ابلغتني انك منه على هوى لعقدت له عليك . ولكنك تداهينيه كما تداهين  
مولاك امير المؤمنين . الا ان زيفك وضع لعيني ، ومزق عنها الستر . بل  
انا اعرفك حرباة ، لصة ، يا ابنة الفاعلة . ما نغشت في حجري الا لتخدعيني  
وتغدري بي . انت جاسوسة الخيزران عليّ ، حلت بك النعمة . فماذا  
رشت على هذه القطائر من حَقّ اخفيته في كملك ؟ ... ابصرتك بعيني .  
هاتي الحَقّ . هاتي والا سللت روحك . أتكيدين لي وانا على ركون اليك ،  
فاطمين الى نذالتك وانت لا تحرصين على عهد ، ولا تتصونين عن كفران ؟  
ووثب اليها يقبض على شعرها صارخاً بها بزجرة الضواري : اين

الحقّ؟ ... هاتيه ، والا فالموت يشويك . كنت بالبّاب وانت ترطبين  
هذه الفطائر بما لست ادري ما هو !

وكان الخليفة بنفسه ، موسى الهادي . جال في مقاصير جواربه طلباً  
للعبث ، فلاح له أمة العزيز تندفع الى مخدع الطعام في اثر رئيس طهانه .  
فمال الى معرفة ما هما فيه من سعي . بل وقف حيال مشهد بعث في نفسه  
الغيرة ، فاستطاب عتك الحقيّ . وما ندّ عنه انها يتجاذبان الاثم وهو  
يسمع ما يتبادلان من حديث الهوى . فان في نفس عطاء لاشياء من الجارية ،  
وقد وقعت منه . وزوّى الهادي ما بين عينيه . أنخونه أمة العزيز لتهوى  
حقيراً في قطع خدمه ؟ ... أنتطوي عن خليفة تسبح بحمده الارض ،  
لتعشق خادماً لا يرتقي ، مها تطاول ، عن طهي الاطعمة ، وغسل الصحاف ؟  
وبلع امير المؤمنين ريقه ، وقد ضاق صدره بانفاسه . وسمع أمة العزيز  
تطلب من رئيس الطهاة شربة ماء ، بنبرتها المغناج ، الخليفة . فحذق اليها  
بباصرتين تلفظان الجمر سخطاً وتنديداً . غير ان أمة العزيز ما كانت لترنو  
الى الباب ، وقد تناولت ، عجلي ، الحقّ من عبا ، ونثرت ما فيه على  
الفطائر . فاختبأ امير المؤمنين حيث تبدو له ، ولا يبدو لها ، ليتبين ما تقدم  
عليه من نكر . وما غاب عنه انها دست له السم في الفطائر ، وهي واثقة  
ان الاكلة صائرة اليه . وانتظر ريثا اخفت الحقّ في كمها ، وعاد اليها عطاء  
بالابريق . ففاجأها بتلك الغضبة الشادخة ، يشقّ بها كيديهما ، حتى خيل  
اليها انها اصبحا نهباً حشرات القبور . وسقطت أمة العزيز الى الارض  
وامير المؤمنين يقبض على شعرها . ونزعت الى ابتلاع الحقّ . ستودعه احشاءها ،  
ولا بأس ان تنزق هذه الاحشاء وتقضي أمة العزيز على حياتها بيدها .

فالموت نازل بها في كل حالة . لتقتل نفسها قبل ان يبادر الهادي الى الفتك بها . غير ان امير المؤمنين ابصر ابن اخفت الحُقّ ، وفطن الى سعيها لابتلاع اثر الحيانة والغدر . فهوت يميناه الى يدها المسككة بالحُقّ لازدراجه ، وانتزعه منها هادراً : هل اغرتك الخيزران بدمي ، يا منتهكة الحرمة ؟ ... والله ، لاقتلنك بسلاحك . قومي الى هذه الفطائر وكلي منها . فاذا سلمت من الغائلة ، فانت حرّة لوجه الله . والا فتكون نصلتك قد غرزت في نحرِكَ . ما عرفتني رجب الصدر كما ابدو الساعة . انضي وكلي مما عطّرتِ او دتستِ . ربما ظننت بك الاثم وانت منه براء !

فتعالى انينها . وما برحت مكبّة على الارض لا تجرؤ على الالتفات الى الخليفة . وادرك الهادي من رعدتها ، ومن برودة يدها ، انها غير ناصعة البال . فرفعها اليه بشدة . وأمال بها على طبق الفطائر صارخاً بها وكل ما فيه على احمرار نعمة ، وكأوج بال : هلا أكلتِ ؟ ... إما الفطائر ، وإما هذا السيف !

وهدها بحسامه يشهره عليها . فأثرت الموت بالسم . وامتدت يدها الى الفطائر تبدلها برغبة عزوم في الخلاص من جحيمها . فلم يبق لها في لوح العيش وسعة . وأكلت بسرعة ونهمة ، كأنها باتت لا تطيق البقاء بعد افتضاح امرها ، وظهور مكيدتها . فنظر اليها الهادي مدهوشاً . أياكون الحُقّ خالياً من السم ؟ ... ألا كيف يطعمها فيها في التهام الملكة ان تكن الفطائر تبطن الردى ؟

وما برح الخليفة على دهشه ، وقد وقفت عيناه الجاحظتان على الجارية المقبلة على مضع الفطائر بلا تؤدة . فساوره شتات فكر ، واضطراب ضمير .

وحاول الكلام فبلي بالعمى . ماذا له ان يعلن ، وان يستوضح ؟ ... خاف  
 ان يكون اذاع تهمة باطلة افترى بها على أمة العزيز ، وان يكون الحق  
 حوى طيباً لا سماً . وهذه الرعدة في الجارية ربما كان مصدرها الحشية من  
 غيرة امير المؤمنين، وقد فاجأ جاريته في وقفة تبعث على الريبة ، لا الرهبة  
 من دس السم في الاكلة المصطفاة ، وقد هام بها كايه . فهل يموت بها  
 كايه ؟ ... وانتظر الهادي لاتعلو له نامة، بل هو لم يتنفس بسوى جهد. فضاقت  
 عنه صدره ، ولم تتسع الحنايا لكل ما يعرض للخليفة المشدود من الاحاجي  
 وظل يحدق الى أمة العزيز، ويرقب ما يحل بها. أيكون بطيباً هذا السم  
 فلا يصعق فوراً ، ام ان لا سم هناك ؟ ... ولم يلتفت الى رئيس الطهاة  
 المرتمي في الارض يودّ لو ينطفىء في العدم. فمن هذا المغمور المزدرى ؟ ...  
 وأمة العزيز امتنعت من الكلام ، وقد شغلت عنه حنجرتها بابتلاع الفطائر  
 ترجيبها الى امعائها، بلا رفق. ولم يجد الهادي بدأ من قولة يعلنها، فاستطلع:  
 يشوقني ان اراك ذات معدة لا تتهيب التهمة ، يا أمة العزيز . عوفيت .  
 اصبحت اخشى منك حتى على الطبق . والله ، ما ادري ما يجب اليك هذا  
 الشره . لكأنك قضيت عاماً على الطوى. ألا اخبريني ، أيجد ابن مكباجة  
 اعداد الطبيات ؟

فاجابت بيروطة: ما أكلت بنهمة لسوى اقناع امير المؤمنين ان الفطائر  
 خالية من كل خطر . لتشلّ يميني ان تكن تمتد الى اذاك ، يا ابا جعفر !  
 على أن ما اطلقت من صيحة حادة ، تمور بالالم ، اردفتها بصيحات  
 رهاف تنبىء بالغاشية ، دحض ما حاولت ان تبدو فيه من طيب سريرة .  
 فالسم ، وقد مشى في دماها، نهش اعصابها، فاحتمت فيها الاوجاع الكاوية.

وامتقع لونها امتقاعاً فاضحاً ، رجح ما بليت به من شجوب فيما يدهمها  
الحليفة وهي تقدم على النكر. بل ازرقّ هذا اللون وارمد ، كأن أمة العزيز  
جمرة انطقات ، فكساها الرماد الادكن . وتملت وتدحرجت في الأرض  
تطلق الأزمات النائة ، المولولة ، كأنها تتمزق . وصاحت بالهادي : اقتلني ،  
اقتلني . دمي لك حلال . ابن سيفك تعمه في صدري ؟

فجالت في شفتي الهادي بسمّة صفراء ، غضبي . ودمدم على الجارية  
المطروحة عند قدميه يتشقى ويستقصي : والله ، ما لمست منك طرفاً بوخزة .  
سأبقىك لاوصابك تقنين فيها . هذه خير مينة اختارها لك حظك الاثام .  
اذن لقد شئت ان تطعميني السم ، يا ابنة الزنادقة . أكلتك النار ، ما الأملك .  
كنت على ارتياب بخلقك . الا اني ما اعتقدت انك ستستطيلين حتى تكبيدي  
لي . ألا من علمك الدس لامير المؤمنين ، بل من زخرف لك اهلاكي ؟ ...  
أنعشين في ظلي ، وتنعمين بخيري ، ولا تتورعين عن قصف عمري ؟ ... ألا  
تكلمي ، من اغراك بدمي ، يا فاجرة ؟

فظلت على مسنون صبحاتها : اقتلني . اقتلني وادراً عني كافر اوجاعي !  
فرعد : لن انقذك مما تكابدين من لذعة الا وقد بحت باسم من حرضك  
علي . فمن حثك على التنكيل بالحليفة ، من ؟ ... ألا تكون الخيزران  
هذه الافعى ؟ ... اوضحي وانت بمنجي من عذابك . ألسنت جاسوسة  
الخيزران علينا ؟ ... أما رشقتنا بك أمي ؟

فمضت في صياحها : اترع روحي من جنبي . اطعن بسيفك قلبي . انا  
لست حقيقة بان ارتع في نعمتك واحيا بفضلك . فاقتلني !  
ومانعت في بيان ما يدعوها الى الجهر به . واحرجت طول أناته فعاد

الى الاستنباء بغيظ : ولكني اريدك على الجلاء ، والا زدت في تعذيبك .  
فمن زيتن لك اجثاث جذعي ؟

فأبت الايضاح . واكتفت بصيحتها : اقتلني ، اقتلني !  
قال وما يفتأ يحاول جرّها الى مصارحته بما في نفسها ، مع كل ما  
تحتلج به عروقه من نقاد صبر : سأقتلك وانت تذيبين في مسمي اسم من  
رمانى بك . فمن هو ؟

فلم تخرج عن كتم تعصم به . لن تنكلم وتجر باسم الخيزران . محال . فلا  
بأس ان تموت فدى السيدة الاثيرة ، وهي غرسة يمينها . واستبطأها الخليفة في  
الاعلان ، فانتفضت فيه نغمته ، وقد تلاشى في صدره كل ما تصّع من حلم .  
وصاح ويده تمتشق بآثره : اذن موثي في كيدك ، يا مشؤومة الطلعة . لا  
دفع الله عنك مقدوراً !

وغاص سيفه في جوانحها . فاهتزت وتنفست عن اغتباط . نجت من  
آلامها السخان . وتمتمت شفتاها فيما تلفظ روحها : انقذك الله من أمك ،  
يا امير المؤمنين !

وكانها ابت الا ان تكافئه على ما اسدى اليها من جميل ، وقد ازال  
عنها الشدة . ف اشارت الى من ساقها الى الشر تقتمحه ، وجادت ببقوى  
انفاسها . ووقعت كلماتها الناضجة بالتهمة الجهورية في مسمع الهادي ، ففرز  
عينيه في المنكودة ، الرازحة بجوارحها في لجة الموت ، وهو يصرف باسانه  
حرقه وقهراً . ايقن انه كان يرثي في حجره حلاً . هذه جاسوسة أمه عليه .  
فالخيزران غرّرت بها وقادتها الى بؤرة التلف لا تبالي فيها حرمة المهجة .  
أفليس من وزن للارواح لدى الخيزران ، وليست تصون حتى ابنها من ويلها ؟



وظارت عن الهادي نغمته الجارفة على أمة العزيز ، الجارية المسوقة على  
رغمها الى النيل منه ، لتحط على أمه المستفحلة في الكيد والعداء . أمه تسخر  
به على المتالف تطيحه . وما استنكفت أمة العزيز ، وهي تودع دنياها ،  
من مجاهرته بالواقع . فافاضت بالقول الفاشي الظنة ، بل الحقيقة الراهنة على  
متبادي رحبها . ودعت للخليفة بالخلاص من شر أمه ذات البغي الجبوح .  
وهذا الدعاء اوكد حجة على مكر الخيزران وتحريضها الجاني . فغمغم الهادي  
وهو لا يتأسك : ليس لي ان ابقى عليها وبين اضالعها للدنايا المرعى النجيع .  
حياتها اضحت بخطر . إما انا ، وإما انت ، يا اخبث من عرفت من بني البشر !  
وازمع القضاء على أمه . لن تعيش الخيزران ما دامت لا تكف عن  
الذس والحتل . فما اسعد بسطة العرب وقد انقشعت عن افقها هذه الغمامة  
الربداء . وانثنى ابو جعفر عن مخدع الطعام بوجه اسحم ، لا يكاد يختلف في  
كمدته عن محيا أمة العزيز ، العالقة بانياب الفناء . هذا السعي الملحاح في  
نفس الخيزران لقهره ، يدل على ما ينغش في السبدة الاثيرة من غلّ وسخيمة .  
فكانها مركبة من امين معدن ، وفي قلبها الكبريت ، وفي لسانها النار !

انقضّ الهادي على ديوانه وفي صدره لظى ، وفي عينيه غمي . اية امرأة  
كأمة تنفجر اضطغاناً ، وتميل الى استئصال ابنها ، كي تسود ؟ ... ونادى  
امرأته لبابة وحسنة ، ووزيره الربيع . وزجر على مسامعهم بلهجة تغلي  
حنقاً وارقاضاً : ما اعلم بما احدثكم ، وقد دعوتكم اليّ لابلاغكم ما يموج به  
القصر من دسائس وحن . أمي اهابت بجارياتي أمة العزيز الى دس السم في  
طعامي . ولقد فعلت الزانية . واتفق لي ان اباغتها في محاولتها الزنيمة .  
فخذعت رئيس الطهاة عن نفسه ، وقد توددت اليه ، وكشفت له تملقاً عن  
ثناياها . ودلفت الى مخدع الطعام تنفت السم في فطائر جهزها لي عطاء بن  
سكباجة . ولو لم ابصرها في مسaire المغفل ، وادهش من انحدارها اليه ،  
وهو احقر من نعمي ، لكنت الساعة من الهالكين . الا ان غنجها ، ودالتها  
عليه ، اوحيا اليّ ان ثمة خسة تحاك . فاندست في اثر الشقين ، ورأيت ما  
هاج له خاطري . نضت المستهجرة عن حقّ مخبؤ في كمها ، ورشتّ بسائل  
منه الفطائر المعدة لطعامي . فوثبت عليها اطلب الحقّ . فعاندت في الاجابة  
منادية بالامانة ، وهي ترتعش رعشة المسبوع . فقضيت عليها ان تأكل من  
الفطائر كي اوّمن بصدق طويتها . فاعتكفت عليها تودّ لو تبتلعها حتى بطبقها .  
وراعتني فيها القحمة . فخيّل اليّ اني تحاملت على البراءة الناصعة . الا ان السم  
لم ينشب ان كوى عروق الجارية الهالعة اللب . فتصاعد انبتها وتدرجت  
في الارض تستصرخي ان انقذها من رزيتها . فعالنتها اني لا احرص فيها  
الروح الا وقد باحت لي باسم من اغراها بي . فلاذت بالكتمان . فعالجتها

بالحسنى ، فاعتصمت بصمتها . فنقد صبري وشققت اذالها برأس مهندي .  
فاطرها ان تنجو من اوصابها واوزارها . ومالت الى حسن الجزاء تكافئ  
به صنيعي . فاذاغت وهي تطلق روحها : « ويلك من أمك ، يا امير  
المؤمنين ! » . فزعزعت ثقتي بالخلق اجمعين . فان تكن أُمي تهبني للموت ،  
فمن لي يدرأ عني فتكات المنون ؟

فهتف الثلاثة ، وكأنهم ينطقون من حنجرة واحدة : كلنا فداك ، يا امير  
المؤمنين !

على ان الهادي لم يكن يتناسك . فقدحت عيناه بالشرر . واحس بان  
كل ما حوله يبيد . وتراعى له ان اجله دنا . فان تبغ عليه أمه ، فمن ينحرف  
به عن فوهة المكروه ؟ ... فجلبجت حسنة : ليست هذه بالملكيدة الاولى  
تدبرها الخيزران لاغتتيال امير المؤمنين . فهل نسي الخليفة ، ادم سعده الله ،  
ما كان عرضة له من مهلكة ، يوم هجم عليه ذلك الخارجي شاهراً سيفه ،  
يروم المضرة ؟ ... فالخيزران سدده الى كبد امير المؤمنين شفرة جاشحة .  
الا ان الله ردّ كيدها الى نحرها ، فباعت بالخزي والغضاضة . ولن تختلف  
وقفه اليوم عن وقفة الامس . فمن اراد لك الاذية ، يا امير المؤمنين ،  
عاجله بمثلها . فليس العفو ابدأ من شيمة المقتدرين ، وانا اراه احياناً من  
عجز الحاكمين !

فجهر الهادي ، وقد تشبّه بالخلاص من أمه : لن اكون ذلك العاجز ،  
يا حسنة . وتربة جدي المنصور ، لن تلقاني في اكرامها واجلالها من حاولت  
تسميمي . فالموت للخيزران !

والتفت الى وزيره الربيع بن يونس يقول : من لنا بمن يطبخ لها السم ،

يا ابا الفضل ؟ ... سأنهد الى قتلها بما نهدت به الى قتلي . لا ابغاني الله إن  
مددت ايامها . هاتوا لي من يلقيها الموت كي انجو من قبائحها . فاني لاتعجب  
من نفسي كيف ابصر الحزري بعيني واتعامى عنه ، وانا من الكارهين لكل  
عذر وعصيان !

فنبرت لبابة : اضحى الصبر كلالاً ، يا امير المؤمنين . فاذا طال السكوت  
ادركنا الندم . لن نقف امك في المكايدة عند امد ، وستعدو كل حد في  
الظفر بالقضاء عليك . فحطّمها قبل ان تحطّمك . صدقت حسنة . لا راحة  
الا وقد نجونا من وجه الخيزران الصفيق !

وقال الربيع : عندنا من الجواري ، في صرح اساس ، من لا يجيبنا في  
النجدة . فليس لنا الا ان ندعو كي نستجاب . ماذا يقدر علينا امير المؤمنين ؟  
فهزّ الهادي رأسه ألاماً . واعلن بلهجة الغضبى : يقلق روعي ان ابدي  
ما أحزنّ اليه ، يا ابا الفضل . الا ان من لم تتصوّن عن السعي للعذر بابنها ،  
فليس على ابنها ان ينام عنها . ولقد كان يتعامى عن عوراتها لو آمن بتوبتها .  
الا انها توبة الحية عن اللسع ، والذئب عن النهش . لن يصفو لي عيش  
وامي تنفس . فاستأصلها ، ايها الربيع ، كما تجتثّ الدمّل ، كما تقتلع الشوك  
من الخلق . فلست اطيق ان يبقى منها اثر يحدث عنها . لكأنّ الارحام لم  
تلد الخيزران !

وجاد الخليفة الشاب بكلماته بتفاهم الخلق . هذه الممتنة عليه بالوجود  
سينفضها منه الوجود ، وليست تتقي الكيد ونفت الويل . قال الربيع بن  
يونس : سنقضي عليها ، يا امير المؤمنين . فلن يطول حبوها في وسعة الخلق ،  
وسيخلو منها الكون ، كأنه لم يحفل بها !

فزق الهادي يستحث وزيره على المضاء : ألا عجل ، يا ابا الفضل .  
كلما اسرعت خفتت . لا اراني استويح الا وقد وارت تلك الدمامة في  
احشاء العدم . وهبت لها السؤدد والاجلال ، فأبت الا ان تريق دمي .  
واثه ، لاغيبها تحت اطباق الثرى مرضوضة العنق . لا تتوددوا في الضربة  
السكر . في هذا الاسبوع على العرب ان يسلموا بمن افسدت عليهم الهواء ،  
وحجبت عنهم الحق . لو انصف ابوها لدعاها الحنش ، وهي الفائزة كلفاً  
بالعض والنهش . فليست تحتل ان ترى سواها في نضاضة من نعمي ،  
كأن خيرات الارض والسماء وقف عليها . ألا لتتند الحفود الملام في  
عمائها . فانها لتتجشم ما تضيق عنه . اقتلها ودما الموبوء في عنقي ، ايها  
الربيع !

فاعلن الربيع بن بونس بالحناءة الامثال : اضحت منذ الساعة فريسة  
التراب ، يا امير المؤمنين !

ولم يرهب الربيع مجاهرة الهادي بسعيه لتقويض امرأة خليفة ، وأم خليفة ،  
وقد دعاها اليه . وما استهجن ابو جعفر بيان وزيره ، فيما يصارحه الربيع  
بانه سيقتل له أمه . فليختلس روح الدساسة الشريرة ، وعفا عنه الله . قالت  
حسنة تخاطب الربيع باطمئنان جم الى ما ازمع الخليفة من تنكيل بالخيزران :  
أتعرف هؤلاء المتغفلات منا في صرح اساس ، يا ابا الفضل ؟

فاختلجت في فمه ابتسامة تغري بالنواطو ، وقال : ولكنني اتكل عليك  
في معرفتهن ، يا ذات السني . فلا احسبك تتهاونين في ارشادي اليهن ،  
وانت تعلمين اننا على وحدة في الهدف !

قالت ولم تبخل عليه ببسمة واعدة : سادعوهن الى المؤازرة ، وانصرك

على تذليل الحوائل دون مستطاب البغية. الساعة انصف امير المؤمنين نفسه ،  
وقد هدر دم الام السؤوم !

فاضطربت شفتا الهادي بالقول الرعاد: اجبتك الى ملتصك ، يا حسنة ،  
فجولي في مضارك !

وظل ابو جعفر لا يتأسك. ناه منكباها بما احتمل من أشر وضم. فذنت  
حسنة من الربيع همس في سمعه : جثني بالسم ، وعلّي التدبير . فلن اعيا  
عن الاهتداء الى من نحسم الداء ، وتفترج الكربة !

قال يستسهل المنشود : ما أيسر ما تعهدين اليّ فيه . فالسم في القبضة .  
ولكن اين من تنفته في قلب الخيزران ؟

فاجابت ببيان لا يقلّ عن مقال الربيع ازدراء للعقبات: ألا هاته لنقتل  
به فوراً عدوة الله !

وانفجرت في الفمين ضحكتان قاطعتان ترشجان ببهجة الظفر والتشفي .  
فقال الربيع بن بونس : سيكون الليلة في حوزتك . بنفسي سادفعه اليك !  
ولم يخلف . ففي الغروب كان حقّ السم يستقر بيمين حسنة ، وترحف  
به قدمان رشيقتان الى صرح اساس ، ليقعد صدر الجارية مرجانة ، احدى  
جاسوسات البلاط على أم موسى . ومرجانة اذنت بما نال أمة العزيز من  
اخفاق وتنكيل ، وقد رشّت السم على فطائر امير المؤمنين . فهاها ما  
تسوقها اليه حسنة . أفلا يتشابه مصيرها ومصير الجارية الناهلة حتفها من  
حيث بغت على الخليفة ؟

ونفرت مرجانة الى العصيان . لن تودي بالخيزران ، والنهابة كالحلة ،  
مشؤومة . غير ان مخاطبتها برغبة قاتلة المهدي صارتها بان حسنة تنزع عن

رأي امير المؤمنين . فالهادي ينجح الى هدم امه ، ولا يتسامح في ارجاء .  
فعلى النفثة ان تسفر عن صعقة . فتغور فوراً الحيزران في بؤرة التلف .  
فارتعدت مرجانة . قالت مخاطبتها وهي من العجايز المسنونات المقاول ،  
الغليظات الاساريو : امير المؤمنين يدعو ، فأجيبى . فالموت صائدك وانت  
تعاندين . وما هي حياة جارية ؟ ... قطرة ماء في خضم . فاملكي رشيدك  
واذكري موقفك . ان انت الا قصبة جوفاء في هب الريح . وبوسعك  
ان تسمي شجرة باسقة ، ذات جذع ضليغ اذا حققت طلبه مولانا . فالجوايز  
الضخام تنهادى اليك . وقد يعتقك امير المؤمنين ، وتستمعين بطلاقتك على  
فضفاض ذخر . واي سعي لا يرتجي ان يفوز بك وانت تملكين  
الاعلاق ؟ ... فالتفتي الى غدك !

فما انفكت تتردد . قالت : ابصرت من مات ، وليس في نيتي ان  
انطقى . كالنفاخة . أفلا اقع في هذه الدنيا على سوى التعس ؟ ... ما ذنبي  
ان اكن ابنة قوم اشقياء باعوني ، وانا على مسحة من الحسن ، كي يعيشوا ؟ ...  
أجري منذ نشأتي ، حتى يماتي ، عبدة في اهواء السادة ، دون ان يباح لي ابداء  
الرأي في ما يريدونني عليه ؟ ... ألا ابن هو الانصاف ، ولست املك ثانية  
واحدة من عمري ، فانصرف فيها الى شؤون نفسي ؟ ... لست اراني حرة  
حتى في استسلامي الى مفروض النعاس ، وقد يأبى عليّ من يمتلكونني النوم  
حاجة من حاجاتهم السقيمة . فاقضي ليلى ساهرة ، عفواً ، في ارضاء دلال سخيف !  
وبكت مرجانة . وشعرت بكروي الظلم . فلا عدل في الناس ، وهم  
عنوان الحيف . قالت مخاطبتها العجوز على استخفاف بدموع نوافل لا تمتع  
مقدوراً : لا تنهدي الى ايلام امير المؤمنين . موتك في رضاه خير من

حياتك في نعمته . بل انت لن تعيشي اذا غضب ، وسيجرفك سخطه اني  
اعتصمت . لا ، لا غنية عن الاذعان للمطلب ، يا بنيتي . انقشي السم وكوني  
من امرك على يقظة . فالقضاء على الخيزران يهب لك النعيم !

- واذا اسقاني ، واوردني حنفي ، ولقيت منه ما لقيت أمة العزيز ؟  
فاعلمت العجوز بنبرة باردة ، دلت على ما اخمدت الايام من حس في  
القلب العتي : انك لتقارنين بعدي . فان يخدمك حظك ، فالسعد يجري بين  
يديك . والا نجوت بما تكابدين من جور . والموت عندي افضل من حياة  
ذليلة نغمس فيها . فإما العز ، وإما القبر لمن يريد ان يستريح !

فمسحت مرجانة دمعها وتمتمت : صدقت !

وتمثلت شيخ امير المؤمنين ، فارتجفت هولاً ، وقالت : لن ازيغ عن امر  
الحليفة ، وساكشف به عن غدي . فان يكن النجس حليفي ، فما اشهى  
الثواء بجفرة ، والنجاة من الضيم . حبت اليّ المجازفة ، ولست من الرفاه  
على قلامة ظفر !

وعاهدت على ازهاق روح الخيزران . ستصبّ لها السم في طاس اللبن ،  
وهي تحمله في كل صباح الى السيدة الاثيرة . قالت : اعتقد ان الامر اصبح  
مبرماً . فلن يبقى اثر في صرح اساس لامرأة تدعى الخيزران . سلامي على  
امير المؤمنين خليفتنا وسيدنا ، وعلى مولاتي حسنة . ابلغها انها ستطمئن الى  
سعي ، ولن يهنأ لي عيش الا اذا قوّضت صرح النكد والغدر !

فضمها اليها العجوز تقبلها ، وتقول بفيض من استحسان : بورك فيك .  
انك لمثال الطاعة والامانة . امير المؤمنين ، ومولاتنا حسنة ، يرقبان اخبارك .  
فكوني ذهنّاً ثاقباً ، وحذراً راجحاً . فالضربة تستدعي الدقة والاحتراس ،



والا ذهبت بالشهوتين معاً، ببغية امير المؤمنين، وبطماحك الى الرغد الفياح !  
فغمغت بلهجة خشيا : اتكلت على الله !  
وحرصت على حَقِّ الموت، وقد توارى بين نهديها ينعم بالرفاهة والدفء .  
واستطابت المخاطرة . ربما بسمت لها الدنيا . ورجعت العجوز الى حسنة  
تبثها أينع بشرى . قالت بغمور البهجة : عوضنا الله من سلامتك ، وعظم  
اجرك . ماتت الخيزران !

فهمت حسنة : وهل رضيت مرجانة ؟  
- رضيت نعمى عينك . ولقد عللتها بوفر من الوعود ، احسبك لا تتكبين  
عن انجازها !

فقال حسنة بسخاء في البيان : لك ان تعلليها بما شئت . سوف ترانا  
كراما في الوفاء . فكل ما نصبو اليه ان ننجو من الوجه المشؤوم . متى  
تسد الضربة الناسفة ؟

- في الموعد الداني . مرجانة تتولى في كل صباح اعداد اللبن للخيزران .  
ومن السهل عليها ان تسكب فيه السم دون ان يقوم من يفضحها !  
فصفتحت حسنة بيدها . بلغت المأمول . ووثبت بمستطير الغبطة الى  
موسى ولبابة تحديهما بما آل اليه حذفها في تنظيم الدسيسة . ستجرع الخيزران  
السم هنيئاً مريئاً ، دون ان يخامرها خيال من ظن بما ينضح به اللبن من  
كاسحة . ويموت الشر . ويستريح البال . ويقبض الهادي على الاعنة بيد  
وثقى ، قريرة ، لا يصاولها نهش الحمى . قال ابو جعفر بمخض البشر :  
اذن علينا ان ننتظر الخير العجلان ، يا حسنة !  
فاجابت الجارية الطافرة الى مرتبة السادة بدهانها السبوح : لن ينطوي

الفوز عنا ، يا امير المؤمنين . بشرانا . فالمنى ترصدنا على طفاح !

وصرح اساس نفذ الى وعيه ما تنهت فيه أمة العزيز من وبال ، وما قدر عليها الهادي من قهر . فتاهت فيه الالباب وتقلصت الجوارح . باي نار سيحرقه امير المؤمنين ؟ ... وما شك كل من يأوي اليه في ان الارض ستزلزل به . فلا يبقي منه الهادي مدماكاً . وهلعت الخيزران . وألح الرشيد في ان يبرح بغداد هائماً على وجهه في كل سبيل . ومال على أمه يندد بها صارخاً : ألا ماذا اقدمت عليه من شنيع ، وماذا سوف نلقى من قصاص ، ايها المطماع الحقود ؟ ... فالهادي لن يصفح عن الدينثة . وانه لعلى هدى في خروجه عن التؤدة . ابدى من الحلم ما ليس لنا ان نتعالم عن ادراكه ، ولمسه . الا انك قابلت نعماء بالكنود . ما عرفت أمماً تكره ابنها مثلك . فماذا يضيرك ، وهذا القابض على محصر الخلافة ولدك ، من لحمك ودمك ؟ ... أنكافئنه بالموت على ما نفحك به من مكرمة ؟ ... تكررت مكيدة المحو . فعلى رسلك . ابنك الرشيد اضحى كافرأ بالمعالي ، وهذه مقدماتك لرفعه الى السدة . نفسي لا تتوق الى عرش ملطخ بدم شقيقي . سأرحل عن دار يعيش فيها المكر والغل ، والسلام على ولاية العهد ، وعلى الخلافة ، وعلى السلطان والمجد . كره ضميري الاستواء على سرير ساؤدي بدله دم ابن أبي وأمي !

فنهضت اليه بصخبها وهديرها تفرض عليه الخرس . قالت بفيض من تحقير : ما كنت على ضلال وانا ارى فيك فتاة للخدور ، لا سيداً للعروش . فما كان لي ان ابذل لاجلك هذا المجهود ، وانت لست به حقيقاً . الا اني اتخذت بك ، فغفواً . حسبتك رجلاً ، فاذا بك من الرجال على برامة .

ساؤدي حياتي بدل سعي لاعلاء شأنك ، وجزائي منك التنديد والامتهان .  
ألا خسى من هم على شاكلتك من الابناء . فاني لاحسّ بنصلة سيف اخيك  
الباردة تنغلغل في نخري ، وتعاقبي على جهادي في نصرتك ، وانت تنكر  
جميلي . بل توبخني كأني اسأت اليك في كفاحي لتوطيد جاهك ، واقرار  
علاك !

وابت عليه محادثتها . ليست تريد الاصغاء الى ضعيف . واقامت تنتظر  
ما سيكون من الهادي فيها . آیاخذها بجريرة أمة العزيز ؟ ... وهل باحت  
له أمة العزيز بالسر ، فارشدته الى من حرصها عليه ، واغراها به ؟ ...  
ان تكن فعلت ، فيا للرزينة الملاحقة . على ان الخيزران ، مع وجودها ،  
لم تشأ ان تقف وقفة الخنوع . فالجيرة اصرت على الرسوخ في جبروتها ،  
مع كل ما سيكتسحها من ويلات . اجل ، هي من اباح لامة العزيز يدها  
في الخليفة . فالخيزران ، أمه ، مالت الى تهشبه . وماذاله ان يحاول فيها  
وقد ظهر منها السعي لنسخه ؟ ... أيقتلها ؟ ... حسب ما كان منه ، وقد  
أذلها ورذلها حتى بات من يتردد اليها مهدداً بالبوار . وان يكن ينبغي القضاء  
عليها بلا رأفة ، فهذا نجرها مبسوط للبتار ، فليطعنه الهادي ، وليعيثه  
التاريخ القضاء على أمه ، بعد أبيه

ولكن الخيزران لن تموت ويعيش خصومها . فلن تطأطأ رأسها للمنية  
الا وقد ملأت الجثث المطمئن العربي ، واهتز مسند الخلافة براكبه . فاذا  
دار ، في خلد الهادي ، انها ستنتقل عقواً الى منيتها ، كالتعجة المتهادية الى  
الجزائر ، تعرض عليه عنقها ، فقد ضلّ ظناً ابو جعفر ، وسيعاني كل فادحة  
قبل ان يطوي أمه . وما بالهين قضم الخيزران !

وفوجيء صرح اساس بطارق ليل ملثم ، يلحّ في المثول بين يدي ام  
موسى. فخاف منه من في الصرح على مولاتهم . وسألوه عن اسمه ، فامتنع  
من الاعلان . وجلّ ما افاض به : صديق !

قالوا بارتباك ووهلة : واي صديق انت ، ولسنا نعرفك ، ولا انت  
تجلو لنا خبرك ؟ ... عدّ من حيث اتيت . فالسيدة الاثيرة لا تجيز لمن  
تجهلهم النفاذ الى الصرح !

فاعلن باستعطاف : افسحوا لي اليها ، وساطلعيها على الخفيّ الخطير .  
جئت اردّ عنها الموت ، وسافضح على مسعها نبأ مكيدة قشوش !

فما وثقوا به ، بل قالوا: واي مكيدة تعني ؟ ... هل لك في الافصاح ؟  
فنبه وهو ما يزال يستعطف : ألا ارفقوا بسيدتكم . جثمتك متخفياً كي  
يظل امرى مكتوماً . فلا تلعبوا بدمي ودم مولاتكم . اريد الوقوف في  
حضرة الخيزران لاطلاعها على ما يراد بها من داهية . فهلا سرتم بي اليها ؟ ...  
اني لاعود ادراجي وانتم تعاندون في ان تشقوا لي الى ذات الجلالة ، وعليكم  
تبعة دما !

فهااتهم التبعة . وانسلّ الى السيدة الاثيرة من يقول ببعض لعنمة ،  
والجميع يخشون ازعاج الخيزران: بالباب رجل ملثم يرجو النفاذ الى مولاتي .  
وتعبنا في دعوته الى الجهر باسمه ، فامسك عن الابانة . وهو يقول ان بين  
جناحيه سراً يتوق الى نشره على مسمعك . فهل تأذنين له في الوقوف في  
حضرتك ، للكشف عما بين الضلوع ؟ ... صرفناه عنا ، فألقى علينا تبعة ما  
سيحلّ بك وانت على جهل مما يروم اذاعته فيك !

فاوجست الخيزران سراً ، وهي المترقبة جاثمة تجرّ فيها . وصاحت بوهلة وبشوق

الى الامام بالنيا الشادخ : ولكن ابن الرجل ؟ ... ليقبل اليّ !  
قال الحارس : ألا نخشى مولاتي ان يكون هذا الملمّم من اعوان الهادي  
عليها ، وقد زعم انه يحمل اليها سرّاً كي يؤذيها ؟

فنزلت منها كلمات الحارس منزلة الموامة ، وقالت : وابن انتم عنه ؟ ...  
ان يكن يميل الى الاذى ، فاسفكوا دمه . ليقيم منكم ، وهو عندي ، رهطاً  
بالباب ، حتى اذا ما ناديتكم انجدتوني !

وحبا اليها الرجل الملمّم . وظل في حضرتها محجوب الملامح وقد سجد  
بين يديها بحبيها ، ويقبل الارض . فهتفت به : ألا تدري ما عليك ، ايها  
الرجل ، وانت تمثل في مقام السادة ؟ ... أمط عن وجهك اللثام ، وانتسب .  
فمن انت ، وفي مَ جئت البنا ؟

ففعل طوعاً ، مع شديد رغبته في البقاء مسدول القناع . وتكلم فقال :  
انا من ينزعون الى هذا الصرح ، وان اكن في خدمة مناوئيه . فما يعنص  
به من قدرة يشدني اليه باسباب . انا عطاء بن سكباجة ، عبد مولاتي ،  
ورئيس الطهارة في قصر امير المؤمنين !

فاستدارت عينها فضولاً ورهبة . فما يقود اليها هذا المقيم في خدمة  
الهادي ؟ ... قالت وهي ترغب في شقّ حوائيه ، واختطاف سره في ما  
دون الومضة : ولكن ما تحمل اليّ من سر ، يا عطاء ؟ ... عرفتك .  
أبكون الامر على خطورة فادحة ؟ ... ماذا لديك عن القصر ، هل اباح  
الهادي دمي ؟

فاجاب عطاء ، وقد جنح الى سرد حكايته قبل الايضاح : اقبلت الى  
سيدتي وانا على يقين أنّي اجازف بايامي . فالمجيء الى صرح اساس اضحى

جرمة لا تصان فيها الاعناق . على اني ، بعد فجيعتي بأمة العزيز ، امسبت  
لا ابالي الهول . فمن مات قلبه ماتت فيه كل رجاة ، يا ذات السني ،  
وبات يجد في الغناء الهناء . فان يكن الهادي يستلذ الفتك بي ، فيا ما احبلى  
الموت . كنت على شعف بامة العزيز ، يا مولاتي . والتنكيل بها اثار في  
كبدي الحقد . والحقد جرّني الى حيث ترين . فما اندفعت اليك لسوى  
الانتقام لقلبي العربيان كاماليد الحريف ، والباكي كاوراق الحريف . امير  
المؤمنين ينزع الى ابادة سيدتي . فلتتحرّز من الغواشي !

فجمدت عليه مقتلها يحفوظ . انه ليجلو لها مأرب ابنها فيها . وما  
استكبرت السعي . الا انها خشيت مضاء الفتكة . واستطلعت رئيس الطهاة  
في قصر الهادي ، وهي تكاد تغيب في رعدتها وشحوبها : ألا من ابلك ان  
الحليفة بيّت لي الدواهي ، يا عطاء ؟

واعتكرو صوتها واضطرب . فاجاب ابن سكباجة : سمعته ، وقد قضى  
على أمة العزيز ، وابصرها تتدحرج عند قدميه متلاشية الانفاس ، يغمغم :  
« ليس لي ان أبقى عليها وبين جوانحها للدنايا المرعى الحصيب . إما انا ، وإما  
انت يا اخبت من عرفت من بني الانسان ! » . وهو يعنك . وما تورع ،  
فيا بودي بامة العزيز ، عن اتهاك بتعريض الجارية عليه . فادفعي عنك  
الغائلة ، يا مولاتي . فلن يقينك الهلكة ، وفي صدره نفائات من بطش  
وعدوان ، لا يسلم من طائلتها سوى طوال الاعمار !

فاستولى عليها غشيان من وهلة زاغ بها عن النطق . فهي تنظر الى ابن  
سكباجة بعينين يكاد سوادهما يغور . قال رئيس الطهاة في قصر الحليفة :  
يعزّ علينا جميعاً ان ترزأ ذات الجلالة بما يوجع فيها الكرامة والروح .

فلتفتح عينها على جميع من حولها. ولتركن منهم الى نخبة الاصفياء. والا  
انسل اليها من يسومها الحسف. بل من يزهق فيها الحشاشة. ومن الغدر  
الفاضح ان تصاب مولاتي بجياتها، كرمى بال فئة من الحساد المرجفين!

فلم تبرح الخيزران على سهوها. والنفت ابن سكباجة الى نفسه، وقد  
خشي ان تعاتب أم موسى ابنا الخليفة في ما يبغي فيها، وان تبوح له  
باسم من عالنها السر، فتزل القدم برئيس الطهاة، ويختلسه الموت عقاباً على  
جماح لسانه. فهتف يستجير بالسيدة الاثيرة من فلتة مقولها: ولكن  
لتحرص مولاتي على دمي. فاذا ما عابت على امير المؤمنين ارتيا به بها،  
فلتنكب عن الاشارة الى ابن سكباجة بحسن او بقيح. والا كان نصيبي  
من ولائي لذات الجلالة جثمة في قبر. وهو شر ما يكافأ به الخادم الامين!  
وابتسم ابتسامة الاستعطاف الجزوع. فقالت أم موسى تبت روعه  
الطمأنينة: لا تحش شراً، يا عطاء. فلن ابدو في حضرة الهادي كي ألومه  
على مكايده لي. وهب اقدمت على اللوم، فلن افلت اسمك، كأني لا  
اذكر من اهاب بي الى الحذر. ليس لي الا ان اثني على حفاظك، وارك  
لا تبرح تتحسس يدنا عليك. فانت بمن لا يذهب فيهم العرف. وساعمل  
بنصيح رأيك، واستنقذ أباي من التلف. فالهادي لن ينام بعد كل ما  
لقي من إحراج بحسبني مصدره، وما انا بن تستطيب النيل من ثمرة حشاها.  
ألا فليدرك انه ابني. فكيف تطيعني يميني، بل كيف يبيع لي ذهني نصب  
الاحبولة لاخترام من اطعمته دمي، وسقيته لبني؟ ... ان ابا جعفر لوام.  
بدد عنه الله خدعة سوء الظن!

فقال ابن سكباجة، وقد حنّ الى الانصراف العجلان، مخافة ان يفشو

امره في أرصاد الهادي ، فلا يأمن اجتثاث عنقه : ستجدني ابدأ مولاتي في  
ابلاغها انباء القصر ، وما ينصب فيه من فخاخ للايقاع بالزهرة من ارباب  
الشأو والرأي فينا . فلتعتدني في مصارحتها بكل صحيح الوجه ، صادق  
المخبر . وستقع مني على ما يجلو لها المعلق الحظير !

فرمته بخاتم كان في يمينها . ولم تملك الهمة في النهوض الى خزانها لتفتح  
منها ابن سكباجة بصرة من المال جزاء امانته . وقالت : اليك ببعض ما  
نقوى عليه الساعة في انصافك ، يا عطاء . وسارقب انباءك بشوق . ولك  
من اموالنا ما يقيق العسر ، ويكتب لك الرفاهة . نحن بحاجة في موقفنا  
الصعب الى جماعة من ذوي الولاء . فكن منهم وان نشحّ عليك بالوفر ،  
وما نؤذخه لسوى اكرام الاوفياء ، كما تعلم !

فعاد يقبل بين يديها الارض . قالت مشفقة عليه من ذوي الالسن النامة :  
ألا ارجع الينا ، يا عطاء ، يوم تظفر بما تراه يوسع مهجتنا . وانصرف الآن  
الى موثلك ، وكن في الحرص على نفسك ذلك المعالي اليقظان . نحن  
باطرار اليك في اخلاصك ، ووضاعة خلقك . ففي المعن يُعرف الخلاقان !  
فتراجع عطاء الى الباب وما انفك يقبل الارض بين يدي الخيزران .  
وانساب الى الاروفة وقد تلثم ، وليس لعين ان تنفذ الى سره الكنين .  
ونادت أم موسى طاهية صرح اساس توصيها بنفسها خيراً . قالت : جاءني  
ان يداً تنهد الى طبخ السم في طعامي . غير اني لن اقع في الشرك . فاحذري  
ان تخدعيني ، او ان ينساب الى مخدع الطعام من يجتال عليك ، ويدنس بالسم  
مأكلي . فانك لتلقين حتفك اذا غفلت عن كيد ، او تواطأت عليّ في متلفة .  
ذودي عن مهجتك اذا شئت ان تستبقها !



وبأت لا تذوق طعاماً ، ولا تستسغ شراباً ، الا اذا ألفت منها الى  
كلب يلتهم الطعام ويلغ في الماء . فاذا لم يت ، اكلت وشربت أم موسى بامان  
وجرأة . وكادت تصم عطاء بن سباجة بالكذب . لهفته على أمة العزيز  
نهدت به الى الافتراء ، وما ظهرت في صرح اساس بادرة ختل ونكر . وذات  
صباح ، فيما تحمل الجارية مرجانة الى السيدة الاثيرة طاس اللبن ، وقد ألفت  
ان نجبو به ، في طليعة كل صباح ، الى أم موسى ، لاحظت الحيزران على القينة  
ان البسمة لا تنأى عن حياها . فقالت ربة الصرح ، وهي ترغب ، بالفصول  
المستحكم منها ، في الوقوف على الحافر الى الابتسام : خير ان شاء الله ،  
يا مرجانة !

فاعلنت الجارية ، وهي ما تزال تبتم : مائة الا الخير ، يا مولاتي .  
كدت ازلق وانا اجيئك بطاس اللبن . فتلقيني سيدتي زبيدة تمنع عني السقطلة .  
فشكرت لها اريجيتها بمفرط الحجل . فضحكت وقالت : « لا عليك ، يا مرجانة ،  
السنا هنا لنحول دون الزلة ؟ » . فاهيجني مقالها وما ابرح منه على اغتباط  
بال . ففي مقال سادتنا ، والحمد لله ، نثير من المن والسوى !

وادنت من الحيزران طاس اللبن تقول : لتشرب مولاتي . هذا ابن  
احتلبته لها بنفسي من ضرع الشاة . هناة وعافية !  
فرمت الحيزران طاس اللبن بنظرة ، والجارية بنظرة ، وقالت بدقيق  
فطنة : هلا أختبر هذا اللبن في المرة ، يا مرجانة ؟ ... أتثق بك وانفض  
من نفسي رعشة التظني ؟

فقصت الجارية بريقها على كره منها . والغصة اقلقت خاطر الحيزران ،  
وان تكن مرجانة اتبعنها بعريض بسمة . الا انها بسمة اطلت تنضح بالارتباك

والكلفة . فساور الريب الخيزران . وهتفت تنادي الهرة المدندنة في النافذة .  
فوثبت القطعة الى السيدة الاثيرة تحنك بها في تدليس خبيث . وحامت على  
طاس اللبن تميل الى الولوج فيه . فاباحته لها الخيزران بسمح ، كأن نفسها  
تحدثها بان الويل يكمن في الطاس . واستفاضت الهرة في الولوج في السائل  
بنهمة . فالنهزة مؤاتية . غير ان اللبن لم يلبث ان جمد كالحجر . فبات قطعة  
واحدة ، كأن المعجزة نفخت فيه سرها . والهرة نفسها اطلقت المواء العالي ،  
واصيبت بهزة تلاها جمود ، وارتمت في الارض حطبة يابسة . فسددت الخيزران  
الى الجارية نظرة مسنونة ، نجلاء ، وصرخت بها : يا ابنة الائم ، كيف تجرأت  
على ان تحملي الي الموت ؟ ... أهذا مبلغ وفائك لسيدتك ؟ ... ألا  
اجرعي المنية من حيث شئت ان تسقيني اياها . اجرعها من منبعا ، يا كافرة .  
والله ، ما أبيع لك اطلاق النفس الا وقد اتيت على الطاس كله . بهذا  
القصاص عاقب سيدك الخليفة أمة العزيز ، ولن اختلف عنه في الحكم على  
من يروم اهلاكي . اجرعي ما في هذا الطاس ، ولا تبقي منه على سؤر ،  
وانقذي نفسك من نقمة ادهى !

وشدّت بها الى الارض تجبرها على شرب اللبن المسموم . فضاعت الجارية  
عن نفسها ، وفتحت فيها هولاً . وسقطت بجانب الهرة المصعوقة ، صفراء  
اللون ، بل مكفهرة ، كأنها مصبوغة بالتراب . ولم تطلب الى الخيزران  
الرافة بها ، والكلام جفاها . ولم تجسر على الالتفات اليها ، وليست تقوى  
على احتمال نظرات أم موسى الجائحة . بل هوت على طاس اللبن ترشف ما  
بقي منه ، وقد ولغت فيه كالهرة نفسها . فخشيت ان هي حملته الى شفتيها  
ألا تساعدنا يداها على رفعه الى فيها . وايقنت ان لا منجى لها من الموت ،

والضربة القاضية نارلة بها بلا هوادة . فان لم تمت بالسم ، ماتت بالسيف ،  
بل بضرب النعال ، وكل من في صرح اساس سيثب عليها للتنكيل بها في  
سورة الانتقام الضروس

وظلت تعبّ اللين حتى استصفت الطاس ، والحيزران تحدجها بعينين  
التمع ، فيها الارتفاع ، والظفر القهار . قضت على الشر المندلع اللسان ،  
وسلمت من الغاشية . وضحكت ضحكة طنانة وهي تبصر الجارية مرجانة  
تندلق في الارض ، وتعضها ، على مقربة من الهرة المنطفنة . ونادت زبيدة  
وسائر الجوارى تصيح بهن : ألا اسرعن وابصرن ما يحلّ بالكفرة . استطابت  
مرجانة ان تدسّ لي السم ، ونجاري عصابة الشؤم في احوالها الدنسة ، فأبت  
القدرة الا ان تضرب الغلّ في كبده ضربة هتكت حجاب الفضيحة . لم  
تكن مرجانة في صرح اساس سوى عين الخليفة الهادي علينا . بل لم تكن  
سوى يد لبابة وحسنة ، الوقحتين المتجرئتين على كل مصون . راعهما ان  
يصفو لي ضمير الهادي ، ففصلتا بيني وبينه بما اوغرتا به صدره عليّ . ألا تبا  
للغادرتين ، كم يمور بين حناياهما من وغادة ، وكم تنطويان عليه من سقال .  
ما ذنب هذه الجارية المسكينة ، الفقيرة القلب والنشأة ، كي ترمياني بها ؟...  
أما رحمتا فيها ذل العرق ، ولجاجة العوز ؟... خصاصة اهلها ازجتها الينا .  
أفنزيد في تحقيرها حتى نسوقها الى النار تحترق فيها ، مغلوبة على امرها ؟...  
اني لاشفق عليها مع كل ما حاولت من جهد لتطرحني في مبلغ العدم .  
ساحبها الله ، وانتقم لها بمن طوّح بها !

وانتفضت مرجانة بعنف بعد ركود . وفتحت فمها واطلقت الانين  
والفحيح . فهي كتلة تنزى ألماً ، والسم ينهشها بلا هوادة . ومثلت

الخيزران نفسها في هذا المبكل الفاحم، تعبت به خلجات الموت، لو تناولت اللبن الموبوء. وقطبت هولاً. أريد ابنها ان يدفعها الى هذا المنحدر الزلّاق، فتندرج منه الى مهواة الاضجلال؟ ... ولكنها لم تعفّ عن ابنها في ما رشقها به من داهية. فهي السبّاقفة، وقد كتبت مرتين على الهادي الموت، فنجاً ينصره القدر. وامسكت بذراع مرجانة تهزها وتصبح في اذن الجارية: مرجانة، من حرصك عليّ؟ ... من كلفك ان تسقيني الردى؟

فبالغت الجارية في الارتثاد. وظهر منها انها غائبة عن رشدها، ولم يبقَ بينها وبين الانطفاء غير رعشة. وطفت على شفيتها غمغمة كالحباب في الكأس. فتمت بصوت مخلّج، مبيض، تموج فيه الحسرة والندامة: ما كان لي ان اطبعك في جهالتك، يا حسنة!

وتلاشت مرجانة في خلجة عنيفة ملتاعة، عقبها سكون رهيب. فقالت الخيزران، وقد اشتد بها العطف على هذه البائسة، العائرة الجسد: لندفنها باكرام. ما حاولت ايداعها الا مكرهه. فالحاجة دفعتها البنا. والحاجة قادتها الى انتهاك حرمتنا. بيد انها لقيت جزاءها. غفر لها الله!

وقادى في الخيزران الحذر في طعامها وشرابها. فباتت لا تذوق اكلة، ولا تشرب فطرة، الا وقد سبقها اليهما جميع من في مجلسها. وخلع كبد الهادي ان تدرأ الخيزران عنها شبح المنية، وان تنتقم من مرجانة بما انتقم به من أمة العزيز. فحنق وتعمد الايلام، وكسر الشوكة. فاذاغ في رجاله ألا يسيروا امام الرشيد بحرية، وهي عنوان ولاية العهد. واعلن ان ولي العهد ابنه جعفر، لا اخوه هارون. وأذلّ من شأن اخيه، فدفع اعوانه الى التنقص في المساجد من مكانة الرشيد، والى الامساك عن السلام عليه.

وفي احدى الجولات ، في اسواق بغداد ، مرّ عفواً جعفر بن الهادي وعمه  
الرشيد في زقاق ضيق ، بلغا منه قنطرة من القناطر ، فاستوقف كبير  
الشُرط هارون ، هاتفاً به بلهجة الامر الجياشة بالامتحان : مكانك ، ريثما  
يجوز ولي العهد !

فطأطأ هارون رأسه ، وابان بخشوع المطيع : السمع والطاعة للامير !  
فجزعت الخيزران وتلفت . ما هذه الجوائح المتساقطة عليها دراكاً؟ ...  
ورقبت ساحات الانتقام ، فما التمعت منها ومضة . وسقط اليها من انباء  
القصر ان الهادي مريض ، وانه يناديها ، فهتفت : يا ويلي . أريدني على  
الموت ، ولا ينجل من منادائي كي اعوده ؟ ... ولكن ما يرتجي مني ،  
وكل منا يشتهي للآخر الفناء ؟

الا ان الهادي ألحّ في الدعوة . فهو مريض يخشى على نفسه من عاجل  
المنية ، ويتشهى ان يستأنس بامه ويستغفرها . فقد يكتب له عقوها عنه  
الشفاء . فقالت الخيزران ، بعدما تناهى المتوافدون اليها في الاستعطاف  
والسؤلة : انا أمه ، فلن انجل عليه بالعبادة . الا اني اتقي بالاحتجاب عنه  
كيد لبابة وحسنة ، وهما تملآن البلاط بغطرسهما ومكرهما !

فهبّ من يقطع لها العهد على كونهما لن تجولا في باصرتها . وعاب عليها  
ضميرها الامسك عن الاجابة ، بعد لهيف الاسترحام ، فدلقت الى القصر بهمة  
متراخية ، خشياً . على انها ما ابصرت الهادي بمدوداً في سريره ، اصفر اللون ،  
ذليل العين ، حتى هوت عليه تضمه الى صدرها ، مجلجلة باسي : ولدي ، ولدي !  
فتمّم ببيان عيب ، تشيع فيه الفرحة : أمي ، أمي . أنت ، يا أماء ؟  
وطوّقها بشوق . وبكيا لهفة وحناناً . هل ذهب الداء بالضعف ؟ ...

وما ضمت الحجرة سواهما. واحتلت الجوارى المقبلات في موكب أم موسى جناحاً من القصر. وحرصت الخيزران على ان يتناوبن ، الى قريها ، خدمة الهادي. لمن وحدهن هذا الحق الاثيل. وما تصبر الخيزران على مرأى خيال بغيض عري من ثقتها . قال ابو جعفر : لشدت ما سررتني ان تهرعني الي في الملمة ، يا أمي . أفلا يزال لابنك الهادي في صدرك دبيب من حنين ؟ ... والله ، ما رأيت للام مثلاً في العطف والمودة . فكل حب زائل سوى كلف الامومة بعطابها السماح . ألا ابن اخي الرشيد يعودني ، ويجلغ علي صفحه بما يزيل عن نفسي دواهيها ؟

«اودت المحنة بالاحنة. وقهر الوثام الحصام . فاعلنت أم موسى ، وقد اطمانت الى لهجة اللين الفاشية في منطق ابنها البكر : شقيقك هارون في القنص ، يا ولدي. وقد نفر الى قصر «مقاتل» بصطاد العقبان . على اني سأوفد اليه من يدعوه الى المثول بين يديك . فالرشيد سليم القلب ، نبيل الحس ، يا ابني ، فاذا ما وهبت له علالة من حلم ، فانك لتجد فيه الوفي النصيح ! فعلت من وراء ستار صيحة حادة كالمخلب الرهيف : أتؤمن باخاديع هذه المحتالة ، يا موسى ؟

فعرفت الخيزران الصوت ، وارتجفت كأنه لطمة لسعتها في حشد . هذا صوت لبابة . واصطبغ بالكمد والحجل حيا السيدة الاثيرة . وودت لو اتخسفت بها الارض . أنزل بها الاهانة وهي تنعم بضيافة امير المؤمنين ؟ ... ونهضت تعالني ابنها والسخط يخضضها : ما كنت احسبني اعاني بين يديك المضض ، يا ولدي . فما جثت اليك كي تنشب بي الزرابة اظفارها . ففغوا عني وقد امتثلت لرغبتك ، ووداعاً . سارجع اليك

يوم يسود اكرام الضيوف مقرك . اما وضيقاتك عرضة للغضاضة ، فدعني  
ارحل بسلام . حسي ما لقيت من رحابة !

وابنمت ابتسامه صفراء تنضح بالسخية . وهمت بالانصراف . فسألها  
الهادي ان تبقى . قال بمستدل الضراعة : ألا مغفرة للحقما ، يا امي ، لمن  
ركبت الطيش والعباية . هذه امرأة ملتوية النهية ، سليطة ، فاصفحي عن  
جهلها وقحتها . ان في الخيزران من الصدق والمروءة ، يا لبابة ، ما تخلو  
منه مهجتك . هلا قطعت لسانك ، وانصرفت عنا ، خيب الله وجهك ؟

فتصاعدت من حنجرتها ضحكة كانت اشد وقعاً على الخيزران من المقال  
السفيه ، الشتام . فعادت تنتفض أم موسى . على انها تحامت براح القصر ،  
وعالنت الحليفة العليل بقولها وهي تبيت امرأ ومض في خاطرها كالشرارة :  
لن انأى عنك ، يا حبيب أمك . لتضحك لبابة ومن على ساكنتها . هذا  
ضحك كالبكاء . فيا للضائعات النهى من غيبات قاصرات !

واستقرت بمكانها لا تتزعزع . وانصرفت الى التخفيف عن امير المؤمنين ،  
وهي تتطاير حنقاً وحقداً . قالت وفي كلماتها ارتجاف من كاسح النقبة : ليس  
يخفى عليّ انهن افسدن ما بيننا من صفاء الحنين ، يا موسى . فانهن ليحاذرن  
ان اقيم واياك على وطيد صلة ، مخافة ان ابعدهن عنك ، فلا يسرحن ويمرحن  
على هواهن . ألا خستن . فليس من حائل يصدّ الام عن ابنتها ، مهما اشتدت  
الاحن ، وتأصلت الحزازات . اني لاستشفع لك الى الله من هؤلاء المختلات  
المصانعات . فهن وبالّ عليك ، وما في صدورهن غير الطمع والحسة !

وتظاهرت الخيزران ، على مرأى من الهادي ، بانها تناست الطعنة . على حين  
ما برحت تجيش في بالها السبّة الناهشة . لتضربن لبابة ، ولقيفها ، ضربة ماحية

لا ترسخ بها للشمل قدم في صعيد. وانصرفت الى جوارها في الجناح الموقوف  
عليهن في القصر ، وهي في سهوم . فما كان ليهدأ لها خاطر ، وكل ما فيها  
على غليان . واقامت بين الجوارى اللهيقات عليها ، وقد لسن فيها الغيظ ،  
تقول بكاي الموض: أتدبرين كيف لقي مروان بن الحكم ، الخليفة الاموي  
الرابع ، مصرعه ؟ ... من تجيد منكن رواية الخبر فلتنشرها على مسمعي.  
اراني بحاجة الى التموه عن نفسي بما ألقى !

فانبرت عتبه تقول : كان ذلك في سنة خمس وستين ، يا مولائي. وفيها  
اخذ مروان البيعة لنفسه ، ثم خالد بن يزيد بن معاوية من بعده . الا انه  
لم يلبث ان تزعا من خالد ووقفها على ابنه عبد الملك . فتبرم خالد بالخرج  
على الميثاق . ودخل على مروان يعاتبه ، ويفحش في المثبة . فغضب مروان  
وصاح به : « أتجرؤ على مخاطبتي بهذه القوارص ، يا ابن الرطبة ؟ » .  
ومروان يومذاك زوج فاختة ، أم خالد نفسه ، وامرأة يزيد بن معاوية من  
قبل . فارتد اليها خالد يعيب عليها قبول مروان ، ذلك القصير الاحمر ،  
زوجاً ، وقد وضع منه ، وأذها . وقصّ عليها ما بدر من مروان في الغمز  
من انوثتها . ففارت فاختة غيظاً ، وجلجلت بحقد : « لن يعيبك بعدها ! » .  
وفي الليلة نفسها جاءت بوسادة وضعتها على وجه مروان ، زوجها ، وقعدت  
عليها وجوارها . فما نهضن الا ومروان قد مات !

فهزت الخيزران برأسها كأنها في تهويم . حسبها ما سمعت بما تريد جلاءه .  
بل بما تريد ان تملأ به أذنيها . وفكرت في ما رشقتها به لبابة من سخر ،  
وفي ما لطمتها به من فادح استهانة ، فما كانت لتقوى على التناسي والغفران .  
وابت الا ان تقهر الطماح المستشري في لبابة الشامتة ، الحبيثة المقول .

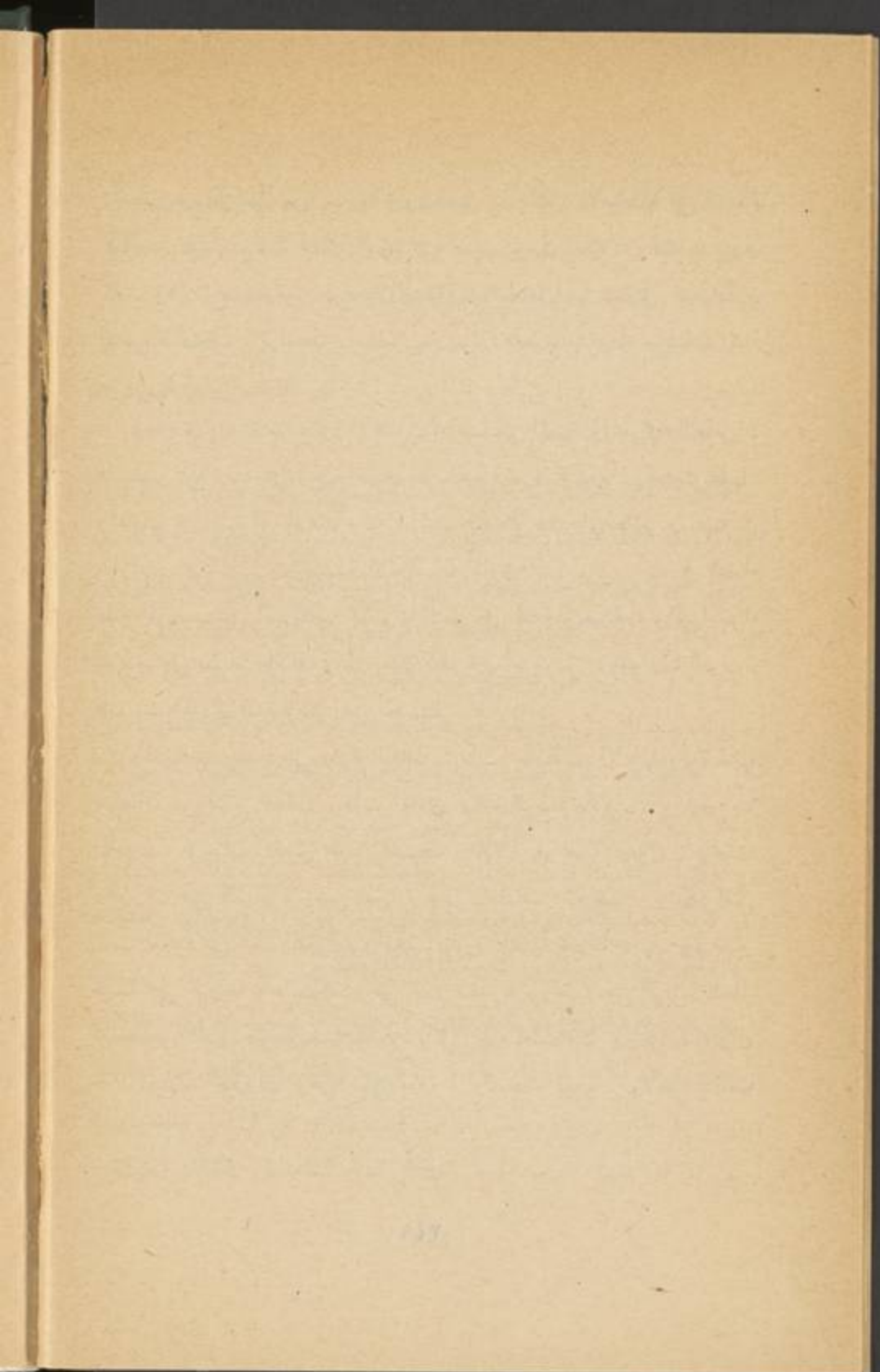


لنتحطم حتى لا يبقى منها جراحة ، وستلمس ما تكلفها الاستطالة على السيدة  
الاثيرة . فهذا موعد تحقيق الرؤيا من قضيب بورق اعلاه ، وقضيب بورق  
كاه . وقادت سرباً من جوارحها الى مرقد الخليفة ابنها ، وفي نفسها غور  
الاحن شادخات ، نواسف . ستضرب رأساً تتدحرج بسقوطه سلسلة لا عدت  
لها من الرؤوس

والهادي ينام معقود الاهداب ، مستسلم اللب الى مريء النعاس .  
فبسطت الخيزران على وجهه احدى الوسائد، بيد لا ترتجف . وقعدت عليها .  
واهابت بجوارحها الى الاقتداء بها ، تشبهاً بفاختة بنت ابي هاشم بن عتبة في  
مروان . وما ذكرت السيدة الاثيرة ان الهادي ابنها . بل رأت في القضاء  
عليه اقرب سبيل الى تحطيم الشموخ الزنيم في لبابة وحسنة ، والى استواء  
الرشيد على مسند الخلافة، والى امتلاكها، هي أم موسى، زمام دنيا العرب .  
فإن يم الهادي فقد عاشت منى خصاب

واستفاقت بغداد على ولولة البلاط . مات الخليفة . الا انها ولولة تلتها  
صيحتان من ماتع الجدل . مات الهادي وقام الرشيد بالامر . ورزق ابنه  
المأمون . فرحتان ، تضيق عنهما البسيطة ، تالألأنا في قبسة عجول . وبحث  
الخيزران عن الساخرة امس منها ، فاذا بها تنتف شعرها ، وتكاد تقتل  
نفسها تفجعاً على العز المفلول، والمجد المهدود . لسانها بجباثته دانها . ولم تصبر  
حسنة على الرزيئة ، فاعتكفت على السم تنقذ به روحها من الويل المتحفز  
للانقراض عليها . فلن ترحمها المقادير ، وكل رجاء افلت منها ، وكل هناء زال  
انتقمت الخيزران وهي تبكي بعين ، وتضحك بعين . ولا امر يأتلف  
الضدان !

تمت



من كتب المؤلف

صرخة الألم  
أشباح القرية  
أطباف من لبنان  
صقر قريش  
فقهة الجزائر  
وامعتصماه  
عفراء  
أم البنين  
انتقام الحيزران

X3  
T2







**Elmer Holmes  
Bobst Library**

**New York  
University**

NYU - BOBST



31142 02889 0484

PJ7842.A68 I5 1954

Intiqam al